

المنهج النبوي للسيرة النبوية

١

الفريفة الجهادفة

و. منبر الغضبة

المجزء الأول

كل من الوفاء

المنهج التربوي للمسيرة النبوية
التربية الجهادية

حقوق الطبع محفوظة
الطبعة السادسة
١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م



مكتبة النظار
الزرقاء - الأردن - ص.ب ٨٤٤ ٩٨٣٦٥٩٠

مدار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - المنصورة ش.ع.م.

الإدارة والمطابع : المنصورة ش الإمام محمد عبده المواجه لكتبة الأراب

ت. ٢٤٧٧١٠ / ٢٥٦٢٢٠ / ٢٥٦٢٣٠

المكتبة : امام كلية الطب ت. ٢٤٧٦٢٢ ص.ب. ٢٢٠٠ تكس DWFA UN 24004



النهج التربوي للسيرة النبوية

التربية الجهادية

الجزء الأول

منير محمد الغضبان



بين يدي البحث

لماذا

المنهج التربوي للسيرة النبوية؟

من المنهج الحركى للسيرة النبوية إلى المنهج التربوي للسيرة النبوية .
لقد كان « الحدث » هو هدف الدراسة فى المنهج الحركى .
أما هنا فـ « الإنسان » هو هدف الدراسة فى المنهج التربوي .
ومهمة هذا البحث فى جميع حلقاته أن يجيب على السؤال المهم :
« كيف ؟ »

كيف تمت تربية الجيل الأول ، حتى غدا خير القرون من جهة ، وغدا المثال المحتذى من جهة ثانية ، فحقق الله تعالى به موعوده ، فى أحسن صورة وأكملها وكأتما صنع كله على عين الله ، يرعاه سيد ولد آدم ، وإمام المربين فى الوجود محمد رسول الله ﷺ .
والجانب الذى يتناوله الكتاب فى أجزائه التى ستصدر تباعاً إن شاء الله هو : (التربية الجهادية) .

ولقد حدثنا الشهيد سيد قطب فى كتابه المعالم عن « جيل قرآنى فريد » ووضع به معلماً من معالم الطريق .

وأضيف إلى عنوان سيد رحمه الله كلمة واحدة فقط ، فأقول : « جيل قرآنى نبوى فريد » .

فلا شك أن الوحى هو الذى كان يربى هذا الجيل ، الوحى بفرعيه القرآن والسنة :

﴿ وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى ﴾ ^(١) .

لكن يجب ألا ننسى أن المشرف على تربية هذا الجيل هو خيرة الله من خلقه ،

(١) النجم ٣ ، ٤ .

وصفوته من رسله وسيد الثقليين الجن والإنس محمد رسول الله صلوات الله عليه .

وإذا كانت عناصر التربية ثلاثة : المربي والمنهج والعنصر المتلقى للتربية ، فلا شك أن المنهج الأعظم في هذا الوجود هو كتاب الله تعالى .

ولاشك أن المربي الأعظم في هذا الوجود هو رسول الله ﷺ .

والعنصر المتلقى للتربية – هو الذى تمت صياغته ، وهو الذى يمكن أن يكرر فى كل جيل ، ولكن ضمن حدود .

فما هى هذه الحدود ؟

المنهج لم يتغير ، كتاب الله .

لكننا فقدنا شخص رسول الله ﷺ ، وفقدنا معه قضية « الصحبة » كذلك .

ومن أجل ذلك لن يصل إلى شأن الصحابة أحد .

« دعوا لى أصحابى ، فوالذى نفسى بيده لو أنفقتم مثل أحد ذهباً ما بلغتم أعمالهم » أحمد .

وصار الصحابة « كلهم عدول » وهم القمة العليا للخيرية فى الأمة .

وبقى سؤال يتكرر : هل هذا الكلام إحباط للعاملين للإسلام ؟ فلن نستطيع أن نعيد ذلك الجيل ؛ لأن شخص رسول الله ﷺ قد غاب من بين أظهرنا .

وأقول : (نعم) و (لا) فى وقت واحد .

نعم لن نستطيع أن نعيد ذلك الجيل ؛ لأننا لا نملك مريباً فى هذا الوجود مثل رسول الله صلوات الله عليه وما ملكت البشرية قبله مثله ، ولن نملك بعده مثله .

وأقول (لا) ، فنحن قادرون على أن ننسج على منواله ، قريباً منه ؛ لأننا نملك منهج التربية نفسه ، نملك السيرة النبوية التى نقلت لنا طريقة تربية هذا الجيل ، وكيف أقام بناءه رسول الله صلوات الله عليه .

لكن هذا المنهج مفردات متنوعة وأحداث متناثرة .

والمهمة هنا هو ربط هذه اللبانات المتنوعة والأحجار المتناثرة ؛ لتظهر عملية البناء من

جديد ، ومن أجل هذا كلفنا بالاتباع ، وجاء (المتابعون) بعد الصحابة فى جيلهم الجديد
يننون على الطراز الأول ، ولم تقف هذه التبعية عند جيل واحد إنما هى ماضية إلى يوم
القيامة .

وأود أن أقف قليلاً عند الخيرية فى هذه الأمة :

« خيركم قرنى ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم يكون بعدهم قوم يشهدون
ولا يستشهدون ، ويخونون ولا يؤتمنون ، وينذرون ولا يؤفون ، ويظهر فيهم السمن »
متفق عليه .

فمعنى الحديث يؤكد أن جيلين بعد جيل الصحابة قد تابعوا البناء ، ونسجوا على
المنوال نفسه ، واتبعوا المنهج الأول فى البناء ، وكانوا يمثلون الخيرية الثابتة فى هذه الأمة ،
وهم الذين نطلق عليهم السلف - بهذه الشهادة النبوية لهم .

ويبقى بعدها « التابعون لهم بإحسان إلى يوم الدين » حيث تحاول الأمة فى كل جيل
أن تمثل صورة « التابعة » ، وكلما اقتربت أكثر من المنهج - كلما اقتربت من تحقيق
الهدف ، وكلما ابتعدت عنه كلما انفصلت عن السلف وانفصلت بالتالى عن الأمة التى
كانت « خير أمة أخرجت للناس » .

وحدثنا هنا عن « التربية الجهادية » :

وقد سرت فيه بعيداً عن المنهج المألوف فى الحديث عن الجهاد .

فليس الكتاب بحثاً نظرياً فى الجهاد وأحكامه الفقهية ، وقد تناول هذا البحث العلماء
ووفوه حقه ، أو أشرفوا على ذلك ، ولهم من الله المثوبة .

وليس الكتاب بحثاً متمتعاً فى السيرة يتناول المغازى النبوية .

وأى جديد أضيفه ومئات العلماء والأئمة قبلى كتبوا فى السيرة ، والمغازى ، وتابعوها
تحقيقاً وتمحيصاً ؟

وليس الكتاب بحثاً فى تفسير آيات الجهاد .

إنما الكتاب (محاولة) .

وأقول محاولة لأننى أود أن أشق الطريق - على ضعف باعى وقلة بضاعتى فى

البحث عن الكيفية التي تمت بها هذه التربية الجهادية .

واخترت أن يكون الأساس في البحث آيات القرآن الكريم ، لاتسلسل الأحداث في السيرة النبوية .

وأعيد القارئ إلى الكلمة الأولى في المقدمة فالهدف هنا هو « الإنسان » وليس الحدث نفسه .

ولماذا فعلت ذلك ؟

والجواب واضح .

فالله تعالى شأنه هو الذى كان ينزل الآيات بعد كل حدث أو معركة ، فيعرض فيها ما يحتاجه الجيل المسلم من الأحداث لتتم التربية على ضوئه .

فالمشيئة الربانية في تربية هذا الجيل هي التي اقتضت عرض بعض الأحداث ، وإخفاء بعضها ، وإلقاء الضوء على بعضها ، وإغفال بعضها الآخر ، وألا يتم التركيز على القلوب في الداخل وكيف تكون وهي تصنع الحدث أو تتفاعل معه ، وأين أخطأت وأين أصابت وأين سمت وأين أخفقت وأين التوت .

« ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب » .

و (الحدث) هنا خادم وشاهد ، وليس هدفاً في حد ذاته .

فقد يعرض القرآن الكريم المعركة كاملة في آية ، وقد يعرض حدثاً جزئياً ولم تنتبه له السيرة ومؤرخوها في بضع آيات أو بضع عشرة آية ، وقد يتبدى من آخر حدث في المعركة ، أو من غير حدث ، أو من حدث مضى عليه زمن طويل ؛ ليتحقق الهدف التربوي المطلوب .

وما الذى أفعله إذن . مع هذا العرض القرآني ؟

الذى أفعله أن أغذى الآية بالحدث من السيرة ، وأحشد كل ما يساعد على فهم النص أو فقهه بتعبير أدق ، وأتابع أثر هذه الآيات في هذا الجيل ، وكيف انتقل بها من مرحلة إلى مرحلة ، ومن طور إلى طور ، وأتابع كذلك رسول الله ﷺ : كيف بنى هذه الأمة بهذا القرآن ؟

ولعلى بذلك أضع يدي على المنهج التربوي للسيرة النبوية في نموذج :

« التربية الجهادية »

وأقف أخيراً أمام سؤال كبير هو محل حوار كبير في الحركة الإسلامية :

هل التربية أولاً ثم المواجهة والمعرفة ؟

أم التربية من خلال المواجهة والمعرفة مع الباطل ؟

وكلما دق ناقوس الخطر في الحركة الإسلامية ، ووقعت في محنة ، ونزلت بها نازلة

نعيد السؤال من جديد :

لماذا أخفقنا ؟ .. لأننا لم نترب بعد .

وكيف تكون التربية ؟ بوضع مناهج شاملة للتربية . والعودة إلى الأسرة ، والتثقيف

فيها .

ويؤسفني أن أقول : إن مفهوم التربية قد مسخ إلى عملية التثقيف ، وملء الذهن

بالمعلومات .

ولاشك أن عملية التثقيف جزء من عملية التربية ، لكن التربية (أوسع) و (أعمق)

و (أشمل) .

وللإجابة على هذا السؤال أقول :

إن التربية النبوية لم تكن يوماً واحداً بعيدة عن الواقع أو (الساحة) .

إن التربية عملية مستمرة دائمة ، دائمة ، تتم بالتعامل مع الواقع ، ومواجهته لتغييره ،

حتى يكون الواقع الحق : ﴿ ليحق الحق ويطل الباطل ولو كره المجرمون ﴾ (١) .

فالتربية قبل المواجهة ، وأثناءها وبعدها ، ومسؤولية الحركة الإسلامية أن تفقه الواقع

الذي تتحرك فيه ، وتفقه طاقتها وقدرتها الذاتية على المواجهة بالحوار ، أو الحديد ذي

البأس الشديد ؛ حين تكون قادرة على ذلك ، أو بهما معاً ، لأنه لا انفصال أبداً في التربية

الجهادية بين الدعوة والجهاد .

إن مواجهة العدو لم تكن هدفاً يوماً من الأيام في التربية الجهادية :

(١) الأنفال / ٨ .

« لا تتمنوا لقاء العدو وسلوا الله العافية ، فإذا لقيتموهم فاصبروا ، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف » متفق عليه عن أبي هريرة .

إنما المواجهة وسيلة لهذه القلوب البشرية التى لاتخضع إلا بالقوة ، فيمكنها بذلك أن تلين أو تسمع ، أو وسيلة لتحطيم القوة الطاغية التى تحول بين الناس وبين شريعة الله .
وهذه الخطوط السريعة التى نلمحها فى التربية الجهادية - لن أقف أمامها ، فالكتاب بأجزائه يتحدث عنها وعن غيرها .

وقبل أن أودع القارئ أهمس فى أذنه هذه الكلمة :

هذه الحلقة (التربية الجهادية) كُتِبَ لها أن تكون أولى خلقات ، مع أنها من حيث الترتيب قد تكون ثالثة أو رابعة والذى حدا بى إلى الكتابة فيها هو طبيعة المرحلة التى تحياها الحركة الإسلامية اليوم ، فهى فى قلب الجهاد ، تود أن تكون ذات الشوكة لها لتقيم شريعة الله فى الأرض بعد غياب طويل لها عن معظم الأرض الإسلامية اليوم .

وكان الأصل أن يكون منهج هذه التربية واضحاً قبل البدء بالمواجهة مع الطاغوت ، لأنها حين تتحرك فى غياب المنهج قد تنجح ولكنها كذلك قد تنزل ، وقد تنحرف ، وقد تسقط ، وتعيد التجربة من جديد ، وقد تنزع منها الراية لقوم آخرين مؤهلين لحملها :

﴿ وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ﴾ (١) .

أرجو الله العلى القدير أن أكون قد أدت جزءاً من الأمانة الثقيلة ، وأنا أكتب فى موضوع ضخم ، تنزل فيه الأقلام ، وتكبو فيه الأفكار ، وإن انتهيت مما كتبت ، وقد أضفت جديداً فى البناء التربوى للأمة ، وأصبح بين يدى العاملين للإسلام (منهج التربية الجهادية) واضحاً بخطوطه العريضة ، ومعالمه الكبيرة ، فحسبى ذلك مما أرجو ادخار أجره عند الله ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

﴿ إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله ، عليه توكلت وإليه أنيب ﴾ (٢) .

وآخر دعوانا ﴿ أن الحمد لله رب العالمين ﴾ (٣) .

كف اليد

الجهاد ماض إلى يوم القيامة :

ولكن كيف كان الجهاد قبل أن يشرع الأمر بقتال الكفار ؟

كان الجهاد ينصب على كف اليد عن الجهاد :

﴿ ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية . وقالوا ربنا لم كتببت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب ، قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلاً ﴾ ^(١) . إن هذه المرحلة من الصبر والمصابرة على كيد الكافرين وعدم مواجهتهم ، لم يكن مهمتها أن تقتل الحمية لله ورسوله كما يتبادر للذهن ، بل كان مهمتها أن تضبط هذه الحمية ، وتوجهها الوجهة الصحيحة ، ولذلك كان مما أثنى الله تعالى به على المؤمنين أن قال عنهم في هذه المرحلة المكية : ﴿ والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون . وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين . ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل . إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويغيغون في الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم . ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور ﴾ ^(٢) ، والغرض القرآني لهذه الآيات يؤكد أن المؤمنين لا يقبلون البغي عليهم ، وينتصرون ممن بغى عليهم ، ويباح لهم دفع الظلم عنهم . لكن العزيمة والقوة في هذه المرحلة هي الصبر والمغفرة .

وقد نفذ المسلمون الأوائل هذه المعاني بدقة ، ولم تحمل هذه المرحلة حوادث اصطدام مع المجتمع الجاهلي إلا حادثتين أريق فيهما دم .

الأولى : مارواه ابن إسحاق بقوله : (وكان أصحاب رسول الله ﷺ إذا صلوا ذهبوا في الشعاب واستخفوا بصلانهم من قومهم . فبينا سعد بن أبي وقاص في نفر من

(١) النساء : ٧٧ .

(٢) الشورى : ٣٩-٤٣ . وسورة الشورى مكية إلا الآيات الأربع ٢٣ و ٢٤ و ٢٥ و ٢٧ : انظر تفسير القرطبي

المجلد الثامن ح ١٧ ص ١ .

أصحاب رسول الله ﷺ في شعب من شعاب مكة إذ ظهر عليهم نفر من المشركين ، وهم يصلون فناكروهم ، وعابوا عليهم ما يصنعون ، حتى قاتلوهم . فضرب سعد بن أبي وقاص يومئذ رجلا من المشركين بلحى بعير فشججه . فكان أول دم أهرق في الإسلام (١) .

. الثانية : وهى التى رافقت إسلام حمزة رضى الله عنه ، كما روى ابن إسحاق فى ذلك : (... فاحتمل حمزة الغضب لما أراد لله به من كرامته ، فخرج يسعى ولم يقف على أحد . معداً لأبى جهل - إذا لقيه - أن يوقع به ، فلما دخل المسجد نظر إليه جالساً فى القوم ، فأقبل نحوه ، حتى إذا قام على رأسه رفع القوس ، فضربه بها ، فشججه شجة منكورة ، ثم قال ، أتشتمه ؟ فأنا على دينه ، أقول ما يقول فرد ذلك على إن استطعت ، فقامت رجال من بنى مخزوم إلى حمزة لينصروا أبا جهل . فقال أبو جهل : دعوا أبا عمارة ، فإنى والله قد سببت ابن أخيه سباً قبيحاً) (٢) .

(ولعل الحادثة الثانية لا يحمل عبئها المجتمع المسلم ، إذ أن حمزة رضى الله عنه أقدم على هذا الأمر وهو لا يزال على جاهليته ، وأعلن إسلامه حمية ، لا قناعة كما تؤكد روايات السيرة) (٣) .

وتذكر السيرة حوادث فردية أخرى دافع فيها المسلمون عن أنفسهم ، أو عن رسول الله ﷺ ، وكان فيها اشتباك بالأيدى ، لكن لم ترق فيها الدماء (٤) .

وهذا كله فيما نرى لا يتعارض مع مرحلة كف اليد . ونقف مع سيد قطب رحمه الله ، وهو يتحدث عن هذه المرحلة :

(.. بهذا الأدب الواجب نتناول حكمة عدم فرض الجهاد فى مكة ، وفرضيته فى المدينة .. نذكر ما يترأى لنا من حكمة وسبب .. على أنه مجرد احتمال ، وندع ما وراءه لله ، لا نفرض على أمره أسباباً وعللاً لا يعلمها إلا هو .. ولم يحددها هو لنا ، ولم يطلعنا عليها بنص صريح إنها أسباب اجتهادية تخطئ وتصيب ، وتنقص وتزيد ، ولا نبغى بها إلا مجرد تدبر أحكام الله وفق ما تظهره لنا الأحداث فى مجرى الزمان :

(١) السير النبوية لابن هشام ج ١ / ٢٧٥ . ط دار الفكر ١٤٠١ - ١٩٨١ م .

(٢) السيرة لابن هشام : ٣١٣ / ١ .

(٣) فى كتاب السير والمغازى لابن إسحاق (ثم رجع حمزة إلى بيته فأثاه الشيطان فقال : أنت سيد قريش اتبعت هذا الصائبى .. انظر ص ١٧٥ تحقيق سهيل زكار . ط دار الفكر .

(٤) وذلك مثل دفاع عمر رضى الله عنه عن نفسه يوم أسلم ودفاع أبى بكر عن رسول الله ﷺ يوم أراد المشركون قتله ، وغير ذلك .

أ - ربما كان ذلك لأن الفترة المكية كانت فترة تربية وإعداد فى بيئة معينة لقوم معينين ، وسط ظروف معينة . ومن أهداف التربية والإعداد فى مثل هذه البيئة بالذات تربية نفس الفرد العربى على الصبر على مالا يصبر عليه عادة من الضيم يقع على شخصه أو على من يلوذون به ؛ ليخلص من شخصه ويتجرد من ذاته ، ولاتعود ذاته ولا من يلوذون به محور الحياة فى نظره ، ودافع الحركة فى حياته .. وتربيته كذلك على ضبط أعصابه ، فلا يندفع لأول مؤثر - كما هى طبيعته - ، ولا يحتاج لأول مهيج ؛ ليتم الاعتدال فى طبيعته وحركته .. وتربيته على أن يتبع منهجاً منظماً ، له قيادة يرجع إليها فى كل أمر من أمور حياته ، ولا يتصرف إلا وفق ماتأمره - مهما يكن مخالفاً لمألوفه وعادته - وقد كان هذا هو حجر الأساس فى إعداد شخصية العربى لإنشاء المجتمع المسلم ، والخاضع لقيادة موجهة ، المترقى والمتحضر غير الهمجى أو القبلى .

ب - وربما كان ذلك أيضاً لأن الدعوة السلمية أشد أثراً ، وأنفذ فى بيئة مثل بيئة قريش ، ذات العنجهية والشرف ، والتي قد يدفعها القتال معها - فى مثل هذه الفترة - إلى زيادة العناد ، وإلى نشأة ثارات دموية جديدة كثارات العرب المعروفة التى أثارت حرب داحس والغبراء ، وحرب البسوس - أعواماً طويلة ، تقاتل فيها قبائل برمتها - وتكون هذه الثارات الجديدة مرتبطة فى أذهانهم وذكرياتهم بالإسلام ، فلا تهدأ بعد ذلك أبداً . ويتحول الإسلام من دعوة إلى ثارات وذحول تنسى معها فكرته الأساسية ، وهو فى مبدئه ، فلا تذكر أبداً !

ج - وربما كان ذلك أيضاً ، اجتناباً لإنشاء معركة ومقتلة فى داخل كل بيت . فلم تكن هناك سلطة نظامية عامة ، هى التى تعذب المؤمنين وتفتنهم ، وإنما كان ذلك موكولاً إلى أولياء كل فرد ، يعذبونه هم ، ويفتنونه ويؤدّبونه : ومعنى الإذن بالقتال - فى مثل هذه البيئة أن تقع معركة ومقتلة فى كل بيت .. ثم يقال : هذا هو الإسلام ! ولقد قيلت حتى والإسلام يأمر بالكف عن القتال ! فقد كانت دعاية قريش فى الموسم ، فى أوساط العرب القادمين للحج والتجارة : إن محمداً يفرق بين الوالد والمولى بقتل المولى فى كل بيت وفى كل محلة ؟ فكيف لو كان كذلك يأمر الولد بقتل الوالد والمولى بقتل المولى فى كل بيت وفى كل محلة ؟

د - وربما كان ذلك أيضاً لما يعلمه الله من أن كثيرين من المعاندين الذين يفتنون أوائل المسلمين عن دينهم ، ويعذبونهم ، ويؤذّنونهم ، هم بأنفسهم سيكونون من جند الإسلام المخلصين ، بل من قادته . ألم يكن عمر بن الخطاب من بين هؤلاء ؟ ! .

هـ - وربما كان ذلك أيضاً لأن النخوة العربية فى بيئة قبلية ، من عاداتها أن تتور للمظلوم ، الذى يحتمل الأذى . ولا يتراجع ، وبخاصة إذا كان الأذى واقعاً على كرام الناس فيهم . وقد وقعت ظواهر كثيرة تثبت صحة هذه النظرة - فى هذه البيئة فابن الدغنة لم يرض أن يترك أبابكر - وهو رجل كريم - يهاجر ويخرج من مكة ، ورأى فى ذلك عاراً على العرب وعرض عليه جواره وحمايته - وآخر هذه الظواهر نقض صحيفة الحصار لبني هاشم ، فى شعب أبى طالب . بعدما طال عليهم الجوع واشتدت المحنة .. بينما فى بيئة أخرى من البيئات ذات الحضارة القديمة التى مردت على الذل . قد يكون السكوت عن الأذى مدعاة للهزاء والسخرية والاحتقار من البيئة ، وتعظيم المؤذى الظالم المعتدى ! .

و - وربما كان ذلك أيضاً لقلة عدد المسلمين حينذاك وانحصارهم فى مكة حيث لم تبلغ الدعوة إلى بقية الجزيرة أو بلغت أخبارها متناثرة : حيث كانت القبائل تقف على الحياذ من معركة داخلية بين قريش وبعض أبنائها ، حتى ترى ماذا يكون مصير الموقف ، ففى مثل هذه الحالة قد تنتهى المعركة المحدودة ، إلى قتل المجموعة المسلمة القليلة - حتى ولو قتلوا هم أضعاف من سيقتل منهم ، ويبقى الشرك وتمحى الجماعة المسلمة ولا يبقى فى الأرض للإسلام نظام ولا يوجد له كيان واقعى .. وهو دين جاء ليكون منهج حياة ، وليكون نظاماً واقعياً عملياً للحياة .

ز - فى الوقت ذاته لم يكن هناك ضرورة قاهرة ملحة لتجاوز هذه الاعتبارات كلها ، والأمر بالقتال ، ودفع الأذى لأن الأمر الأساسى فى هذه الدعوة كان قائماً - وقتها - ومحققاً هذا الأمر الأساسى هو وجود الدعوة .. وجودها فى شخص الداعية - ﷺ - وشخصه فى حماية سيوف بنى هاشم فلا تمتد إليه يد إلهوى مهددة بالقطع ! والنظام القبلى السائد يجعل كل قبيلة تخشى أن تقع فى حرب مع بنى هاشم ، إذا هى امتدت يدها إلى محمد - ﷺ - فكان شخص الداعية من ثم محمياً حماية كافية .. وكان الداعية يبلغ دعوته - إذن - فى حماية سيوف بنى هاشم ومقتضيات النظام القبلى ، ولا يكتمها ، ولا يخفيها ، ولا يجبرؤ أحد على منعه من إبلاغها وإعلانها ، وفى ندوات قريش فى الكعبة ، ومن فوق جبل الصفا ، وفى اجتماعات عامة .. ولا يجبرؤ أحد على سد فمه ، ولا يجبرؤ أحد على خطفه وسجنه أو قتله ! ولا يجبرؤ أحد أن يفرض عليه كلاماً بعينه يقوله ، يعلن فيه بعض حقيقة دينه ، ويسكت عن بعضها . وحين طلبوا إليه أن يكف عن سب آلهم وعيبيها لم يكف ، وحين طلبوا منه أن يسكت عن عيب دين آبائهم وأجدادهم

وكونهم فى جهنم لم يسكت ، وحين طلبوا منه أن يدهن فيدهنوا - أى أن يجاملهم فيجاملوه - بأن يتبع بعض تقاليدهم ليتبعوا هم بعض عبادته ، لم يدهن .. وعلى الجملة كان للدعوة وجودها الكامل فى شخص رسول الله - ﷺ - محروساً بسيوف بنى هاشم - وفى إبلاغه لدعوة ربه كاملة فى كل مكان وفى كل صورة - ومن ثم لم تكن هناك الضرورة القاهرة لاستعجال المعركة - والتغاضى عن كل هذه الاعتبارات البيئية التى هى فى مجموعها - مساندة للدعوة ومساعدة فى مثل هذه البيئة (١) .

ونتساءل عن هذه المرحلة فى حياتنا المعاصرة ما مدى الوجود العملى لها ؟ أم أنها انتهت إلى غير رجعة ؟ ! هل يأتى على المسلمين يوم يؤمرون فيه بكف اليد بعد الأحكام النهائية للجهاد والتى تنص على قتال المشركين كافة حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ؟ ! هل تلتقى مرحلة كف اليد عن قتال المشركين . والجهاد فرض عين على المسلمين ، وقد انتهكت حرماهم ، واحتلت أوطانهم ، وسبيت ذراريهم ، وحاربوا فى دينهم ، وقتلوا فيه .

وكيف يتم التوفيق بين هاتين القضيتين : بين منع القتال وفرضية القتال على كل مسلم ؟ لابد أولاً من التأكيد على أن الأحكام النهائية للإسلام . لا يملك أحد فى الأرض أن يدعى تعديلاً أو تغييراً فيها ويبقى له من إسلامه شيء بعد قول الله عز وجل ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً ﴾ (٢) ، وقد انقطع الوحى والتحق رسول الله ﷺ - خاتم النبيين - بالرفيق الأعلى ، ومن أجل هذا حكم فقهاء المسلمين قاطبة على القاديانيين بالكفر ، لأنهم ادعوا نسخ الجهاد على يد رجل مزعوم مدع للنبوّة .

لكننا نستدرك الأمر فنقول إن أحكام الجهاد مرتبطة بوضع المسلمين قوة وضعفاً ، وعلى ضوء ذلك فقد تمر عليهم أوضاع الجهاد ومراحلها كاملة ، حسب الأوضاع التى يعيشونها ، والقوة التى يملكونها ، يقول الإمام ابن كثير رحمه الله فى تفسير قول الله عز وجل : ﴿ فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم ﴾ (ثم قال جل وعلا لعباده المؤمنين : ﴿ فلا تهنوا ﴾ أى لاتضعفوا عن الأعداء ،

(١) فى ظلال القرآن لسيد قطب ٧١٥ . ط دار الشروق .

(٢) المائدة . ٤ .

﴿وتدعوا إلى السلم﴾ أى المهادنة والمسالمة ووضع القتال بينكم وبين الكفار فى حال قوتكم ، ولهذا قال ﴿ وأنتم الأعلون ﴾ أى فى حال علوكم على عدوكم ، فأما إذا كان الكفار فيهم قوة وكثرة بالنسبة إلى جميع المسلمين ، ورأى الإمام فى المعاهدة والمهادنة مصلحة - فله أن يفعل ذلك كما فعل رسول الله ﷺ حين صده كفار قريش عن مكة ، ودعوه إلى الصلح ووضع الحرب بينهم وبينه عشر سنين ، فأجابهم ﷺ إلى ذلك .. (١) .

والجهاد فى الأصل لا يكون إلا مع الإمام . وفى عقيدة أهل السنة والجماعة (والحج والجهاد ماضيان مع أولى الأمر من المسلمين ، برهم وفاجرهم إلى قيام الساعة لا يطلها شيء ولا ينقضها) (٢) .

(وقوله : مع أولى الأمر برهم وفاجرهم - لأن الحج والجهاد فرضان يتعلقان بالسفر ، فلا بد من سائس يسوس فيهما ، ويقاوم فيهما العدو . وهذا المعنى كما يحصل بالإمام البر يحصل بالإمام الفاجر) (٣) .

ومما اتفق عليه أئمة المذاهب الأربعة فى شروط الإمام : (ثامناً أن يكون شجاعاً ، وهى قوة القلب عند البأس ، لينفرد بنفسه ، ويدبر الجيوش ، ويقهر الأعداء ؛ ويفتح الحصون ، ويقف أمام أحداث الأيام ، وما يحدث له من فتن ، وما يجد فى عهده من أزمات) (٤) .

(١) مختصر تفسير ابن كثير للصابونى : المجلد الثالث / ٣٣٨ (محمد / ٣٥) .

(٢ ، ٣) شرح الطحاوية فى العقيدة السلفية للعلامة ابن أبى العز .

(٤) الفقه على المذاهب الأربعة ج ٥ / ٤١٧ .

الإذن بالقتال

قال ابن إسحاق :

(وكان في بيعة الحرب - حين أذن الله لرسوله في القتال شروط سوى شرطه عليهم في العقبة الأولى : كانت الأولى على بيعة النساء . وذلك أن الله تعالى لم يكن أذن لرسول الله ﷺ في الحرب ، فلما أذن له ، وبايعهم رسول الله ﷺ في العقبة الآخرة على حرب الأحمر والأسود ، أخذ لنفسه واشترط على القوم لربه وجعل لهم على الوفاء بذلك الجنة ^(١) .

وهكذا يعتبر ابن إسحاق رحمه الله أن بيعة العقبة الثانية هي بيعة الحرب وأنها لم تتم إلا بإذن الله تعالى لرسوله ﷺ في قتال المشركين حيث يقول كذلك :

(وكان رسول الله ﷺ قبل بيعة العقبة لم يؤذن له في الحرب ولم تحلل له الدماء . إنما يؤمر بالدعاء إلى الله - والصبر على الأذى - والصفح عن الجاهل ، وكانت قريش قد اضطهدت من اتبعه من قومه من المهاجرين ؛ حتى فتنوهم عن دينهم ، ونفوهم عن بلادهم ، فهم بين مفتون في دينه ، وبين معذب في أيديهم ، وبين هارب في البلاد فراراً ، منهم من بأرض الحبشة ، ومنهم من بالمدينة ، وفي كل وجه فلما عنت قريش على الله عز وجل ، وردوا عليه ما أرادهم به من الكرامة ، وكذبوا نبيه ﷺ ، وعذبوا ، ونفوا من عبده ووحده ، وصدق نبيه واعتصم بدينه - أذن الله عز وجل لرسوله ﷺ في القتال والامتناع والانتصار ممن ظلمهم وبغى عليهم ؛ فكانت أول آية أنزلت في إذنه له في الحرب ، وإحلاله الدماء ، والقتال لمن بغى عليهم - فيما بلغني عن عروة بن الزبير وغيره من العلماء . قول الله تبارك وتعالى ﴿ أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ، ولينصرن الله من ينصره ، إن الله لقوى عزيز ، الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة ، وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، ولله عاقبة الأمور ﴾ ^(٢) .

(١) السيرة النبوية لابن هشام : ٦٣/٢ .

(٢) الحج : ٣٩ - ٤١ .

أى إنما أحللت لهم القتال ؛ لأنهم ظلموا ، ولم يكن لهم ذنب فيما بينهم وبين الناس إلا أن يعبدوا الله ، وأنهم إذا ظهروا أقاموا الصلاة وأتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، يعنى النبى ﷺ وأصحابه رضى الله عنهم أجمعين (١) .

(قال ابن عباس : هذه أول آية نزلت فى الجهاد ، قال المفسرون : هم أصحاب رسول الله ﷺ ، كان مشركو مكة يؤذونهم أذى شديداً ، وكانوا يأتون رسول الله ﷺ بين مضروب ومشجوج ، ويتظلمون إليه فيقول لهم : اصبروا فإننى لم أؤمر بقتالهم ؛ حتى هاجروا فأنزلت هذه الآية ، وهى أول آية أذن فيها بالقتال بعد مانهى عنه فى أكثر من سبعين آية) (٢) .

ولعل الخلاف الواضح هو فى وقت نزول هذه الآية ، هل هى قبل بيعة العقبة الثانية ؟ وأن بيعة العقبة الثانية تمت على ضوء هذا الإذن ، أم أنها نزلت بعد هجرة الرسول ﷺ ؟ ! أما الرأى الثالث فيقول : إن الآيات المذكورة قد نزلت عند الهجرة (قال الضحاك : استأذن أصحاب رسول الله ﷺ فى قتال الكفار إذ آذوهم بمكة فأنزل الله : ﴿ إِنْ اللَّه لَا يَحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴾ (٣) فلما هاجر نزلت : ﴿ أَذْنُ لِلَّذِينَ يِقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا ﴾ وهذا ناسخ لكل ما فى القرآن من إعراض وترك وصفح ، وهى أول آية نزلت فى القتال . قال ابن عباس وابن جبير : نزلت عند هجرة رسول الله ﷺ إلى المدينة . وروى النسائى والترمذى عن ابن عباس قال : لما أخرج النبى ﷺ من مكة قال أبو بكر : أخرجوا نبيهم ليهلكن ، فأنزل الله عز وجل ﴿ أَذْنُ لِلَّذِينَ يِقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا ﴾ فقال أبو بكر : لقد علمت أن سيكون قتال ، فقال : هذا حديث حسن . وقد روى غير واحد عن سفیان عن الأعمش ، عن مسلم النبطين ، عن سعيد بن جبير مرسل ، وليس فيه عن ابن عباس (٤) .

والرأى الثالث هو الأرجح والله أعلم ، وحين نستعيد الفترة المذكورة نرى أنه لا تناقض بين الآراء الثلاثة ؛ إذ أن بين بيعة العقبة الثانية ، وبين وصول الرسول ﷺ حوالى ثلاثة أشهر ، وهى الفترة التى صدر فيها أمر رسول الله ﷺ لأصحابه بالهجرة ، وكان آخرهم وصولاً إلى المدينة عليه الصلاة والسلام .

قال ابن إسحاق : (فلما أذن الله تعالى له ﷺ فى الحرب ، وتابعه هذا الحى من

(١) السيرة النبوية لاس هشام . ٧٦ ، ٧٥/٢ (٢) صفة التفسير ٢ : ٢٩٢ .

(٤) تفسير القرطبي : ٦٨ ١٢ ٦ .

(٣) الحج : ٣٨ .

الأنصار على الإسلام ، والنصرة له ولمن اتبعه وآوى إليهم من المسلمين أمر رسول الله ﷺ أصحابه من المهاجرين من قومه ، ومن معه بمكة من المسلمين بالخروج إلى المدينة والهجرة إليها ، واللاحق بإخوانهم من الأنصار ، وقال : « إن الله عز وجل قد جعل لكم إخواناً وداراً تأمنون فيها » وأقام بمكة ينتظر أن يأذن له ربه في الخروج من مكة ، والهجرة إلى المدينة (١) .

ومن أجل هذا كثيراً ما نرى بعض النصوص يجمع بين هذه الآراء الثلاثة :

(قال ابن العربي : قال علمائنا : كان رسول الله ﷺ قبل بيعة العقبة لم يؤذن له في الحرب ، ولم تحل له الدماء ، إنما يؤمر بالدعاء إلى الله والصبر على الأذى ، والصفح عن الجاهل مدة عشرة أعوام ؛ لإقامة حجة الله تعالى عليهم ، ووفاء بوعده الذي امتن به بفضلته في قوله : ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾ (٢) فاستمر الناس في الطغيان . وما استدلووا بواضح البرهان . وكانت قريش قد اضطهدت من اتبعه من قومه من المهاجرين ، حتى فتنهم عن دينهم ، ونفوهم عن بلادهم ، فمنهم من فر إلى أرض الحبشة ، ومنهم من خرج إلى المدينة ، ومنهم من صبر على الأذى ، فلما عنت قريش على الله تعالى ، وردوا أمره وكذبوا نبيه عليه السلام ، وعذبوا من آمن به ووحده وعبد ، وصدق نبيه عليه السلام ، واعتصم بدينه - أذن الله لرسوله بالقتال والامتناع والانتصار ممن ظلمهم ، وأنزل : ﴿ أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ﴾ إلى قوله ﴿ الأمور ﴾ (٣) .

ومن البدهى أن يأتي الإذن بالقتال بعد الأمر بكف اليد ، فهذا مرتبط بطبيعة حركة هذه الدعوة التي تنطلق من الواقع البشرى ، متدرجة فيه إلى الأفق الأعلى من غير تعسف ولا استعجال ولا ركون . ويوضح هذا المعنى العلامة الشنقيطي بقوله : (وهذه الآية هي أول آية نزلت في الجهاد ، كما قال به جماعات من العلماء ، وليس فيها من أحكام الجهاد إلا مجرد الإذن لهم فيه ، ولكن قد جاءت آيات أخرى دالة على أحكام آخر زائدة على مطلق الإذن ، فهي مبينة على عدم الاقتصار على الإذن كما هو ظاهر هذه الآية . وقد قال جماعة من أهل العلم : إن الله تبارك وتعالى لعظم حكمته في التشريع إذا أراد أن يشرع أمراً شاقاً على النفوس - كان تشريعه له على سبيل التدرج ؛ لأن إلزامه بغتة في وقت واحد من غير تدرج فيه مشقة عظيمة - ومن ذلك الجهاد ، فأذن فيه أولاً من غير إيجاب

(٢) الإسراء : ١٥ .

(١) السيرة النبوية لابن هشام : ٧٦ / ٢ .

(٣) تفسير القرطبي : ٦ / ١٢ / ٦٩ .

بقوله : ﴿ أَذْنٌ لِلَّذِينَ يِقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا ﴾ الآية ثم لما استأنست به نفوسهم بسبب الإذن فيه أوجب عليهم ، فقال : من قاتلهم دون من لم يقاتلهم بقوله : ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يِقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا ﴾ . . الآية وهذا تدرّج من الإذن إلى نوع خاص من الإيجاب ، ثم لما استأنست نفوسهم بإيجابه في الجملة ، أوجبه عليهم إيجاباً عاماً جازماً في آيات من كتابه لقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ، وَخِذُوهُمْ ، وَاحْصِرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ ﴾ وقوله تعالى ﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً ﴾ (١) وقوله : ﴿ تَقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلَمُونَ ﴾ (٢) إلى غير ذلك من الآيات (٣) .

وهذا المعنى أسماه سيد قطب رحمه الله بالواقعية الحركية .

(وَالسَّيِّئَةُ الثَّانِيَةُ فِي مَنِهْجِ هَذَا الدِّينِ : هِيَ الْوَاقِعِيَّةُ الْحَرَكِيَّةُ ، فَهُوَ حَرَكَةٌ ذَاتُ مَرَاكِلَ ، كُلُّ مَرَحَلَةٍ لَهَا وَسَائِلُ مَكَافَأَةٍ لِمَقْتَضِيَّاتِهَا ، وَحَاجَاتُهَا الْوَاقِعِيَّةُ ، وَكُلُّ مَرَحَلَةٍ تَسْلُمُ إِلَى الْمَرَحَلَةِ الَّتِي تَلِيهَا ، فَهُوَ لَا يَقَابِلُ الْوَاقِعَ بِنَظَرِيَّاتٍ مُجَرَّدَةٍ ، كَمَا أَنَّهُ لَا يَقَابِلُ مَرَاكِلَ هَذَا الْوَاقِعِ بِوَسَائِلٍ مُتَجَمِّدَةٍ ، وَالَّذِينَ يَسُوْقُونَ النُّصُوصَ الْقُرْآنِيَّةَ لِلإِسْتِشْهَادِ بِهَا عَلَى مَنِهْجِ هَذَا الدِّينِ فِي الْجِهَادِ ، وَلَا يَرَاعَوْنَ هَذِهِ السَّيِّئَةَ فِيهِ ، وَلَا يَدْرِكُونَ طَبِيعَةَ الْمَرَاكِلِ الَّتِي مَرَّ بِهَا هَذَا الْمَنِهْجُ ، وَعِلَاقَةُ النُّصُوصِ الْمُخْتَلِفَةِ بِكُلِّ مَرَحَلَةٍ مِنْهَا الَّذِينَ يَصْنَعُونَ هَذَا يَخْلُطُونَ خَلْطًا شَدِيدًا ، وَيَلْبَسُونَ مَنِهْجَ هَذَا الدِّينِ لِبَسًا مُضِلًّا ، وَيَحْمِلُونَ النُّصُوصَ مَا لَا تَحْتَمِلُهُ مِنَ الْمُبَادِئِ وَالْقَوَاعِدِ النَّهَائِيَّةِ . ذَلِكَ أَنَّهُمْ يَعْتَبِرُونَ كُلَّ نَصٍّ مِنْهَا كَمَا لَوْ كَانَ نَصًّا نَهَائِيًّا ، يُمَثِّلُ الْقَوَاعِدَ النَّهَائِيَّةَ فِي هَذَا الدِّينِ وَيَقُولُونَ : هُمْ مَهْزُومُونَ رُوحِيًّا وَعَقْلِيًّا تَحْتَ ضَغْطِ الْوَاقِعِ الْبَائِسِ لَذَرَارَى الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ لَمْ يَبْقَ لَهُمْ مِنَ الْإِسْلَامِ إِلَّا الْعُنْوَانُ : . . إِنْ الْإِسْلَامُ لَا يَجَاهِدُ إِلَّا لِلدَّفَاعِ ، إِذْ يَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يَسُدُّونَ إِلَى هَذَا الدِّينِ جَمِيعًا بِتَخْلِيلِهِمْ عَنْ مَنِهْجِهِ ، وَهُوَ إِزَالَةُ الطَّوَاغِيتِ كُلِّهَا مِنَ الْأَرْضِ جَمِيعًا ، وَتَعْبِيدُ النَّاسِ لِلَّهِ وَحْدَهُ ، وَإِخْرَاجُهُمْ مِنَ الْعُبُودِيَّةِ لِلْعِبَادَةِ إِلَى الْعُبُودِيَّةِ لِرَبِّ الْعِبَادَةِ لَا يَقْهَرُهُمْ عَلَى اعْتِنَاقِ عَقِيدَتِهِ ، وَلَكِنْ بِالتَّخْلِيلِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ هَذِهِ الْعَقِيدَةِ ، بَعْدَ تَحْطِيمِ الْأَنْظُمَةِ السِّيَاسِيَّةِ الْحَاكِمَةِ ، أَوْ قَهَرِهَا حَتَّى تَدْفَعَ الْجُزْئِيَّةَ ، وَتَعْلَنَ عَنِ اسْتِسْلَامِهَا ، وَالتَّخْلِيلِ بَيْنَ جَمَاهِيرِهَا وَهَذِهِ الْعَقِيدَةِ الَّتِي تَعْتَنِقُهَا أَوَّلًا تَعْتَنِقُهَا بِكَامِلِ حَرِيَّتِهَا ..) (٤) .

وهذا الفهم هو الذى فهمه فى الأصل ابن القيم رحمه الله حيث قال عن القتال :

(١) أضواء البيان فى إيضاح القرآن لمحمد أمين الشنقيطى : ٥ / ٦٩٩ ، ٧٠٠ .

(٢) (٤) فى ظلال القرآن : ٣ / ١٤٣٢ .

(٣) التوبة ٣٦ .

(٢) التوبة : ٥ .

(كان محرماً ثم مآذونا به - ثم مأموراً به لمن بدأهم بالقتال ، ثم مأموراً به لجميع المشركين)
والإشارة إلى هذه النقطة مهمة إذ أن بعض الباحثين المسلمين لم ينتبهوا إلى الفرق بين
الإذن والأمر . واعتبروا جواب رسول الله ﷺ للمسلمين يوم قالوا له :

(والله الذى بعثك بالحق إن شئت لنميلن غداً على أهل منى بأسيا فانا لم نؤمر
بذلك ، ولكن ارفضوا إلى رحالكم) .

اعتبروا هذا الجواب دليلاً على عدم جواز القتال قبل قيام دولة الإسلام . وهذا الفهم
بعيد لأن الجواب يتحدث عن الأمر لا عن الإذن .

ونعتقد أن رسول الله ﷺ حين تعاهد مع الأنصار فى بيعة العقبة لم يتعاهد إلا بإذن من
الله تعالى . وصيغة العهد تنص على الحماية عند الهجوم ، لا على الهجوم ، وعلى الدفاع
عن النفس . وذلك لأن الهجرة كانت بإذن له عليه الصلاة والسلام ولأصحابه وها نحن
أولاء نيسط هذه الصيغة كما وردت فى كتب السيرة :

(قال : فاجتمعنا فى الشعب ، ننتظر رسول الله ﷺ ، حتى جاءنا ومعه العباس بن
عبد المطلب ، وهو يومئذ على دين قومه ، إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ، ويتوثق
له ، فلما جلس كان أول متكلم العباس بن عبد المطلب ، فقال يامعشر الخزرج - وكانت
العرب إنما يسمون هذا الحى من الأنصار الخزرج خزرجها وأوسها - إن محمداً منا
حيث قد علمتم) وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه ، فهو فى عز من قومه ،
ومنعة فى بلده ، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم ، وللحق بكم ، فإن كنتم ترون أنكم
وافون له بما دعوتموه إليه ، ومانعوه ممن خالفه فأنتم وما تحملتم من ذلك ، وإن كنتم ترون
أنكم مسلموه ، وخاذلوه بعد الخروج به إليكم ، فمن الآن فدعوه ، فإنه فى عز ومنعة فى
قومه وبلده . قال : فقلنا له : قد سمعنا ما قلت فتكلم يا رسول الله ، فخذ لنفسك ولربك
ما أحببت .

قال فتكلم رسول الله ﷺ ، فتلا القرآن ، ودعا إلى الله ، ورغب فى الإسلام ثم
قال : أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم ، قال : فأخذ البراء بن
معمر يبيده ثم قال : نعم والذى بعثك بالحق ، لنمنعك مما تمنع منه أزرننا ^(١) فبايعنا يا رسول
الله ، فنحن والله أهل الحروب ، وأهل الحلقة ^(٢) ، ورثناها كابراً عن كابر .

(٣) الحلقة : السلاح .

(١) أزرننا : نساءنا .

قال : فاعترض القول ، والبراء يكلم رسول الله ﷺ أبو الهيثم بن التيهان فقال : يارسول الله ، إن بيننا وبين الرجال حباً^(١) ، وإنا قاطعوها (يعنى اليهود) فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ، ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟ قال : فتبسم رسول ﷺ ثم قال : بل الدم الدم والهدم الهدم^(٢) . أنا منكم وأنتم منى أحارب من حاربتكم وأسالم من سالمتم^(٣) .

(قال ابن إسحاق : وحدثني عاصم بن عمر بن قتادة أن القوم لما اجتمعوا لبيعة رسول الله ﷺ قال العباس بن عباد بن نضلة الأنصارى :

يامعشر الخزرج : هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل ؟ قالوا : نعم ؛ قال : إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس ، فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت^(٤) أموالكم مصيبة وأشرافكم قتل أسلمتموه فمن الآن ، فهو والله إن فعلتم خزي الدنيا والآخرة ، ، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على نهكة الأموال ، وقتل الأشراف ، فخذوه ، فهو والله خير الدنيا والآخرة . قالوا : فإننا نأخذ على مصيبة الأموال ، وقتل الأشراف ، فما لنا بذلك يارسول الله إن نحن وفينا ؟ قال : الجنة . قالوا : أبسط يدك . فبسط يده فبايعوه ..)^(٥) .

(وروى الإمام أحمد عن جابر . قال : قلنا يارسول الله : علام نبايعك ؟ قال : « على السمع والطاعة فى النشاط والكسل ، وعلى النفقة فى العسر واليسر ، وعلى الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، وعلى أن تقوموا فى الله لا تأخذكم فى الله لومة لائم ، وعلى أن تنصرونى إذا قدمت إليكم ، وتمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم ولكم الجنة » .

قال جابر : فقمنا نبايعه ، فأخذ بيده أسعد بن زرارة ، وهو أصغر السبعين . فقال : رويداً يا أهل يثرب ، إنا لم نضرب إليه أكباد الإبل إلا ونحن نعلم أنه رسول الله ، وأن إخراجهم اليوم مفارقة العرب كافة ، وقتل خياركم ، وأن تعضكم السيوف . فإما أن تصبرون على ذلك فخذوه ، وأجركم على الله ، وإما أنتم تخافون من أنفسكم خيفة فذروه ، فهو أعذر لكم عند الله ، فقالوا : يأأسعد أمط عنا يدك ، فوالله لا نذر هذه

(١) حباً : عهداً .

(٢) الدم الدم والهدم الهدم : قال السهيلي : قال ابن قتيبة . كانت العرب تقول عند عقد الحلف والحوار دمي دمك وهدمى هدمك . أى ماهدمت من الدماء أهدمه أنا .

(٣) السيرة النبوية لابن هشام : ٥٠/٢ . (٤) نهكت : بقصت . (٥) المصدر نفسه : ٥٥/٢ .

البيعة، ولانستقيلها) (١).

نلاحظ من خلال هذه النصوص النقاط التالية :

أولاً : أن بيعة الحرب كما سماها رواية السيرة ، جاءت بعد بيعة النساء فى العقبة الأولى بعام تقريباً ، وبعد ارتفاع عدد المسلمين فى الوفد إلى مايقارب عدد المهاجرين المقيمين فى مكة خلال هذا العام .

ثانياً : وكما ذكرنا من قبل فلا يمكن لرسول الله ﷺ أن يبايع القوم على حرب الأحمر والأسود من الناس ، وعلى نهكة الأموال ، وقتل الأشراف ، وعلى حمايته كحماية النفوس ، والأبناء والنساء ، إلا بإذن من ربه عز وجل ، بعد أن كان الأمر بكف اليد هو الأصل .

ثالثاً : يظهر واضحاً من خلال النصوص أن رسول الله ﷺ كان يؤكد على الدفاع فقط دون الهجوم ، وهذا الدفاع – كما فى رواية الإمام أحمد – مرتبط بالقدوم إلى المدينة « وعلى أن تنصرونى إذا قدمت إليكم » . فإذا اعتبرنا الإذن من الناحية النظرية قائماً قبل بيعة العقبة الثانية ، فإن التنفيذ والإذن العملى ، إنما كانا بعد وصول رسول الله ﷺ إلى المدينة . وبهذين التصورين يمكن فهم الخلاف فى موعد الإذن بالقتال : هل هو قبل بيعة العقبة أم بعد الهجرة ؟

رابعاً : ويمكن اعتبار هذه المرحلة منذ بيعة العقبة الثانية حتى القدوم إلى المدينة مرحلة إعداد وتهئية ، وتعبئة ، بحيث تتجمع الطاقات كلها هناك ، ويكون لرسول الله ﷺ قاعدة انطلاق ، تحميه فى حالة الهجوم عليه .

خامساً : كما يمكن القول إنه بعد صدور الإذن الربانى بالجهاد والقتال ، أصبح التخطيط البشرى هو الذى يتحكم فى الموضوع ، والجهد البشرى هو الذى يحدد ساعة الصفر .

سادساً : وعلى ضوء هذه الملاحظات نفهم جواب رسول الله ﷺ إلى الأنصار : « لم نؤمر بذلك ولكن ارفضوا إلى رحالكم » بحيث لايعتبر الإذن النظرى أمراً مقررأ على الفور للتنفيذ ؛ إنما هو مرتبط بالإمكانات المتاحة . وليس من الحكمة أن يقف سبعون رجلاً من المسلمين لمواجهة أهل منى بأسيا فهم فى معركة مباشرة ، فليس هذا هو الأمر الربانى بذلك .

(١) روه .م.م. أحمد بإسناد حسن وصححه حاكم بن حبان

سابعاً : ونصوص الميثاق والبيعة تؤكد أن ما عرضه الأنصار رضى الله عنهم من الاستعداد للمواجهة ليس داخلاً ضمن إطار البيعة ، وإنما هو تضحية كريمة منهم عندما شاهدوا الخطر يحيق بهم ، وبرسول الله ﷺ .

ثامناً : بل لم يرض رسول الله ﷺ لهم أن يواجهوا قريشاً وحدها ، وليس أهل منى جميعاً ، وكان الأمر الموجه إليهم بكتمان الأمر عن الجميع ، ومن أجل ذلك كان الانضباط حتى عن إعلان المواجهة الكلامية كما تقول نصوص السيرة : (فلما أصبحنا غدت علينا جلة قريش حتى جاؤونا فى منازلنا . فقالوا : يامعشر الخزرج ، إنه قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا ، وتبايعونه على حربنا . وإنه والله ما من حى من العرب أبغض إلينا من أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم ، قال : فانبعث من هناك من مشركى قومنا يحلفون بالله ما كان من هذا شىء ، وما علمناه . قال : وقد صدقوا لم يعلموه)^(١) .

وعن عبد الله بن أبى بكر رضى الله عنه : (أنهم أتوا عبد الله بن أبى ابن سلول فقالوا له مثل ما قال كعب من القول ، فقال لهم : إن هذا لأمر جسيم ، ما كان قومى ليتفوتوا على بمثل هذا وما علمته كان . قال : فانصرفوا عنه ، ونفر الناس من منى فتنطس^(٢) القوم الخبير فوجدوه قد كان)^(٣) .

تاسعاً : ونقول إن الإذن بالقتال لم ينفذ عملياً على يد الأنصار ، إنما نفذ على يد المهاجرين رضى الله عنهم ، فجميع السرايا التى سبقت بداراً ، والتى كانت عمليات إعلامية أو معنوية – وكلها كانت هجومية – كان أفرادها وقادتها من المهاجرين فقط . ويأتى دور الأنصار فى هذه المرحلة ، فى تحمل كل ما ينشأ عن هذه العمليات ، والاستعداد لمواجهة أى اعتداء قادم على المدينة ، وقد استمرت هذه المرحلة قرابة سنة ونصف^(٤) .

عاشراً : وحتى الغزوات الأربعة التى قادها رسول الله ﷺ قبل بدر ، أكدت الروايات أن اثنتين منها على الأقل كان الوجود فيها للمهاجرين فقط ، وهما غزوة الأبواء

(١، ٣) السيرة النبوية لابن هشام : ٥٧/٢ . (٢) دققوا فى البحث عنه .

(٤) ابتدأت هذه السرايا والغزوات بعد خمسة أشهر من وصول الرسول ﷺ إلى المدينة . واستمرت قرابة عام كامل من رمضان سنة ١/ للهجرة إلى رجب سنة ٢/ للهجرة . وكان فيها أربع غزوات قادها رسول الله ﷺ وهى الأبواء وبواط وسفوان وذى العشرة . وأربع سرايا كان على رأسها حمزة بن عبد المطلب ، وعبيدة بن الحارث ، وسعد بن أبى وقاص ، وعبد الله بن جحش .

فى سبعين رجلاً من المهاجرين ، وغزوة ذى العشيرة فى خمسين ومائة أو مائتين من المهاجرين ، والغزوة الثالثة وهى سفوان . كانت رداً على هجوم قام به كرز بن جابر الفهرى - وهى الغزوة الوحيدة التى كانت رداً على الهجوم - وهذه مع الغزوة الرابعة التى هى غزوة بواط ، لم تنف أو تؤكد وجود الأنصار فيها ، إنما ذكرت مع عدد من أصحابه رضى الله عنهم أجمعين .

بعد هذه الملحوظات نعود ثانية إلى آيات الإذن بالقتال ، فقد أكدت معانى عديدة لابد من الإشارة إليها قبل نهاية هذا الدرس .

١ - الإذن بالقتال إنما جاء مرتبطاً بسبب الظلم الذى وقع على المؤمنين ﴿ الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ﴾ (١) .

وهذا الإذن قائم مادام المؤمنون فى كل صقع يفتنون عن دينهم ، ويخرجون من ديارهم وأرضهم فى سبيل الله (٢) .

٢ - ويقع هذا الإذن أيضاً عندما تتعرض البيوت المعدة لعبادة الله تعالى للخطر .

﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ﴾ (٣) فالتعرض للعابدين الطائعين ولبیوت العبادة هو إذن من الله تعالى للقتال .

٣ - ونصر الله تعالى مرتبط بقتال الكفار من قبل المؤمنين . فهذا القتال هو نصر المؤمنين ، ولن يتأتى نصر الله دون نصر المؤمنين .

يقول سيد رحمه الله فى حديثه عن حكمة نصر الله تعالى المترتب على قتال المؤمنين :

(٣، ١) الحج / ٤٠ .

(٢) يقول القرطبى فى تفسير هذه الآية : (أى لولا ماشرعه الله تعالى للأنبیاء والمؤمنين من قتال الأعداء ، لاستولى أهل الشرك ، وعطلوا مابنته أرباب الديانات من مواضع العبادات ، ولكنه دفع بأن أوجب القتال ؛ ليتفرغ أهل الدين للعبادة ، فالجهاد أمر متقدم فى الأمم ، وبه صلحت الشرائع ، واجتمعت المنعبدات ، فكأنه قال : أذن فى القتال ، فليقاتل المؤمنون . ثم قوى هذا الأمر فى القتال بقوله : (ولولا دفع الله الناس) أى لولا القتال والجهاد لتغلب على الحق فى كل أمة ، فمن استبشع من النصارى والصابيين الجهاد فهو مناقض لمذهبه إذ لولا القتال لما بقى الدين الذى يذب عنه ، وأيضاً هذه المواضع التى اتخذت قبل تحريفهم وتبديلهم ، وقبل نسخ تلك المثل بالإسلام ، إنما ذكرت لهذا المعنى ، أى لولا هذا الدفع لهدم فى زمن موسى الكنائس ، وفى زمن عيسى الصوامع والبيع ، وفى زمن محمد عليه الصلاة والسلام المساجد .)

(والجواب أن حكمة الله في هذا هي العليا ، وأن لله الحجة البالغة ، والذي ندركه نحن البشر من تلك الحكمة ويظهر لعقولنا ومداركنا من تجاربنا ومعارفنا أن الله سبحانه لم يرد أن يكون حملة دعوته وحماتها من (الثنابلة) الكسالى ، الذين يجلسون فى استرخاء ، ثم يتنزل عليهم نصره سهلاً هيناً بلا عناء ، لمجرد أنهم يقيمون الصلاة ، ويرتلون القرآن ويتوجهون إلى الله بالدعاء كلما مسهم الأذى ، ووقع عليهم الاعتداء !

نعم إنهم يجب أن يقيموا الصلاة ، وأن يرتلوا القرآن ، وأن يتوجهوا إلى الله بالدعاء فى السراء والضراء ، ولكن هذه العبادة وحدها ، لا تؤهلهم لحمل دعوة الله وحماتها ، إنما هى الزاد الذى يتزودونه للمعركة ، والذخيرة التى يدخرونها للموقعة ، والسلاح الذى يطمثون إليه ، وهم يواجهون الباطل بمثل سلاحه ، ويزيدون عنه سلاح التقوى والإيمان والاتصال بالله تعالى .

لقد شاء الله تعالى أن يجعل دفاعه عن الذين آمنوا - يتم عن طريقهم هم أنفسهم ؛ كى يتم نضجهم هم فى أثناء المعركة ، فالبنية الإنسانية لاتستيقظ كل الطاقات المذخورة فيها كما تستيقظ وهى تواجه الخطر ، وهى تدفع وتدافع ، وهى تستجمع كل قوتها ؛ لتواجه القوة المهاجمة . عندئذ تحفز كل خلية بكل مأودع فيها من استعداد لتؤدى دورها ، ولتساند مع الخلايا الأخرى فى العمليات المشتركة ، ولتؤتى أقصى ماتملكه ، وتبدل آخر ماتنطوى عليه ، وتصل إلى أكمل ماهو مقدور لها ، وماهى مهياة له من الكمال .

والأمة التى تقوم على دعوة الله فى حاجة إلى استيقاظ كل خلاياها . واحتشاد كل قواها . وتوفر كل استعدادها ، وتجمع كل طاقاتها كى يتم نموها ، ويكمل نضجها . وتنتهى بذلك لحمل الأمانة الضخمة والقيام عليها) . (١)

٤ - وكثيراً مايقف الدعاة والمجاهدون وهم فى منتصف الطريق ، يتسائلون عن نصر الله عز وجل ، وهم قد يخوضون المعارك - ويقدمون التضحيات ، ويبدلون الدماء والأرواح والمهج ، فيستبطلون النصر ، ويقفون أمام قول الله عز وجل : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا .. ﴾ (٢) وقوله تعالى : ﴿ وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ ۖ ﴾ (٣) .

ويجبنا سيد رحمه الله على هذه التساؤلات بقوله : (والنصر قد يبطىء على الذين ظلموا ، وأخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا : ربنا الله ، فيكون هذا الإبطاء لحكمة يريد بها الله تعالى .

قد يبطيء النصر لأن بنية الأمة المسلمة لم تنضج بعد ولم يتم بعد تمامها ، ولم تحشد بعد طاقاتها ، ولم تحفز كل خلية ، وتتجمع لتعرف أقصى المذخور فيها من قوى واستعدادات ، فلو نالت النصر حينئذ ، لفقدته وشيكاً لعدم قدرتها على حمايته طويلاً .

وقد يبطيء النصر ، حتى تبذل الأمة المؤمنة آخر مافي طوقها من قوة ، وآخر ماتملكه من رصيد ، فلا تستبقى عزيزاً ولا غالياً لاتبذله هيناً رخيصاً في سبيل الله .

وقد يبطيء النصر حتى تجرب الأمة المؤمنة آخر قواها ، فتدرك أن هذه القوى وحدها بدون سند من الله لاتكفل النصر ، إنما يتنزل النصر من عند الله عندما تبذل آخر مافي طوقها ، ثم تكل الأمر بعدها إلى الله .

وقد يبطيء النصر لتزيد الأمة المؤمنة صلتها بالله ، وهي تعاني وتألم وتبذل ، ولاتجد لها سنداً إلا الله ، ولاتتوجهاً إلا إليه وحده في الضراء ، وهذه الصلة هي الضمانة الأولى لاستقامتها على النهج بعد النصر عندما يتأذن به الله ، فلا تطفئ ولا تنحرف عن الحق والعدل والخير الذي نصرها به الله .

وقد يبطيء النصر لأن الأمة المؤمنة لم تتجرد بعد في كفاحها وبذلها وتضحياتها لله ولدعوته ، فهي تقاتل لمغنم تحققه ، أو تقاتل حمية لذاتها ، أو تقاتل شجاعة أمام أعدائها ، والله يريد أن يكون الجهاد له وحده وفي سبيله ، بريئاً من المشاعر الأخرى التي تلابسه ، وقد سئل رسول الله ﷺ الرجل يقاتل حمية ، والرجل يقاتل شجاعة ، والرجل يقاتل ليرى . فأبها في سبيل الله فقال : « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله » رواه الشيخان .

كما قد يبطيء النصر لأن في الشر الذي تكافحه الأمة المؤمنة بقية من خير ، يريد الله أن يجرد الشر منها ليمحض خالصاً ، ويذهب وحده هالكا ، لا تتلبس به ذرة من خير تذهب في الغمار .

وقد يبطيء النصر لأن الباطل الذي تحاربه الأمة المؤمنة لم ينكشف زيفه للناس تماماً ، فلو غلبه المؤمنون حينئذ - فقد يجد له أنصاراً من المخدوعين فيه ، لم يقتنعوا بعد بفساده وضرورة زواله ، فتظل له جذور في نفوس الأبرياء الذين لم تنكشف لهم الحقيقة ، فيشاء الله أن يبقى الباطل حتى يتكشف عارياً للناس ، ويذهب غير مأسوف عليه .

وقد يبطيء النصر لأن البيئة لاتصلح بعد لاستقبال الحق والخير والعدل الذي تمثله

الأمة المؤمنة ، فلو انتصرت حينئذ للقيت معارضة من البيئة ، لا يستقر لها معها قرار ، فيظل الصراع قائماً حتى تنهياً النفوس من حوله لاستقبال الحق الظاهر ولاستبقائه .

من أجل هذا كله ، ومن أجل غيره مما يعلمه الله ، قد يبطىء النصر ، فتتضاعف التضحيات ، وتتضاعف الآلام ، مع دفاع الله عن الذين آمنوا ، وتحقيق النصر لهم فى النهاية .

وللنصر تكاليفه وأعباؤه حين يتأذن الله به بعد استيفاء أسبابه وأداء ثمنه ، وتهيؤ الجو حوله لاستقباله واستبقائه : ﴿ ولينصرون الله من ينصره إن الله لقوى عزيز . الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ، ونهوا عن المنكر ، ولله عاقبة الأمور ﴾ ^(١) فوعد الله المؤكد الوثيق المتحقق الذى لا يتخلف هو أن ينصر من ينصره فمن هؤلاء الذين ينصرون الله . فيستحقون نصر الله القوى العزيز الذى لا يهزم من تولاه ^(٢)

٥ - وبعد الحديث عن حكمة إبطاء النصر ، يرد الحديث عن التمكين الذى لا يتم لهذه الأمة إلا بعد أن تستوفى شروطه .

﴿ الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة ، وأمروا بالمعروف ، ونهوا عن المنكر ، ولله عاقبة الأمور ﴾

والربط بين البداية فى الإذن ، وبين الهدف الذى يرمى إليه الجهاد فى النهاية ربط ضرورى ، فليس الجهاد لرفع الأذى وصد العدوان فقط ، وإن كان قد أذن به ابتداءً من أجل ذلك ، ولكن غايته ومآله هو التمكين للمؤمنين فى الأرض ، ليقيموا شرع الله تعالى فيها ، وتكون لهم السيادة والخلافة ، بحيث تتحقق العبودية لله تعالى فى الأرض ، فتقام الشعائر وتطبق الشرائع ، ويكون الأمر بالمعروف كما حددته الشريعة ، والنهى عن المنكر الذى أنكرته الشريعة .

وبذلك لا نجد تعارضاً بين النصوص التى تأذن بالقتال وتأمر به لمن قاتل ، وللمشركين كافة ، فلم يتغير الهدف منذ البداية حتى النهاية إنما اختلفت المراحل .

ففى هذه الآيات التى أذن الله تعالى بها فى القتال (دليل على أنه لا وعد من الله بالنصر إلا مع إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، فالذين

(١) الحج : ٤٠ - ٤١ . (٢) المصدر نفسه ٤ / ٢٤٢٦ ، ٢٤٢٧ .

يمكن الله لهم فى الأرض ، ويجعل الكلمة فيها والسلطان لهم - ومع ذلك لا يقبمون الصلاة ولا يؤتون الزكاة ، ولا يأمرؤن بالمعروف ولا ينهؤن عن المنكر ؛ فليس لهم وعد من الله بالنصر لأنهم ليسوا من حزبه ، ولا من أوليائه الذين وعدهم بالنصر ، بل هم حزب الشيطان وأوليأؤه ، فلو طلبوا النصر من الله بناءً على أنه وعدهم إياه ، فمثلهم كمثل الأجير الذى يمتنع عن عمل ما أجر عليه ، ثم يطلب الأجرة ، ومن هذا شأنه فلا عقل له) . (١)

ويوضح سيد رحمہ اللہ هذه الفكرة المرتبطة بنصر الله تعالى فيقول : (فهو النصر القائم على أسبابه ومقتضياته ، المشروط بتكاليفه وأعبائه ، والأمر بعد ذلك لله يصرفه كيف يشاء ، فيبدل الهزيمة نصراً ، والنصر هزيمة عندما تختل القيم أو تهمل التكاليف .

إنه النصر الذى يؤدى إلى تحقيق المنهج الإلهى فى الحياة ، من انتصار الحق والعدل ، والحرية المتجهة إلى الخير والصلاح ، المنظور فيه إلى هذه الغاية ، التى يتوارى فى ظلها الأشخاص والذوات والمطامع والشهوات .

وهو نصر له سببه ، وله ثمنه ، وله تكاليفه ، وله شروطه ، فلا يعطى لأحد جزافاً أو محاباة ، ولا يبقى لأحد لا يحقق غايته ومقتضاه) . (٢)

والحركة الإسلامية اليوم فى الأرض ، وهى تجاهد الطواغيت فى كل مكان ، وتجد الطريق طويلاً ، والنصر بطيئاً ، عليها أن تعيد حسابها اليوم ، وتراجع موازينها ، وتتعرف على نوااميس الله فى النصر والهزيمة ، لا أن تلقى باللوم على أعداء الله ، وكأنها مبرأة من العيوب والأخطاء . وما أحوجها إلى مراجعة الحساب ، والانكفاء على الذات لتعيد بناءها على ضوء ذلك من جديد .

(١) أضواء البيان / ٥/ ٧٠٤ .

(٢) فى ظلال القرآن / ٤/ ٢٤٢٨ .

قصة طالوت

وكانت التهيئة النفسية للأمر بالقتال ، والنفوس تصبو إلى لقاء العدو ، والانتصار عليه ، وتعبئة الطاقات للمعركة ، فجاء الدرس العميق للأمة المسلمة عن قصة الملأ من بنى إسرائيل ، ويصفى المسلمون إلى هذا الدرس الربانى ، يلقي عليهم من الله تعالى ، ويتحسسون به أنفسهم وواقعهم ، وكأنما الدرس القادم سيكون بهم ، فلا بد من الاعتبار :

﴿ ألم تر إلى الملأ من بنى إسرائيل من بعد موسى ، إذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكاً نقاتل فى سبيل الله ، قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا . قالوا وما لنا ألا نقاتل فى سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا ، فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلاً منهم والله عليم بالظالمين ﴾ (١) .

فالملأ وأولو الرأى وقادة الأمة هم الذين تحركوا لتغيير واقعها ، وكان بنو إسرائيل قد أصابهم الذل والقهر من أعدائهم ، واستبيحت حرمااتهم ، وانتهكت مقدساتهم ، وأهمها التابوت الذى فيه أمجادهم ، بقية مما ترك آل موسى وهارون (ثم انتفضت نفوسهم انتفاضة جديدة ، واستيقظت فى قلوبهم العقيدة ، واشتاقوا القتال فى سبيل الله ، فقالوا لنبي لهم : ابعث لنا ملكاً نقاتل فى سبيل الله) (٢) .

والخطوة الأولى فى مواجهة أى عدو هى إرادة القتال ، والتصميم عليه ، وقد انبعثت هذه الإرادة لدى الملأ ، واستطاعوا أن ينشروا هذه الروح العالية فى صفوف أبناء الأمة ، لتصبح إرادة جماعية ، تمثلت فى هذا الطلب من نبيهم عليه الصلاة والسلام ، أن يختار لهم عن طريق الوحي قائداً يتجمعون حوله .

والخطوة الثانية الأساسية فى القتال هى القائد الذى يجتمع حوله القلوب ، وتلتف حوله النفوس .

وحيث أن النبي بين ظهرانى بنى إسرائيل ، فلا مندوحة من طلب اختيار القائد عن طريقه ، أما لو كان الوحي غير قائم فيهم ، فالأصل أن يختار هؤلاء الملأ قائداً من بينهم .

(٢) مى ظلال القرآن / ١ / ٢٦٢ .

(١) البقرة / ٢٤٦ .

ومما يثير الانتباه حقاً هذا التوجيه القرآنى الواضح ، فلم يتجه الملاً إلى نبيهم ليكون قائداً لهم ، وهو الذى يأتيه الوحى من الله تعالى ، بل طلبوا منه أن يدعو ربه ، ليختار لهم قائداً لمعركتهم ، وجهادهم مع العدو ، وقد أقر لهم نبيهم هذا الأمر ، وأذن الله تعالى به .

وهو درس مهم فى حسن اختيار القائد المناسب للأمة ، فليس أتقى الأمة فقط هو المؤهل للقيادة ، - ولو كان نبياً - بل لابد من مواصفات تجتمع فى القائد ليضطلع بهذه المهمة ، وهى التى ذكرها نبيهم فيما بعد .

ولو ترك الأمر إلى الملاً لأسأوا الاختيار ، يدل على ذلك احتجاجهم على قيادة طالوت رضى الله عنه ، ولتدخلت عوامل أخرى فى الاختيار مثل عامل النسب والثروة ، وأفسدت عليهم الأمر .

وحرى بنا ونحن نقدم على اختيار القائد أن نحسن الاختيار ، فلو كان الخلل فى اختيار القائد لاضطراب أمر القتال كله ، ولا غرو فقد تكون الهزيمة أحياناً من سوء القيادة ، كما قد تكون من خذلان القاعدة .

والأمران متلازمان كما نرى فى النص القرآنى .

فإرادة القتال التى بثها زعماء الأمة وأولو الرأى فيها ، فى جماهير الناس قد حققت الشرط الأول ، واتجاه القلوب إلى النبى يختار لهم قائداً فذاً يقودهم للقتال فى سبيل الله حقق الشرط الثانى .

وكان الاختيار الأول لهذين الشرطين .

﴿ قال : هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا ، قالوا وما لنا ألا نقاتل فى سبيل الله ، وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا ﴾ ^(١) .

فلم يكتف نبيهم عليه الصلاة والسلام بطلبهم ، بل أراد أن يتوثق من ادعائهم وحذرهم من خطورة الأمر : أن يكتب عليهم القتال ثم ينكلوا أو يتراجعوا .

فالتخلى عن القتال بعد الأمر به خروج صريح على أمر الله عز وجل ، وبما أن القتال لم يكتب عليهم فهم فى سعة من الأمر .

ويستمع المجتمع الإسلامى الجديد فى المدينة إلى هذه التوجيهات ، فتتوق نفوسهم إلى

(١) البقرة : ٢٤٦ .

القتال أكثر ، وكأما التحذير لهم مباشرة .

﴿ فهل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا ﴾ .

والمسوغ للقتال لدى الفريقين واحد .

﴿ وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا ﴾ .

وبين أيديهم نص الإذن بالقتال :

﴿ الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ﴾ . (١)

فواقعهم الذى أذن لهم بالقتال فيه ، هو هو نفسه الذى حدا بالملأ لطلب القتال الذى كتب عليهم فيما بعد ، والمجاهدون المسلمون اليوم ، وقد أخرجوا من ديارهم وأبنائهم لا مندوحة لهم عن القتال .

وسقطوا فى الاختبار الأول ، وكانت التصفية الأولى .

﴿ فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلا منهم ﴾ . (٢)

وهذا يدفعنا إلى أن لا نغتر كثيرا بروح الحماس العامة والاندفاع الطاغى ، وأن نختبر هذا الحماس ، فقد يسقط عند الصدمة الأولى وهو ما أخبرنا القرآن الكريم به ، أن القليل فقط هم الذين أبدوا الاستعداد العملى للقتال في سبيل الله ، وهم المستثنون من الأمة التى تولت عن الجهاد .

وكان الاختبار الثانى للشرط الثانى ، لشرط القيادة :

﴿ وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا قالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال . قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة فى العلم والجسم والله يؤتى ملكه من يشاء والله واسع عليم ﴾ . (٣)

وسقطوا فى الاختبار الثانى حين لاجؤا فى ملك طالوت ، فهم يريدونه من سبط يهوذا ، ومن أجل هذا هم أحق بالملك منه ، وليس من الملأ أصحاب الجاه والنقوذ والترف والسلطة ، فلم يؤت سعة من المال ، وكان الجواب النبوى لهم : أن ميزته عليكم هى صلاحيته الحقيقية الشخصية للملك ، من سعة علمه ، وبسطة جسمه والله يؤتى ملكه من يشاء .

(٣) البقرة ٢٤٧ .

(٢) البقرة ٢٤٦ .

(١) الحج / ٤٠ .

ولا عجب أن يناقش الناس العاديون حين نجد في تلك الأمة من يعترض على اختيار الله تعالى لهم .

وأى نجاح لهم بعد أن ردوا اختيار الله تعالى لهم ؟

لكن القلة المؤمنة المجاهدة بقيت تحمل لواء الطاعة .

وأمكن جمع البقية الباقية من الصادقين الصابرين ، بعد أن جاءتهم الآية المعجزة دليلاً حاسماً على ملكه . .

﴿ وقال لهم نبيهم إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينه من ربكم وبقيته مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين ﴾ (١) .
ودائماً يرتبط الإيمان بالمعجزة الحسية عند بنى إسرائيل .

وجاءهم التابوت ، وأذعنوا لقيادة طالوت . والتابوت رمز مقدساتهم وباعث انتصاراتهم .

وهكذا تجمعت كل عوامل المواجهة للعدو .

ثمانون ألفاً من الجنود المؤمنين - كما يقول ابن عباس رضى الله عنهما والسدى - والتابوت فيه سكينه من الله تعالى وبقيته مما ترك آل موسى وهارون ، وقيادة طالوت الذى اختاره الله تعالى لهم .

ومع ذلك فلم يكتف طالوت رضى الله عنه بالاختبار الأول والثانى فأقدم على الاختبار الثالث .. وكانت التصفية الثانية فى هذا الاختبار .

﴿ فلما فصل طالوت بالجنود قال إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس منى ، ومن لم يطعمه فإنه منى إلا من اغترف غرفة بيده ، فشربوا منه إلا قليلاً منهم ، فلما جاوزوه هو والذين آمنوا معه قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده ، قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة يا ذن الله والله مع الصابرين ﴾ (٢) .

والآية الكريمة تحدثنا عن الاختبار الثالث مع الاختبار الثانى ، وعن التصفية الثالثة بعد التصفية الثانية .

ولأول وهلة يبدو الاختبار سهلاً . فالأمر صدر من طالوت رضى الله عنه ، أن

(١) البقرة ٢٤٨ . (٢) البقرة ٢٤٩ .

لا يشرب الجيش من النهر الذى يمر عليه ، وحتى لا يكون المحظور شديداً وقاسياً .
والامتحان عسيراً ، كان الاستثناء : ﴿ إلا من اغترف غرفة بيده ﴾ أى عند الضرورة
القصوى ، والظماً الشديد . فشربوا منه إلا قليلاً منهم .

عندما كتب عليهم القتال . تولوا إلا قليلاً منهم ، وكان هذا القليل ثمانين ألفاً ،
وعندما عصوا الأمر وشربوا منه إلا قليلاً منهم ، كان هذا القليل أربعة آلاف وهذا القليل
فيه من لم يطعم الماء ، وفيه من اغترف غرفة بيده .

أما الاختبار الثالث ، والتصفية الثالثة ، فكان عند لقاء جالوت رأوا العدو فى مائة
ألف ، فقالوا : ﴿ لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده ﴾ لكن قليل القليل هذا ، عاد
فتصفي منه أقل من عشره .

فإذا الذين برزوا لجالوت ، والذين ظنوا أنهم ملاقوا الله ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً ،
من أصل كل الأمة .

وأنزله تعالى السكينة عليهم ، ودعوا الله من خالص قلوبهم ﴿ قالوا ربنا أفرغ
علينا صبرا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ﴾ ^(١) وبرزت القيادة الفذة
الصامدة الصابرة المصطفاة ، وقادت معركة غير متكافئة إطلاقاً مع العدو ، فثلاثمائة
يقابلون ما ينوف عن مائة ألف ، والفئة القليلة بهذا العدد كيف تتمكن أن تواجه الفئة
الكثيرة الباغية الطاغية !؟

كان هذا فى تخطيط محكم من القيادة ، وكما تذكر الأخبار فى تفسير هذه
النصوص أن طالوت رضى الله عنه وجه الأنظار إلى قيادة جيش العدو ، إلى جالوت ،
وجعل قتله هدفاً من أعظم الأهداف .

(فخرج جالوت يطلب مبارزاً فكع ^(٢) الناس عنه حتى قال طالوت : من يبرز إليه
ويقتله ، فأنا أزوجه ابنتى وأحكمه فى مالى ، فجاء داود عليه السلام فقال : أنا أبرز إليه
وأقتله ، فازدراه طالوت حين رآه لصغير سنه وقصره فردّه ، وكان داود أزرق قصيراً . ثم
نادى ثانية وثالثة ، فخرج داود فقال له طالوت : هل جربت نفسك بشيء ؟ قال : نعم .
قال : بماذا ؟ قال : وقع ذئب فى غنمى ، فضربته ، ثم أخذت رأسه فقطعته عن جسده ،
قال : الذئب ضعيف ، هل جربت نفسك فى غيره ؟ قال نعم ، دخل الأسد فى غنمى

(٢) كعّ الناس : جبوا وخاموا .

(١) البقرة / ٢٥٠ .

فضربته ثم أخذت بلحييه فشققتهما ؛ أفترى هذا أشد من الأسد ؟ قال : لا وكان عند طالوت درع لا تستوى إلا على من يقتل جالوت ، فأخبره بها وألقاها عليه فاستوت ، فقال طالوت : فاركب فرسي ، وخذ سلاحى ، ففعل ، فلما مشى قليلاً رجع فقال الناس جبن الفتى ، فقال داود : إن الله إن لم يقتله لى ، ويعنى عليه ، لم ينفعنى هذا الفرس ، ولا هذا السلاح . ولكنى أحب أن أقاتله على عادتى ، قال : وكان داود من أرمى الناس بالمقلاع ، فنزل وأخذ مخلاته فتقلدها ، وأخذ مقلاعه ، وخرج إلى جالوت وهو شاك في سلاحه ، على رأسه بيضة فيها ثلاثمائة رطل ، فيما ذكر الماوردى وغيره ، فقال له جالوت : أنت يافتى تخرج إلى ؟ قال : نعم ، قال هكذا كما تخرج إلى الكلب ! قال : نعم ، وأنت أهون ، قال : لأطعمن لحمك اليوم للطير والسباع ، ثم تدانيا ، وقصد جالوت أن يأخذ داود بيده استخفافاً به ، فأدخل داود يده إلى الحجارة فروى أنها التأمت ، فصارت حجراً واحداً ، فأخذه ووضع في المقلاع ، وسمى الله وأداره ورماه ، فأصاب به رأس جالوت فقتله ، وحز رأسه ، وجعله في مخلاته ، واختلط الناس ، وحمل أصحاب طالوت فكانت الهزيمة (١) .

وهذه الأخبار نستأنس بها فى فهم قول الله عز وجل :

﴿ فهزموهم بإذن الله ، وقتل داود جالوت ، وآتاه الله الملك والحكمة ، وعلمه مما يشاء . ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ، ولكن الله ذو فضل على العالمين ﴾ (٢) .

فالنص القرآنى يؤكد هزيمة الكافرين ، وأن داود صلى الله عليه وسلم قتل جالوت ، ولم يكن داود قائداً ولا من الملأ إنما كان راعياً للغنم .

وسرعان ما تستعيد الذاكرة صورة أبى جهل مقابل جالوت ، أبو جهل الذى سماه رسول الله ﷺ : فرعون هذه الأمة ، وصورة عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قاتل أبى جهل ، وهو الذى قال له أبو جهل : لقد ارتقيت مرتقى صعباً ياروىعى الغنم ، حيث قتله واحتز رأسه ، ومضى به إلى رسول الله صلوات الله وسلامه عليه .

هذه الومضة الأولى بين بدر وأصحاب طالوت .

والومضة الثانية من خلال الملك والحكمة التى أعطاها الله تعالى لداود عليه الصلاة

(١) تفسير القرطبي / المجلد الثانى حـ ٢٥٧ / (٢) القصة ٢٥١ .

والسلام ، والحكمة التي أعطاهها الله تعالى لابن مسعود .

فمن حذيفة رضي الله تعالى عنه قال : إن أشبه الناس دلاً^(١) وسمتاً^(٢) وهدياً برسول الله ﷺ لا بنُ أم عبد من حين يخرج من بيته إلى أن يرجع إليه ، لا ندرى ما يصنع بأهله إذا خلا .^(٣)

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « استقرؤوا القرآن من أربعة : من عبد الله بن مسعود ، وسالم مولى أبي حذيفة ، وأبي بن كعب ، ومعاذ بن جبل »^(٤) .

والومضة الثالثة في عدة أهل بدر وعدة أصحاب طالوت .

فمن البراء بن عازب رضي الله عنهما : إن عدة أصحاب بدر على عدة أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر . ولم يجاوز معه إلا مؤمن ، وهم بضعة عشر وثلاثمائة . وفي رواية ثلاثمائة وثلاثة عشر^(٥) .

والومضة الرابعة في انتصار الفئة القليلة على الفئة الكثيرة .

والومضة الخامسة في فضل أهل بدر وفضل أصحاب طالوت ، فبهم دفع الله تعالى فساد الأرض آنذاك .

﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين ﴾ .

ونجد الصورتين متقاربتين كذلك :

آيات الإذن بالقتال قالت :

﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ﴾^(٦) .

وآيات أصحاب طالوت قالت :

﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ﴾^(٧) .

(قال ابن عباس رضي الله عنهما ، ولولا دفع الله العدو بجنود المسلمين لغلب

(٣) رواه البخاري .

(٢) دلاً : قطعة .

(١) سمناً : طريقة .

(٥) رواه البخاري .

(٦) الحج / ٤٠ .

(٧) البقرة .

(٤) متفق عليه .

المشركون ، فقتلوا المؤمنين وخربوا البلاد والمساجد .

وحكى مكى أن أكثر المفسرين على هذا المعنى ، لولا أن الله يدفع بمن يصلى عمّن لا يصلى ، وبمن يتقى عمّن لا يتقى ، لأهلك الناس بذنوبهم ، وكذا ذكر النحاس والثعلبي أيضاً .

قال الثعلبي : وقال سائر المفسرين : ولولا دفاع الله المؤمنين الأبرار عن الفجار ، والكفار لفست الأرض ، أى هلكت ، وذكر حديثاً أن النبى ﷺ قال : « إن الله يدفع العذاب بمن يصلى من أمتي عمّن لا يصلى ، وبمن يزكى عمّن لا يزكى ، وبمن يصوم عمّن لا يصوم ، وبمن يحج عمّن لا يحج ، وبمن يجاهد عمّن لا يجاهد ، ولو اجتمعوا على ترك هذه الأشياء ما أنظرهم الله طرفة عين » ، ثم تلا رسول الله ﷺ : ﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ﴾ (١) .

وانتهت تلاوة قصة طالوت على المؤمنين وقد وضعت بصماتها على نفوسهم فالمؤمنون الصادقون ، يأملون أن يكتب القتال ، وأن يكونوا فى مقدمة الركب كأصحاب طالوت ، والمنافقون وضعاف القلوب يرجفون خوفاً من ذلك .

وندع آيات القرآن القادمة إيضاح هذا التباين ، لنؤكد فى نهاية المطاف على أن قصة طالوت ، ليست درساً للجيل النبوى فقط - بل هى درس للأجيال المسلمة ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، ونخص بالذكر جيلنا اليوم الذى ينتظر بفارغ الصبر تلك القيادة الرائدة ، التى تقوده إلى الجهاد .

(١) القرطبي ٢٦٠/٣/٢ .

فرض القتال

فى شهر واحد نزلت آيات القتال فى الشهر الحرام ، وآيات فرض القتال كما يقول المفسرون .

أما آيات القتال فى الشهر الحرام ، فقد جاءت إجابة على تساؤل كبير ، وخرج عظيم وقع فيه المجتمع المسلم ، فلأول مرة فى تاريخ الأمة يقع قتال فى الشهر الحرام ، ولأول مرة يُقتل فيه مشرك برغم كل البعوث والسرايا التى استمرت عاماً ونصف العام .
وهذه قصة هذا اللقاء: (١)

(.. ولما رجع رسول الله ﷺ من طلب كرز بن جابر - وتعرف تلك الخرجة ببدر الأولى - أقام بالمدينة بقية جمادى الآخرة ورجب ، وبعث فى رجب عبد الله بن جحش ابن رثاب الأسدى ، ومعه ثمانية رجال من المهاجرين ، وهم أبو حذيفة بن عتبة ، وعكاشة ابن محصن ، وعتبة بن غزوان ، وسهيل بن بيضاء الفهرى ، وسعد بن أبى وقاص ، وعامر ابن ربيعة ، وواقد بن عبد الله الليثى ، وخالد بن بكير الليثى ، وكتب لعبد الله بن جحش كتاباً ، وأمره ألا ينظر فيه حتى يسير يومين ثم ينظر فيه - فيمضى لما أمره به ، ولا يستكره أحداً من أصحابه ، وكان أميرهم - ففعل عبد الله بن جحش ما أمره به ، فلما فتح الكتاب وقرأه وجد فيه : إذا نظرت فى كتابى هذا فامض حتى تنزل بين مكة والطائف ، فترصد بها قريشا ، وتعلم لنا من أخبارهم ، فلما قرأ الكتاب قال : سمعاً وطاعة ، ثم أخبر أصحابه بذلك ، وبأنه لا يستكره أحداً منهم ، وأنه ناهض لوجهه بمن أطاعه ، وأنه إن لم يطعه أحد مضى وحده ، فمن أحب الشهادة فلينهض ، ومن كره الموت فليرجع فقالوا : كلنا نرغب فيما نرغب فيه ، وما منا أحد إلا وهو سامع ومطيع لرسول الله ﷺ . ونهضوا معه ، فسلك على الحجاز وشرد لسعد بن أبى وقاص وعتبة بن غزوان جمل كانا يتعقبانه ، فتخلفا فى طلبه ، ونفذ عبد الله بن جحش مع سائرهم لوجهه حتى نزل بنخلة ، فمرت بهم غير

(١) الآية التى سبقت آيات القتال فى الشهر الحرام تؤكد فرصة القتال على المؤمنين وهى قول الله عز وجل . ﴿ كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ... ﴾ انقرة / ٢١٦ وسداية ٢١٧ .

لقريش ، تحمل زيبيا وتجارة فيها عمرو بن الحضرمي ، وعثمان ابن عبد الله بن المغيرة ، وأخوه نوفل بن عبد الله بن المغيرة الخزوميان ، والحكم بن كيسان مولى بنى المغيرة .

فتشاور المسلمون ، وقالوا : نحن في آخر يوم من رجب : الشهر الحرام ، فإن نحن قاتلناهم هتكنا حرمة الشهر الحرام ، وإن تركناهم الليلة دخلوا الحرم ، ثم اتفقوا على لقائهم ، فرمى واقد بن عبد الله التميمي عمرو بن الحضرمي فقتله ، وأسروا عثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان ، وأفلت نوفل بن عبد الله ، ثم قدموا بالغير والأسيرين . وقال لهم عبد الله بن جحش : اعزلوا مما غنمنا الخمس لرسول الله ﷺ ففعلوا ، فكان أول خمس في الإسلام ، ثم نزل القرآن : ﴿ واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسه وللرسول ﴾ ^(١) فأقر الله ورسوله فعل عبد الله بن جحش ، ورضيه وسنه للأمة إلى يوم القيامة ، وهى أول غنيمة غنمت في الإسلام ، وأول أمير ، وعمرو بن الحضرمي أول قتيل ، وأنكر رسول الله ﷺ قتل ابن الحضرمي في الشهر الحرام ، فسقط في أيدي القوم ، فأنزل الله عز وجل ﴿ يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ﴾ إلى قوله ... ﴿ هم فيها خالدون ﴾ ، وقبل رسول الله ﷺ الفداء في الأسيرين . وقال : لا نفديهما حتى يقدم سعد وعتبة ، وإن لم يقدما قتلناهما بهما ، فلما قدما فاداهما ، فأما الحكم فأسلم ، وأقام في المدينة حتى قتل يوم بئر معونة شهيداً . ^(٢)

(وقال ابن إسحاق : فلما قدموا على رسول الله ﷺ المدينة قال : ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام ، فوقف العير والأسيرين ، وأبى أن يأخذ من ذلك شيئاً ، فلما قال ذلك رسول الله ﷺ سقط في أيدي القوم ، وظنوا أنهم قد هلكوا ، وغنمهم إخوانهم من المسلمين فيما صنعوا ، وقالت قريش : قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام وسفكوا فيه الدم ، وأخذوا فيه الأموال ، وأسروا فيه الرجال ، فقال من يرد عليهم من المسلمين ممن كان بمكة : إنما أصابوا ما أصابوا في شعبان ، وقال اليهود تفاعل ^(٣) بذلك على رسول الله ﷺ : عمرو بن الحضرمي قتله واقد بن عبد الله . عمرو عمرت الحرب ، والحضرمي ، حضرت الحرب . وواقد بن عبد الله وقدت الحرب . فجعل الله ذلك عليهم لا لهم ، فلما أكثر الناس في ذلك أنزل الله على رسوله ﷺ : ﴿ يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير ، وصدد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر

(١) الأنفال / ٤١ . (٢) تفسير القرطبي / ٣ / ٢ - ٤١ - ٤٢ .

(٣) تفاعل : تفاعل بهزيمة النسي ﷺ .

عند الله ﴿^(١) أى : إن كنتم قتلتم فى الشهر الحرام ، فقد صدوكم عن سبيل الله مع الكفر به ، وعن المسجد الحرام ، وإخراجكم منه وأنتم أهله أكبر عند الله من قتل من قتلتم منهم ، (والفتنة) أكبر من القتل ، أى : قد كانوا يفتنون المسلم فى دينه حتى يردوه إلى الكفر بعد إيمانه ، فذلك أكبر عند الله من القتل ﴿ ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ﴾ ^(٢) أى : وهم مقيمون على أخبث ذلك وأعظمه ، غير تائبين ولا نازعين .

فلما نزل القرآن بهذا الأمر ، وفرج الله تعالى عن المسلمين ما كانوا فيه من الشفق ^(٣) قبض رسول الله ﷺ العير والأسيرين ..

فلما تجلّى عن عبد الله بن جحش وأصحابه ما كانوا فيه - حين نزل القرآن - طمعوا فى الأجر ، فقالوا : يارسول الله ، أنطمع أن تكون لنا غزوة نعطى فيها أجر المجاهدين ؟ فأنزل الله عز وجل فيهم : ﴿ إن الذين آمنوا ، والذين هاجروا ، وجاهدوا فى سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله ، والله غفور رحيم ﴾ ^(٤) فوضعهم الله عز وجل من ذلك على أعظم الرجاء ، والحديث فى ذلك عن الزهرى ويزيد بن رومان ، عن عروة بن الزبير . ^(٥)

ولنا الملاحظات التالية على ضوء هذه النصوص :

١ - لقد كان الذهاب إلى نخلة بين مكة والطائف أكبر تحد لقريش فى عقر دارها ، فليس الأمر تعرضا للقوافل المارة من المدينة أو قريبا منها فقط بل حتى القوافل التى بين الطائف ومكة عرضة للمهاجمة ، وليس إخراج المسلمين من مكة يعنى راحة بال مكة ، بل يعنى قض مضجعها فى عقر دارها .

٢ - ولصعوبة الأمر وخطورته ، كان التأخير فى متابعة المسير بعد يومين ضروريا لهذه المجموعة .

فهو تدريب فعلى على المهاجمة والمواجهة ، والمجموعة دون العشرة ، والمكان فى جوار مكة ، فهى لا تقل عن عملية حربية داخل مكة ، ومن أجل هذا ترك الأمر على الاختيار لصعوبة تنفيذ المهمة ، أما أمير المجموعة عبد الله رضى الله عنه فقد نفذ الأمر

(٣) الشفق : الخوف .

(٢) البقرة ٢١٧ .

(١) البقرة / ٢١٧ .

(٥) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٤١ ، ٢٤٢ .

(٤) البقرة / ٢١٨ .

بتخيير جنوده ، ثم قال لهم كلمته العظيمة : إنه إن لم يطعه أحد مضى وحده ، فمن أحب الشهادة فلينهض ، ومن كره الموت فليرجع وكانت المجموعة المختارة على المستوى الرفيع ، فلم يتخلف منهم أحد ، وساروا مع أميرهم ، وما كان تخلف سعد وعتبة رضى الله عنهما حين ضل بغيرهما إلا بإذن من أميرهم عبد الله ، ومن أجل هذا رفض رسول الله ﷺ فدية أسيرى مكة إلا بعد عودتهما ، حتى لا تكون قريش قد احتجزتهما .

٣ - وحين وجدت المجموعة نفسها فى حرج ، وهم فى آخر يوم فى الشهر الحرام ، وخشوا أن تفوتهم القافلة ، تشاوروا وانتهى رأيهم إلى المواجهة ، ونفذت العملية بنجاح رائع وجئ بالقافلة مع أسيرين وقتل ثالث .

٤ - وتقدم بهذه الدروس الثلاثة إلى المجاهدين فى الأرض اليوم - وقبل وصولهم إلى مرحلة الرحف والمهاجمة الشاملة مع العدو - ونرجو أن يكون هذا النموذج النبوى حياً بينهم ، يقتدون به ويتأسسون فى عملياتهم ضد الطغاة ، فى حسن الاختيار ، وحسن التنفيذ ، وحسن الطاعة ، وتحقيق الهدف .

٥ - وكما نلاحظ قبل غزوة بدر أن الأهداف للسرايا والبعوث كان معظمها أهدافاً اقتصادية وبعضها أهدافاً سياسية أو استخبارية ، وقطع شريان مكة من التجارة هو خنق لها قبل المواجهة العسكرية .

٦ - وحين تنتقل إلى التعقيب القرآنى على هذه السرية نجده - وإن كان لا يقر القتال فى الأشهر الحرم - يوحى النظر إلى أن حرب الإبادة التى يشنها العدو على المسلمين هى أكبر من أية خطيئة أو مخالفة تذكر ، وكما يقول سيد رحمه الله : (هؤلاء قومك طغاة بغاة معتدون ، لا يقيمون للمقدسات وزناً ، ولا يتخرجون أمام المحرمات ويدوسون كل ماتواضع المجتمع على احترامه من خلق ودين وعقيدة ، يقفون دون الحق فيصدون الناس عنه ، ويفتنون المؤمنين ويؤذونهم أشد الإيذاء ، ويخرجونهم من البلد الحرام الذى يأمن فيه كل حى حتى الهوام ! ثم بعد ذلك كله يتسترون وراء الشهر الحرام ، وقيمون الدنيا ويقعدونها باسم المحرمات والمقدسات ، ويرفعون أصواتهم : انظروا ها هو ذا محمد ومن معه ينتهكون الشهر الحرام ، فكيف يواجههم الإسلام ؟ يواجههم بحلول مثالية نظرية طائرة ؟ إنه إن يفعل يجرد المسلمين الأخيار من السلاح ، بينما خصومهم الأشرار يستخدمون كل سلاح ، ولا يتورعون عن سلاح ! كلا إن الإسلام لا يصنع هذا ، لأنه يريد مواجهة الواقع لدفعه ورفع ، يريد أن يزيل البغى والشر ،

وأن يقلم أظافر الباطل والضلال ، ويريد أن يسلم الأرض للقوة الخيرة ، ويسلم القيادة للجماعة الطيبة ، ومن ثم لا يجعل الحرمات متاريس يقف خلفها المفسدون البغاة الطغاة ليرموا الطيبين الصالحين البناء ، وهم في مأمن من رد الهجمات ، ومن نيل الرماة) . (١)

٧ - ويؤكد القرآن الكريم في هذه النصوص بشكل أوضح وأبين حقيقة موقف الكفار والمشركين من المؤمنين ، وهو تقرير لا يتغير على مدى الدهور ، ولو اصططب بأى لون ، وتخفى تحت أى ستار .

﴿ ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ﴾ . (٢)

هذا هو الهدف النهائي لمعركة الكفار مع المؤمنين وهو ردهم عن دينهم ، وفتنتهم عنه ، وقرر القرآن الكريم القاعدة السابقة مع هذه القاعدة ﴿ والفتنة أكبر من القتل ﴾ .

فحين يكون النظام الكافر يحمل هذه الهوية يفتن المؤمنين عن دينهم ، ويمنعهم عن ممارسة شعائرهم والدعوة إلى مبادئهم ، ويحل محل هذه المبادئ مقررات بشرية وحين يغير مناهج التعليم التي تلتزم مع عقيدة الأمة ليقرر المناهج البشرية والمبادئ المستوردة إنما ينفذ مفهوم الفتنة عن دين الله ، و- من يفرض شعارات معينة ، ويفرض التبرج المحرم ، ويمنع المسلم من الدعوة إلى دينه ويهدده فى ماله ونفسه وعرضه إن دعا إلى الإسلام فهو يقوم بعملية الفتنة ، فالهدف النهائي من الفتنة إذن هو الردة ، ردة المسلمين عن دينهم إن استطاعوا ذلك .

وحين تصل الأمور إلى هذا الحد ، فلا حرمة لدماء الكفار ومن يؤايهم بعد ذلك فالفتنة أكبر من القتل .

٨ - وحين ارتفع الحرج فى الصف المسلم عن هذه المجموعة المجاهدة ، واستلم رسول الله ﷺ الأسيرين والغير ، كان كل آمالها أن تكون فى عداد المجاهدين المجاورين ، ووعدهم الله تعالى بذلك مثنيا عليهم وعلى جهادهم .

﴿ إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل الله أولئك يرجو رحمة الله والله غفور رحيم ﴾ (٣) وقد وعدهم الله تعالى بالمغفرة والرحمة ، ولاشئ أعظم على قلوب المؤمنين من ذلك ، أن يتنزل القرآن ليغسل هذا الحرج من هذه النفوس .

٩ - واليهود القابعون فى جحورهم ، هاهم أولاء يخرجون من أوكارهم ،

(١) فى ظلال القرآن ٢٢٦/١ ، ٢٢٧ .

(٢) البقرة ٢١٧ .

(٣) البقرة ٢١٨ .

ويتناغمون مع المشركين ، ويفرحون بحضور الحرب ، وأن قريشاً ستثأر لابن الحضرمي ، فقد قالوا : (عمرو : عمرت الحرب والحضرمي حضرت الحرب ، ووافد قد وقدت الحرب ، وهم بذلك يأملون أن تقع الحرب ، وبالتالي سوف يقضى على المسلمين في المدينة ، برغم أنهم حلفاء الرسول ﷺ ، وقد وقعوا العهود والعقود على أن يكونوا مع المسلمين يداً واحدة على من دهم يثرب ، غير أن القرآن يكشف زيفهم ، ويقرر الحقيقة الخالدة كذلك ، بعضهم أولياء بعض ، ولو اضطرتهم الظروف إلى غير ذلك .

١٠ - ومضى عبد الله بن جحش رضى الله عنه ، بلقب أمير المؤمنين ، ولم ينل هذا اللقب أحد في حياة رسول الله ﷺ غيره ، وكان أول قتيلى الإسلام من المشركين ، وأول فيء للمسلمين وأول أسارى لهم ، من خلال هذه المعركة المباركة ، ليفتح صفحة جديدة بعدها مع المشركين .

وكانت آيات فرض القتال .

فلم يمر شهر واحد ، حتى تعب المسلمون للقتال ، ونزل قول الله عز وجل :

﴿ وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ، ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ، واقتلوهم حيث ثقتهموهم ، وأخرجوهم من حيث أخرجوكم ، والفتنة أشد من القتل ، ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه ، فإن قاتلوكم فاقتلوهم ، كذلك جزاء الكافرين ، فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم ، وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين لله ، فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين ، الشهر الحرام بالشهر الحرام ، والحرمات قصاص ، فمن اعتدى عليكم ، فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ، واتقوا الله ، واعلموا أن الله مع المتقين ، وأنفقوا في سبيل الله ، ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ، وأحسنوا إن الله يحب المحسنين ﴾ . (١)

فاحتمالات المواجهة أصبحت كبيرة ، ولا بد أن يستعد المسلمون لها ، ولا بد من قتال من يقاتلهم ، ﴿ ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴾ .

والقتال لا بد أن يكون في سبيل الله ، لا من أجل مغنم أو مكسب ، إنما هو خالص لله سبحانه ، وتحديد الهدف أساسى في المعركة .

(١) البقرة / ١٩٠ - ١٩٥ .

وقد حددت الآيات مفهوم الاعتداء ، حتى لا يرد إلى الذهن شيء من الريبة أو الشك في تحديد المعتدين الطغاة ، فجاءت الآية واضحة الدلالة بلا غموض : ﴿ وَاَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ، وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ، وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ ﴾ . فالأمر واضح لكل مسلم في قتل كل مشرك من هؤلاء المعتدين ، حيثما كان وأنى وجد .

فالمشركون في مكة ومن والاهم معتدون ، لأنهم أخرجوا المسلمين من ديارهم ، وحاولوا فتنهم عن دينهم ، والفتنة أشد من القتل .

وإذا كانت الآيات السابقة تتحدث بالإشارة عن القتال في حادثة محددة ، وعن مبرراته ، فهي الآن من الوضوح والبيان والنصاعة بحيث تحرق كل دخل أوليس : الإخراج من البلد جريمة اعتداء ضخمة . والفتنة عن الدين جريمة اعتداء أضخم ، وأمام تينك الجريمةين لاحت إلا القتل ، والقتال في كل مكان وجد فيه هؤلاء المعتدون . إنه إعلان شامل للحرب ، مع استثناء واحد هو ألا يكون القتال عند المسجد الحرام الذى يأمن فيه كل مقيم وداخل ، ﴿ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ﴾ ^(١) لكن إذا وقع القتال منهم عنده ، فلا بد من مواجهتهم بالقتل ، وهذا هو جزاء الكافرين الذين يحاربون الله ورسوله .

فإن كفوا عن اعتداءاتهم ، وفتحوا لكم أبواب مكة ، وتراجعوا عن فتنكم عن دينكم ، ودخلوا في دين الله ، فإن الله غفور رحيم .

لكن استمرار القتال قائم باستمرار أسبابه .

وأسباب قتال الكفار التى تمضى مع الزمن ولا تبلى :

﴿ وَاَقْتُلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ، وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ﴾ ^(٢) .

وحيث إن الفتنة قائمة ، ومحاولات صرف الناس عن دينهم موجودة ، فالقتال مفروض وتنتهى ضرورة القتال عندما تنتهى الفتنة ، ويكون الخضوع لسلطان الله وشريعته ، وتكون الدينونة لله رب العالمين وحده .

﴿ فَإِنْ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ ^(٣) .

وحرمة المسجد الحرام ، وحرمة الشهر الحرام متوقفة على مراعاة هذه الحرمة من الآخرين أما أن تستغل هذه الحرمات لتنفيذ الاعتداء وسفك الدماء ، فلا .

(٣) البقرة / ١٩٣ .

(٢) البقرة / ١٩٣ .

(١) آل عمران / ٩٧ .

﴿ الشهر الحرام بالشهر الحرام ، والحرمات قصاص ، فمن اعتدى عليكم ، فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ، واتقوا الله ، واعلموا أن الله مع المتقين ﴾ . (١)

وللجهاد تكاليفه من المال ، والبذل ركن أساسي من أركان الجهاد ، فكان الحديث عن الإنفاق : ﴿ وأنفقوا في سبيل الله ، ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ، وأحسنوا إن الله يحب المحسنين ﴾ . (٢)

ويحدثنا سيد رحمته الله عن الجهاد بقوله :

(لقد جاءت هذه العقيدة في صورتها الأخيرة التي جاء بها الإسلام ، لتكون قاعدة للحياة البشرية في الأرض من بعدها ، ولتكون منهجاً عاماً للبشرية جميعها ، ولتقوم الأمة المسلمة بقيادة البشرية في طريق الله ، وفق هذا المنهج المنبثق من التصور الكامل الشامل لغاية الوجود كله ، ولغاية الوجود الإنساني ، كما أوضحهما القرآن الكريم المنزل من عند الله ، قيادتها إلى هذا الخير الذي لاخير بعده في مناهج الجاهلية جميعاً ، ودفعها إلى هذا المستوى الذي لا تبلغه إلا في ظل هذا المنهج ، وتمتعها بهذه النعمة التي لا تعدلها نعمة ، والتي تفقد البشرية كل نجاح وكل فلاح حين تحرم منها ، ولا يعتدى عليها معتدٌ بأكثر من حرمانها من هذا الخير ، والحيلولة بينها وبين ما أراده لها خالقها من الرفعة والنظافة والسعادة والكمال .

ومن ثم كان من حق البشرية أن تبلغ إليها الدعوة إلى هذا المنهج الإلهي الشامل ، وألا تقف عقبة أو سلطة في وجه التبليغ بأي حال من الأحوال .

ثم كان من حق البشرية كذلك أن يترك الناس بعد وصول الدعوة إليهم أحراراً في اعتناق هذا الدين ، لا تصدهم عن اعتناقه عقبة أو سلطة ، فإذا أبى فريق منهم أن يعتنقه بعد البيان ، لم يكن له أن يصد الدعوة عن المضى في طريقها ، وكان عليه أن يعطى لليهود ما يكفل لها الحرية والاطمئنان ، وما يضمن للجماعة المسلمة المضى في طريق التبليغ بلا عدوان ، فإذا اعتنقها من هداهم الله إليها كان من حقهم ألا يفتنوا عنها بأي وسيلة من وسائل الفتنة ، لا بالأذى ولا بالإغراء ، ولا بإقامة أوضاع من شأنها صد الناس عن الهدى ، وتعويقهم عن الاستجابة ، وكان من واجب الجماعة المسلمة أن تدفع عنهم بالقوة من يتعرض لهم بالأذى والفتنة ، ضماناً لحرية العقيدة ، وكفالة لأمن الذين هداهم الله ، وإقراراً لمنهج الله في الحياة ، وحماية للبشرية من الحرمان من ذلك الخير العام .

(١) البقرة / ١٩٤ .

(٢) البقرة / ١٩٥ .

وينشأ عن تلك الحقوق الثلاثة واجب آخر على الجماعة المسلمة . وهو أن تحطم كل قوة تعترض طريق الدعوة وإبلاغها للناس في حرية ، أو تهدد حرية اعتناق العقيدة ، وتفتن الناس عنها ، وأن تظل تجاهد حتى تصبح الفتنة للمؤمنين بالله غير ممكنة لقوة في الأرض ، ويكون الدين لله ، لا بمعنى إكراه الناس على الإيمان ، ولكن بمعنى استعلاء دين الله في الأرض بحيث لا يخشى أن يدخل فيه من يريد الدخول ، ولا يخاف قوة في الأرض تصده عن دين الله أن يبلغه ، وأن يستجيب له ، وأن يبقى عليه ، وبحيث لا يكون في الأرض وضع أو نظام يحجب نور الله وهدايه عن أهله ، ويضلهم عن سبيل الله بأية وسيلة وبأية أداة .

وفي حدود هذه المبادئ العامة كان الجهاد في الإسلام .

وكان لهذه الأهداف العليا وحدها ، غير ملتبسة بأى هدف آخر ، ولا بأى شارة أخرى إنه الجهاد للعقيدة ، لحمايتها من الحصار ، وحمايتها من الفتنة ، وحماية منهجها وشريعتها في الحياة وإقرار رايها في الأرض ، بحيث يرهبها من يهم بالاعتداء عليها قبل الاعتداء ، وبحيث يلجأ إليها كل راغب فيها لا يخشى قوة أخرى في الأرض تتعرض له أو تمنعه أو تفتنه .

وهذا هو الجهاد الوحيد الذى يأمر به الإسلام ، ويقره ويثيب عليه ، ويعتبر الذين يقتلون فيه شهداء ، والذين يحتملون أعباءه أولياء (١) .

وهناك معان وجوانب أخرى ذكرها ابن جرير رحمه الله نلخصها فيما يلي :

١ - (القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يقاتلونكم ، ولا تعتدوا ، إن الله لا يحب المعتدين ﴾)
 يختلف أهل التأويل فى تأويل هذه الآية ، فقال بعضهم : هذه الآية هى أول آية نزلت فى أمر المسلمين بقتال أهل الشرك ، وقالوا أمر فيها المسلمون بقتال من قاتلهم من المشركين ، والكف عمن كف عنهم ثم نسخت ببراءة (٢) .

٢ - (وقال آخرون بل ذلك أمر من الله تعالى ذكره للمسلمين بقتال الكفار لم ينسخ ، وإنما الاعتداء الذى نهاهم الله تعالى عنه هو نهيه عن قتل النساء والذرى . قالوا : والنهى عن قتلهم ثابت حكمه اليوم فلا شىء نسخ من حكم هذه الآية) . (٣)

(١) فى ظلال القرآن ١ / ١٨٦ ، ١٨٧ . (٢ ، ٣) تفسير الطبرى ٢ / ١١٠ - ١١٢ مقتطعات .

ثم يرجع رحمه الله الرأى الثانى بقوله :

(فتأويل الآية إذا كان الأمر على ما وصفنا . وقاتلوا أيها المؤمنون فى سبيل الله - وسبيله طريقه الذى أوضحه ودينه الذى شرعه لعباده - .. فى طاعته وعلى ما شرعت لكم من دينى وادعوا إليه من ولى عنه واستكبر .. ولا تعتدوا . لا تقتلوا وليداً ولا امرأة ولا من أعطاكم الجزية من أهل الكتاب) . (١)

٣ - ﴿والفتنة أشد من القتل﴾ فتأويل الكلام وابتلاء المؤمن فى دينه حتى يرجع عنه فيصير مشركاً من بعد إسلامه ، أشد عليه وأضر من أن يقتل مقيماً على دينه متمسكاً عليه محققاً فيه .

٤ - يقول تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : وقاتلوا المشركين الذين يقاتلونكم حتى لا تكون فتنة يعنى حتى لا يكون شرك بالله ، وحتى لا يعبد دونه أحد ، وتضمحل عبادة الأوثان والآلهة والأنداد ، وتكون العبادة والطاعة لله وحده دون غيره من الأصنام والأوثان . (٢)

٥ - (القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ وأنفقوا فى سبيل الله ، ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا إن الله يحب المحسنين ﴾) اختلف أهل التأويل فى تأويل هذه الآية ومن عنى بقوله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ، فقال بعضهم عنى بذلك وأنفقوا فى سبيل الله .. ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة يقول : ولا تتركوا النفقة فى سبيل الله فإن الله يعوضكم عنها أجراً ويرزقكم عاجلاً . (٣)

٦ - وقال آخرون ممن وجهوا تأويل ذلك : (إلى أنه معنية به النفقة ، معنى ذلك : وأنفقوا فى سبيل الله ، ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ، فتخرجوا فى سبيل الله بغير نفقة ولا قوة) . (٤)

٧ - وقال آخرون بل معناه : (أنفقوا فى سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم فيما أصبتم من الآثام إلى التهلكة ، فتأسوا من رحمة الله ، ولكن ارجوا رحمته واعملوا الخيرات) (٥)

٨ - وقال آخرون : بل معنى ذلك : (وأنفقوا فى سبيل الله ولا تتركوا الجهاد فى

(١ ، ٢) تفسير الطبرى / ٢ / ١١٠ - ١١٢ مقتطفات .

(٣) المصدر السابق ص ١١٦ / ٢ - ١١٨ .

(٤ ، ٥) مقتطفات من تفسير الطبرى / ٢ / ١١٦ - ١١٨ .

سبيله ، فعن أبي عمران قال : « غزونا المدينة - يعنى القسطنطينية - وعلى أهل مصر عقبة بن عامر ، وعلى الجماعة عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، قال : فصفقنا صفين ، لم أر صفين قط أعرض ولا أطول منهما ، والروم ملصقون ظهورهم بحائط المدينة ، فحمل رجل منا على العدو ، فقال الناس : لا إله إلا الله ، يلقي بيده إلى التهلكة ، قال أبو أيوب الأنصارى : إنما تتأولون هذه الآية هكذا أن حمل رجلٌ يقاتل يلتمس الشهادة أو يلى من نفسه ، إنما نزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار ، إنما نصر الله نبيه ، وأظهر الإسلام ، قلنا بيننا معشر الأنصار خفياً عن رسول الله ﷺ إنما قد كنا تركنا أهلنا وأموالنا أن نقيم فيها ، ونصلحها حتى نصر الله نبيه ، هلم نقيم فى أموالنا ونصلحها ، فأنزل الله الخبر من السماء : ﴿ وَأَنْفَقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ الآية ، فالإلقاء بالأيدى إلى التهلكة أن نقيم فى أموالنا ونصلحها وتدع الجهاد ، قال أبو عمران : فلم يزل أبو أيوب يجاهد فى سبيل الله حتى دفن بالقسطنطينية (١) .

ونخلص بعد هذا العرض السريع إلى أن هذه الآيات التى فرض فيها القتال فى الإسلام لمن قاتل ، والتى تلت آيات الإذن بالقتال ، وآيات القتال فى الشهر الحرام ، كانت تعبئة وتهيئة للنفوس إلى غزوة بدر الكبرى ، والتى لم يكن بينها وبين الغزوة أكثر من شهر ، فسرية عبد الله بن جحش رضى الله عنه كانت فى آخر رجب وأول شعبان ، وغزوة بدر كانت فى السابع عشر من رمضان .

فوضعت هذه الآيات نفوس العصابة المجاهدة من المهاجرين والأنصار فى تعبئة كاملة ، كما أن آيات أصحاب طالوت رفعت المد الشعورى للمواجهة ، وكيف ينصر الله تعالى القلة على الكثرة ، فكانت بدر على ميعاد من القدر ، تنتقل إليها بعد هذه التوطئة .

(١) مقتطفات من تفسير الضربى / ١١٦/٢ - ١١٨ .

سورة الأنفال وغزوة بدر

الجزء الأول

أولاً : الأنفال وعرض الضعف البشرى :

المسلمون قادمون من بدر ، ونشوة الظفر تملك عليهم ألبابهم ، وهو نصر ليس كالنصر ، فلقد شهدت الملائكة معهم الحرب ، وآخر عهدهم بالوحي ينتزل من الله تعالى حين فرض عليهم القتال ، لمن قاتلهم من المشركين ، وهامهم أولاء قد نفذوا أمر الله تعالى وهم ينتظرون وحى الله تعالى على رسوله بعد بدر يتحدث عنهم وعن لقاءهم مع المشركين .

فنزل قول الله عز وجل :

﴿ يسألونك عن الأنفال ، قل الأنفال لله والرسول ، فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم ، وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين ﴾ . (١)

وكانت بداية الآيات الدرس الأول في التربية بعد نصر بدر :

(روى عبادة بن الصامت قال : خرج رسول الله ﷺ إلى بدر ، فلقوا العدو ، فلما هزمهم الله تعالى اتبعتهم طائفة من المسلمين يقتلونهم ، وأحدقت طائفة برسول الله ﷺ ، واستولت طائفة على العسكر والنهب ، فلما نفى الله العدو ورجع الذين طلبوهم قالوا : لنا النفل ، نحن الذين طلبنا العدو ، وبنا نفاهم الله وهزمهم ، وقال الذين أحدقوا برسول الله ﷺ : ما أنتم أحق به منا ، بل هو لنا ، نحن أحدقنا برسول الله ﷺ ، لثلاثينال العدو منه غرة ، وقال الذين استولوا (٢) على العسكر والنهب : ما أنتم بأحق منا ، هو لنا ، نحن حويناها ، واستولينا عليه ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول ، فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم ، وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين ﴾ فقسمه رسول الله ﷺ عن فواق (٣) بينهم) .

وذكر محمد بن إسحاق ، قال : حدثني عبد الرحمن بن الحارث وغيره ، عن

(١) الأنفال / ١ .

(٢) استولوا : أطاعوا وأحاطوا .

(٣) عن فواق : عن سرعة .

أصحابنا ، عن أبي أمامة الباهلي قال : سألت عبادة بن الصامت عن الأنفال ، فقال : فينا معشر أصحاب بدر نزلت حين اختلفنا في النفل ، وساءت فيه أخلاقنا ، فنزعه الله من أيدينا وجعله إلى الرسول ، فقسمه رسول الله ﷺ عن بواء ^(١) . فكان ذلك تقوى الله وطاعة رسوله وإصلاح ذات البين .

وروى في الصحيح عن سعد بن أبي وقاص قال : اغتتم أصحاب رسول الله ﷺ غنيمة عظيمة ، إذا فيها سيف ، فأخذته ، فأتيت النبي ﷺ فقلت : نفلني هذا السيف ، فأنا من قد علمته ، قال : « رده من حيث أخذته » ، فانطلقت حتي أردت أن ألقيه في القبض ^(٢) لا امتني نفسي ، فرجعت إليه فقلت : أعطني . قال : فشدد لي صوته : « رده من حيث أخذته » ، فانطلقت حتي أردت أن ألقيه في القبض لا امتني نفسي ، فرجعت إليه ، فقلت : أعطني ، قال : فشدد لي صوته : « رده من حيث أخذته » ، فأنزل الله : ﴿ يسألونك عن الأنفال ﴾ لفظ مسلم ^(٣) .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال :

لما كان يوم بدر قال رسول الله ﷺ : من صنع كذا وكذا فله كذا وكذا ، قال : فتسارع في ذلك شبان الرجال ، وبقيت الشيوخ تحت الرايات ، فلما كانت الغنائم جاؤوا يطلبون الذي جعل لهم ، فقالت الشيوخ : لا تستأثروا علينا ، فإننا كنا رداء لكم ، وكنا تحت الرايات ، ولو انكشفتم لفئتم إلينا ، فتنازعوا ، فأنزل الله ﴿ يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم . وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين ﴾ ^(٤) .

وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال :

لما كان يوم بدر قُتل أخي عمير ، وقتلت سعيد بن العاص ، وأخذت سيفه ، وكان يسمى : ذا الكثيفة ، فجئت به إلى النبي ﷺ ، فقال اذهب فاطرحه في القبض ، فطرحته ورجعت وبى مالا يعلمه إلا الله من قتل أخي ، وأخذ سلبى ، قال فما جاوزت إلا قريبا حتى نزلت عليه سورة الأنفال ، فقال : اذهب فخذ سيفك .

(١) عن بواء : على السواء .

(٢) القبض : بالتحريك أى ما جمع من الغنيمة قبل أن تقسم .

(٣) تفسير القرطبي / ٧/٤٨ ، ٣٦٠ ، ٣٦١ .

(٤) في رواية أن الأرقم بن أبى الأرقم رضي الله عنه سأل رسول الله ﷺ فاعطاه إياه .

قال أبو جعفر : (وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال : إن الله تعالى أخير في هذه الآية عن قوم سألوا رسول الله ﷺ الأنفال أن يعطيهموها ، فأخبرهم الله أنها لله ، وأنه جعلها لرسوله . وإذا كان ذلك معناه جاز أن يكون نزولها كان من أجل اختلاف أصحاب رسول الله ﷺ ، وجائز أن يكون كان من أجل مسألة من سأله السيف الذي ذكرنا عن سعد أنه سأل إياه ^(١) وجائز أن يكون من أجل مسألة من سأل : قسم ذلك بين الجيش) . ^(٢)

(لقد أخذهم الله سبحانه بالتربية الربانية قولاً وعملاً ، نزع أمر الأنفال كله منهم ، وردّه إلى رسول الله ﷺ ، حتى أنزل حكمه في قسمة الغنائم بجملتها ، فلم يعد الأمر حقاً لهم يتنازعون عليه ، إنما أصبح فضلاً من الله عليهم ، يقسمه رسول الله ﷺ بينهم كما علمه ربه .. وإلى جانب الإجراء العملي التربوي كان التوجيه المستطرد الطويل ، الذي بدأ بهذه الآيات واستطرد فيما تلاها كذلك .

﴿ يسألونك عن الأنفال . قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين ﴾ .

لقد كان الهتاف لهذه القلوب التي تنازعت على الأنفال ، هو الهتاف بتقوى الله « وسبحان خالق القلوب العليم بأسرار القلوب » إنه لا يرد القلب البشري عن الشعور بأعراض الدنيا والنزاع عليها ، وإن كان هذا النزاع ملتبساً هنا بمعنى الشهادة بحسن إسلامه إلا استجاشة الشعور بتقوى الله ، وخوفه وتلمس رضاه في الدنيا والأخرى . إن قلباً لا يتعلق بالله يخشى غضبه ، ويتلمس رضاه ، لا يملك أن يتخلص من ثقله الأعراض ، ولا يملك أن يرف شاعراً بالانطلاق .

إن التقوى زمام هذه القلوب التي يمكن أن تقاد منه طائفة ذلولة في يسر وفي هوادة .. وبهذا الزمام يقود القرآن هذه القلوب إلى إصلاح ذات بينها .

﴿ فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم ﴾ .

وبهذا الزمام يقودها إلى طاعة الله ورسوله . ﴿ وأطيعوا الله ورسوله ﴾ وأول الطاعة هنا طاعته في حكمه الذي قضاه في الأنفال ، فقد خرجت من أن تكون لأحد من الغزاة على الإطلاق ، وارتدت ملكيتها ابتداءً لله والرسول ، فانتهى حق التصرف فيها

(١) تفسير الطبري / ١١٦/٩/٦م .

(٢) في ظلال القرآن ١٤٧٣/٧/٣/ ١٤٧٤ .

إلى الله والرسول ، فما على الذين آمنوا إلا أن يستسلموا فيها لحكم الله وقسم رسول الله ، طيبة قلوبهم ، راضية نفوسهم ، وإلا أن يصلحوا علائقهم ومشاعرهم ، ويصفوا قلوبهم بعضهم لبعضهم (١) .

نعم إنها التربية الربانية التي تعيد زمام هذه النفوس ذليلة مستسلمة لله عز وجل ، لا تستعبد لها نشوة الظفر ، ولا استعلاء النصر ، فتنسى ضعفها البشرى وقصورها البشرى ، وتفكر بالاستعلاء والاستكبار على الآخرين .

الهوينى الهوينى ، فهؤلاء الذين حققوا هذا النصر - فى ظاهر الأمر - هم هم أنفسهم الذين تنازعوا ، واختلفوا على الغنائم ، وتخلخلت ذات بينهم بعد المعركة .

وهذا العرض الربانى يؤكد حقيقة أكبر من النصر ومن الظفر على المشركين أعداء الله ، يؤكد أن صلاح ذات البين ، والانتصار الحقيقى على مسارب النفوس ومشارب القلوب ، هو الأكبر فى ميزان الله ، وهو الأعظم فى ميزان الله ، ولا جدوى من نصر يعقبه صراع فى الصف ، واختلاف فى القلوب .

« قضية التقوى والإيمان إذن ليست خاصة فى المساجد وعمارها ، وليس مجالها فى التسبيح والتحميد آلاف المرات ، فإذا حضر لقاء العدو انتهى الحديث عنها ، وصار الحديث للنار والبارود ، إن تقوى الله تعالى والإيمان به لهما القيادة العليا لنفوس المؤمنين ، ومنهما ينبع تحركهم وجهادهم ونصرهم ، ومن موازينهما ينبثق الجهاد والقتال .

ومن أجل ذلك شاءت إرادة الله سبحانه أن يفتح الوحى بعد بدر بعرض الضعف البشرى ، والقصور البشرى الذى برز مع الغنائم .

وإشارة ثانية من حكمة هذا العرض الربانى ، هى أن أهل بدر خير أهل الأرض بعد الأنبياء والمرسلين : ومن قال فيهم رسول الله ﷺ :

« لعل الله اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » (٢) ومع هذا كله فقد هفت نفوسهم إلى الدنيا وإلى الغنائم ، وكادت هذه الهفوة أن تفسد داب سيهم لولا أن تداركهم الله برحمته ، ونزع الأنفال منهم إلى الله تعالى وإلى رسوله .

ثانياً : مواصفات المؤمنين :

وهؤلاء المؤمنون حقاً هم المجاهدون حقاً .

(٢) البخارى ومسلم .

(١) مى طلال القرآن الكريم / ٧ / ٣ ، ١٤٧٣ ، ١٤٧٤ .

﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون . الذين يقيمون الصلاة وما رزقناهم ينفقون . أولئك هم المؤمنون حقا لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم ﴾ (١) ونلاحظ أن المواصفات في الآية الأولى تركز على الجانب القلبي :

أ - ﴿ إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ﴾ :

قال الراغب : (الوجل استشعار الخوف يعنى ما يجعل القلب يشعر به بالفعل ، وغير غيره عنه بالفرع والخوف ، وذلك أن الخوف توقع أمر مؤلم في المستقبل قد يصحبه شعور الألم والفرع وقد يفارقه لضعفه أم لا اعتقاد بعد أحله ، فإله حل الفزع أنه ...) وفي سورة الحجر من حوار إبراهيم عليه السلام مع ضيفه المنكرين (١٥ : ٥٢) ﴿ قال إنا منكم وجلون ﴾ (٥٣) ﴿ قالوا لا توجل ﴾ وفي سورة المؤمنون في صفة المؤمنين المشفقين من خشية ربهم : (٢٣ : ٦١) ﴿ والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون ﴾ فالوجل هنا مقترن بالعمل الصالح ، وهو البذل والعطاء . وفي سورة الحج : (٣٤ : ٣٥) ﴿ وبشر المختبين الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم والصابرين على ما أصابهم والمقيمي الصلاة وما رزقناهم ينفقون ﴾ وهي بمعنى آية الأنفال : وليس للوجل ذكر في غير هذه الآيات ، ويتفق معنى الوجل فيها بأنه الفزع ، وشعور الخوف يلزم بالقلب ، وقد يكون هذا الخوف من العاقبة المجهولة ، وقد يكون من الإجلال والمهابة ، وقد روى عن شهر بن حوشب عن أم الدرداء : الوجل في القلب كاحتراق السعفة ، يا شهر ابن حوشب أما تجد له قشعريرة ؟ قلت : بلى ، قالت : فادع الله فإن الدعاء يستجاب عند ذلك ، وعن ثابت البناني : قال فلان : إني لأعلم متى يستجاب لى ، قالوا ! ومن أين لك ذلك ؟ قال : إذا اقشعر جلدى ، ووجل قلبى ، وفاضت عيناي ، فذلك حين يستجاب لى ، وعن عائشة رضی الله عنها قالت : ما الوجل في القلب إلا كضربة السعفة ، إذا وجل أحدكم فليدع عند ذلك) .

والسعفة بالتحريك واحدة السعف وهو جريد النخل ، إذا احترق يسمع له نسيش ، شبهت به أم المؤمنين وأم الدرداء شعور الوجل يلزم بالقلب من ذكر الله فيحقق له .

(والمراد بذكر الله ذكر القلب لعظمته وسلطانه وجلاله ، أو لوعيده ووعدده ، ومحاسناته لخلقهم وإدانتهم ، وغير ذلك من صفات الله وأفعاله سواء صحبه ذكر اللسان أم لا ، وأعظم ذكر اللسان مع القلب ترتيل القرآن بالتدبر ، وقد يقول المؤمن في صلاة

(١) الأنفال ٤٠٢ .

التهجد فى الخلوة « الله أكبر » مستحضراً معنى كبريائه عز وجل فينتفض ويقشعر جلده ، فمن خص الذكر هنا بالوعيد غفل عن كل هذا ، وظن أن الرجل لا يكون إلا من خوف العذاب ، وكأنه لم يذق طعم الخشية والوجل من مهابة الله وعظمته وكبريائه وعزة سلطانه . (١)

ب - ﴿ وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً ﴾ :

أى زادتهم تصديقاً واطمئناناً وعمقاً فى إيمانهم .

وفى كل يوم تفتح منافذ هذا القلب إلى آيات الله تعالى فى كتابه ، وآيات الله تعالى فى ملكوته ، وآيات الله تعالى فى خلقه ، فيزداد الإيمان عمقا وصلابة ، ويزداد الإيمان اطمئناناً وثقة ، سواء ما كان فى عالم الحس أو فى عالم الغيب .

فإبراهيم عليه الصلاة والسلام . اطمأن قلبه ، وهو يرى الطير يأتينه سعياً ، والذى مر على قرية وهى خاوية على أهلها ازداد إيمانه يوم رأى طعامه لم يتسنه ، ورأى العظام كيف ينشزها الله تعالى ويكسوها لحماً .

والقلب الغافل حين يفتح على آيات الله البينات - فيبهره إعجاز القرآن وعظمته ، فيحس أن إيمانه النافى قد استيقظ ، وأن إيمانه الميت قد انبعث حياً كأنما ينزل عليه الآن الوحى ، وأن إيمانه المهترئ قد ازداد صلابة وعمقاً أشد من الجبال الرواسى .

فتلاوة آيات الله تعالى من كتابه ومن كونه ، تجعل هذا الإيمان تكبر ساحته ، وتمتد جذوره ضارباً فى الأعماق ، حتى ليواجه به الدنيا ، لا يخاف فى الله لومة لائم .

ج - ﴿ وعلى ربهم يتوكلون ﴾ :

ومن القشعريرة والخشية إلى الاستسلام والطمأنينة يثمر هذان معاً التوكل على الله تعالى وحده ، فى خضم هذه الحياة الصعبة ، وهو يواجه المحن ويواجه الابتلاء ويواجه المقاومة ويخوض الحرب العنيفة مع الطغاة فيقيه شر العثار والتراجع والزعزعة توكله على الله تعالى ، أنه لن يصيبه إلا ما كتبه الله له ، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه ، وما أصابه لم يكن ليخطئه .

﴿ الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً ، مثانى تقشع منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ﴾ (٢) .

(٢) الزمر / ٢٣ .

(١) تفسير المنار / ج ٩ / ٥٩٠ .

ومن الشعور القلبي الكامن في الأعماق ، والضارب في الجذور ، الذي لا يقوى القلب عليه فيتحرك بكل عنفه خارج هذا القلب ، ليدق أوتار الجسم ، فينتفض الجسم مع انتفاضة القلب ونبضته عند الخشية ، ثم يعود هذا الجلد ثانية - رخيئاً هيناً مع اطمئنان هذا القلب ، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله .

فهذا هود عليه الصلاة والسلام يقول لقومه ﴿ .. فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون . إني توكلت على الله ربي وربكم ، مامن دابة إلا هو آخذ بناصيتها ، إن ربي على صراط مستقيم ﴾ . (١)

وهذا شعيب عليه الصلاة والسلام يهدده قومه : ﴿ ... لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا قال أولو كنا كارهين ، قد افترينا على الله كذباً إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا وسع ربنا كل شيء علماً على الله توكلنا ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين ﴾ . (٢)

والذرية المؤمنة من قوم موسى اسى خافت من فرعون وملئه لم يعصمها من هذا الخوف إلا توكلها على الله :

﴿ فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم ، وإن فرعون لعالٍ في الأرض وإنه لمن المسرفين . وقال موسى يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين . فقالوا على الله توكلنا ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين . ونجنا برحمتك من القوم الكافرين ﴾ . (٣)

والذين لم ينلهم الفزع من قوم موسى خوفاً من القوم الجبارين هما المتوكلان على الله : ﴿ قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ، ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين ﴾ . (٤)

وواجه سيد الخلق عليه الصلاة والسلام طغاة قريش وهو على مرمى بصرهم :

- يا رسول الله لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا .

- يا أبا بكر ما قولك في اثنين الله ثالثهما ، لا تحزن إن الله معنا (٥)

(٣) يوس ٨٣ ، ٨٦ .

(٢) الأعراف ٨٨ ، ٨٩ .

(١) هود ٥٥ .

(٥) البخاري ومسلم عن أنس بن مالك .

(٤) المائدة ٢٣ .

وقبل أيام قليلة ولا تزال أجواء بدر تظلل المؤمنين . كان رسول الله ﷺ يقول وأمامه ألف مدججون بالسلاح ومعه ثلاثمائة من المقاتلين : « والله لكأنى أنظر إلى مصارع القوم » . (١)

﴿ وعلى ربهم يتوكلون ﴾ .

د - ﴿ الذين يقيمون الصلاة ﴾ :

بعد الشطر القلبي من الإيمان يبرز الشطر العملى منه ، جناحان لا يقوم الإيمان إلا بهما إقامة الصلاة هو التعبير القرآنى والنبوى ، ولم يأت التعبير . يصلون إلا بصورة نادرة وإقامة الصلاة تعنى شيئاً أبعد من الإقدام على الصلاة بصورة رتيبة ، أو عادة مألوفة ، لا يدرك الإنسان فيه ماصلى ، وكيف صلى ، كالإقدام على أية عادة يومية .

إن إقامة حفلة عرس ، أو إقامة بناء على مخطط هندسى بديع ، أو إقامة مشروع صناعى ضخمة تعنى توجيه كل الطاقات والإمكانات وإزالة كل العثرات لإنجاحه .

وهذه المشاريع المذكورة تصغر جداً عند إقامة الصلاة . لأن إقامة الصلاة هى الإقبال على اللقاء مع الله تعالى والمثول بين يديه . وكم نرى من الإعداد والتهيئة يتم لاستقبال رئيس مسؤول أو حاكم متنفذ ، بل أدنى من ذلك بكثير يوم يستعد الموظفون لاستقبال رئيس دائرة عندهم ، يفتش أعمالهم ، ويدقق الحسابات على دواهم وسلوكهم وخبراتهم ، يتوقف عليها مستقبلهم فى عملهم ، ويتقرر بها مصيرهم فى وظيفتهم .

وهذه أمور تصغر وتحقر أمام إقامة الصلاة بركوعها وخشوعها وسجودها وقيامها ومن أجل ذلك جعل الإسلام بين يدي الصلاة ما يمتد إقامتها ، فجعل التطهر والوضوء بين يديها ، ثم السعى إلى المسجد من أجلها ثم صلاة السنة بين يديها ، ليقدم المرء عليها بشعور جديد كلما قام إلى الصلاة .

فكان من فضلها مارواه أبو ذر رضى الله عنه بقوله :

« إن النبى ﷺ خرج زمن الشتاء ، والورق يتهافت ، فأخذ بغصنين من شجرة قال : فجعل ذلك الورق يتهافت ، قال : فقال : يا أبا ذر ، قلت : لبيك يا رسول الله : قال : إن العبد المسلم ليصلى الصلاة يريد بها وجه الله فتهافت عنه ذنوبه كما تهافت هذا الورق عن هذه الشجرة » (٢) .

(٢) رواه أحمد / ١٠٢ / ٢٠ .

(١) البداية والنهاية لآبى كثير / ٣ / ٢٨٥ .

وإنها ميزان النجاة والهلاك :

فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما ، عن النبي ﷺ ، أنه ذكر الصلاة يوماً ، فقال « من حافظ عليها ، كانت له نوراً وبرهاناً ونجاة يوم القيامة ، ومن لم يحافظ عليها لم تكن له نوراً ولا برهاناً ولا نجاة ، وكان يوم القيامة مع قارون وفرعون وهامان وأبى بن خلف » . (١)

وتاركها عمداً يخرج من رتبة الإسلام ، كما روى عبد الله بن شقيق قال : (كان أصحاب رسول الله ﷺ لا يرون شيئاً من الأعمال تركه كفر غير الصلاة) . (٢)

هـ - ﴿ وما رزقناهم ينفقون ﴾ :

ويدرك أصحاب بدر هذا المعنى بوضوح ، فلم يمر شهر بعد على فرض الزكاة إضافة إلى فرض الصلاة وفرض الجهاد .

وهذه الغنائم التي يختلفون عليها ، إنما تزكو بالإنفاق بعد أن قسمها عليه الصلاة والسلام بينهم ، ولقد خرج المهاجرون عن مالهم في سبيل الله ، وهاهو ذا المال يتجدد والإنفاق ينمي ويثمره ، ولم تسم زكاة في الأصل إلا لأن المال يزكو بها وينمو ويتجدد .

فعن أبى كيثشة الأمارى أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « ثلاث أقسم عليهن ، وأحدثكم حديثاً فاحفظوه ، فأما الذى أقسم عليهن فإنه مانقص مال من صدقة ، ولا ظلم عبد مظلمة نصير عليها إلا زاده الله بها عزا ، ولا فتح عبد باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر » . (٣)

﴿ أولئك هم المؤمنون حقا لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم ﴾ . (٤)

فالؤمن الحق لا بد أن يتحلى بهذه المواصفات ، وأهل بدر يتلقون هذه المواصفات وهم قادمون من معركة شارك فيها ملائكة السماء ، فيبحث كل امرئ منهم عن نفسه ، ويتحسس ذاته ، ترى أ يكون هو المؤمن الحق المعنى بهذه الآيات ؟ أم أن بينه وبينها شوطاً طويلاً طويلاً فهو يسعى جاهداً بكل ما أوتى من قوة وعزم ؛ لعله يكون من هؤلاء !!
والؤمن الحق هدف يسعى إليه كل مسلم ، وما يجروء المسلم أن يدعى هذا بدون شهادة من الله تعالى له بذلك .

(١) رواه أحمد والبيهقى فى شعب الإيمان والدارمى .

(٢) رواه الترمذى وإسناده صحيح .

(٣) رواه الترمذى وقال حديث حسن صحيح .

(٤) الأنفال / ٤ .

فها هو ذا الحارث بن مالك الأنصارى رضى الله عنه يلقاه رسول الله ﷺ فيسأله :
« كيف أصبحت يا حارثة ؟ قال : أصبحت مؤمناً حقاً ، قال : انظر ماتقول ، فإن لك
شئ حقيقه ، فما حقيقه إيمانك ؟ فقال : عزفت نفسى عن الدنيا ، فأسهرت ليلى وأضمأت
نهارى ، وكأنى أنظر إلى عرش ربي بارزاً ، وكأنى أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها .
وكأنى أنظر إلى أهل النار يتضاغون فيها » . (١)

فهذا الصحابى العظيم يعيش الإيمان ، مشاعر حية نابضة ، ويصبح عالم الغيب عنده
من الجنة والنار والعرش كأنما هو عالم شهادة ، يشهده بيقين قلبه .

وعندما يرتفع المؤمنون بواقعهم وحياتهم إلى هذه الصورة فهم القادرون على
الارتفاع على ثقل هذا الواقع ، والمجاهدون هم أولى الناس بهذه الصورة ، فما بين عالم
الغيب وعالم الشهادة إلا لحظات من خلال الشهادة .

وهذا ما حدا بعمير بن الحمام رضى الله عنه ، وهو يسمع النداء النبوى الخالد : يوم
بدر : « قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض قال عمير بن الحمام : بخ بخ ؟ فقال
رسول الله ﷺ : ما يحملك على قولك بخ بخ ؟ قال : لا والله يا رسول الله ! إلا رجاء
أن أكون من أهلها ، قال : فإنك من أهلها ، قال فأخرج تمرات من قرنه فجعل يأكل
منهن ، ثم قال : لئن أنا حييت حتى آكل تمراتى إنها لحياة طويلة ، قال فرمى بما كان معه
من التمر ، ثم قاتلهم حتى قتل » . (٢)

فعمير المؤمن الحق . كان فى عالم الرجاء ، واستحال يقينه إلى عالم الواقع حين قال
له عليه الصلاة والسلام إنك من أهلها . ولم يتمالك أن يتم التمرات التى فى يديه وألقى
بهن ، ومضى يقاتل حتى قتل ، وفى رواية كان يرتجز

ركضاً إلى الله بغير زاد إلا التقى وعمل المعاد

والصبر فى الله على الجهاد وكل زاد عرضة الفاد

إلا التقى والبر والرشاد (٣)

ولعل الدرجات العلى التى وعد الله تعالى بها المؤمنين هى أرفع ماتكون للمجاهد .
فعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من آمن بالله ورسوله .

(١) رواه الطبرانى . (٢) رواه مسلم . (٣) البداية والنهاية / ٣ / ٢٧٧ عن ابن جرير البصرى

وأقام الصلاة ، وصام رمضان ، كان حقاً على الله أن يدخله الجنة ، جاهد في سبيل الله ، أو جلس في أرضه التي ولد فيها ، قالوا : أفلا نبشّر الناس . قال : إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله ، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض فإذا سألتهم الله فاسألوه الفردوس ، فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة ، وفوقه عرش الرحمن ، ومنه تفجر أنهار الجنة . (١)

وهذه الدرجات العلى التي حدث الله تعالى عنها أهل بدر - قد نالها رفاقهم الذين سبقوهم إلى الشهادة .

فعن أنس أن الربيع بنت البراء وهى أم حارثة بن سراقة ، أتت النبي ﷺ ، فقالت : يا رسول الله ، ألا تحدثني عن حارثة ، وكان قتل يوم بدر أصابه سهم غرب (٢) فإن كان في الجنة صبرت ، وإن كان غير ذلك اجتهدت عليه في البكاء ، فقال : « يأم حارثة ! إنها جنان في الجنة ، وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى » (٣) وحين تزول الحجب ، وتنقشع بين عالم الغيب وعالم الشهادة ، يظهر الإيمان الحق عند المؤمنين فعن عاصم بن عمر بن قتادة أن عوف بن الحارث . وهو ابن عفراء قال : يا رسول الله ، ما يضحك الرب من عبده ؟ قال : غمسه يده في العدو حاسراً ، فزرع درعاً كانت عليه ففقدوها ، ثم أخذ سيفه فقاتل القوم ، حتى قتل رحمه الله (٤) .

وبعد أن نزع الله تعالى أمر الأنفال من أيدي المؤمنين وردّها إلى الله ورسوله ، انتقل الأمر إلى الحديث عن خروج المؤمنين يوم بدر .

ثالثاً : خروج المسلمين إلى بدر :

﴿ كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون يجادلونك في الحق بعدما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون ، وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين . ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون ﴾ (٥) .

روى ابن أبي حاتم في تفسيره وابن مردويه واللفظ له من طريق عبد الله بن لهيعة عن أبي أيوب الأنصاري قال : قال رسول الله ﷺ ونحز بالمدينة : « إني أخبرت عن غير أبي

(١) رواه البخاري . (٢) سهم غرب . لا يدري من أين جاء . (٣) رواه البخاري .

(٤) السيرة النبوية لأس هشام / ٢٦٨ / ٢ . (٥) الأنفال ٥١ ، ٨ .

أبى سفيان أنها مقبلة ، فهل لكم أن نخرج قبل هذه العير لعل الله يغنمناها ؟ فقلنا : نعم ، فخرج وخرجنا ، فلما سرنا يوماً أو يومين قال لنا : « ماترون فى القوم فإنهم قد أخبروا بمخرجكم ؟ » فقلنا : لا والله مالنا طاقة بقتال القوم ولكننا أردنا العير ، ثم قال : « ماترون فى قتال القوم ؟ » فقلنا مثل ذلك ، فقام المقداد بن عمرو فقال إذن لا نقول لك يا رسول الله كما قال قوم موسى لموسى اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون ، فتمنينا معشر الأنصار لو أنا قلنا مثل ما قال المقداد أحب إلينا من أن يكون لنا مال عظيم فأنزل الله عز وجل : ﴿ كما أخرجك ربك من بيتك بالحق ﴾ .

وروى ابن مردويه أيضاً عن علقمة بن وقاص الليثي عن أبيه عن جده قال : خرج رسول الله ﷺ إلى بدر ، حتى إذا كان بالروحاء خطب الناس فقال : « كيف ترون ؟ » فقال أبو بكر يا رسول الله : بلغنا أنهم بمكان كذا وكذا ، قال : ثم خطب الناس فقال : « كيف ترون ؟ » فقال عمر مثل قول أبو بكر ، ثم خطب الناس ، فقال : « كيف ترون ؟ » فقال سعد بن معاذ : يا رسول الله ، إيانا تريد ؟ فوالذى أكرمك ، وأنزل عليك الكتاب ما سلكتها قط ولا لى بها علم ، ولكن سرت حتى تأتي برك الغماد من ذى يمن لنسيرن معك ، ولا نكون كالذين قالوا لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا ، إنا هاهنا قاعدون ، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكم متبعون ، ولعل أن تكون خرجت لأمر ، وأحدث الله إليك غيره ، فانظر الذى أحدث الله إليك ، فامض فصل حبال من شئت ، واقطع حبال من شئت ، وعاد من شئت ، وسالم من شئت ، وخذ من أموالنا ما شئت ، فنزل القرآن على قول سعد ﴿ كما أخرجك ربك من بيتك بالحق ، وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون .. ﴾ الآيات .

(ذكره الأموى فى مغازيه وزاد بعد قوله : وخذ من أموالنا ما شئت ، وما أخذت منا كان أحب إلينا مما تركت ، وما أمرت به من أمر فأمرنا تبع لأمرك ، فوالله لئن سرت حتى تبلغ البرك من غمدان لنسيرن معك) (١) .

لعل هذين النصين هما اللذان يؤكدان مفهوم النص القرآنى :

﴿ كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون ، يجادلونك فى الحق بعد ما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون ﴾ .

ففرق من الجيش يكره لقاء العدو ، وعلى نسب متفاوتة فى هذا الكره ، وهذا الفريق

(١) البداية والنهاية ٢٦٢/٣ .

الذى يجادل راغباً فى عدم المواجهة لم نره من خلال نصوص السيرة ، وهو كأنما يساق إلى الموت سوقاً ، ومع هذا لم يفقد خصوصيته الإيمانية ، فهو فريق من المؤمنين .

ولحكمة ربانية ابتدأت سورة الأنفال من نهاية المعركة لتعود إلى عرضها من جديد منذ الخطوات الأولى فيها . وهذه الحكمة فيما يتراءى لنا من خلال العرض القرآنى - والله أعلم - هى إشعار المؤمنين أن المعركة منذ خطواتها الأولى حتى آخر خطوة فيها هى تدبير ربانى ، وليست تخطيطاً بشرياً ، وإرادة الله تعالى إذا اتجهت لأمر ، فلا بد أن يتم بقدر الله مهما كانت الأسباب فى ظاهر الأمر ضعيفة أو مفقودة .

فالله تعالى هو الذى أخرج رسوله ابتداءً .

﴿ كما أخرجك ربك من بيتك بالحق ﴾ .

وهذا الخروج الذى تم بقدر الله ، ونزع من التخطيط البشرى ، هو مثل قضية الأنفال التى نزلت ابتداءً من الرسول ﷺ والمؤمنين ، ثم عادت لرسول الله ﷺ .

فقد قال رسول الله ﷺ لسعد حين طلب سيفه : . .

« إن هذا السيف لالك ولالى ضعه » .

ثم قال بعد ذلك : كنت سألتنى السيف وليس هو لى ، وأنه قد وهب لى ، فهو لك^(١) .

والأنفال ابتداءً ، والخروج ابتداءً ، هو من الله تعالى^(٢) ، بقدر ربانى ، يرى فيه فريق من المؤمنين أنهم يساقون إلى الموت سوقاً ، وهم يساقون إلى النصر سوقاً ؛ كما يتحلى لنا بعد من خلال الآيات الكريمة .

قال أبو جعفر : والصواب من القول فى ذلك ما قاله ابن عباس وابن إسحاق من أن ذلك خبر من الله تعالى عن فريق من المؤمنين ، أنهم كرهوا لقاء العدو ، وكان جدالهم نبي الله ﷺ أن قالوا لم يعلمنا أنا تلقى العدو ؛ فنستعد لقتالهم ، وإنما خرجنا للعر ، ومما يدل على صحة قوله : ﴿ وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين .. ﴾^(٣) .

(١) من رويہ الإمام أحمد وأبى داود والترمذی .

(٢) أورد هذا المعنى الإمام القرطبي فى تفسيره عن الزجاج بقوله : (الكاف فى موضع نصب أى الأنفال ثابتة لك كما أخرجك ربك من بيتك بالحق) ٣٦٧/٧٠ .

(٣) ابن جرير الطبري فى التفسير ١٢٣/٩/٦ .

وإذا كان المجادل فريقاً من المؤمنين فإنّ الذين لا يرغبون القتال على ما يبدو هم المؤمنون جميعاً كما يبدو من قول الله عز وجل :

﴿ وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون ﴾ (١) وما ورد من نصوص السيرة من قبل يؤكد رغبة الجميع في العير ، كما يؤكد هذا المعنى كذلك ، الروايتان التاليتان :

(روى الإمام أحمد بسنده ، عن أنس رضى الله عنه : أن رسول الله ﷺ شاور حين بلغه إقبال أبى سفيان ، فتكلم أبو بكر فأعرض عنه ، ثم تكلم عمر فأعرض عنه ، فقال سعد بن عباد : إيانا يريد رسول الله ﷺ ؟ والذي نفسى بيده لو أمرتنا أن نخيضها البحار لأخضناها ، ولو أمرتنا أن نضرب أكبادها إلى برك الغماد لفعلنا ، فندب رسول الله ﷺ الناس . قال : فانطلقوا حتى نزلوا بدرأ ووردت عليهم روايا (٢) قريش ، وفيهم غلام أسود لبنى الحجاج ، فأخذوه وكان أصحاب رسول الله ﷺ يسألونه عن أبى سفيان وأصحابه ، فيقول : مالى علم بأبى سفيان ، ولكن هذا أبو جهل بن هشام وعتبة بن ربيعة وأمّية بن خلف ، فإذا قال ذلك ضربه ، فإذا ضربه قال : نعم أنا أخبركم هذا أبو سفيان ، فإذا تركوه ، فسألوه قال : مالى بأبى سفيان علم ، ولكن هذا أبو جهل وعتبة وشيبة وأمّية ، فإذا قال هذا أيضاً ضربه ، ورسول الله ﷺ قائم يصلى ، فلما رأى ذلك انصرف فقال : « والذي نفسى بيده إنكم لتضربونه إذا صدق وتتركونه إذا كذبكم » قال : وقال رسول الله ﷺ : « هذا مصرع فلان يضع يده على الأرض ، ها هنا وها هنا ، فما أماط أحدهم عن موضع يد رسول الله ﷺ ورواه مسلم عن أبى بكر عن عفان به نحوه (٣) .

قال ابن إسحاق :

ثم رجع رسول الله ﷺ إلى أصحابه ، فلما أمسى بعث على بن أبى طالب والزبير ابن العوام وسعد بن أبى وقاص في نفر من أصحابه إلى ماء بدر يلتمسون الخبر له عليه كما حدثني يزيد بن رومان عن عروة بن الزبير - فأصابوا راوية (٤) لقريش فيها أسلم غلام بنى الحجاج ، وعريض أبو يسار غلام بنى العاص بن سعيد ، فأتوا بهما وسألوهما ورسول الله ﷺ قائم يصلى ، فقالا : نحن سقاة قريش بعثونا نسقيهم من الماء . فكره القوم خبرهما ،

(٢) الروايا : الدين يستقون للباس من الآبار .

(٤) الراوية : الإبل التى يسقى الماء عبيد .

(١) الأنفال / ٧ - ٨ .

(٣) البداية والنهاية / ٢/ ٢٦٣ .

ورجوا أن يكونا لأبي سفيان ، فضربوهما ، فلما أذلّقوهما ^(١) قالوا : نحن لأبي سفيان ، فتركوهما ، وركع رسول الله ﷺ وسجد سجديته ثم سلم ، وقال : « إذا صدقاكم ضربتموهما ، وإذا كذباكم تركتموهما صدقا ، والله إنهما لقريش ، أخبراني عن قريش . قالوا : هم والله وراء هذا الكتيب ^(٢) الذي ترى بالعدوة القصوى ، فقال لهما رسول الله ﷺ : « كم القوم ؟ » قالوا : كثير . قال : « ما عدتكم ؟ » قالوا : لاندري . قال : « كم ينحرون كل يوم ؟ » قالوا : يوماً تسعاً ويوماً عشراً ، فقال رسول الله ﷺ : « القوم فيما بين التسعمائة والألف » ثم قال لهما : « فمن فيهم من أشرف قريش ؟ » قالوا : عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وأبو البختری بن هشام ، وحكيم بن حزام ، ونوفل بن خويلد ، والحارث بن عامر بن نوفل ، وطعيمة بن عدی بن نوفل ، والنضر بن الحارث ، وزمعة بن الأسود ، وأبو جهل بن هشام ، وأمّية بن خلف ، ونبیه ومنبه ابنا الحجاج ، وسهيل بن عمرو ، وعمرو بن عبد ود ، فأقبل رسول الله ﷺ على الناس وقال : « هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ أكبادها » ^(٣) .

فالرواية الأولى والثانية تؤكدان أن هوى المسلمين كان العير ، وليس ذات الشوكة ، فهم يضربون الأسيرين حين يقولان أنهما لقريش كراهة لقولهما خوفاً من الصدام ، ويتركوهما حين يعترفان أنهما لأبي سفيان حرصاً على العير .

ولعل الرواية الثانية قدمت خيرة النماذج في الصف المسلم ، وهي تكره اللقاء .. ويكفي أن نعرف أن ثلاثة منهم من العشرة المبشرين بالجنة ، وهم على والزبير وسعد . لكن حتى تكتمل الصورة لا بد من عرض الجانب الآخر منها .

فإذا كان الجميع يودون غير ذات الشوكة ، تحاشياً للحرب ، وقد خرجوا على غير استعداد وتعبئة لها ، ويريد الله تعالى بهم أعظم بكثير مما يريدونه بأنفسهم ولأنفسهم ، فالله تعالى يريد أن يحق بهم الحق ويطل الباطل ، ولو كره المجرمون ، ويريد أن يقطع بهم دابر الكافرين ، ويستأصل شأفتهم ، وهم في أنفسهم أقل من ذلك ، وأضعف من ذلك ، ومنتهى طموحاتهم أن يكسبوا عير أبي سفيان .

تنمة الصورة أن هؤلاء المؤمنين الراغبين بغير ذات الشوكة كانوا فريقين : الفريق الأول الذي أبرز كرهه للقاء العدو ، وراح يجادل محاولاً إبعاد المعركة وكأنما يساق إلى

(١) أذلّقوهما ضرباً : بالغوا في ضربهما .
(٢) الكتيب : التل الصغير من الرمل .

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ٢/٢٥٥ ، ٢٥٦ .

الموت وهو ينظر .

والفريق الثانى الذى تخلى عن رغبته وهواه ، وأعلن استعداداه للموت والتضحية فى سبيل الله بكل قطرة من دمه مهما كانت جسامه التضحيات وثقل التبعات ، وذلك بكامل اختياره ورغبته ، مادام هوى رسول الله ﷺ هو ذات الشوكة .

فقد أخرج البخارى رحمه الله عن ابن مسعود قوله :

(شهدت من المقداد بن الأسود مشهداً لأن أكون صاحبه أحب إلى مما عدل به ، أتى النبى ﷺ ، وهو يدعو على المشركين ، فقال : لا نقول لك كما قال قوم موسى لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون ، ولكن نقاتل عن يمينك وعن شمالك ، وبين يديك وخلفك ، فرأيت النبى ﷺ أشرق وجهه وسره) (١) .

وقال الإمام أحمد عن أنس قال : استشار النبى ﷺ مخرجه إلى بدر فأشار عليه أبو بكر ، ثم استشارهم فأشار عليه عمر ، ثم استشارهم فقال بعض الأنصار إياكم يريد رسول الله : يامعشر الأنصار . فقال بعض الأنصار : يا رسول الله : إذن لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا ، إنا هاهنا قاعدون ، ولكن والذى بعثك بالحق لو ضربت أكبادها إلى برك الغماد لاتبعناك ، وهذا إسناد ثلاثى صحيح على شرط الصحيح) (٢) .

قال ابن إسحاق : « ... وأتاه الخبر عن قريش بمسيرهم ؛ ليمنعوا غيرهم ، فاستشار الناس ، وأخبرهم عن قريش فقام أبو بكر الصديق فقال وأحسن ، ثم قام عمر بن الخطاب فقال وأحسن ، ثم قام المقداد بن عمرو فقال : يا رسول الله امض لما أراك الله فنحن معك ، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى . اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون ، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ، فوالذى بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد (٣) لجالدنا معك من دونه حتى تبغى ، فقال له رسول الله ﷺ خيراً ودعا له ، ثم قال رسول الله ﷺ : « أشيروا على أيها الناس » وإنما يريد الأنصار ، وذلك أنهم عدد الناس ، وأنهم حين يابعوه بالعقبة قالوا : يا رسول الله . إنا برآء من ذمامك حتى تصل إلى ديارنا ، فإذا وصلت إلينا فأنت فى ذمتنا نمنعك مما تمنع منه أبناؤنا ونساءنا ، فكان رسول الله ﷺ يتخوف ألا تكون الأنصار ترى عليها نصرة إلا ممن دهمه (٤) بالمدينة من عدوه ، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو من بلادهم ، فلما قال ذلك رسول الله

(٣) برك الغماد : موضع بباحية اليمن .

(١ ، ٢) البداية والنهاية ٢/٣٦٢/٢ .

(٤) دهمه : فجأه .

ﷺ قال له سعد بن معاذ : والله لكأنك تريدنا يا رسول الله ، قال : « أجل » قال : قد آمنا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا وموآثيقنا على السمع والطاعة ، فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك ، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ، ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً ، إنا لصبر في الحرب ، صدق في اللقاء ، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك ، فسر بنا على بركة الله ، فسر رسول الله ﷺ بقول سعد ونشطه ذلك ، ثم قال : « سيروا وأبشروا فإن الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين . والله لكأنى الآن أنظر إلى مصارع القوم » (١) .

فالروايات الآتية الذكر تؤكد أن الفريق الثاني الذي لم يكن يود في الأصل ذات الشوكة قد تخطى هواه ، وتخطى ما يود ، وكان عند حسن ظن النبي ﷺ به .

ونلاحظ الملاحظات السريعة حول هذا الموقف :

١ - أن القرآن ينزل غضاً على هذا الجبل ، وينبعث حياً في نفوسهم . وأن موقف بنى إسرائيل من موسى عليه الصلاة والسلام ، وتخاذلهم عنه حين قالوا له : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون - قد ضرب جذوره في أعماق هذا الجيل المسلم ، وجعل في حسه خوفاً وفزعاً أن تتكرر هذه المأساة فيهم فيحرمون النصر ، وتنزل بهم عقوبة الله عز وجل ، كما حلت ببنى إسرائيل .

٢ - أن جو القرآن العبق بالآيات المنزلة الحاتئة على الجهاد - كان له أقوى الأثر في اندفاعهم واستعدادهم لتلبية نداء النبوة الخالد بالمواجهة مع العدو ، فمن آيات الإذن إلى آيات فرض القتال ، إلى النماذج الإيمانية الرائعة في قصة طالوت وأمثالها حيث كانت تفعل فعلها في النفوس تعبئة وإعداداً ورغبة في الجهاد في سبيل الله .

٣ - لاعجب أن يكون المهاجرون على أعلى مستوى من الجاهزية لمواجهة المشركين ، ولقد قاموا خلال العام الفائت بدورات كبيرة من خلال السرايا التي كان رسول الله ﷺ يبعثها لملاحقة القوافل ، أو استكشاف الأخبار ، بينما لم يسهم الأنصار على الأرجح في السرايا قبل بدر ، ولهذا كان رأى أبي بكر وعمر على وضوحه وحماسه لم يأخذ كثيراً من اهتمام النبي ﷺ على فضلتهما لأنه كان يريد معشر الأنصار .

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٥٣ .

٤ - ومن العجيب حقاً أن تبرز هذه النوعيات الضخمة من الأنصار رضى الله عنهم ، فالمهاجرون قد مر على معظمهم ما يزيد عن عشر سنوات من التربية ، أما الأنصار فحصوله الأعوام الثلاثة الأخيرة بل معظمهم لم يمر عليه أكثر من عامين فى هذا الدين الجديد ، ومع ذلك فقد برز منهم من ضروب البسالة والتضحية ما فاقوا به إخوانهم المهاجرين .

لقد كانت بدر التجربة الأولى بالنسبة لهم فى الجليل الإسلامى ، لكن تجربتهم القتالية السابقة قد تكون أكثر خبرة من المهاجرين أنفسهم ، وذلك فى المجتمع الجاهلى قبل الإسلام ، وما يوم بعثت بسر ، ومن أجل هذا ركز سعد رضى الله عنه على هذا المعنى حين قال : **إِنَّا لَصَبْرٌ فِي الْحَرْبِ ، صَدُقْ عِنْدَ الْلِقَاءِ** ، فسر بنا على بركة الله لعل الله يريك منا ما تقر به عينك .

٥ - وقد كانوا فى بدر ثلاثة أضعاف المهاجرين ، ومن أجل ذلك كانت كلمتهم هى الفصل فى قرار المعركة ، وتؤكد كتب السيرة على الإصرار على المشاورة لهم ؛ لأن الخروج للعدو خارج عن نطاق عقد العقبة وبيعة الحرب ، غير أن كلام سعد كان بمثابة بيعة جديدة باسم الأنصار جميعاً ألغت القيود السابقة ، ووسعت نطاق المواجهة إلى كل مكان فى الأرض .. لو خضت بنا هذا البحر لخضناه معك ، ما تخلف منا رجل واحد .

٦ - ومن هذه البيعة الجديدة التى شارك فيها السعدان كما تقول الروايات . كانت الطمأنينة النبوية إلى ذات الشوكة التى وعد الله بها نبيه إن فاتته العير . ورسم قمة هذه المعركة بقوله : **« سِيرُوا وَأَبْشَرُوا ؛ فَكَأْنِي أَنْظُرُ إِلَى مِصَارِعِ الْقَوْمِ »** .

٧ - **« هذه مكة قد ألفت إليكم أفلاذ أكبادها والله لكأني أنظر إلى مِصَارِعِ الْقَوْمِ »** وماذا كان مصير القادة الخمسة عشر الذين جاءوا على رأس جيش مكة ؟ ثم قال لهما : فمن فيهما من أشرف قريش ؟ قالوا :

١ ، ٢ - **عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة :**

(ثم خرج بعده عتبة بن ربيعة بين أخيه شيبة بن ربيعة ، وابنه الوليد بن عتبة حتى إذا فصل من الصف دعا إلى المبارزة ، فخرج إليه فنية من الأنصار ثلاثة وهم : عوف ومعوذ ابنا الحارث وأمهما عفراء ، ورجل آخر يقال هو عبد الله بن رواحة فقالوا : من أنتم ؟ فقالوا : رهط من الأنصار ، قالوا : ما لنا بكم من حاجة . ثم نادى مناديهم : يا محمد أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا ، فقال رسول الله ﷺ : قم يا عبدة بن الحارث ، قم يا حمزة ،

قم يا على ، فلما قاموا ، ودنوا منهم ، قالوا : من أنتم ؟ قال عبيدة : عبيدة ، وقال حمزة : حمزة ، وقال على : على ، قالوا : نعم أكفاء كرام ، فبارز عبيدة وكان أسن القوم عتبة بن ربيعة ، وبارز حمزة شيبة بن ربيعة ، وبارز على الوليد بن عتبة ، فأما حمزة فلم يمهل شيبة أن قتله ، وأما على فلم يمهل الوليد أن قتله ، واختلف عتبة وعبيدة ضربتين كلاهما أثبت صاحبه ، وكر حمزة وعلى بأسيا فهما على عتبة فذفعا عليه ^(١) واحتملا صاحبهما فحازاه إلى أصحابه ^(٢) .

٣ - وأبو البختري بن هشام :

روى ابن إسحاق بسنده عن ابن عباس :

أن النبي ﷺ قال لأصحابه يومئذ : إني قد عرفت رجالاً من بني هاشم وغيرهم قد أخرجوا كرهاً ، لا حاجة لهم بقتالنا ، فمن لقي منكم أحداً من بني هاشم فلا يقتله ، ومن لقي العباس بن عبد المطلب عم رسول الله فلا يقتله ، ومن لقي أبا البختري بن هشام بن الحارث ابن أسد فلا يقتله ...

قال ابن هشام : وإنما نهى رسول الله ﷺ عن قتل أبي البختري لأنه كان أكف الناس عن رسول الله ﷺ وهو بمكة ، وكان لا يؤذيه ، ولا يبلغه عنه شيء يكرهه ، وكان ممن قام في نقض الصحيفة التي كتبت قريش على بني هاشم وبني المطلب ، فلقية المجذّر ابن زياد البلوي حليف الأنصار ، فقال المجذّر لأبي البختري : إن رسول الله ﷺ قد نهانا عن قتلك ومع أبي البختري زميل له قد خرج معه من مكة ، وهو جنادة بن مليحة .. قال وزميلي ؟ فقال له المجذّر : لا والله ما نحن بتاركى زميلك ، ما أمرنا رسول الله ﷺ إلا بك وحدك ، قال : لا والله إذن لأموتن أنا وهو جميعاً لاتحدث نساء مكة أني تركت زميلي حرصاً على الحياة . فقال أبو البختري حين نازله المجذّر وأبى إلا القتال : لن يسلم ابن حرة زميله ؛ حتى يموت أو يرى سبيله ، فاقتلا فقتله المجذّر بن زياد ، ثم إن المجذّر أتى رسول الله ﷺ فقال : والذي بعثك بالحق لقد جهدت عليه أن يستأسر فأبى إلا أن يقاتلني ، فقاتلته فقتلته ^(٣) .

٤ - وحكيم بن حزام :

(ولما نزل القوم بعث رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب رضى الله عنه إليهم يقول : ارجعوا ارجعوا ؛ فإنه إن يل هذا الأمر مني غيركم أحب إلي من أن تلوه مني وأن أليه من

(١) ذفعا عليه : أسرعا في قتله .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢/٢٦٩ - ٢٧١ .

غيركم أحب إليّ من أن أليه منكم ، فقال حكيم بن حزام : قد عرض نصفاً ^(١) فأقبلوه ، والله لا تنصرون عليه بعد ما عرض من النصف ، فقال أبو جهل : والله لا نرجع بعد أن أمكننا منهم ، وأقبل نفر من قريش حتى وردوا الخوض : منهم حكيم بن حزام ، فأراد المسلمون طردهم فقال ﷺ : « دعوهم » فوردوا الماء فشربوا ، فما شرب منهم أحد إلا قتل ، إلا ما كان من حكيم بن حزام نجاً ^(٢) ثم أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه فكان إذا اجتهد في يمينه قال ^(٣) : لا ، والذي نجاني يوم بدر .

٥ - ونوفل بن خويلد :

قال ابن إسحاق : ونوفل بن خويلد بن أسد وهو ابن العدوية ، وهو الذي قرن أبا بكر الصديق وطليحة بن عبيد الله حين أسلما في حبل ، فكان يسميان القرينين لذلك ، وكان من شياطين قريش قتله على بن أبي طالب ^(٤) .

٦ ، ٧ - والحارث بن عامر بن نوفل وطعيمة بن عدى بن نوفل :

ومن بنى نوفل بن عبد مناف الحارث بن عامر بن نوفل ، قتله فيما يذكرون خبيب بن إساف أخو بنى الحارث بن الخزرج ، وطعيمة بن عدى بن نوفل قتله على بن أبي طالب ، ويقال حمزة بن عبد المطلب ^(٥) .

٨ - والنضر بن الحارث :

قال ابن إسحاق : حتى إذا كان رسول الله ﷺ بالصفراء قتل النضر ابن الحارث « أحد الأسرى » قتله على بن أبي طالب كما أخبرني بعض أهل العلم من أهل مكة .

قال ابن هشام : فقالت قُتَيْلَةُ بنت الحارث أخت النضر بن الحارث في مقتل أخيها :

... أمحمد يا خير ضيء كريمة
من قومها والفحل فحل معرق
ما كان ضورك لو مننت وربما
منّ الفتى وهو المغيظ المحنق
أو كنت قابل فدية فلينفقن
بأعز ما يغلو به ما ينفق
والنضر أقرب من أسرت قرابة
وأحقهم إن كان عتق يعتق ^(٦)

(٢) إمتاع الأسماع / ٨٢/١ .

(٤) السيرة لابن هشام / ٣٥٧/٢ .

(٦) البداية والنهاية / ٣٠٧/٣/٢ .

(١) نصفاً : عدلاً .

(٣) السيرة لابن هشام / ٢٦١/٢ .

(٥) المصدر نفسه / ٣٥٧/٢ .

ظلت سيوف بنى أبيه تنوشه^(١) لله أرحام هناك تشقق

صبراً يقاد إلى المنية متعباً رسف^(٢) المقيد وهو عان^(٣) موثق

قال ابن هشام : ويقال والله أعلم أن رسول الله ﷺ لما بلغه هذا الشعر قال : لو بلغنى هذا قبل قتله لمننت عليه^(٤) .

٩ - وزمعة بن الأسود :

قال ابن إسحاق :

وكان الأسود بن المطلب قد أصيب له ثلاثة من ولده : زمعة بن الأسود وعقيل بن الأسود والحارث بن زمعة . وكان يحب أن يبكى على بنيه ، قال : فبينما هو كذلك إذ سمع نائحة من الليل ، فقال للغلام له وقد ذهب بصره انظر هل أُخلَّ النَّحْبُ ؟ هل بكت قريش على قتلاها لعلى أبكى على أبى حكيمة ؟ - يعنى زمعة - فإن جوفى قد احترق ، قال : فلما رجع إليه الغلام قال : إنما هى امرأة تبكى على بعير لها أضلته ، قال : فذاك حين يقول الأسود :

أتبكى أن يضل لها بعير
فلا تبكى على بكر^(٥) ولكن
على بدر سراة^(٦) بنى هصيص
وبكى إن بكيت على عقيل
وبكيتهم ولا تسمى جميعاً
ألا قد ساد بعدهم رجال

ويمنعها من النوم السهود
على بدر تقاصرت الجودود
ومخزوم ورهط أبى الوليد
وبكى حارثاً أسد الأسود
وما لأبى حكيمة من نديد
ولولا يوم بدر لم يسودوا^(٧)

١٠ - وأبو جهل بن هشام :

(ومن بنى مخزوم بن يقظة بن مرة : أبو جهل بن هشام ، واسمه عمرو بن هشام بن المغيرة ، ضربه معاذ بن عمرو بن الجموح ، فقطع رجله ، وضرب ابنه عكرمة يد معاذ

(١) تنوشه : تتناوله .

(٢) الرسف : مشية المقيد .

(٣) عان : أسير .

(٤) البداية والنهاية لابن كثير ٢/ ٣٠٧ .

(٥) بكر : الفتى من الإبل .

(٦) سراة القوم : خيارهم وأشرافهم .

(٧) السيرة لابن هشام ٢/ ٢٩١ ، ٢٩٢ .

فطرحها ، ثم ضربه معوذ بن عفراء حتى أثبتته ^(١) ، ثم تركه وبه رمق ، ثم ذفف ^(٢) عليه
عبدالله بن مسعود ، فاحتز رأسه حين أمر رسول الله ﷺ به أن يلتمس بين القتلى ^(٣) .

١١ - وأمية بن خلف :

قال ابن إسحاق بسنده عن عبد الرحمن بن عوف رضی الله عنه :

(... قال لى أمية بن خلف وأنا بينه وبين ابنه آخذ بأيديهما : يا عبد الإله من الرجل
منكم المعلم بريشة نعمة فى صدره ؟ قال قلت : ذاك حمزة بن عبد المطلب قال : ذاك
الذى فعل بنا الأفاعيل ، قال عبد الرحمن : فوالله إنى لأقودهما إذ رآه بلال معى ، وكان
هو الذى يعذب بلالاً بمكة على ترك الإسلام ، فيخرجه إلى رمضاء مكة إذا حميت
فيضجعه على ظهره ، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ، ثم يقول : لاتزال
هكذا أو تفارق دين محمد ، فيقول بلال : أحد أحد . فلما رآه قال : رأس الكفر أمية بن
خلف ؟ لانجوت إن نجا ، قال . قلت : أى بلال أبأسيرى ؟ قال : لانجوت إن نجا . قلت :
أتسمع يابن السوداء ؟ قال : لانجوت إن نجا . قال : ثم صرخ بأعلى صوته : يا أنصار الله
رأس الكفر أمية بن خلف ، لانجوت إن نجا . قال : فأحاطوا بنا ، حتى جعلونا فى مثل
المسكة ^(٤) وأنا أذب عنه ، قال : فأخلف ^(٥) رجل السيف فضرب رجل ابنه ، فوقع وصاح
أمية صيحة ماسمعت بمثلها قط ، قال . فقلت : انج بنفسك ، ولا نجاء بك ، فوالله ما أغنى
عنك شيئاً ، قال : فهبروهما ^(٦) بأسيا فهم ؛ حتى فرغوا منهما .. ^(٧) .

١٢ ، ١٣ - ونييه ومنبه ابنا الحجاج :

(ومن بنى سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤى . منبه بن الحجاج - قتله أبو
اليسر أخو بنى سلمة ، وابنه العاص بن منبه بن الحجاج قتله على بن أبى طالب فيما قال ابن
هشام ، ونييه بن الحجاج ، قتله حمزة بن عبد المطلب وسعد بن أبى وقاص اشتركا فيه فيما
قال ابن هشام) ^(٨) .

١٤ - وسهيل بن عمرو :

قال ابن إسحاق (بسنده) :

-
- (١) أثبتته : كاد أن يقتله .
(٢) دفف عليه : أسرع فى قتله .
(٣) المصدر السابق / ٢ / ٣٥٨ .
(٤) المسكة : السوار من عاج .
(٥) فأخلف رجل السيف : إذا رد يده إليه فسلمه من غمده .
(٦) هبروهما : قطعوا لحمهما .
(٧) السيرة لابن هشام / ٢ / ٢٧٢ ، ٢٧٣ .
(٨) المصدر نفسه ٢ / ٣٦١ .

قدم بالأسارى حين قدم بهم ، وسودة بنت زمعة زوج النبي ﷺ عند آل عفراء فى مناحتهم على عوف ومعوذ ابني عفراء ، وذلك قبل أن يضرب عليهن الحجاب ، قال : تقول سودة :

والله إني لعندهم إذ أتينا فقيـل : هؤلاء الأسارى قد أتى بهم ، قالت : فرجعت إلى بيتي ورسول الله ﷺ فيه ، وإذا أبو يزيد سهيل بن عمرو فى ناحية الحجرة مجموعة يده إلى عنقه بحبل ، قالت : فوالله ما ملكت نفسى - حين رأيت أبا يزيد كذلك ، أن قلت : أى أبا يزيد ، أعطيتكم بأيديكم ، ألا متم كراماً ، فوالله ما أنبهنى إلا قول رسول الله ﷺ من البيت : « يا سودة أعلى الله ورسوله تحرضين ؟ » قالت : قلت : يارسول الله ، والذى بعثك بالحق ما ملكت نفسى حين رأيت أبا يزيد مجموعة يده إلى عنقه أن قلت ما قلت .

ثم بعثت قريش فى فداء الأسرى . فقدم مكرز بن حفص فى فداء سهيل بن عمرو .

وكان الذى أسره مالك بن الدخشم أخو بنى سالم بن عوف . فقال :

أسرت سهيلاً فلا ابتغى أسيراً به من جميع الأمم
وخذق تعلم أن الفتى فهاها سهيل إذا يظلم
ضربت بذى الشفر^(١) حتى اثنتى وأكرهت نفسى على ذى العلم^(٢) ، (٣)

(قال ابن إسحاق بسنده : إن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال لرسول الله ﷺ : يارسول الله ، دعنى أنزع ثنية سهيل بن عمرو يدلغ^(٤) لسانه ، فلا يقوم عليك خطيباً فى موطن أبداً ، فقال رسول الله ﷺ : « لا أمثل به فيمثل الله بى وإن كنت نبيا » .

قال ابن إسحاق : وقد بلغنى أن رسول الله ﷺ قال لعمر فى هذا الحديث : « إنه عسى أن يقوم مقاماً لاتذمه » (٥) .

(قال ابن هشام : حدثنى أبو عبيدة وغيره من أهل العلم أن أكثر أهل مكة لما توفى رسول الله ﷺ هموا بالرجوع عن الإسلام ، وأرادوا ذلك حتى خافهم عتاب بن أسيد فتواری ، فقام سهيل بن عمرو ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم ذكر وفاة رسول الله ﷺ

(٢) دى العلم : الأعلام مشقوق الشفة العليا .

(٤) يدلغ لسانه : يخرج .

(١) ذى الشفر : السيف .

(٣) البداية والنهاية ٣/ ٢١١ .

(٥) السيرة لابن هشام ٢/ ٢٩٣ .

وقال : إن ذلك لم يزد الإسلام إلا قوة ، فمن رابنا ضربنا عنقه ، فتراجع الناس وكفوا عما هموا به ، وظهر عتاب بن أسيد . فهذا المقام الذى أراد رسول الله ﷺ فى قوله لعمر بن الخطاب : « إنه عسى أن يقوم مقاماً لاتذمه » (١) .

١٥ - وعمر بن عبدود :

قال ابن إسحاق : (ثم تيمموا مكاناً ضيقاً من الخندق فضربوا خيولهم فاقتحمت منه ، ... وكان عمرو بن عبدود قد قاتل يوم بدر حتى اثبتته الجراحة ، فلم يشهد يوم أحد ، فلما كان يوم الخندق خرج معلماً (٢) ليرى مكانه ، فلما وقف هو وخيله قال : من يبارز ؟ فبرز له على ابن أبى طالب فقال له : يا عمرو إنك قد كنت عاهدت الله ألا يدعوك رجل من قريش إلى إحدى خلتين إلا أخذتها منه ، قال له : أجل ، قال له على : فإنى أدعوك إلى الله ورسوله وإلى الإسلام ، قال : لا حاجة لى بذلك ، قال : فإنى أدعوك إلى النزال ، فقال له : لم يابن أخى ؟ فوالله ما أحب أن أقتلك ، قال له على : ولكنى والله أحب أن أقتلك ، فحمى (٣) عمرو عند ذلك ، فاقتحم عن فرسه فحقرة وضرب وجهه ، ثم أقبل على على فتنازلا وتجاولا ، فقتله على رضى الله عنه ، وخرجت خيلهم منهزمة حتى اقتحمت عن الخندق هاربة (٤) .

وها نحن أولاء رأينا أشراف مكة الخمسة عشر ، والذين قال رسول الله ﷺ فيهم « هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ أكبادها » قد لقوا مصرعهم جميعاً فى بدر إلا ما كان من حكيم بن حزام وسهيل بن عمرو اللذين أسلما فحسن إسلامهما ، وما كان من عمرو بن عبدود ، الذى لقي مصرعه يوم الخندق على يدى على بن أبى طالب رضى الله عنه .

فأى شوكة وأى نصر يفوق هذا النصر بمصرع هؤلاء القادة الكبار ؟؟؟

﴿ إذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم ، وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ، ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين . ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون ﴾ (٥) .

(١) المصدر نفسه / ٤ / ٢٤٦ .

(٢) معلماً : هو الذى جعل لنفسه علامة يعرف بها .

(٣) حمى : غضب واشتد غضبه .

(٤) السيرة لابن هشام / ٣ / ٢٤٠ .

(٥) الأنفال / ٧ - ١٠ .

رابعاً : النصر الحقيقي من الله . وكل مادونه ستار لقدر الله :

١ - الاستغاثة بالله ونزول الملائكة :

﴿ إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى مَدَّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّينَ .
وما جعله الله إلا بشراً وتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم ﴾ (١) .

(روى أحمد ومسلم ، وأبو داود والترمذى وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وغيرهم ، عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما قال : حدثنى عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : لما كان يوم بدر نظر النبي ﷺ إلى أصحابه وهم ثلاثمائة رجل وبضعة عشر رجلاً ، ونظر إلى المشركين فإذا هم ألف وزيادة ، فاستقبل نبي الله القبلة ثم مَدَّ يده ، وجعل يهتف بربه : « اللهم انجز لى ما وعدتنى ، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لاتعبد فى الأرض » فما زال يهتف بربه ماداً يديه مستقبل القبلة حتى سقط رداؤه ، فأتاه أبو بكر رضى الله عنه ، فألقاه على منكبيه ، ثم التزمه من ورائه وقال : يانى الله كفاك مناشدتك لربك ؛ فإنه سينجز لك ما وعدك ، فأنزل الله تعالى : ﴿ إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى مَدَّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّينَ ﴾ فلما كان يومئذ والتقوا هزم الله المشركين ، فقتل منهم سبعون رجلاً وأسروا سبعون .

وأما البخارى فروى عن ابن عباس قال : قال النبي ﷺ يوم بدر : « اللهم إنى أنشدك عهدك ووعدك ، اللهم إن شئت لم تعبد » فأخذ أبو بكر بيده فقال : حسبك ، فخرج وهو يقول : ﴿ سيهزم الجمع ويولون الدبر ﴾ .

وعن سعيد بن منصور من طريق عبيد الله بن عبد الله بن عتبة قال :

لما كان يوم بدر نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين وتكاثرهم . وإلى المسلمين فاستقلهم ، فركع ركعتين ، وقام أبو بكر عن يمينه ، فقال رسول الله ﷺ وهو فى صلاته :

« اللهم لا تدع منى ، اللهم لاتخذلنى ، اللهم لاتترنى (٢) ، اللهم أنشدك ما وعدتنى » .

وعن ابن إسحاق فى سيرته أنه ﷺ قال :

(١) الأنفال ٩ - ١٠ . (٢) لاتترنى : لاتجعلنى وترأ أو فرداً يقطع الأهل والأنصار .

« اللهم هذه قریش أتت بخيلها وفخرها ، تحادك وتكذب رسولك ، اللهم فنصرك الذى وعدتنى » . (١)

(يقول ابن إسحاق : وقد خفق رسول الله ﷺ خفقة ، وهو فى العريش ثم انتبه فقال : « أبشر يا أبا بكر ، أتاك نصر الله ، هذا جبريل آخذ بعنان فرسه يقوده على ثناياه النقع ») (٢) .

وروى ابن جرير الطبرى عن على رضى الله عنه قال :

(نزل جبريل فى ألف من الملائكة عن ميمنة النبى ﷺ ، وفيها أبو بكر رضى الله عنه ، ونزل ميكائيل عليه السلام فى ألف من الملائكة عن ميسرة النبى ﷺ وأنا فيها) . (٣)

٢ - الملائكة للبشرى والطمأنينة !

﴿ .. وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم . وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم ﴾ .

يقول ابن جرير للطبرى :

(يقول تعالى ذكره : لم يجعل الله إرداف الملائكة بعضها بعضاً وتتابعها بالمصير إليكم أيها المؤمنون مدداً لكم إلا بشرى لكم ، أى بشارة لكم ، تبشركم بنصر الله إياكم على أعدائكم ، ولتطمئن به قلوبكم ، يقول : ولتسكن قلوبكم بمجيئها إليكم وتوقن بنصر الله لكم ، وما النصر إلا من عند الله ، يقول : وما تنصرون على عدوكم أيها المؤمنون إلا أن ينصركم الله عليهم ، لا بشدة بأسكم وقواكم ، بل بنصر الله لكم ؛ لأن ذلك بيده وإليه ، ينصر من يشاء من خلقه ، إن الله عزيز حكيم ، يقول : إن الله الذى ينصركم وييده نصر من يشاء من خلقه ، عزيز لا يقهرة شيء ولا يغلبه غالب ، بل يقهر كل شيء ويغلبه لأنه خلقه ، حكيم ، يقول : حكيم فى تديره ونصره من نصر ، وخذلانه من خذل من خلقه لا يدخل تديره وهن ولا خلل) . (٤)

فالملائكة إذن لا تحقق النصر ، وقوة بأس المؤمنين لا تحقق النصر ، بل المؤمنون والملائكة ستار لقدر الله ، وجنود الله تعالى ينصر بهم وبغيرهم ؛ لأن النصر بيده سبحانه .

(٣) السيرة لابن هشام / ٢ / ٢٦٧ .

(٢) النقع : الغبار .

(١) تفسير المنار ٩ / ٦٠٢ ، ٦٠٣ .

(٥) تفسير الطبرى / ٦ / ٩ / ١٢٩ .

(٤) تفسير الطبرى / ٦ / ٩ / ١٢٨ .

وهذا المعنى الذى يشهده المؤمنون اليوم فى بدر له مذاق خاص ، وله حلاوة خاصة ، فليس معنى مجرداً فى الذهن ، أو أملاً معقوداً فى الأفق ، بل هو واقع حتى لاتزال آثاره الضخمة فى حسهم وشعورهم ، ولا بد أن يتم التجرد الكامل من عالم الأسباب ، وإعادة الأمر كله لله .

فالأنفال لله ، والخروج بقدر الله ، واختيار ذات الشوكة بتدبير الله ، والملائكة بشرى من الله ، فماذا تبقى للمؤمنين . ؟

٣ - النعاس من جنود الله :

﴿ إذ يغشيكم النعاس أمانة منه ﴾ .

(عن على رضى الله عنه قال : ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد على فرس أبلق ، ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم إلا رسول الله ﷺ تحت شجرة يصلى ويكسى حتى أصبح ، ذكره البيهقى والماوردى ، وفى امتنان الله تعالى عليهم بالنوم فى هذه الليلة وجهان : أحدهما أنه قواهم بالاستراحة على القتال من الغد ، الثانى - أن أمنهم بزوال الرعب من قلوبهم ، كما يقال : الأمن منيم والخوف مسهر ، وقيل : غشاهم فى حال التقاء الصفين) . (١)

٤ - الماء من جنود الله وله وظائف أربع :

﴿ وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام ﴾ . (٢)

(ظاهر القرآن يدل على أن النعاس كان قبل المطر ، وقال ابن أبى نجيح : كان المطر قبل النعاس وحكى الزجاج ، أن الكفار يوم بدر سبقوا المؤمنين إلى ماء بدر فنزلوا عليه ، وبقي المؤمنون لأماء لهم ، فوجست (٣) نفوسهم ، وعطشوا وأجنبوا وصلوا كذلك ، فقال بعضهم فى نفوسهم بإلقاء الشيطان إليهم : نزع أنا أولياء الله وفينا رسوله وحالنا هذه والمشركون على الماء ؟ فأنزل الله المطر ليلة بدر السابعة عشر من رمضان حتى سالت الأودية ؛ فشربوا وتطهروا وسقوا الظهر (٤) وتلبدت السبخة (٥) التى كانت بينهم وبين

(١) تفسير القرطبي ٤ / ٧ / ٣٧٢ .

(٢) الأنفال : ١١ .

(٣) وجست : وقع فى نفوسهم الفرع .

(٤) الظهر : الإبل التى يحمل عليها ويركب .

(٥) السبخة : أرض دات ملح ونز والمراد بها هنا الأرض التى تسوخ فيها الأرجل .

المشركين ؛ حتى ثبتت فيه أقدام المسلمين وقت القتال) . (١) وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال :

(نزل النبي ﷺ يعنى حين صار إلى بدر والمسلمون بينهم وبين الماء رملة دعصة (٢) ، فأصاب المسلمون ضعف شديد ، وألقى الشيطان فى قلوبهم الغيظ ، فوسوس بينهم : تزعمون أنكم أولياء الله ، وفيكم رسوله ، وقد غلبكم المشركون على الماء ، وأنتم تصلون معجبين ؟

فأمطر الله عليهم مطراً شديداً ، فشرب المسلمون وتطهروا ، وأذهب الله عنهم رجز الشيطان ، وثبت الرمل حين أصابه المطر ، ومشى الناس عليه والدواب ، فساروا إلى القوم ، وأمد الله نبيه بألف من الملائكة ، فكان جبريل عليه السلام فى خمسمائة من الملائكة مجنبة ، وميكائيل فى خمسمائة مجنبة) . (٣)

٥ - الملائكة بحاجة إلى معية الله سبحانه :

﴿ إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم ﴾ .

فالملائكة بدون عون الله تعالى عاجزون عن تحقيق أى نصر ، حتى وهم يثبتون المؤمنين ويقاتلون معهم ، لا بد لهم من معية الله سبحانه ، ليلقى الرعب فى قلوب الكافرين .

٦ - الله تعالى يدير المعركة :

﴿ إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم ففتوا الذين آمنوا سألنى فى قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق . واضربوا منهم كل بنان . ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب . ذلكم فذوقوه وأن للكافرين عذاب النار ﴾ . (٤)

(وأما قوله : ﴿ إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم ففتوا الذين آمنوا ﴾ يقول : قووا عزمهم ، وصححوا نياتهم فى قتال عدوهم من المشركين ، وقد قيل إن تثبيت الملائكة المؤمنين كان حضورهم حربهم معهم ، وقيل كان ذلك معونتهم إياهم بقتال أعدائهم ،

(٢) دعصة : قطع مستديرة من الرمل .

(٤) الأنفال / ١٢ - ١٤ .

(١) تفسير القرطبي / ٧ / ٤ - ٣٧٢ - ٣٧٤ .

(٣) تفسير الطبرى / ٦ / ٩ / ١٣٠ .

وقيل كان ذلك بأن الملك يأتى الرجل من أصحاب النبي ﷺ يقول : سمعت هؤلاء القوم يعنى المشركين يقولون : والله لئن حملوا علينا لننكشفن فيحدث المسلمون بعضهم بعضاً بذلك فتقوى أنفسهم ، قالوا : وذلك كان وحى الله إلى ملائكته .. (١) .

﴿ سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب ﴾ يقول تعالى ذكره : سأرعب قلوب الذين كفروا بى أيها المؤمنون منكم وأملؤها فرقاً حتى ينهزموا عنكم ، فاضربوا فوق الأعناق .

(.. فالواجب أن يقال : إن الله أمر بضرب رؤوس المشركين وأعناقهم وأيديهم وأرجلهم ..) . (٢)

ونعود إلى نصوص السيرة نلاحظ هذه المعانى الواردة فى كتاب الله كما كانت على أرض الواقع :

(.. وقال سهيل بن عمرو (٣) : ولقد رأيت يوم بدر رجالاً يبضاً على خيل بلق بين السماء والأرض معلمين ، يقتلون ويأسرون ، وقال أبو أسيد الساعدي – بعد أن ذهب بصره – لو كنت معكم الآن ببدر ومعى بصرى لأريتكم الشعب الذى خرجت منه الملائكة ..

وقال أبو رهم الغفارى ، عن ابن عم له : بينا أنا وابن عم لى على ماء بدر – فلما رأينا قلة من مع محمد وكثرة قريش – قلنا : إذا التقت الفئتان عمدنا إلى عسكر محمد وأصحابه ، فانطلقنا نحو المجنبه اليسرى من أصحابه ونحن نقول : هؤلاء ربع قريش ؛ بينا نحن نمشى فى الميسرة إذ جاءت سحابة فغشيتنا ، فرفعنا أبصارنا إليها ، فسمعنا أصوات الرجال والسلاح ، وسمعنا رجلاً يقول لفرسه : أقدم حيزوم ، وسمعناهم يقولون : رويداً تمام أخرأكم ، فنزلوا على ميمنة رسول الله ﷺ ، ثم جاءت أخرى مثل ذلك ، فكانت مع النبي ﷺ ، فنظرنا النبي ﷺ وأصحابه ، فإذا هم الضعف على قريش .

فمات ابن عمى ، وأما أنا فتماسكت ، وأخبرت النبي ﷺ – وحسن إسلامه –

... وعن صهيب : ما أدري كم يد مقطوعة ، أو ضربة جائفة (٤) لم يدم كلمهما (٥)

(١) تفسير الطبرى ٦ / ٩ / ١٣٢ . (٢) المصدر نفسه ٦ / ٩ / ١٣٢ .

(٣) وكان يومئذ مشركاً . (٤) جائفة : الطعنة التى تنفذ الجوف وتبلغ .

(٥) لم يدم كلمها : لم يسلب الدم من حرجهما ولم يظهر عليه الدم .

يوم بدر قد رأيتهما ، وعن أبي بردة بن نيار قال : جئت يوم بدر بثلاثة رؤوس ، فوضعتهن بين يدي رسول الله ﷺ ، فقلت : يا رسول الله ، أما رأسان فقتلتكما ، وأما الثالث فإني رأيت رجلاً أبيض طويلاً ضربه ، فتدهدي^(١) أمامه ، فأخذت رأسه .

فقال ﷺ : « ذاك فلان من الملائكة » . وكان ابن عباس يقول : لم تقاتل الملائكة إلا يوم بدر ، وعن ابن عباس : كان الملك يتصور في صورة من يعرفون من الناس ، يثبتونهم ، فيقول : إني دنوت منهم فسمعتهم يقولون : لو حملوا علينا ما ثبتنا ؛ ليسوا بشيء ، وذلك قول الله تبارك وتعالى : ﴿ إِذْ يُوْحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ ﴾ .

وعن حكيم بن حزام^(٢) : لقد رأيتنا يوم بدر ، وقد وقع بوادي خلص^(٣) بجاد^(٤) من السماء قد سد الأفق : فإذا الوادي يسيل نملًا ، فوقع في نفسي أن هذا شيء من السماء أيد به محمد ﷺ ، فما كانت إلا الهزيمة ، وهى الملائكة .^(٥)

وفى رواية ابن إسحاق :

(فبينما هو جالس إذ قال الناس : هذا أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب قد قدم قال : فقال له أبولهب : هلم إلى فعندك لعمري الخبر ، قال : فجلس إليه والناس قيام عليه ، فقال : يا بن أخي ، أخبرني كيف كان أمر الناس . قال : والله ما هو إلا أن لقينا القوم ، فمحنناهم أكتافنا يقتلوننا كيف شاؤوا ، ويأسروننا كيف شاؤوا ، وأيم الله مع ذلك مالت الناس : لقينا رجالاً بيضاً على خيل بلق بين السماء والأرض ، والله ما تليق شيئاً ، ولا يقوم لها شيء . قال أبو رافع فرفعت طنب الحجرة بيدي ثم قلت : تلك والله الملائكة ..)^(٦)

وأما رعب الكافرين فنراه من هذا النص :

(وبعثت قريش عمير بن وهب الجمحي ليحزُر المسلمين ، فلما لم ير مدداً ولا كميناً رجع فقال : القوم ثلاثمائة ، إن زادوا زادوا قليلاً معهم سبعون بغيراً وفرسان ؛ ثم قال : يامعشر قريش . البلايا تحمل المنايا . نواضح^(٧) يثرب تحمل الموت الناقع ، قوم ليست لهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم ، ألا ترونهم خرساً لا يتكلمون ، يتلمظون^(٨) تلمظ الأفاعي .

(١) فتدهدي : تدرج .

(٢) وكان يومئذ مشركاً .

(٣) وادي خلص : واد بين مكة والمدينة فيه قرى ونخل .

(٤) الجاد : الكساء .

(٥) إمتاع الأسماع للمقرئزي ١ / ٨٧ - ٨٩ .

(٦) السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ٢٩٠ .

(٧) النواضح : الإبل يستقي عليها الماء .

(٨) التملظ : تحريك اللسان في الفم بعد الأكل .

والله مأرى أن يقتل منهم رجل حتى يقتل منكم رجل ، فإن أصابوا منكم مثل أعدادهم فما خير فى العيش بعد ذلك) . (١)

والملاحظ أن المشركين هم الذين رأوا أعداد الملائكة تنضم للجيش الإسلامى . فشريفا قریش اللذان لم يقتلا فى بدر هما اللذان نقلنا لنا رؤية الملائكة ، وذلك بعد أن أسلما وحسن إسلامهما .

٧ - المؤمنون من جند الله :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ . وَمَنْ يُولِهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرُهُ إِلَّا مَتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مَتَحِيزًا إِلَى فِتْنَةٍ ، فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ، وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ . (٢)

وبعد هذه المعية ، وهذا العون ، لا مجال لفرار المؤمنين من الزحف .

فقد أمر الله عز وجل فى هذه الآية ألا يولى المؤمنون أمام الكفار وهذا الأمر مقيد بالشريطة المنصوصة فى مثلى المؤمنين فإذا لقيت فئة من المؤمنين فئة هى ضعف المؤمنين من المشركين فالغرض ألا يفروا أمامهم ، فمن فر من اثنين فهو فار من الزحف .

ومن فر من ثلاثة فليس بفار من الزحف ، ولا يتوجه عليه الوعيد ، والفرار كبيرة موبقة بظاهر القرآن وإجماع الأكثر من الأئمة ، وقالت فرقة منهم ابن الماجشون فى الواضحة : إنه يراعى الضعف والقوة والعدة ، فيجوز على قولهم : أن يفر مائة فارس من مائة فارس ، إذا علموا أن ما عند المشركين من النجدة والبسالة ضعف ما عندهم . وأما على قول الجمهور فلا يحل فرار مائة إلا بما زاد عن المائتين ؛ فمهما كان فى مقابلة مسلم أكثر من اثنين فيجوز الانهزام ، والصبر أحسن ، وقد وقف جيش مؤتة وهم ثلاثة آلاف فى مقابلة مئتين ألف منهم مائة ألف من الروم ، ومائة ألف من المستعربة من لحم وجذام ..) .

(واختلف الناس هل الفرار يوم الزحف مخصوص بيوم بدر ؟ أم عام فى الزخوف كلها إلى يوم القيامة ؟ فروى عن أبى سعيد الخدرى : أن ذلك مخصوص بيوم بدر ، وبه قال نافع والحسن وقتادة ويزيد بن أبى الحبيب والضحاك ، وبه قال أبو حنيفة ، وأن ذلك خاص بأهل بدر ، فلم يكن لهم أن ينحازوا ، ولو انحازوا لانحازوا للمشركين ، ولم يكن

(١) إمتاع الأسماع / ١ / ٨٣ . (٢) الأنفال / ١٥ ، ١٦ .

فى الأرض يومئذ مسلمون غيرهم ، ولا للمسلمين فئة إلا النبى ﷺ ، فأما بعد ذلك فإن بعضهم فئة لبعض ، قال الكيا : وهذا فيه نظر : لأنه كان فى المدينة خلق كثير من الأنصار لم يأمرهم النبى ﷺ بالخروج معه ، ولم يكونوا يرون أنه قتال ، وإنما ظنوا أنها العير ، فخرج رسول الله ﷺ فيمن خف معه ، ويروى عن ابن عباس وسائر العلماء أن الآية باقية إلى يوم القيامة ، احتج الأولون بما ذكرنا وبقوله تعالى يومئذ ، فقالوا : هو إشارة إلى يوم بدر ، وأنه نسخ حكم الآية بآية الضعف ، وبقي حكم الفرار من الزحف ليس بكبيرة ، وقد فر الناس يوم أحد فعفا الله عنهم ، وقال الله فيهم يوم حنين ﴿ ثم وليتم مدبرين ﴾ ^(١) ولم يقع على ذلك تعنيف ، وقال الجمهور من العلماء : إنما ذلك إشارة إلى يوم الزحف الذى يتضمنه قوله تعالى ﴿ إذا لقيتم ﴾ وحكم الآية باق إلى يوم القيامة ؛ بشرط الضعف الذى بينه الله تعالى فى آية أخرى . وليس فى الآية نسخ ؛ والدليل عليه أن الآية نزلت بعد القتال وانقضاء الحرب وذهاب اليوم بما فيه ، وإلى هذا ذهب مالك والشافعى وأكثر العلماء ، وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « اجتنبوا السبع الموبقات - وفيه - والتولى يوم الزحف » وهذا نص فى المسألة ، وأما يوم أحد ، فإنما فر الناس من أكثر من ضعفهم ، ومع ذلك عنفوا ، وأما يوم حنين فكذلك من فر إنما انكشف من الكثرة على ما يأتى بيانه) .

(.. قوله تعالى : ﴿ إلا متحرفاً لقتال ، أو متحيزاً إلى فئة ﴾ التحرف : الزوال عن جهة الاستواء ، والمتحرف من جانب إلى جانب لمكايد الحرب غير منهزم وكذلك المتحيز إذا نوى التحيز إلى فئة من المسلمين ليستعين بهم فيرجع إلى القتال غير المنهزم أيضاً) .

(.. قوله تعالى : ﴿ فقد باء بغضب من الله ﴾ أى استحق الغضب ، وأصل باء : رجع ، وقد تقدم ، وماواه جهنم : أى مقامه ، وهذا لا يدل على الخلود كما تقدم فى غير موضع ، وقد قال ﷺ : « من قال أستغفر الله الذى لا إله إلا هو الحى القيوم ، غفر له وإن كان قد فر من الزحف . » ^(٢)) .

٨ - الحصى من جند الله :

﴿ فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم ، وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ، وليلى المؤمنين منه بلاءٌ حسناً ، إن الله سميعٌ عليمٌ ذلکم وأن الله موهن الكافرين ﴾ ^(٣) .

(١) التوبة / ٢٥ . (٢) تفسير القرطبي / مقتطفات ٤ / ٧ / ٣٨٠ - ٣٨٤ . (٣) الأنفال / ١٧ .

(روى أن أصحاب رسول الله ﷺ لما صدروا عن بدر - ذكر كل واحد منهم ما فعل : قتل كذا ، فعلت كذا ؛ فجاء من ذلك تفاخر ونحو ذلك ، فنزلت الآية إعلاماً بأن الله تعالى هو المميت والمقدر لجميع الأشياء ، فقيل : المعنى فلم تقتلوههم ، ولكن الله قتلهم بسوقهم إليكم حتى أمكنكم منهم ، وقيل : ولكن الله قتلهم بالملائكة الذين أمدكم بهم (١) .

ولا غرابة أن تخلد النفوس لحظة إلى ذاتها ، وهى ترى هذا النصر المؤزر ، كما روى ابن إسحاق : (ثم ارتحل رسول الله ﷺ حتى إذا كان بالروحاء لقيه المسلمون ، يهتفون بما فتح الله عليه ومن معه من المسلمين ، فقال لهم سلمة بن سلامة :

(ما الذى تهتفوننا به ؟ فوالله إن لقينا إلا عجائز صلحاً كالبدن (٢) المعلقة فنحرنها ، فبسم رسول الله ﷺ ، ثم قال : « أى ابن أخى أولئك الملاء » (٣) .
﴿ وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾ .

(ولما التحم القتال ، كان رسول الله ﷺ رافعاً يديه ، يسأل الله النصر وما وعده ، وأمر رسول الله ﷺ : فأخذ من الحصى كفاً ، فرماهم بها وقال : « شأته الوجوه ، اللهم ارفع قلوبهم وزلزل أقدامهم » فانهزم أعداء الله ، لا يلبثون على شئ ، وألقوا دروعهم ، والمسلمون يقتلون ويأسرون ، ومابقى منهم أحد إلا امتلاً وجهه وعيناه ، ما يدرى أين توجه والملائكة يقتلونهم ، وذلك قول الله تعالى : ﴿ فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم ، وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى وليبلى المؤمنين منه بلاء حسناً إن الله سميع عليم . ذلكم وأن الله موهن كيد الكافرين ﴾ (٤) .

٩ - استفتاح الكافرين من جند الله :

﴿ إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح ، وإن تنهوا فهو خير لكم وإن تعودوا نعد ولن تغنى عنكم فتكم شيئاً ولو كثرت وأن الله مع المؤمنين ﴾ (٥) .

(روى الإمام أحمد بسنده عن عبد الله بن ثعلبة أن أبا جهل قال - حين التقى القوم : اللهم أقطعنا للرحم ، وآتانا بما لانعرف فأحنه الغداة ، فكان هو المستفتح .

(٢) البدن المعلقة : الإبل المقيدة التى تهدى إلى مكة .

(٤) إمتاع الأسماك للمقرئى / ١ / ٩٠ .

(١) تفسير القرطبي / ٤ / ٧ / ٣٨٤ .

(٣) السيرة لابن هشام / ٢ / ٢٨٦ .

(٥) الأنفال / ١٩ .

ورواه الحاكم من حديث الزهري أيضاً ، ثم قال : صحيح على شرط الشيخين ، ولم يخرجاه ، وقال الأموي حدثنا أسباط بن محمد القرشي عن عطية عن مطرف في قوله ﴿ إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ ﴾ قال : قال أبو جهل : اللهم أعز الفئتين ، وأكرم القبليتين ، وأكثر الفريقين . فنزلت : ﴿ إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ ﴾ (١) ، وكأنا هو يدعو على نفسه وفئته فاستجاب الله له .

١٠ - وكثرة الكافرين وفتنهم من جند الله :

لأن الله تعالى ناصر حربه ، ومؤيد جنده ﴿ وَأَنْ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، ولن يدعهم للكثرة المشركة تتحكم بهم ، فلن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً .

خامساً : النداءات للمؤمنين :

انتهى الشوط الأول من سورة الأنفال ، وقد انتزع من المؤمنين ذواتهم وجردهم لله سبحانه ، وهو يستعيد معهم الشريط المتصل للمعركة ، وكان الشوط الثاني دعوة لهم للالتزام التام بأوامر الله ورسوله . وفي قلب هذه النداءات تحذير من المخالفة :

١ - ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ . وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ إِنْ شَرَّ الدَّوَابُّ عِنْدَ اللَّهِ الصَّمَّ الْبِكْمِ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ، وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ ، وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ (٢) .

فكلام الله تعالى للتنفيذ والتطبيق ، والانحدار كبير وخطير بين الموقفين ، بين أن يكون من صف الذين آمنوا ، وعملوا بأوامر الله تعالى لهم ، وبين أن يكون من صف شر الدواب عند الله ، الذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون ، وهؤلاء هم الصم البكم الذين لا يعقلون .

ولافرق في ميزان الله بين البشر الذي يسمع ، ولا يلبى النداء ، ويتولى معرضاً عن ذكر الله سبحانه ، وبين الصم البكم الذين لا يعقلون . إن لم يكن الآخرون خيراً من الأولين .

٢ - ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا

(٢) الأنفال ٢٠ - ٢٣ .

(١) البداية والنهاية ٢ / ٣ / ٢٨٢ .

أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون ، واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب ، واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يخطفكم الناس فأواكم وأيدكم بنصره ، ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون ﴿١﴾ .

والاستجابة لله وللرسول هي حقيقة الحياة . والتلكؤ عنها خطير قد يحرم المسلم منها ، وتكون العقوبة له على تلكته ومعصيته .

إنها لحظات . أن تقع الفتنة . فإذا منافذ الخير تغلق ، وإذا القلب الحى قد صمت عن الحياة والاستجابة لها ، وليس هذا خاصاً بالكافرين الذين رأوهم قد جيفوا أمام أعينهم فى بدر ، وكانوا كذلك فى حياتهم ، ولكنه قد يطل هؤلاء المؤمنين .

﴿ واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ، واعلموا أن الله شديد العقاب ﴾
وحيث تفترون بالنصر ، وتشاحنون على الأنفال ، وتفسد ذات بينكم ، لابد من صحة ، صحة ضخمة تستعيدون بها الماضى كله ، فى ومضة بصر حين كنتم قليلاً مستضعفين فى الأرض ، والناس تريد اختطافكم ، وتتسابق على الإيقاع بكم وإيذاكم . هكذا كنتم فأين أنتم اليوم ؟ آواكم ، وأيدكم بنصره ، ورزقكم من الطيبات ، لعلكم تشكرون .

٣ - ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول ، وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة وأن الله عنده أجر عظيم ﴾ (٢) .

وأنتم اليوم العصبة المؤمنة فى الأرض ، فلا تخونوا الله والرسول ، وتخونوا أماناتكم بعد ماجاءكم من العلم والركون إلى المال والولد والشاغل إليهم يقود إلى هذه الخيانة ، ويقود إلى التراخى عن الجهاد . وما عند الله من الأجر العظيم ، والرغبة فيه والثقة به هو الذى ينجى من هذه الخيانة .

٤ - ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تقوا الله يجعل لكم فرقاناً ، ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم والله ذو الفضل العظيم ﴾ (٣) .

وحتى لا تكون فتنة المال ، ولا تكون فتنة الولد ، وحتى لا يحال بين المرء وقلبه ، فلا بد من تقوى الله ومخافته وخشيته ، وبذلك يكون الفرقان الواضح بين الحق والباطل فى حس المؤمنين . كما كانت بدر فرقاناً بين الكفر والإيمان . وعندما لا تلبس الأمور ، ويكون

(١) الأنفال ٢٣ - ٢٦

(٢) الأنفال / ٢٧ - ٢٨ .

(٣) الأنفال / ٢٩ .

الفرقان ، فالله تعالى يكفر السيئات ويغفر الذنوب ، والله ذو الفضل العظيم .

إنها جولة في عالم المؤمنين ، وحث لهم على الارتفاع إلى المستوى الذى أعدهم الله تعالى له ، فهم العصبة المؤمنة الذين غير لهم الأرض ، وذلّل لهم الصعاب ، وبعث معهم جنوده من كل فج . وليسوا طلبية غنيمة أو ملاحق غير ، ومختلفين على الأنفال . إنهم قدر الله فى الأرض وصحب محمد عليه الصلاة والسلام ، وجند الله فى هذا الوجود . فلا بد أن تكون التربية لهم على هذا المستوى الضخم من المسؤولية .

سادساً : صولة مع المشركين :

١ - ﴿ وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ، ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين ﴾ . (١)

لم يمر على هذه الذكرى سنتان بعد ، ولم يجف أثرها بعد ، يوم كان رسول الله ﷺ ثانى اثنين فى الغار وقد اختبأ فيه ، بعد أن حوَصر بيته بسيوف مصلنة تمثل كل قبائل مكة ليضيع دمه فى القبائل ، وكان رأى :

(قال أبو الأسود : نخرجه من بين أظهرنا ، وننفيه من بلادنا ، ولانبالى أين ذهب ، ولا حيث وقع ، فقد أصلحنا أمرنا ، وألفتنا كما كانت . وقال الشيخ النجدى : لا والله ما هذا لكم برأى ، ألم تروا حسن حديثه ، وحلاوة منطقته ، وغلبته على قلوب الرجال بما يأتى به ؟ والله لو فعلتم ذلك ما أمنتهم أن يحل على حى من العرب ، ثم يسير به إليكم ، بعد أن يتابعوه حتى يطأكم بهم فى بلادكم ، ثم يفعل بكم ما أراد ، أو يروا فيه رأياً غير هذا .

قال أبو البختري : احبسوه فى الحديد ، وأغلقوا عليه باباً ، ثم تربصوا به ماأصاب أمثاله من الشعراء ، الذين كانوا قبله زهيراً والنابعة ، ومن مضى منهم من هذا الموت حتى يصيبه ماأصابهم ، قال الشيخ النجدى : لا والله ما هذا لكم برأى ، والله لئن حبستموه كما تقولون ليخرجن أمره ؟ من وراء الباب الذى أغلقتم دونه إلى أصحابه ، فلاوشكوا أن يشبوا عليكم ، فينتزعوه من أيديكم ثم يكاثروكم به حتى يغلبوا على أمركم ، ما هذا لكم برأى ، فانظروا فى غيره .

قال أبو جهل : والله إن لى فيه رأياً ما أراكم وقعتم عليه بعد ... !

قالوا : وما هو يا أبا الحكم ، قال : أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى شاباً جليداً نسيباً وسيطاً فينا ، ثم نعطي كل فتى منهم سيفاً صارماً ، ثم يعمدوا إليه . فيضربوه بها ضربة رجل واحد ، فيقتلوه ، فنستريح منه ، فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه فى القبائل جميعاً ، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً فرضوا منا بالعقل فعقلناه لهم .

قال الشيخ النجدى : القول ما قال الرجل هذا رأى الذى لا رأى غيره . (١)

وينظرة سريعة على الذين مكروا برسول الله ﷺ ليشتوه أو يقتلوه أو يخرجوه نجد الأسماء البارزة التالية :

١ - أبو جهل بن هشام ٢ - جبير بن مطعم ٣ - طعيمة بن عدى ٤ - الحارث بن عامر ٥ ، ٦ - شيبة وعتبة ابنا ربيعة ٧ - أبو سفيان بن حرب ٨ - النضر بن الحارث ٩ - أبو البختري بن هشام ١٠ - زمعة بن الأسود ١١ - حكيم بن حزام ١٢ و ١٣ - نبيه ومنبه ابنا الحجاج ١٤ . أمية بن خلف ، والذين كلفوا بقتل رسول الله ﷺ إضافة إلى هؤلاء ١ - الحكم بن أبى العاص ٢ - عقبة بن أبى معيط ٣ - أبو لهب ٤ - أبى بن خلف .

فيكون مجموع كبار مجرميها سبعة عشر .

فأين هؤلاء الآن ؟

إنهم فى قليب بدر صرعى ، أو فى غيره ، خلا أربعة منهم هم : جبير بن مطعم وأبو سفيان بن حرب ، وحكيم بن حزام ، وأبى بن خلف .

فأية نعمة أعظم من هذه النعمة ؟

أبطال المؤامرة ، وأعدى العدو قتلوا جميعاً ، وهاهو ذا رسول الله ﷺ على رأس جيشه ودولته .

فماذا يرد المشركون على هذه الصولة ؟

٢ - ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين ﴾ .

(١) السيرة النبوية لابن هشام / ٢ / ٩٣ - ٩٥ .

قال بن إسحاق :

(فقام النضر بن الحارث فقال : يامعشر قريش إنه والله قد نزل بكم أمر ما أتيتم له بحيلة بعد ، قد كان محمد فيكم غلاماً حدثاً أرضاكم فيه وأصدقكم حديثاً ، وأعظمكم أمانة ، حتى إذا رأيتم في صدغيه الشيب ، وجاءكم بما جاءكم به قلتم : ساحر ، لا والله ما هو بساحر ، لقد رأينا السحرة ونفثهم وعقدهم ، وقلتم كاهن : لا والله ما هو بكاهن ، قد رأينا الكهنة وتخالجهم ، وسمعنا سجعهم ، وقلتم شاعر : لا والله ما هو بشاعر ، قد رأينا الشعر سمعنا أصنافه كله هزجه ورجزه ؛ وقلتم : مجنون ، لا والله ما هو بمجنون ؛ لقد رأينا الجنون ، ما هو بخنقه ولا وسوسته ولا تخليطه ، يامعشر قريش ، فانظروا في شأنكم ؛ فإنه والله لقد نزل بكم أمر عظيم) . (١)

وحرى بمن يقول هذا القول أن يعلن إيمانه وإسلامه ، فماذا يكون محمد عليه الصلاة والسلام إن لم يكن كاهناً ولا ساحراً ولا مجنوناً ولا شاعراً ؟ ولكن الكفر على علم قاد النضر لاتباع هواه .

(وكان النضر بن الحارث من شياطين قريش ، ومن كان يؤذى رسول الله ﷺ ، وينصب له العداوة ، وكان قد قدم الحيرة وتعلم بها أحاديث ملوك فارس ، وأحاديث رستم . فكان إذا جلس رسول الله ﷺ مجلساً فذكر فيه بالله ، وحذر قومه ما أصاب من قبلهم من الأمم من نقمة الله - خلفه في مجلسه إذا قام ، ثم قال : أنا والله يامعشر قريش أحسن حديثاً منه فهلم إليّ فأنا أحدثكم أحسن من حديثه ، ثم يحدثهم عن ملوك فارس واسفنديار ، ثم يقول بماذا محمد أحسن حديثاً مني ؟

قال ابن هشام : وهو الذى قال فيما بلغنى : سأنزل مثل ما أنزل الله ، قال ابن إسحاق : وكان ابن عباس رضى الله عنهما يقول فيما بلغنى : نزل فيه ثمانى آيات من القرآن : قول الله عز وجل : ﴿ إِذَا تَلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ وكل ما ذكر فيه من الأساطير فى القرآن) . (٢)

فهو إذن بطل هذه الفرية وصاحبها ، ولا غرابة أن يأمر رسول الله ﷺ بقتله من بين الأسرى السبعين مع عقبة بن أبى معيط وطعيمة بن عدى .

(وكان المقداد أسر النضر فلما أمر بقتله ، قال المقداد يارسول الله أسيرى ، فقال

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ١ / ٣٢٠ .

(١) السيرة لابن هشام ١ / ٣١٩ .

رسول الله ﷺ : « إنه كان يقول في كتاب الله ما يقول » فأمر النبي ﷺ بقتله ، فقال المقداد : أسيرى ، فقال رسول الله ﷺ : « اللهم أغن المقداد من فضلك » فقال المقداد : هذا الذى أردت . (١)

٣ - ﴿ وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾ . (٣)

(يقول تعالى ذكره : واذكر يا محمد أيضاً ما حل بمن قال : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ، إذ مكرت لهم فأتيتهم بعذاب أليم ، وكان ذلك العذاب قتلهم بالسيف يوم بدر ، وهذه الآية أيضاً ذكر أنها نزلت فى النضر بن الحارث

وعن عطاء قال : قال رجل من بنى عبد الدار يقال له النضر بن كلدة : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ، فقال الله : ﴿ وقالوا ربنا عجل لنا قسطاً قبل يوم الحساب ﴾ (٣) وقال ﴿ لقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة ﴾ (٤) وقال : ﴿ سأل سائل بعذاب واقع للكافرين ليس له دافع ﴾ (٥) قال عطاء : لقد نزل فيه بضع عشر آية من كتاب الله . (٦) ﴿ وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون ، وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون . ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ (٧).

(وقال أنس بن مالك : قائله أبو جهل : رواه البخارى ومسلم) . (٨)

(لما قال أبو جهل : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك .. الآية نزلت ﴿ وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ﴾ كذا فى صحيح مسلم ، وقال ابن عباس : لم يعذب أهل قرية حتى يخرج النبي ﷺ منها والمؤمنون ، ويلحقوا بحيث أمروا ﴿ وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون ﴾ وعن ابن عباس : كانوا يقولون فى الطواف : غفرانك ، والاستغفار وإن وقع من الفجار يدفع به ضرب من الشرور والإضرار ، وقيل إن الاستغفار راجع إلى المسلمين الذين هم بين أظهرهم ، أى وما كان الله معذبهم وفيهم من يستغفر من المسلمين ،

(١) تفسير الطبرى ١٥٢ / ٩ / ٦ . (٢) الأنفال / الآية ٣٢ . (٣) ص ١٦٠ .
(٤) الأنعام / ٩٤ . (٥) المعارج / ٢٠١ . (٦) تفسير الطبرى ١٥٢ / ٩ / ٦ .
(٧) الأنفال / ٣٢ - ٣٤ . (٨) تفسير القرطبي ٣٩٨ / ٧ / ٤ .

فلما خرجوا عذبهم الله يوم بدر وغيره (١) ﴿ وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام . وما كانوا أولياءه ، إن أولياؤه إلا المستقون ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ .

وهزيمة بدر زعزعت كثيراً من ادعاءات قريش أنها حامية حمى البيت عند العرب ، فالعرب يذكرون كيف أرسل الله تعالى على أبرهة طيراً أبابيل مع جيشه ، فجعلهم كعصف مأكول ، وقد حمى الله تعالى بيته بدون حرب ولا قتال ، بينما هم اليوم قد خرجوا بجمع ضخيم للقضاء على محمد وحزبه ، فإذا هم يعودون يجرون أذيال الهزيمة ، وقد منحوا المسلمين أكتافهم يقتلون منهم ، ويأسرون منهم كما يشاؤون ، وجعلت الأرضية مهية للدعاية من المسلمين أنهم أولياء البيت الحقيقيون ، ومن أجل هذا نصرهم الله تعالى على قلة من العدد والعدة .

وأكثر ما كانت العرب تأخذ على قريش أن تصد عن بيت الله الحرام من جاء معظماً له ، وقد فعلت ذلك قريش مع أفراد عديدين من المسلمين ، اعتقلتهم أو لاحقتهم عندما جاؤوا إلى بيت الله الحرام ، ومن أجل هذا استحقوا العذاب والتنكيل والهزيمة وقتل ساداتهم وأشرفهم . ودعاية قريش قبل شهر ونيف ، والتي نالت من المسلمين بأنهم انتهكوا حرمة الشهر الحرام وقتلوا فيه - أصبحت باهتة ضعيفة بعد هزيمتهم المنكرة من محمد وصحبه .

٤ - ﴿ وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ﴾ . (٢)

(قال ابن عباس : كانت قريش تطوف بالبيت عراة ، يصفقون ويصفرون ، فكان ذلك عبادة في ظنهم والمكاء : الصفير ، والتصدية : التصفيق . قاله مجاهد والسدي وابن عمر رضی الله عنهما) (٣) وهذه العبادة وهذه الحرب لله ورسوله لاغرو أن يكون جزاء ذلك العذاب الشديد ﴿ وما لهم ألا يعذبهم الله ﴾ .

٥ - ﴿ إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله ، فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون والذين كفروا إلى جهنم يحشرون . ليميز الله الخبيث من الطيب ، ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعاً فيجعله في جهنم أولئك هم الخاسرون ﴾ . (٤)

(٢) الأنفال / ٣٥ .

(٤) الأنفال / ٣٦ ، ٣٧ .

(١) تفسير القرطبي / ٤ / ٧ / ٣٩٩ .

(٣) القرطبي / ٤ / ٧ / ٤٠٠ .

وتبلغ الحملة الإعلامية ذروتها ضد المشركين ، وبعد إسقاط مقولتهم في ولاية البيت ، وفي عبادة الله ، لابد من فضح جهودهم المالية في حرب المسلمين ، كيف عادت عليهم بالوبال ، ولابد من هذه الحملة كذلك حتى لا تستغل قريش نجاة قافلتها ومالها من محمد ، وأن ما أصابها يوم بدر ذهب بمعظم أموالها ، فليست الخسارة في الأرواح فقط بل بالأرواح والأموال .

(وتجهزوا في ثلاثة أيام وقيل في يومين ، وأعان قويهم ضعيفهم ، وقام سهيل بن عمرو ، وزمعة بن الأسود وطعيمة بن عدى وحنظلة بن أبي سفيان وعمرو بن أبي سفيان يحضون الناس على الخروج ، فقال سهيل : يا آل غالب : أثاركون أنتم محمداً والصبابة من أهل يثرب يأخذون غيراتكم وأموالكم ؟ من أراد مالا فهذا مال ، ومن أراد قوة فهذه قوة ، فمدحه أمية بن أبي الصلت بأبيات ، ومشى نوفل بن معاوية إلى أهل القوة من قريش ، فكلّمهم في بذل النفقة والحملان لمن خرج ، فقال عبد الله بن أبي ربيعة : هذه خمسمائة دينار ، فضعها حيث رأيت ، وأخذ من حويطب بن عبد العزى ثلاثمائة دينار ، وقوى بها في السلاح والظهر ، وحمل طعيمة بن عدى على عشرين بعيراً وقواهم وخلفهم في أهلهم بمعونة (١) .

(وقال يونس عن إسحاق : خرجت قريش على الصعب والذلول في تسعمائة وخمسين مقاتلاً معهم مائتا فرس يقودونها ، ومعهم القيان يضربن بالدفوف ، ويغنين بهجاء المسلمين ، وذكر المطعمين لقريش يوماً يوماً ، وذكر الأموى في مغازيه : أن أول من نحر لهم حين خرجوا من مكة أبو جهل ، نحر لهم عشرا ، ثم نحر لهم أمية بن خلف بعسفان عشرا ، ونحر لهم سهيل بن عمرو بقديد عشراً ، ومالوا إلى قديد إلى مياه نحو البحر فظلوا بها ، وأقاموا بها يوماً فنحر لهم شيبة بن ربيعة تسعاً ، ثم أصبحوا بالجحفة فنحر لهم يومئذ عتبة بن ربيعة عشراً ، ثم أصبحوا بالأبواء فنحر لهم نبيه ومنبه ابنا الحجاج عشراً ، ونحر لهم العباس بن عبد المطلب عشراً ، ونحر لهم أبو البختري بن هشام على ماء بدر عشراً ، ثم أكلوا من أزوادهم (٢) .

هذا عن أموالهم التي وضعوها في النفي ، فماذا عن العير التي كان قوامها خمسين ألف دينار ذهباً ، وكانت تمثل ثروة مكة ، فقد كان فيها ألف بعير تحمل أموال قريش بأسرها إلا ما كان من حويطب بن عبد العزى .. !

(٢) البداية والنهاية ٢/٣/٢٥٩ .

(١) إمتاع الأسماع / ٦٧/١ .

(لما أصيب يوم بدر من كفار قريش أصحاب القليب ، ورجع فلهم إلى مكة ، ورجع أبو سفيان ببيعه ، مشى عبد الله بن أبي ربيعة وعكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية ورجال من قريش ممن أصيب آبائهم وأبنائهم وإخوانهم يوم بدر ؛ فكلّموا أبا سفيان ومن كانت له فى تلك العير من قريش تجارة ، فقالوا : يا معشر قريش ، إن محمداً قد وتركم ، وقتل خياركم ، فأعينونا بهذا المال على حرب ، لعلنا ندرك منه ثأراً ، ففعلوا . قال ابن إسحاق ففهم كما ذكر لى بعض أهل العلم أنزل الله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَنْفِقُونَ أموالهم لِيَصُدَّوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيَنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾ فاجتمعت قريش لحرب رسول الله ﷺ - حين فعل ذلك أبو سفيان وأصحاب العير - بأحايشها ومن أطاعها من قبائل كنانة وأهل تهامة (١) .

﴿ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ، وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً ، فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ (٢) .

وكانت بدر الفرقان بين الخبيث والطيب ، فهؤلاء المطعمون من قريش قد كدّسوا مع أموالهم فى قليب بدر له وسير كمون فى جهنم كما قال لهم رسول الله ﷺ .

(وروى البخارى بسنده عن أبى طلحة ، أن رسول الله أمر يوم بدر بأربعة وعشرين رجلاً من صناديد قريش فقتلوا فى طوى (٣) من أطواء بدر خبيث فخبث . وكان إذا ظهر على قوم أقام بالعرصة (٤) ثلاث ليال . فلما كان ببدر اليوم الثالث أمر براحلته فشد عليها رحلها ، ثم مشى وتبعه أصحابه ، وقالوا : ما نرى ينطلق إلا لبعض حاجته حتى قام على شفة الركى (٥) فجعل يناديهم بأسمائهم ، وأسماء آبائهم : « يا فلان بن فلان ، ويا فلان بن فلان ، يسركم أنكم أطعتم الله ورسوله ؟ فإننا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً ، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ؟ فقال عمر : يا رسول الله ، ما تكلم من أجساد لا أرواح فيها ؟ فقال النبى ﷺ : « ما أنتم بأسمع لما أقول منهم » (٦) .

﴿ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ .

٦ - ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ . فَإِنْ انْتَهُوا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا

(١) البداية والنهاية ١١/٤/٢ . (٢) الأنفال / ٣٧ . (٣) طوى : ثر لم يجف .

(٤) العرصة : كل بقعة ليس فيها بناء . (٥) الركى : الثر لم يجف .

(٦) صحيح البخارى ٩٧/٥ (٦٤) كتاب المغازى . (٨) باب قتل أبى جهل .

يعملون بصير وإن تولوا فاعلموا أن الله مولاكم نعم المولى ونعم النصير ﴿١﴾ .

(يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ : قل يا محمد للذين كفروا من مشركى قومك أن ينتهوا عما هم عليه مقيمون من كفرهم بالله ورسوله وقاتلك وقاتل المؤمنين ، فنيبوا إلى الإيمان ، يغفر الله لهم ما قد خلا ، ومضى من ذنوبهم .. وإن يعودوا - يقول : وإن يعد المشركون لقاتلك بعد الواقعة التى أوقعتها بهم فى بدر ، فقد مضت سنتى فى الأولين منهم ببدر ، ومن غيرهم من القرون الخالية ؛ إذ كذبوا رسلى ، ولم يقبلوا نصحتهم من إحلال عاجل النقم بهم ، فأحل بهؤلاء إن عادوا الحربك وقاتلك مثل الذى أحللت بهم) (٢) .

﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة .. ﴾ (٣) .

يقول تعالى ذكره للمؤمنين به ورسوله : وإن يعد هؤلاء لحربك فقد رأيتم سنتى فيمن قاتلكم منهم يوم بدر ، وأنا عائد بمثلها فيمن حاربكم منهم ، فقاتلوهم حتى لا يكون شرك ، ولا يعبد إلا الله وحده لا شريك له ، فيرتفع البلاء عن عباد الله فى الأرض ، وهو الفتنة ، ويكون الدين كله لله ، يقول : وحتى تكون الطاعة والعبادة كلها لله خالصة دون غيره (٤) .

عاد المؤمنون من بدر ، ولم يستوعبوا بعد أبعاد هذا النصر وآفاقه ، وضخامة المسؤولية المنوطة بهم فى هذه الأرض ، وأن رسالتهم قد تجاوزت ملاحقة العير ، أو رد الاعتداء ، أو قتال المقاتلين فى معركة ، بل هى أضخم من هذا كله . فالقتال قائم حتى لا يفتن مؤمن عن دينه فى الأرض ، وهم طليعة الركب المؤمن فى هذا الوجود . والذين حاربوهم كذلك هم أعداء الله تعالى ورسوله ، والله تعالى ناصر جنده وحزبه عليهم لا محالة .

﴿ وإن تولوا فاعلموا أن الله مولاكم نعم المولى ونعم النصير ﴾ (٥) .

(٣) الأنفال / ٣٩ .

(٢) تفسير الطبرى / ١٦١ / ٩ / ٦ .

(٥) الأنفال / ٤٠ .

(١) الأنفال : ٣٨ - ٤٠ .

(٤) المصدر نفسه / ١٦٢ / ٩ / ٦ .

الجزء الثاني : من سورة الأنفال

أولاً : الغنائم وربطها بالإيمان :

﴿ واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسُه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا .. ﴾ (١) .

وكما كانت الأنفال ابتداءً لله وللرسول بعد أن نزلت من المؤمنين ، ها هي ذي تعود ثانية ابتداءً للمقاتلين في أربعة أخماسها ، بينما يبقى الخمس بيد الإمام ، يوزعه على المصارف المذكورة ، وكما قال الله تعالى في بداية السورة :

﴿ .. قل الأنفال لله والرسول . فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين ﴾ .

يقول هنا : ﴿ واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسُه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين .. ﴾ (٢) وما الغنيمة أو الأنفال إلا مهماز الذكرى بتدبير الله وتقديره ليوم الفرقان الأكبر الذي أعد فيه جل شأنه هذا اللقاء .

ثانياً : يوم الفرقان وتدبير الله تعالى له :

١ - اللقاء المقدر :

﴿ ... وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شيء قدير . إذ أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى والركب أسفل منكم ولو تواعدتم لاختلفتم في الميعاد ولكن ليقضى الله أمراً كان مفعولاً . ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة وإن الله لسميع عليم ﴾ (٣) .

وحتى لا تصبوا النفوس إلى هذا المجد وهذا الفرقان أنها صنعتها ، جاءت الصور المتتابعة لتزيل كل غبش ، فتؤكد الرغبة البشرية عندهم في الركب الذي فات المؤمنين بتدبير الله سبحانه ، وبوضعهم مباشرة أمام المواجهة .

(١) الأنفال (٣، ٢، ١) / ٤٢ ، ٤١ .

﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى﴾ .

أنتم بجانب الوادى الأدنى ، وهم بجانب الوادى الأقصى ، والعر أسفل منكم .
ولننظر إلى تقدير الله عز وجل لهذا اللقاء من خلال نصوص السيرة :

(وأقبل أبو سفيان بالعر ومعها سبعون رجلاً منهم مخرمة بن نوفل وعمرو بن العاص ، فكانت عيرهم ألف بعير ، تحمل المال ، وقد خافوا خوفاً شديداً حين دنوا من المدينة ، واستبطأوا ضمضم بن عمرو ^(١) والنفير : فلما كانت الليلة التى يصبحون فيها على ماء بدر ، جعلت العير تقبل بوجوهها إلى ماء بدر ، وكانوا باتوا من وراء بدر آخر ليلتهم ، وهم على أن يصبحوا بدرأً إن لم يعترض لهم ، فما انقادت لهم العير حتى ضربوها بالعقل ^(٢) ، وهى ترجع الحنين ، تزاور إلى ماء بدر - وما بها إلى الماء من حاجة ، وجعل أهل العير يقولون : هذا شئ ما صنعتة معنا مذ خرجنا) ^(٣) .

(قال ابن إسحاق : وكان بسيس بن عمرو ، وعدى بن أبى الزعباء قد مضيا حتى نزلا بدرأً ، فأناخا إلى تل قريب من الماء ، ثم أخذا شنا ^(٤) لهما يستقيان فيه ، ومجدى بن عمرو الجهنى على الماء ، فسمع عدى وبسبس جارتين من جوارى الحاضر ^(٥) وهما تتلازمان ^(٦) على الماء ، والملزومة تقول لصاحبتها : إنما تأتى العير غداً أو بعد غد ، فأعمل لهم ثم أقضيك الذى لك ، فقال مجدى : صدقت ، ثم خلص بينهما - وسمع ذلك عدى وبسبس فجلسا على بعيريهما ، ثم انطلقا حتى أتيا رسول الله ﷺ فأخبراه بما سمعا .

وأقبل أبو سفيان بن حرب حتى تقدم العير حذراً حتى ورد الماء ، فقال لمجدى بن عمرو : هل أحسست أحداً ؟ فقال : ما رأيت أحداً أنكره إلا أنى قد رأيت راكبين ، قد أناخا إلى هذا التل ، ثم استقيا فى شن لهما ، ثم انطلقا فأتى أبو سفيان مناخهما ، فأخذ من أبعاد بعيريهما ففتته ، فإذا فيه النوى ، فقال : والله هذه علائف يثرب . فرجع إلى أصحابه سريعاً فضرب وجهه عيره عن الطريق ، فساحل ^(٧) بها ، وترك بدرأً بيسار ، وانطلق حتى أسرع) ^(٨) .

(١) ضمضم بن عمرو : هو الذى أرسله أبو سفيان لقريش يستنفرها لحرب محمد وأصحابه .

(٣) إمتاع الأسماع للمقرئى / ١ / ٧١ .

(٢) العقل : ما يربط به الإبل .

(٤) الشن : الزق البالى أى الإناء الذى يستقى فيه الماء ويشرب . (٥) الحاضر : القوم المازلون على الماء .

(٦) تتلازمان : تمسك كل واحدة منهما بصاحبتها . (٧) فساحل بها : أخذ بها حجة الساحل .

(٨) السيرة لابن هشام / ٢ / ٢٥٦ ، ٢٥٧ .

(وأتاهم . أى قريشاً - قيس بن امرئ القيس من أبى سفيان يأمرهم بالرجوع . ويخبرهم أن قد نجت غيرهم : فلا تجزروا ^(١) أنفسكم أهل يثرب ، فلا حاجة لكم فيما وراء ذلك ، إنما خرجتم لتمنعوا العير وأمواكم ، وقد نجاها الله ، فعالج قريشاً فأبى الرجوع وعاد قيس إلى أبى سفيان ، وقد بلغ الهرة - على تسعة أميال من عقبة عسفان - فأخبره بمضى قريش ، فقال : واقوماه ، هذا عمل عمرو بن هشام ، كره أن يرجع ، لأنه ترأس على الناس فبغى ، والبغى منقصة وشؤم ، إن أصاب محمد النفير ذلنا .) ^(٢) فالعير تنفر نحو بدر . وقدر الله تعالى أن يعرف أبوسفيان وجود الجيش الإسلامى من فته بعرجملى المسلمين عدى وبسبس ، ورؤيته نوى يثرب فيها . فينجو بالعير أسفل المسلمين ، وقدر الله تعالى أن يصير أبوجهل على الخروج بعد نجا العير ، ليكون النفير للمسلمين .

(قال ابن إسحاق :

ومضت قريش حتى نزلوا بالعدوة القصوى من الوادى ، خلف العقنقل ^(٣) وبطن الوادى ، وهو تليل بين بدر وبين العقنقل الذى خلفه قريش والقلب ببدر فى العدوة الدنيا من بطن تليل إلى المدينة .) ^(٤) فبين الفريقين ذلك الكثيب من الرمل - قد فصل بينهما . ولقد أقدم القوم ، وهم يعلمون أنهم البغاة المعتدون ، ﴿ ليقضى الله أمراً كان مفعولاً ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيى عن بينة وإن الله لسميع عليم ﴾ ^(٥) .

(وقال ابن إسحاق : ليكفر من كفر بعد حجة قامت عليه ، وقطعت عذره ، ويؤمن من آمن على ذلك وأى فرقان أعظم من هذا الفرقان بعد ما كان فى بدر ؟) ^(٦) .

٢ - تقليل الكافرين فى نوم النبي ﷺ :

﴿ إذ يريكم الله فى منامك قليلاً ولو أراكم كثيراً لفشتم ولتنازعتم فى الأمر ولكن الله سلم إنه عليم بذات الصدور ﴾ ^(٧) . (قال مجاهد : رآهم النبي ﷺ فى منامه قليلاً ، فقص ذلك على أصحابه ، فنبهتهم الله بذلك) ^(٨) .

(وقيل إنه نام فى العريش ، وأمر الناس ألا يقاتلوا حتى يأذن لهم - فدنا القوم منهم ، فجعل الصديق يوقظه ، ويقول : يا رسول الله دنوا منا فاستيقظ ، وقد أراه الله إياهم فى

(٢) إمتاع الأسماع للمقرئى / ١ / ٧١ .

(٥) الأنفال / ٤٣ .

(٨) القرطبي / ٤ / ٨ / ٢٢ .

(١) تجزروا : أى لا تجعلوا أنفسكم ذبائح لأهل يثرب .

(٤) السيرة / ٢ / ٢٥٩ .

(٧) الأنفال : ٤٣ .

منامه قليلاً . (١) ذكره الأموى - فى مغازيه - وهو غريب جداً .

(ولو أراك ربك عدوك وعدوهم كثيراً لفشل أصحابك ، فجنبوا وخافوا ، ولتنازعوا فى ذلك ، ولكن الله سلمهم من ذلك بما أراك فى منامك من الرؤيا ، إنه عليم . بما تخفيه الصدور) (٢) .

٣ - تقليل الكافرين فى عين المؤمنين :

﴿ وإذ يريكموهم إذ التقيتم فى أعينكم قليلاً ﴾

روى ابن جرير عن عبدالله بن مسعود قال :

(لقد قللوا فى أعيننا يوم بدر ، حتى قلت لرجل إلى جنبى : تراهم سبعين ؟ قال : أراهم مائة قال : فأسرنا واحداً منهم فقلنا : كم هم ؟ قال : كنا ألفاً) .

٤ - تقليل المؤمنين فى أعين الكافرين :

﴿ ويقللکم فى أعينهم ليقضى الله أمراً كان مفعولاً وإلى الله ترجع الأمور ﴾ .

عن السدى قال :

(قال ناس من المشركين إن العير قد انصرفت فارجعوا فقال أبو جهل : الآن إذا برز لكم محمد وأصحابه فلا ترجعوا حتى تستأصلوهم ، وقال : يا قوم لا تقتلوهم بالسلاح ، ولكن خذوهم أخذاً ، فاربطوهم بالحبال ، يقوله من القدرة فى نفسه) . (٣)

وقال ابن إسحاق :

(... فانطلقت حتى جئت أبا جهل فوجدته قد نثل (٤) درعاً ، فهو يهثها (٥) ، فقلت له : يا أبا الحكم إن عتبة أرسلنى إليك بكذا وكذا ، فقال : انتفخ والله سحره (٦) حين رأى محمداً وأصحابه ، فلا والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد ، وما بعته ماقال ، ولكنه رأى محمداً وأصحابه أكلة جزور (٧) ، وفيهم ابنه قد تخوفكم عليه ...) (٨) .

ونجد الروايات البشرية فى السيرة تتقاصر هنا عن وصف هذه الحالات التى أوردها

(٢) تفسير الطبرى / ٦ / ١٠ / ١٠ .

(٤) نثل : نزع وألقى .

(٦) انتفخ والله سحره : كناية عن الجبن .

(٨) السيرة النبوية لابن هشام / ٢ / ٢٦٣ .

(١) البداية والنهاية / ٢ / ٣ / ٢٦٨ .

(٣) المصدر نفسه / ٦ / ١٠ / ١١ .

(٥) يهثها : يصلحها ويتفقدتها .

(٧) أكلة جزور : أى يقضى عليهم بمقدار أكلة الجزور .

القرآن الكريم ، وكيف كانت ذات دور بارز في تحديد مصير المعركة ، فالله تعالى من بيده قلوب عباده بعث الملائكة من قبل تثبت الذين آمنوا ، وغشاهم بالنعاس أمانة منه وألقى في قلوب الذين كفروا الرعب .

ونجد الحديث هنا عن التحكم في عيون المؤمنين والمشركين بعد التحكم في قلوبهم . فرسول الله ﷺ يراهم في منامه قليلا ، ولو أراه إياهم كثيراً لحصل الفشل ، ولوقع التنازع ، ولنزلت الهزيمة ، ولكن الله تعالى سلم .

والله تعالى يرى المؤمنين أعداء الله قلة أذلة ، فلا يهابون لقاءهم ، أو مواجهتهم . كذلك يقلل المؤمنين في أعين الكافرين فيستهينون بهم ، ويندفعون إلى لقاءهم ؛ لإنهائهم واستئصالهم .

إنها معركة في العيون ، ومعركة في القلوب ، ومعركة تشترك فيها قوى الكون من المطر والحصباء ، وقوة السماء من الملائكة . وكذلك سرى اشتراك الشيطان ودوره الكبير في المعركة . ولو وقفنا عند روايات السيرة ، لكانت الصورة قاصرة تماماً عن الحقيقة . فالروايات تذكر أن المؤمنين حزروا عدد الكافرين كما قال عليه الصلاة والسلام : القوم « بين التسعمائة والألف » وأن المشركين حزروا عدد المؤمنين ، كما قال عمير بن وهب : القوم ثلاثمائة يزيدون أو ينقصون . هذه روايات السيرة لكننا بالتأكيد في مرحلة من المراحل ، وقبل الاشتباك ، كانت الصورة في مخالفة لهذا الأمر . فقد أرى الله تعالى المؤمنين قلة ، والمشركين قلة ، ليتم اللقاء ، ﴿ ولو تواعدتم لاختلفتم في الميعاد ﴾ ولقد تواعدوا فعلاً بعد أحد في بدر بالعام القابل ، ونكص أبو سفيان وتراجع عن الحضور ، بينما نجد الأقدار هنا تسوق المؤمنين والمشركين إلى اللقاء سوفاً ، ليقع الفرقان بين الفئتين ، يوم التقى الجمعان ؛ ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون ، بل لو كره المؤمنون ذات الشوكة .

(لقد كانت غزوة بدر التي ابتدأت ، وانتهت بتدبير الله وتوجيهه ، وقيادته ومدهدده - فرقاناً بين الحق والباطل - كما يقول المفسرون إجمالاً - وفرقاناً بمعنى أشمل وأوسع وأدق وأعظم كثيراً - كانت فرقاناً بين الحق والباطل فعلاً .. ولكنه الحق الأصيل الذي قامت عليه السماوات والأرض ، وقامت عليه فطرة الأحياء والأشياء ، الحق الذي يتمثل في تفرد الله سبحانه بالألوهية ، والسلطان والتدبير والتقدير وفي عبودية الكون كله سمائه وأرضه ، أشيائه وأحيائه لهذه الألوهية المتفردة ، ولهذا السلطان المتوحد ، ولهذا التدبير وهذا

التقدير بلامعقب ولا شريك .. والباطل الزائف الطارىء كان يعم وجه الأرض إذ ذاك ،
ويغشى على ذلك الحق الأصيل ، ويقيم فى الأرض طواغيت تنصرف فى حياة عباد الله
بما تشاء ، وأهواء تنصرف أمر الحياة والأحياء ! - فهذا هو الفرقان الكبير الذى تم يوم بدر ،
حيث فرّق بين ذلك الحق الكبير وهذا الباطل الطاغى وزيل بينهما فلم يعودا يلتبسان :

لقد كانت فرقانا بين الحق والباطل بهذا المدلول الشامل الواسع الدقيق العميق ، على
أبعاد وآماد ، كانت فرقانا بين هذا الحق وهذا الباطل فى أعماق الضمير . فرقاناً بين
الوحدانية المجردة المطلقة لكل شعبها فى الضمير والشعور ، وفى الخلق والسلوك ، وفى
العبادة والعبودية وبين الشرك فى كل صوره التى تشمل عبودية الضمير لغير الله من
الأشخاص والأهواء والقيم والأوضاع والتقاليد والعادات .

وكانت فرقاناً بين هذا الحق ، وهذا الباطل فى الواقع الظاهر كذلك . فرقاناً بين
العبودية الواقعية للأشخاص والأهواء ، وللقيم والأوضاع . وللشرائع والقوانين ، وللتقاليد
والعادات - وبين الرجوع فى هذا كله لله الواحد الذى لا إله غيره ، ولامتسلط سواه ،
ولاحاكم من دونه ، ولامشرع إلا إياه ، فارتفعت الهامات لاتحنى لغير الله ، وتساوت
الرؤوس لاتخضع لإلحاكميته وشرعه ، وتحترت القطعان البشرية التى كانت مستعبدة
للطغاة .

وكانت فرقاناً بين عهدين فى تاريخ الحركة الإسلامية : عهد الصبر والمصابرة
والتجمع والانتظار ، وعهد القوة والحركة والمبادأة والاندفاع .. والإسلام بوصفه تصوراً
جديداً للحياة ، ومنهجاً جديداً للوجود الإنسانى ، ونظماً جديداً للمجتمع ، وشكلاً
جديداً للدولة ، بوصفه إعلاناً عاماً لتحرير الإنسان فى الأرض ، بتقرير ألوهية الله وحده
وحاكميته ، ومطاردة الطواغيت التى تغتصب ألوهيته وحاكميته ، . الإسلام بوصفه هذا
لم يكن له بد من القوة والحركة والمبادأة والاندفاع ، لأنه لم يكن يملك أن يقف كامناً
منتظراً على طول الأمد ، لم يكن يستطيع أن يظل عقيدة مجردة فى نفوس أصحابه ،
بتمثل فى شعائر عبودية لله ، وفى أخلاق سلوكية فيما بينهم ، ولم يكن له بُد أن يندفع إلى
تحقيق التصور الجديد ، والمنهج الجديد ، والدولة الجديدة ، والمجتمع الجديد ، فى واقع
الحياة ، وأن يزيل من طريقها العوائق المادية التى تكتبتها ، وتحول بينها وبين التطبيق الواقعى
فى حياة المسلمين أولاً ، ثم فى حياة البشرية كلها أخيراً .. وهى لهذا التطبيق الواقعى
جاءت من عند الله .

وكانت فرقاناً بين عهدين فى تاريخ البشرية .. فالبشرية بمجموعها قبل قيام النظام الإسلامى هى غير البشرية بمجموعها بعد قيام هذا النظام .. هذا التصور الجديد الذى انبثق منه هذا النظام ، وهذا النظام الجديد الذى انبثق من هذا التصور ، وهذا المجتمع الوليد الذى يمثل ميلاداً جديداً للإنسان ، وهذه القيم التى تقوم عليها الحياة كلها ، ويقوم عليها النظام الاجتماعى والتشريع القانونى سواء - هذا كله لم يعد ملكاً للمسلمين وحدهم منذ غزوة بدر ، وتوكيد المجتمع الجديد إنما صار - شيئاً فثيقاً - ملكاً للبشرية كلها ، تأثرت به سواء فى دار الإسلام ، أم فى خارجها ، سواء بصداقة الإسلام أم بعداوتة : .. والصليبيون الذين زحفوا من الغرب ليحاربوا الإسلام ويقضوا عليه فى ربوعه - قد تأثروا بتقاليد هذا المجتمع الإسلامى الذى جاؤوا ليحطموه ، وعادوا إلى بلادهم ليحطموا النظام الإقطاعى الذى كان سائداً عندهم ، بعد ما شاهدوا بقايا النظام الاجتماعى الإسلامى ! والتار الذين زحفوا من الشرق ليحاربوا الإسلام ويقضوا عليه . بإيحاء من اليهود والصليبيين من أهل دار الإسلام ! - قد تأثروا بالعقيدة الإسلامية فى النهاية ، وحملوها لينشروها فى رقعة من الأرض جديدة ، وليقيموا عليها خلافة ظلت من القرن الخامس عشر إلى القرن العشرين فى قلب أوروبا . وعلى أية حال فالتاريخ البشرى كله - منذ وقعة بدر - متأثر بهذا الفرقان فى أرض الإسلام ، أو فى الأرض التى تناهض الإسلام على السواء .

وكانت فرقاناً بين تصورين لعوامل النصر وعوامل الهزيمة ، فجرت وكل عوامل النصر الظاهرية فى صف المشركين ، وكل عوامل الهزيمة الظاهرية فى صف العصبة المؤمنة ، حتى لقال المنافقون والذين فى قلوبهم مرض « غر هؤلاء دينهم » . وقد أراد الله أن تجرى المعركة على هذا النحو - وهى المعركة الأولى بين الكثرة المشركة والقلّة المؤمنة - لتكون فرقاناً بين تصورين وتقديرين لأسباب النصر وأسباب الهزيمة ، ولتنتصر العقيدة القوية على الكثرة العددية وعلى الزاد والعتاد ، فيتبين للناس أن النصر للعقيدة الصالحة القوية ، لا لجرد السلاح والعتاد ؛ وأن أصحاب العقيدة الحقّة عليهم أن يجاهدوا ويخوضوا غمار المعركة مع الباطل غير منتظرين حتى تتساوى القوى المادية الظاهرية ؛ لأنهم يملكون قوة أخرى ترجح الكفة ، وأن هذا ليس كلاماً يقال ، إنما هو واقع متحقق للعيان .

وأخيراً فلقد كانت بدر فرقاناً بين الحق والباطل بمدلول آخر . ذلك المدلول الذى يوحى به قول الله تعالى فى أوائل هذه السورة :

﴿ وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم ، وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون ﴾ .

لقد كان الذين خرجوا للمعركة من المسلمين ، إنما خرجوا يريدون غير أبي سفيان ، واغتنام القافلة ، فأراد الله لهم غير ما أرادوا . أراد لهم أن تغفل منهم قافلة أبي سفيان غير ذات الشوكة - وأن يلاقوا نفير أبي جهل - ذات الشوكة - وأن تكون معركة وقتلا وقتلا وأسرى ، ولا تكون قافلة وغنيمة ورحلة مربحة ! وقال لهم الله سبحانه - إنه صنع هذا :

﴿ ليحق الحق ويبطل الباطل ﴾ .

وكانت هذه إشارة لتحقيق حقيقة كبيرة . . إن الحق لا يحق ، وإن الباطل لا يبطل - في المجتمع الإنساني - بمجرد البيان (النظرى) للحق والباطل ، ولا بمجرد الاعتقاد (النظرى) بأن هذا حق وهذا باطل .. إن الحق لا يحق ولا يوجد في واقع الناس ، وإن الباطل لا يبطل ولا يذهب من دنيا الناس - إلا بأن يتحطم سلطان الباطل ويعلو سلطان الحق ، وذلك لا يتم إلا بأن يغلب جند الحق ويظهروا ، ويهزم جند الباطل ويندحروا ... فهذا الدين منهج حركى واقعى ، لا مجرد (نظرية) للمعرفة والجدل ! أو مجرد الاعتقاد السلبي !

ولقد حق الحق وبطل الباطل بالموقعة ، وكان هذا النصر العملى فرقاناً واقعياً بين الحق والباطل ، بهذا الاعتبار الذى أشار إليه قول الله تعالى فى معرض بيان إرادته - سبحانه - من وراء المعركة ، ومن وراء إخراج الرسول ﷺ - من بيته بالحق ! ومن وراء إفلات القافلة (غير ذات الشوكة) ، ولقاء الفقة ذات الشوكة . ولقد كان هذا كله فرقاناً فى منهج هذا الدين ذاته ، تتضح به طبيعة هذا المنهج ، وحقيقته فى حس المسلمين أنفسهم .. وأنه لفرقان ندرك اليوم ضرورته ، حينما ننظر إلى مآصبات مفهومات هذا الدين من تميع فى نفوس من يسمون أنفسهم مسلمين ! حتى ليصل هذا التميع إلى مفهومات بعض من يقومون بدعوة الناس إلى هذا الدين . وهكذا كان يوم بدر (يوم الفرقان) يوم التقى الجمعان بهذه المدلولات (١) .

(١) فى ظلال القرآن / ٣ / ١٠ / ١٥٢٤ .

ثالثاً : مواصفات النصر :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا ، وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ، وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ، وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ (١) .

١ - الثبات ﴿ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا ﴾ :

ولولا ثباتهم في بدر وتثبيت الله تعالى لهم بملائكته ﴿ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ لما كان نصر بدر . لقد شهدوا قصة طالوت بسمعهم ، ﴿ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهَ كَمِ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ . وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبَّتْ أَقْدَامَنَا وَانصَرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ .. ﴾ (٢) .

وشهدوا قصة بدر ببصرهم ، وكانوا هم أدواتها ، ورأوا بأبصارهم مصرع قيادات مكة ، وقدموا النموذج الحى : والله لانقول لك كما قال قوم موسى لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون . ، ولكن نقول : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون .

﴿ وَمَنْ يُولِهِمْ يُومِئْذُ دُبْرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ ، أَوْ مُتَحِيزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ فليس الثبات فقط من أجل النصر ، ولكن حتى لا يكون فراراً إلى النار وإلى جهنم ، ومنها فروا .

٢ - ذكر الله ﴿ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ :

وليس الذكر العادى ولكنه الذكر الكثير ، بالقلب واللسان ، وما أروع ذكر الله عند احتراب الأسنة ، وزحف الصفوف ، الذكر بالقلب حيث يرى موعود الله بالجنة أمامه ، ويرى الفرار إلى النار خلفه ، ويرى معية الله بين عينيه ، وهو يقاتل أعداء الله ، ويرى موعود الله بنصر المؤمنين ، والتمكين لهم ، وهو الأداة والستار لقدر الله . والذكر باللسان ، الذى يطلب العون ، ويطلب النصر ، ويطلب المدد ، ويطلب التثبيت . وهذا رسول الله ﷺ . وقد انقطع عالم الأسباب ينجى ربه .

(٢) البقرة / ٢٤٩ - ٢٥١ .

(١) الأنفال / ٤٥ ، ٤٦ .

(روى الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : لما كان يوم بدر نظر رسول الله ﷺ إلى أصحابه ، وهم ثلاثمائة ونيف ، ونظر إلى المشركين وهم ألف وزيادة ، فاستقبل النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وعليه رداؤه وإزاره ، ثم قال : « اللهم أنجز لى ما وعدتني ، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام فلا تعبد بعد فى الأرض أبداً » فما زال يستغيث بربه ويدعوه حتى سقط رداؤه ، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه ثم التزمه من ورائه ، ثم قال : يا رسول الله كفاك مناشدتك لربك . فإن الله سينجز لك ما وعدك) . (١)

(وروى البيهقي عن على بن أبى طالب قال : لما كان يوم بدر قاتلت شيئاً من قتال ثم جئت مسرعاً لأنظر إلى رسول الله ﷺ ما فعل قال فجئت فإذا هو ساجد يقول : يا حى يا قيوم يا حى يا قيوم لا يزيد عليها فرجعت إلى القتال ثم جئت وهو ساجد يقول ذلك أيضاً . فذهبت إلى القتال ثم جئت وهو ساجد يقول ذلك أيضاً حتى فتح الله على يده ، وقد رواه النسائي فى اليوم واللييلة .

وروى النسائي عن الأعمش عن عبدالله بن مسعود رضى الله عنه قال : ماسمعت مناشداً ينشد أشد من مناشدة محمد ﷺ يوم بدر جعل يقول : اللهم إنى أنشدك عهدك ووعدك ، اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد ثم التفت وكأن شق وجهه القمر وقال : كأنى أنظر إلى مصارع القوم عشية) . (٢)

٣ - طاعة الله ورسوله ، ﴿ وأطيعوا الله ورسوله ﴾ :

فعون الله تعالى ومعيته مرهونان بطاعته . وطاعة رسوله . ولامعية مع المعصية . ومعصية رسول الله ﷺ يوم أحد ، قادتهم إلى الفشل : ﴿ ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر وعصيتهم من بعد ما أراكم ماتحبون . منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ، ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين ﴾ . (٣)

وكما يقول عمر رضى الله عنه فى وصيته لسعد بن أبى وقاص رضى الله عنه : (إنك ستقدم على أمر شديد ، فالصبر الصبر على ما أصابك ونابك تجمع لك خشية الله ، واعلم أن خشية الله تجتمع فى أمرين : فى طاعته واجتناب معصيته ، وإنما طاعة من أطاعه

(٢) البداية والنهاية / ٢ / ٣ / ٢٧٥ .

(١) البداية والنهاية / ٢ / ٣ / ٢٧٤ .

(٣) آل عمران / ١٥٢ .

يبغض الدنيا وحب الآخرة ، ومعصية من عصاه بحب الدنيا وبغض الآخرة ..) . (١)

ولعل صورة من صور الطاعة والنصر تبرز كذلك من خلال فتح المدائن : (... ثم نزل سعد ببقية الجيش ، وذلك حين نظروا إلى الجانب الآخر قد تحصن بمن حصل فيه من الفرسان المسلمين ، وقد أمر سعد المسلمين عند دخول الماء (أى نزول دجلة) أن يقولوا : نستعين بالله ونتوكل عليه ، حسبنا الله ونعم الوكيل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . ثم اقتحم بفرسه دجلة واقتحم الناس ، لم يتخلف عنه أحد . فساروا فيها كأنما يسبرون على وجه الأرض حتى ملؤوا ما بين الجانبين ، فلا يرى وجه الماء من الفرسان والرجالة ، وجعل الناس يتحدثون على وجه الماء كما يتحدثون على وجه الأرض حتى ملؤوا ما بين الجانبين ... فلم يفقد رجل واحد غير أن رجلاً واحداً يقال له غرقدة البارقي ، زلّ عن فرس له شقراء فأخذ القعقاع بن عمرو بلجامها ، وأخذ بيد الرجل حتى عدله على فرسه ... ولم يعدم للمسلمين شيء من أمتعتهم غير قدح من خشب لرجل يقال له مالك بن عامر كانت علاقته رثة فأخذه الموج فدعى صاحبه الله عز وجل ، وقال : اللهم لا تجعلنى من بينهم ، يذهب متاعى ، فردّه الموج إلى الجانب الذى يقصدونه ، فأخذه الناس ثم ردوه إلى صاحبه . وكان الفرس إذا أعيا وهو فى الماء يقيض الله له مثل النشز المرتفع فيقف عليه فيستريح ، وحتى أن بعض الخيل ليسير وما يصل الماء إلى حزامها - قالوا : وكان الذى يساير سعد بن أبى وقاص فى الماء سلمان الفارسى ، فجعل سعد يقول : حسبنا الله ونعم الوكيل . والله لينصرن الله وليه ، وليظهرن الله دينه ، وليهزمن الله عدوه ، إن لم يكن فى الجيش بغى أو ذنوب تغلب الحسنات ، فقال له سلمان : إن الإسلام جديد ، ذلت لهم والله البحور كما ذلّ لهم البر ..) . (٢)

٤ - عدم التنازع : ﴿ ولاتنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ﴾ . (٣)

الثبات ، وذكر الله تعالى ، وطاعة الله ورسوله إن رافقها التنازع فالفشل وذهاب الريح هو النتيجة . فى بدر أرى الله نبيه المشركين قلة ، فوقى الله المؤمنين الخلاف ﴿ ولو أراكم كثيراً لفشلتم ولتنازعتم فى الأمر ولكن الله سلم ﴾ (٤) أما فى أحد ﴿ حتى إذا فشلتم ، وتنازعتم فى الأمر ، وعصيتهم من بعد ما أراكم ماتحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ﴾ (٥) فلم يسلم الله تعالى النصر

(٣) الأنفال / ٤٦ .

(٢) البداية والنهاية / ٤ / ٦٦ / ٧ .

(١) البداية والنهاية / ٤ / ٧ / ٣٦ .

(٥) آل عمران / ١٥٢ .

(٤) الأنفال : ٤٣ .

سمومين في احد ، لفشلهم وتنازعهم في الأمر ، ورغبة الدنيا وحب الغنيمة ، ولقد وقى الله تعالى المؤمنين يوم بدر . أن كان الخلاف على الغنائم بعد المعركة . وابتلى المؤمنون يوم أحد أن كانت الرغبة في الغنائم والدنيا في قلب المعركة . ويبقى الحكم العام الذى يشمل بدرأ أو أحداً أو غيرها على مدار التاريخ . ﴿ ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ﴾ .

(وقال قتادة وابن زيد : إنه لم يكن هناك نصر قط إلا بريح تهب ، فتضرب في وجوه الكفار ، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام : « نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور » قال الحكم : وتذهب ريحكم يعنى الصبا ؛ إذ بها نصر محمد عليه الصلاة والسلام وأمتة . وذهبت ريح أصحاب محمد ﷺ حين نازعوه يوم أحد (١) والملاحظ أنه ليس من الضروري حين التنازع أن يكون الفريقان على باطل أو خطأ ، بل يكفى أن يكون أحدهما كذلك لتقع العقوبة ، فالتنازع على الجبل يوم أحد ، كان بين من يصر على تنفيذ أمر رسول الله ﷺ ومن استهوته الغنائم ، وقرر القرآن الكريم هذا المعنى : ﴿ منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ﴾ وليس هناك لوم للذين يريدون الآخرة ، بل ثناء عليهم ، وعندما وقعت المحنة ، نالت حتى غير الفريقين المتنازعين ، وعمت الجيش كله . وإن كان الذين يريدون الدنيا من الرماة أكثر من الذين يريدون الآخرة ، وذلك كما تقول الروايات أن عدد الذين تركوا موقعهم أربعين من سبعين .

٥ - الصبر : ﴿ واصبروا إن الله مع الصابرين ﴾

فالصبر على آلام المعركة ، والصبر على مصيبتها ، وشدائدها ، قمين أن يتم الله به النصر ولنشهد نموذجاً من صبر الصابرين في بدر : قال ابن إسحاق فيما يرويه ، عن معاذ بن عمرو بن الجموح ، أخى بنى سلمة : (سمعت القوم وأبوجهل فى مثل الحرجة (٢) ، وهم يقولون : أبو الحكم لا يخلص إليه ، قال : فلما سمعتها جعلته من شأنى ، فصمدت (٣) نحوه ، فلما أمكنتنى حملت عليه ، فضربته ضربة أطئت (٤) قدمه بنصف ساقه ، فوالله ما شبهتها - حين طاحت (٥) إلا بالنواة تطيح من تحت مرضخة (٦) النوى حين يضرب بها

(١) تفسير القرطبي ٢٤ / ٨ / ٤ .

(٢) الحرجة : الشجر الملتف . وفى الحديث عن عمر بن الخطاب أنه سأل أعرابياً عن الحرجة قال : هى شجرة بين

الأشجار لا يوصل إليها .

(٤) أطئت : قطعت .

(٣) صمدت نحوه : قصدت الى جهته .

(٦) المرضخة : الحجر الذى يكسر به النوى .

(٥) طاحت : ذهبت .

قال وضربني ابنه عكرمة على عاتقي فطرح يدي ، فتعلقت بجلدة من جنبي ، وأجهضني ^(١) القتال عنه ، فلقد قاتلت عامة يومي وإني لأسحبها خلفي ، فلما أذنتي وضعت عليها قدمي ثم تمطيت بها عليها حتى طرحتها . قال ابن هشام : ثم عاش بعد ذلك حتى كان زمان عثمان . ^(٢)

(قال ابن إسحاق : وقاتل عكاشة بن محصن .. يوم بدر بسيفه حتى انقطع في يده ، فأتى رسول الله ﷺ فأعطاه جذلاً ^(٣) من حطب ، فقال : « قاتل بهذا يا عكاشة » فلما أخذه من رسول الله ﷺ هزه فعاد سيفاً في يده طويل القامة ، شديد المتن ، أبيض الحديدية ، فقاتل به حتى فتح الله تعالى على المسلمين ، وكان ذلك السيف يسمى العون ، ثم لم يزل به عنده يشهد به المشاهد مع رسول الله ﷺ حتى قتل في الردة وهو عنده . ^(٤))

٦ - الإخلاص لله في القتال : ﴿ ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله ، والله بما يعملون محيط ﴾ . ^(٥)

فالله تعالى ينصر من يقاتل في سبيله . فعن أبي موسى الأشعري قال جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : الرجل يقاتل للمغنم . والرجل يقاتل للذكر . والرجل يقاتل ليرى مكانه فمن في سبيل الله ؟ قال : « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله » ^(٦) وباستجماع هذه العناصر الستة يأتي نصر الله تعالى . وهو نداء حار لأهل بدر ، يدركون مغزاه ومعناه ، وقد عاشوا أحداثه ، ورأوه واقعاً يدب على الأرض ، بهم تحقق ، ومع ذلك . فيبقى النداء ماضياً إلى يوم القيامة ، ويبقى المؤمنون من أهل بدر ، يستمعون إلى نداء السماء لهم . من غير أن يعرفوا أنهم هم المنصورون ، أم المعاتبون بعد أن نُزع منهم كل ماتحمل ذواتهم من فخر بتحقيق هذا النصر .

رابعاً : حقيقة الكافرين ودعواهم :

ومثل الجولة الأولى مع الكافرين ، والتي فضحت دعواهم ، وادعاءاتهم هاهي ذي الجولة الثانية معهم تكفى المسلمين مؤونة نقاشهم والرد عليهم .

(٢) السيرة لابن هشام ٢ / ٢٧٥ . ٢٧٦ .

(١) أجهضني : غلبني واشتد علي .

(٣) جذلاً من حطب : أصل الشجرة .

(٤) المصدر السابق / ٢ / ٢٧٧ . وقد رواه البيهقي عن الحاكم والواقدي كذلك .

(٥) الأنفال / ٤٧ . (٦) متفق عليه .

١ - خروج البطر ورثاء الناس :

﴿ ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً ورثاء الناس ويصدون عن سبيل الله والله بما يعملون محيط ﴾ .

وهذا الأمر من البيان والوضوح بحيث لا يحتاج إلى برهان ، وروايات السيرة تحشد له العديد من المواقف .

أ - رؤيا عاتكة : قال ابن إسحاق فيما يرويه عن عروة بن الزبير ، ويزيد بن رومان قالا : (وقد رأت عاتكة بنت عبد المطلب قبل قدوم ضمضم مكة بثلاث ليال رؤيا أفرعتها ، فبعثت إلى أخيها العباس بن عبد المطلب ، فقالت له : يا أخي ، والله لقد رأيت الليلة رؤيا لقد أفضعتني ^(١) ، وتخوفت أن يدخل على قومك منها شر ومصيبة ، فاكنتم مني ما أحدثك به ، قال لها : وما رأيت ؟ قالت : رأيت راكباً أقبل على بعير له حتى وقف بالأبطح ، ثم صرخ بأعلى صوته : ألا انفروا يآل غدر لمصارعكم في ثلاث ، فأرى الناس اجتمعوا إليه ، ثم دخل المسجد والناس يتبعونه ، فبينما هم حوله مثل ^(٢) به بعيره على ظهر الكعبة ، ثم صرخ بمثلها : ألا انفروا يآل غدر لمصارعكم في ثلاث ، ثم مثل به بعيره على رأس أبي قبيس ، فصرخ بمثلها ، ثم أخذ صخرة فأرسلها ، فأقبلت تهوى حتى إذا كانت بأسفل الجبل ارفضت ^(٣) ، فما بقى بيت من بيوت مكة ، ولا دار إلا دخلتها منها فلقة ^(٤) . قال العباس : والله إن هذه لرؤيا ، وأنت فاكنميها ، ولا تذكرها لأحد .

ثم خرج العباس ، فلقي الوليد بن عتبة بن ربيعة ، وكان له صديقاً ، فذكرها له ، واستكنمه إياها ، فذكرها الوليد لأبيه عتبة ، ففشا الحديث بمكة حتى تحدثت به قريش أنديتها . قال العباس : فغدوت لأطوف بالبيت ، وأبو جهل بن هشام في رهط من قريش قعود يتحدثون برؤيا عاتكة ، فلما رآني أبو جهل قال : يا أبا الفضل ، إذا فرغت من طوافك فأقبل إلينا ، فلما فرغت أقبلت حتى جلست معهم ، فقال لي أبو جهل : يا بني عبد المطلب متى حدثت فيكم هذه النبئة ؟ قال : قلت : وما ذاك ؟ قال ؟ تلك الرؤيا التي رأت عاتكة ، قال : قلت : وما رأت ؟ قال : يا بني عبد المطلب أما رضيتم أن يتنبأ رجالكم حتى تنبأ نساؤكم !!! لقد زعمت عاتكة في رؤياها أنه قال : انفروا في ثلاث ، فستربص بكم هذه الثلاث ، فإن يك حقاً ما تقول فسيكون ، وإن تمض الثلاث ولم يكن من ذلك شيء

(٢) مثل به : قام به مثلاً .

(٤) فلقة : قطعة .

(١) أفضعتني : هالتي واشتدت على .

(٣) ارفضت : تفتت

نكتب عليكم كتاباً أنكم أكذب أهل بيت في العرب . قال العباس : فوالله ما كان منى إليه كبير إلا أنى جحدت ذلك ، وأنكرت أن تكون رأيت شيئاً ، قال : ثم تفرقنا ، فلما أمسيت لم تبق امرأة من بنى عبد المطلب إلا أتتني ، فقالت : أقررتم لهذا الفاسق الحبيث أن يقع في رجالكم ، ثم قد تناول النساء وأنت تسمع ، ثم لم يكن عندك غيرة لشيء مما سمعت . قال : قلت : قد والله فعلت ما كان منى إليه من كبير ، وأيم الله لأتعرضن له ، فإن عاد لأكفينكنه ، قال : فغدوت في اليوم الثالث من رؤيا عاتكة ، وأنا حديد مغضب ، أرى أنى قد فاتتني منه أمر أحب أن أدركه منه . قال : فدخلت المسجد ، فرأيت ، فوالله إنى لأمشى نحوه أتعرضه ليعود لبعض ما قال فأقع به ، وكان رجلاً خفيفاً حديد (١) الوجه حديد اللسان حديد النظر ، قال : إذ خرج نحو باب المسجد يشتد قال : قلت في نفسي : ماله لعنه الله ؟ أكل هذا فرقاً (٢) منى أن أشاتمته ؟ قال : وإذا هو سمع مالم أسمع صوت ضمضم بن عمرو الغفاري ، وهو يصرخ ببطن الوادي واقفاً على بعيره ، وقد جدع (٣) بعيره ، وشق قميصه وهو يقول يامعشر قريش اللطيمة اللطيمة (٤) ، أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد في أصحابه ، لا أرى أن تدركوها الغوث الغوث .

قال : فشغلني عنه وشغله عنى ماجاء من الأمر ، فتجهز الناس سراعاً وقالوا : أياظن محمد وأصحابه أن تكون كبير ابن الحضرمي ؟ كلا والله ليعلمن غير ذلك ، فكانوا بين رجلين إما خارج وإما باعث مكانه رجلاً ، وأوعبت قريش ، فلم يتخلف من أشrafها أحد . إلا أن أبا لهب بن عبد المطلب قد تخلف وبعث مكانه العاصي بن هشام بن المغيرة وكان قد لاط (٥) له بأربعة آلاف درهم كانت له عليه ، أفلس بها ، فاستأجره بها على أن يجزى عنه بعثه فخرج عنه وتخلف أبو لهب (٦) وعير ابن الحضرمي هي التي استولى عليها المسلمون قبل شهر ونصف من بدر . ولنا مع ابن الحضرمي أخى القتيل وقفة تحدثنا عن بغى قريش وبطرها .

ب - (روى ابن جرير عن سعيد بن المسيب قال : بينا نحن عند مروان بن الحكم إذ دخل حاجبه فقال : حكيم بن حزام يستأذن ، قال : ائذن له ، فلما دخل قال : مرحباً يا أبا خالد : ادن ، فمال عن صدر المجلس ، حتى جلس بينه وبين الوسادة ثم استقبله فقال : حدثنا حديث بدر فقال : خرجنا حتى إذا كنا بالجحفة رجعت قبيلة (٧) من قبائل قريش

(١) حديد : شديد وحديد : مغضب . (٢) فرقاً : خوفاً . (٣) جدع بعيره : قطع أنفه .

(٤) اللطيمة : الإبل تحمل الطيب . (٥) لاط له : احتسب وامتنك .

(٦) السيرة لابن هشام / ٢ / ٢٤٥ - ٢٤٧ . (٧) إشارة إلى بى زهرة وسيأتى الحديث عنهم .

بأسرها ، فلم يشهد أحد من مشركيهم بدماء ، ثم خرجنا حتى نزلنا العدو التي قال الله تعالى ، فجئت عتبة بن ربيعة فقلت : يا أبا الوليد هل لك في أن تذهب يشرف هذا اليوم ما بقيت ؟ قال : أفعل ماذا ؟ قلت : إنكم لاتطلبون من محمد إلا دم ابن الحضرمي ^(١) ، وهو حليفك . فتحمل بدينه ويرجع الناس ، فقال : أنت على بذلك واذهب الى ابن الحنظلية - يعني أبا جهل - فقل له : هل لك أن ترجع اليوم بمن معك عن ابن عمك ؟ فجئته فإذا هو في جماعة من بين يديه ومن خلفه ، وإذا ابن الحضرمي واقف على رأسه ، وهو يقول : فسخت عقدي من عبد شمس ، وعقدي اليوم إلى بنى مخزوم ، فقلت له : يقول لك عتبة بن ربيعة هل لك أن ترجع اليوم بمن معك ؟ قال : أما وجد رسولاً غيرك ؟ قلت : لا ولم أكن لأكون رسولاً لغيره ، قال حكيم : فخرجت مبادراً إلى عتبة لئلا يفوتني من الخبر شيء ، وعتبة متكئ على إيماء بن رخصة الغفاري ، وقد أهدى إلى المسلمين عشر جزائر ، فطلع أبو جهل الشر في وجهه ، فقال لعتبة : انتفخ سحرك ؟ فقال له عتبة : ستعلم . فسل أبو جهل سيفه فضرب به متن فرسه ، فقال إيماء بن رخصة : بشس الفأل هذا ، فعند ذلك قامت الحرب . ^(٢)

وفي رواية ابن إسحاق : (ثم قام عتبة بن ربيعة خطيباً ، فقال : يامعشر قريش ، إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمداً وأصحابه شيئاً ، والله لئن أصبتموه ، لا يزال الرجل ينظر في وجه رجل يكره النظر إليه ، قتل ابن عمه ، أو ابن خاله ، أو رجلاً من عشيرته ، فارجعوا وخلوا بين محمد وبين سائر العرب ، فإن أصابوه فذلك الذي أردتم ، وإن كان غير ذلك ألفاكم ولم تعرضوا منه ما تريدون . قال حكيم : فانطلقت حتى جئت أبا جهل ، فوجدته قد نثل ^(٣) درعا له من حرايبها فهو يهشها ^(٤) فقلت له : يا أبا الحكم ، إن عتبة أرسلني إليك بكذا وكذا ، للذي قال ، فقال : انتفخ والله سحره ^(٥) حين رأى محمداً وأصحابه ، كلا ! . والله لانرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد ، وما بعته ماقال ، ولكنه قد رأى أن محمداً وأصحابه أكلة جزور ، وفيهم ابنه قد تخوفكم عليه .

ثم بعث إلى عامر بن الحضرمي . فقال : هذا حليفك يريد أن يرجع بالناس ، وقد رأيت ثأرك بعينك ، فقم فانشد خُفرتك ^(٦) ، ومقتل أخيك ، فقام عامر بن الحضرمي فاكتشف ثم

(٢) البداية والنهاية ٢٧٠/٣/٢ .

(٤) يهشها : يتفقدوها ويعدها للقتال .

(٦) الحُفرة : العهد وانشدتها : اذكرها .

(١) وهو القاتل الوحيد بين المسلمين والمشركين قبل بدر .

(٣) نثل درعه : أخرجه .

(٥) انتفخ والله سحره : السحر الرثة وهذا القول كناية عن الجبن .

صرخ : واعمره ! واعمره ! فحميت الحرب ، وحقب أمر الناس ^(١) ، واستوسقوا ^(٢) على ماهم عليه من الشر ، فأفسد على الناس الرأي الذى دعاهم إليه عتبة ، فلما بلغ عتبة قول أبى جهل انتفخ والله سحره قال : سيعلم مصغرُ استه من انتفخ سحره أنا أم هو ^(٣) (وقد قال رسول الله ﷺ وقد رأى عتبة بن ربيعة فى القوم على جمل له أحمر فقال : إن يكن فى أحد من القوم خير فعند صاحب الجمل الأحمر ، إن يطيعوه يرشدوا) ^(٤) .

ج - (وأقبلت قريش فلما نزلوا الجحفة رأى جهيم بن الصلت بن مخزومة بن عبد المطلب رؤيا فقال : إني رأيت فيما يرى النائم ، وإنى لبين النائم واليقظان ، إذ نظرت إلى رجل قد أقبل على فرس حتى وقف ومعه بعير له ، ثم قال : قتل عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وأبو الحكم بن هشام وأمّية بن خلف ، وفلان ، وفلان ، وعدد رجالاً ممن قتل يوم بدر من أشراف قريش ، ثم رأيت ضرب فى لبة بعيره ، ثم أرسله فى المعسكر ، فما بقى خباء من أخيه العسكر إلا أصابه نضح من دمه ، قال : فبلغت أباً جهل ، فقال : وهذا نبى آخر من بنى عبد المطلب ، سيعلم غداً من المقتول إن نحن التقينا .) ^(٥) .

د - قال ابن إسحاق : ولما رأى أبو سفيان أنه قد أحرز غيره ، أرسل إلى قريش : إنكم إنما خر جثم لتمنعوا غيركم ورجالكم وأموالكم ، فقد نجاها الله فارجعوا ، فقال أبو جهل : والله لا نرجع حتى نرد بدرأ (وكانت بدر موسماً من مواسم العرب . تجتمع لهم به سوق كل عام) فنقيم عليه ثلاثاً ، فننحر الجزر ، ونطعم الطعام ؛ ونسقى الخمر ، وتعزف علينا القيان ، وتسمع بنا العرب ، وبمسيرنا وجمعنا ، فلا يزالون يهابوننا أبداً فامضوا ^(٦) (وعاد قيس إلى أبى سفيان ، - فأخبره بمضى قريش ، فقال : واقوما . هذا عمل عمرو بن هشام ، كره أن يرجع لأنه ترأس على الناس فبغى ، والبغى منقصة وشؤم ، إن أصاب محمد النفير ذلنا) ^(٧) .

هـ - (وقال الأحنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفى : - وكان حليفاً لبنى زهرة - وهم بالجحفة : يابنى زهرة ؛ قد نجى الله أموالكم ، وخلص لكم صاحبكم مخزومة بن نوفل ^(٨) ، وإنما نفرتم لتمنعوه وماله ، فاجعلوا بى جنبها وارجعوا ، فإنه لا حاجة

(١) حقب أمر الناس : اشتد ويقال حقب البعير : إذا اجتمع بوله فلم يقدر على إخراجه .

(٢) استوسقوا : اجتمعوا .

(٣) السيرة النبوية لابن هشام / ٢ / ٢٦٣ ، ٢٦٤ .

(٤) المصدر نفسه / ٢ / ٢٥٧ .

(٥) المصدر نفسه / ٢ / ٢٦١ .

(٦) السيرة لابن هشام / ٢ / ٢٥٧ ، ٢٥٨ .

(٧) إمتاع الأسماع للمقرئى / ١ / ٧١ .

(٨) وكان مخزومة مع قافلة أبى سفيان .

لكم أن تخرجوا في غير ضيعة ، لا ما يقول هذا ، يعنى أبا جهل ؛ فرجعوا ، فلم يشهدوا زهرى واحد ، أطاعوه وكان فيهم مطاعاً (١) ويقال أن الأخنس بن شريق خلا بأبى جهل لما تراءى الجمعان ، فقال : أترى محمداً أيكذب ؟ فقال أبو جهل : كيف يكذب على الله ، وقد كنا نسميه الأمين ، لأنه ما كذب قط ! ولكن إذا كانت في عبد مناف السقاية والرفادة والمشورة ، ثم تكون فيهم النبوة . فأى شئ بقى لنا ؟ فحينئذ انخنس الأخنس ببني زهرة (٢) .

و - (ولما نزل القوم بعث رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب رضى الله عنه إليهم يقول : ارجعوا ، فإنه إن يل هذا الأمر منى غيركم أحب إلى من أن تلوه منى ؛ وأن أليه من غيركم أحب إلى من أن أليه منكم ، فقال حكيم بن حزام : قد عرض نصفاً (٣) فاقبلوه ، والله لا تنصرون عليه بعد ما عرض من النصف ، فقال أبو جهل : والله لا نرجع بعد أن أمكننا الله منهم) (٤) وهكذا نجد من خلال الروايات التى مرت جميعاً أن قريشاً خرجت بطراً ورتاء الناس ، تحاد الله وتكذب رسوله ، تريد أن تشرب الخمر ، وتعزف القيان ، ويعرف العرب بخروجها ، فلا يزالون يهايونها أبداً . وكان على رأس الطغاة أبو جهل بن هشام ، ومن يوحى إليه من شياطين الجن ، وعلى رأس هؤلاء إبليس نفسه .

٢ - الشيطان يدخل المعركة :

﴿ وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإنى جار لكم فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال إني برىء منكم إني أرى ما لاترون ، إني أخاف الله والله شديد العقاب ﴾ (٥) .

قال ابن إسحاق : (ولما فرغوا من جهازهم ، وأجمعوا المسير ، ذكروا ما كان بينهم وبين بنى بكر بن عبد مناة من الحرب فقالوا : إنا نخشى أن يأتونا من خلفنا ، فكاد ذلك يشيهم ، فتبدى لهم إبليس فى صورة سراقه بن مالك بن جعشم المدلجى ، وكان من أشراف بنى كنانة ، فقال لهم : أنا لكم جار من أن تأتیکم كنانة من خلفكم بشيء تكرهونه ، فخرجوا سراعاً .) (٦) .

(وقال الضحاک : جاءهم إبليس يوم بدر برايته وجنوده ، وألقى فى قلوبهم أنهم يهزموا وهم يقاتلون على دين آبائهم ، وعن ابن عباس قال : أمد الله نبيه محمداً ﷺ

(١) السيرة لابن هشام ٢٥٨ / ١ . (٢) إمتاع الأسماع ٧٢ / ١ . (٣) نصفاً : عدلاً .
(٤) إمتاع الأسماع ٨٢ / ١ . (٥) الأنفال / ٤٨ . (٦) السيرة النبوية لابن هشام ٢٥٠ / ٢ .

والمؤمنين بألف من الملائكة ، فكان جبريل عليه السلام فى خمسمائة من الملائكة مجنبه ، وميكائيل فى خمسمائة من الملائكة مجنبه ، وجاء إبليس فى جند من الشياطين ومعه راية فى صورة رجال من بنى مدلج ، والشيطان فى صورة سراقه بن مالك بن جعشم ، فقال الشيطان للمشركين : لا غالب لكم اليوم من الناس ، وإنى جار لكم ؛ فلما اصطف القوم ، قال أبو جهل : اللهم أولانا بالحق فانصره ، ورفع رسول الله ﷺ يده فقال : يارب إنك إن تهلك هذه العصاة فإني تعبد فى الأرض أبدا ، فقال جبريل خذ قبضة من التراب ، فأخذ قبضة من التراب فرمى بها وجوههم ، فما من المشركين من أحد إلا أصاب عينيه ومنخره وفمه ، فولوا مدبرين ، وأقبل جبريل عليه السلام إلى إبليس فلما رآه كانت يده فى يد رجل من المشركين ^(١) انتزع إبليس يده ثم ولى مدبراً وشيعته ، فقال له الرجل : ياسراقه ألم ترعم أنك لنا جار ؟ قال : إني برىء منكم إني أرى مالاترون ، ذكره البيهقي وغيره . وفى موطأ مالك عن طلحة بن عبيد الله بن كرز أن رسول الله ﷺ قال : مارأى الشيطان نفسه يوماً هو فيه أصغر ولا أحقر ولا أذحر ولا أغيط منه فى يوم عرفة ، وماذا إلا لما رأى من تنزل الرحمة وتجاوز الله عن الذنوب العظام إلا مارأى يوم بدر ، قيل : وما رأى يوم بدر يارسول الله ؟ قال : أما إنه رأى جبريل يزعم الملائكة . ^(٢)

٣ - المنافقون من أهل مكة :

﴿ إذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض غر هؤلاء دينهم ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم ﴾ ^(٣) .

(روى ابن جرير بسنده ، عن مجاهد قوله : فئة من قريش قيس بن الوليد بن المغيرة ، وأبوقيس بن الفاكه بن المغيرة ، والحارث بن زمة بن الأسود ابن المطلب ، وعلى بن أمية بن خلف ، والعاص بن منبه بن الحجاج ، خرجوا مع قريش من مكة وهم على الارتياب ، فحبسهم ارتيابهم ، فلما رأوا قلة أصحاب رسول الله ﷺ قالوا ، غر هؤلاء دينهم ، حتى قدموا على ما قدموا عليه ، مع قلة عددهم وكثرة عدوهم ^(٤)) .

(أما بن إسحاق فقد ذكرهم بصيغة أخرى خلال حديثه عن بدر فقال : وكان الفتية الذين قتلوا ببدر ، فنزل فيهم القرآن فيما ذكر لنا : ﴿ إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كتنم . قالوا : كنا مستضعفين فى الأرض ، قالوا ألم تكن أرض الله

(١) فى رواية ابن إسحاق أنه الحارث بن هشام أخو أبى جهل بن هشام .

(٢) تفسير القرطبي ١٩ / ٨ / ٤ . (٣) الأنفال / ٤٩ . (٤) تفسير الطبرى ١٦ / ١٠ / ٦ .

واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً ﴿١﴾ فتية مسلمين : من بنى أسد بن عبد العزى ، الحارث بن زمة بن الأسود ، ومن بنى مخزوم أبو قيس بن الفاكه بن المغيرة ، وأبو قيس بن الوليد بن المغيرة ، ومن بنى جمح على بن أمية بن خلف ، ومن بنى سهم العاص بن منه بن الحجاج .

وذلك أنهم كانوا أسلموا ورسول الله ﷺ بمكة ، فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة حبسهم آبأؤهم وعشائريهم بمكة ، وفتنهم ، فافتتنوا ثم ساروا مع قومهم إلى بدر ، فأصيبوا به جميعاً . (٢)

ويحسن أن نقف وقفة متأنية مع هؤلاء الفتية ، فهم يقدمون نموذجاً سيئاً لكثير من الناس اليوم الذين يحملون فى قلوبهم الإسلام ، لكنهم فى واقع الأمر أداة طيعة بيد الطواغيت ، ينفذون مآربهم ، وبهم تنجح مخططاتهم .

لقد كان هؤلاء الفتية فى بداية الأمر أمموزجاً حياً للشباب المتمرد على الطغيان حين قبلوا الإسلام ، وكل واحد منهم ابن لطاغية من طواغيت مكة ، ولعلمهم أقبلوا عليه حدثاً جديداً يأخذ بلب الشباب ، فلما أن كان الموقف العملى الذى يقتضيه هذا الدين ، وهو موقف الهجرة والمفاصلة التامة مع عشائريهم وآبائهم - كانوا أضعف من ذلك ، وبهجرة النبى ﷺ والمؤمنين معه - ضعف تأثير الإيمان عليهم ، وخضعوا أمام ضغوط آبائهم وعشائريهم ، وفتنوا عن دينهم . لقد كان هناك مستضعفون غيرهم ، ثبتوا على دينهم رغم الضغوط ورغم المصالح ورغم الإغراءات ، وثبتوا طيلة العهد المدنى حتى فتح الله مكة على المسلمين .

أما هؤلاء الفتية فوجدوا أن الاستجابة لمصلحة عشيرتهم وآبائهم أكبر من الاستجابة لدوافع دينهم ، وكانوا جزءاً من الجيش الذى جاء يحاد الله ورسوله ويحارب نبيه ، وعندما التقى الجيشان كانت عواطفهم مع جيش مكة ، وإن أبدوا نوعاً من التعاطف مع جيش النبى ﷺ وقالوا غر هؤلاء دينهم ، أى أن هؤلاء المؤمنين قد اغتروا بقوتهم ، وتورطوا بهذه الحرب ، وأشفقوا عليهم من سوء العاقبة ، فقالوا : غر هؤلاء دينهم وبالتالي ماتوا جميعاً على الكفر ، ولقوا مصرعهم فى بدر .

ألا فليحذر الذين يكتفون بالإسلام عقيدة مستترة فى النفس ، ثم يدعون واقعهم وسلوكهم بيد الطغاة ، يضربون بهم المؤمنين المجاهدين ، ويحشرون فى صف أعداء الله ،

ليقتلوا الدعاة الى الله ، أو يوقعوا بهم البلاء والحنة ، فليحذر هؤلاء أن يكون مصيرهم مثل مصير هؤلاء المنافقين ، والذين فى قلوبهم مرض ، وأن يكون جزاؤهم جهنم وساءت مصيرا . والحجة الوحيدة التى يملكونها أنهم مستضعفون فى الأرض ، أسلسوا قيادهم للطغاة دون أن يبذلوا أى جهد فى الخلاص من برائتهم وضغوطهم ؛ حتى تكتب لهم النجاة .

٤ - مصير الطغاة :

﴿ ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق . ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد . كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كفروا بآيات الله فأخذهم الله بذنوبهم إن الله قوى شديد العقاب . ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمته أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وأن الله سميع عليم . كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآيات ربهم فأهلكناهم بذنوبهم ، وأغرقنا آل فرعون وكل كانوا ظالمين ﴾ ^(١) .

لعل الحديث عن فرعون هذه الأمة أبى جهل ، يقدم نموذجاً كاملاً عن الطغاة ، ويقدم شرحاً وافياً لهذه الآيات الكريمة ، وسنستعرض معظم الروايات التى وردت عن قتله ، وتعذيب الملائكة له ، مع مقارنة بين فرعون هذه الأمة وفرعون مصر .

(... ثم مر بأبى جهل وهو عقير - معوذ بن عفراء فضربه حتى أثبته وتركه وبه رمق . وقاتل معوذ حتى قتل ، فمر عبدالله بن مسعود بأبى جهل حين أمر رسول الله ﷺ أن يلتبس بين القتلى ، وقد قال لهم رسول الله ﷺ فيما بلغنى : « انظروا إن خفى عليكم فى القتلى إلى أثر جرح فى ركبته ، فإنى ازدحمت أنا وهو يوماً على مأدبة لعبد الله بن جدعان ونحن غلامان ، وكنت أشف ^(٢) منه بيسير ، فدفعته فوق على ركبته فجحش ^(٣) فى أحدهما جحشاً لم يزل أثره به » ، قال ابن مسعود : فوجدته بآخر رمق فعرفته ، فوضعت رجلى على عنقه ، قال : وقد كان خبث ^(٤) بى مرة بمكة فأذانى ولكزنى ، ثم قلت له : هل أخزأك الله يا عدو الله ؟ قال ويم أخزانى ؟ قال : أأعد من رجل قتلتموه ^(٥) أخبرنى لمن الدائرة اليوم ؟ قال قلت لله ولرسوله ^(٦) .)

(١) الأنفال / ٥٠ - ٥٤ .

(٢) كنت أشف منه : كنت أقدر منه .

(٣) جحش : خدش وجرح جرحاً كبيراً .

(٤) خبث بى : قبض على .

(٥) أأعد من رجل قتلتموه . قال ابن سراج : أأعد يريد أكبر من رجل قتلتموه على سبيل التحقير منه لفعلهم به

وعمد القوم سيدهم .

(٦) المسيرة النبوية لابن هشام / ٢ / ٢٧٦ ، ٢٧٧ .

قال ابن إسحاق : وزعم رجال من بنى مخزوم أن ابن مسعود كان يقول : قال لى :
لقد ارتقيت مرتقى صعباً يارويعى الغنم ، قال : ثم احتزرت رأسه ثم جئت به رسول الله
ﷺ فقلت : يارسول الله ، هذا رأس عدو الله ، فقال : آله الذى لإله غيره ؟ وكانت يمين
رسول الله ﷺ ، فقلت : نعم ! والله الذى لإله غيره ، ثم ألقيت رأسه بين يدى رسول
الله ﷺ ، فحمد الله (١) .

(وقد ثبت فى الصحيحين عن عبد الرحمن بن عوف قال : إني لواقف يوم بدر فى
الصف ، فنظرت عن يمينى وشمالى فإذا أنا بين غلامين من الأنصار حديثه أسنانهما ،
فتمنيت أن أكون بين أظلع (٢) منهما ، فغمزنى أحدهما فقال : يا عم أتعرف أبا جهل ؟
فقلت : نعم ، وما حاجتك إليه ؟ قال : أخبرت أنه يسب رسول الله ﷺ ، والذى نفسى
بيده لئن رأيته لا يفارق سوادى سواده ؛ حتى يموت الأعجل منا ، فتعجبت لذلك ، فغمزنى
الآخر فقال لى أيضاً مثلها ، فلم أنشب أن نظرت إلى أبى جهل وهو يجول فى الناس ،
فقلت : ألا تريان ؟ هذا صاحبكم الذى تسألان عنه ، فابتدراه بسييفيهما فضرباه حتى
قتلاه ، ثم انصرفا إلى النبى ﷺ فأخبراه ، فقال : « أيكما قتله » قال كل منهما أنا قتلته ،
قال : « هل مسحتما سييفيكما » ، قالا : لا ، قال : فنظر النبى ﷺ فى السيفين فقال :
« كلاهما قتله » ، وقضى بسلبه لمعاذ بن عمرو بن الجموح ، والآخر معاذ بن عفراء .

وفى الصحيحين أيضاً من حديث أبى سليمان التيمى عن أنس بن مالك قال : قال
رسول الله ﷺ : من ينظر ماصنع أبو جهل ؟ قال ابن مسعود : أنا يارسول الله ، فانطلق
فوجده قد ضربه ابنا عفراء حتى برد ، قال : فأخذ بلحيته ، قال : فقلت : أنت أبو جهل ؟
فقال وهل فوق رجل قتلتموه ؟ وعند البخارى عن ابن مسعود أنه أتى أبا جهل فقال : هل
أخزأك الله ؟ فقال : هل أعمد من رجل قتلتموه ؟

وقال الإمام أحمد فيما رواه عن أبى عبيدة ، قال : قال عبدالله بن مسعود . : انتهيت
إلى أبى جهل يوم بدر ، وقد ضربت رجله ، وهو يذب الناس عنه بسيف له ، فقلت :
الحمد لله الذى أخزأك الله ياعدو الله ، قال : هل هو إلا رجل قتله قومه ؟ فجعلت أتناوله
بسيف لى غير طائل ، فأصبت يده فندر سيفه (٣) فأخذته فضربته حتى قتلته ، ثم خرجت
فأتيت النبى ﷺ كأنما أقل من الأرض (٤) ، فأخبرته ، فقال : « آله الذى لإله إلا هو ؟ »

(٢) أظلع منهما : أضعف منهما .

(١) المصدر نفسه .

(٤) كأنما أقل من الأرض : أى أحمل من شدة الفرح .

(٣) ندر : سقط .

فرددها ثلاثاً . قلت : آله الذى لا إله إلا هو ، قال . فخرج يمشى معى حتى قام عليه فقال : « الحمد لله الذى أحرأك الله ياعدو الله ، هذا كان فرعون هذه الأمة » . ورواه أبو داود ، والنسائي من حديث أبى إسحاق السبيعي به .

وقال الواقدي : وقف رسول الله ﷺ على مصرع ابني عفراء فقال : « رحم الله ابني عفراء ، فهما شركاء فى قتل فرعون هذه الأمة ، ورأس أئمة الكفر » ، فقيل : يارسول الله : ومن قتله معهما ؟ قال : « الملائكة وابن مسعود قد شرك فى قتله » رواه البيهقي ، وروى البيهقي عن أبى إسحاق قوله : لما جاء رسول الله ﷺ بالبشير يوم بدر بقتل أبى جهل استحلفه ثلاثة أيمان بالله الذى لا إله إلا هو لقد رأيت قتيلاً ؟ فحلف له ، فخر رسول الله ﷺ ساجداً ، ثم روى البيهقي بسنده عن عبدالله بن أبى أوفى أن رسول الله ﷺ صلى ركعتين حين بشر بالفتح ، وحين جرى برأس أبى جهل . وروى ابن ماجه بسنده عن عبدالله بن أبى أوفى قال : إن رسول الله ﷺ صلى يوم بشر برأس أبى جهل ركعتين . وقال ابن أبى الدنيا ، حدثنا أبى حدثنا هشام ، أخبرنا مجالد عن الشعبي أن رجلاً قال لرسول الله ﷺ : أنى مررت ببدر ، فرأيت رجلاً يخرج من الأرض ، فيضربه رجل بمقموعة من معه ، حتى يغيب فى الأرض ، ثم يخرج ، فيفعل به مثل ذلك مراراً ، فقال رسول الله ﷺ « ذاك أبو جهل بن هشام يعذب إلى يوم القيامة » وقال الأموى فى مغاذه ، عن عامر قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : إني رأيت رجلاً جالساً فى بدر ورجل يضرب رأسه بعمود من حديد ، حتى يغيب فى الأرض ! فقال رسول الله : « ذلك أبو جهل ، وكل به ملك ، يفعل به كلما خرج ، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة » (١) .

(وعن الحسن أن رجلاً قال لرسول الله ﷺ : يارسول الله ، إني رأيت بظهر أبى جهل مثل الشراك (٢) ؟ قال : « ذلك ضرب الملائكة » ، وقيل هذا الضرب يكون عند الموت ، وقد يكون يوم القيامة حين يصيرون بهم إلى النار) (٣) .

(وعن ابن عباس قال : إذا أقبل المشركون بوجوههم إلى المسلمين ضربوا وجوههم بالسيوف ، وإذا ولوا أدركتهم الملائكة فضرَبوا أذبارهم) (٤) .

ووقف مع هذه الروايات توضح لنا النقاط التالية .

(١) هذه الروايات جميعاً أوردها ابن كثير رحمه الله فى البداية والنهاية / ٢ / ٣ / ٢٨٨ - ٢٩٠ .

(٢) الشراك : سير النعل . (٣) تفسير القرطبي / ٤ / ٨ / ٢٨ . (٤) تفسير الطبري / ٦ / ١٠ / ١٦ .

١ - أن ضرب الملائكة أدبار المشركين قد برز بشكل حسى فى ما ورد من الروايات ، وقد مثل هذا الضرب صوراً متعددة ، توضح العذاب الذى يلقاه المشركون إلى يوم القيامة . كما قال لهم عليه الصلاة والسلام : « يا أهل القلب ، يا عتبة بن ربيعة ويا شيبه بن ربيعة ويا أمية بن خلف ويا أباجهل بن هشام ، فعدد من كان منهم بالقلب - « هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ؟ » فإننى قد وجدت ما وعدنى ربي حقاً . فقال المسلمون يا رسول الله ، أتنادى قوماً قد جيفوا ؟ فقال : « ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ، ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبونى » .

(وقال ابن إسحاق : حدثنى بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ قال : « يا أهل القلب ، بئس عشيرة النبى كنتم لنبيكم ، كذبتمونى وصدقنى الناس ، وأخرجتمونى وآوانى الناس ، وقاتلتمونى ونصرنى الناس ، هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ؟ فإننى قد وجدت ما وعدنى ربي حقاً ») (١) .

ولو كانت الروايات حول هذا الموضوع ليست على المستوى المطلوب من الصحة ، فهو قصور فى الروايات أمام ما أكده القرآن الكريم على وجه القطع : ﴿ ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد ﴾ .

٢ - والملاحظ أن الروايات الواردة تنصب على أبى جهل رأس الكفر ، وفرعون الأمة . وهو الذى تجسد فيه الكفر والشرك بالله تعالى .

٣ - والحديث عن فرعون وآله فى الآيتين - متناسب مع الحديث عن فرعون الأمة أبى جهل وآله ، الذين أهلكهم الله بذنوبهم ، والله قوى شديد العقاب . فما يقل أبو جهل عتواً وتكبراً وتحدياً وعناداً عن فرعون ، لكن كل واحد منهما طراز ، وإن التقيا فى حربهما وحقدتهما على الإسلام .

٤ - فالذى يبرز لأول وهلة أن فرعون أشد كفراً وعتواً من فرعون الأمة أبى جهل : فقد قال فرعون : ﴿ ما علمت لكم من إله غيرى ﴾ (٢) ولم يقلها أبوجهل وقال فرعون : ﴿ يا هامان ابن لى صرحاً لعلى أبلغ الأسباب . أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه كاذباً ﴾ (٣) ولم يقلها أبوجهل .

(١) البداية والنهاية / ٢ / ٣ / ٢٩٢ ، ٢٩٣ . (٢) القصص / ٣٨ . (٣) غافر / ٣٦ ، ٣٧ .

٥ - والأغرب فى فرعون الأمة إيمانه بالله كما يدعى ، فها هو يستفتح يوم بدر : اللهم أقطعنا للرحم ، وآتانا بما لا يعرف فأحنه الغداة . وهو الذى قال لإيماء بن رخصة الغفارى بعد أن أهده بعض جزائر (الإبل) ، وعرض عليه أن يمده بالمال والسلاح والرجال ، فقال له أبو جهل : (أن وصلتك رحم ، وقد قضيت الذى عليك ، فلعمري إن كنا إنما نقاتل الناس ما بنا ضعف عنهم ، وإن كنا إنما نقاتل الله كما يزعم محمد فما لأحد بالله من طاقة) . (١)

فأبو جهل فرعون هذه الأمة ليس جاحداً بالله ، وليس ملحدأ ، وليس مدعيأ الألوهية . بل هو يستغيث بالله رب السموات والأرض حين يطلب العون ، وهو يعرف بأن الله تعالى رب السموات والأرض من القدرة بحيث لا طاقة للبشر بحربه . ومع ذلك كله ، لم يجعله هذا الأمر يقرب خطوة واحدة من الإيمان ، أو يحسب فى عداد المؤمنين ، كما يريد اليوم المائعون أن يفعلوا فى معسكر الإيمان ضد معسكر الإلحاد ، ويستحيون من ذكر الإسلام حتى لا يتهموا بالتعصب ، ويضعون تحت لواء الإيمان كل كفره الأرض من أهل الكتاب والمجوس والبوذيين ضد الإلحاد الذى تقوده الشيوعية اليوم وبهذا المقياس وتحت هذا اللواء يدخل أبو جهل على رأس المؤمنين بالله . وهو بالمفهوم الإسلامى فرعون هذه الأمة ورأس أئمة الكفر .

٦ - ولعل هذه السمة هى سمة طواغيت هذه الأمة وفراعينها ، فهم لا يجاهرون بالإلحاد ، ولا يجاهرون بالجحود والكفر ، لكنهم يَصْلُونَ المؤمنين والمجاهدين نار العذاب والإيذاء والاستئصال ويحاولون دفن الوجود الإسلامى فى الأرض ، ويحاربون تحكيم شريعة الله فى الوجود ، لكنهم يطلقون معسول الكلام عن الإسلام ، ومثاليته ، وعن إيمانهم به وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به .

٧ - إنما يبدو عناد فرعون هذه الأمة ! إذا قورن بفرعون موسى من خلال المصير النهائى لكليهما ، فعندما رأى فرعون موسى أنه لا بد قد أصابه الغرق ، وفى اللحظة الأخيرة من حياته ، تراجع عن جحوده وإلحاده ، وقال : ﴿ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ . وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (٣) بينما رأينا أبو جهل وهو فى الرمق الأخير يصصر على كفره وعناده . ويقول : أأعد من رجل قتلتموه ؟ لقد ارتقيت مرتقى صعباً ياروىعى الغنم .

(١) السيرة النبوية لابن هشام / ٢ / ٢٦١ . (٢) يونس / ٩٠ .

٨ - وتقع الأقدار العجيبة مع فرعون هذه الأمة أن يكون من الذين أسهموا بقتله غلامان من الأنصار في مقتبل الشباب حديثة أسنانهما ، وعبدالله بن مسعود رضى الله عنه الذى كان يسميه روى الغنم ، ولم يقتله صناديد المسلمين حمزة أو على أو أبطال الأنصار سعد بن معاذ أو أبو دجانة أو سعد بن عباد - إنما كتب الله تعالى أجله على يد الغلامين من الأنصار وعلى يد روى الغنم عبدالله بن مسعود رضى الله عنه الذى كان قصير القامة نحيل البدن .

﴿ ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين . ونمكن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون ﴾ . (١)

﴿ وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون ﴾ . (٢)

٩ - وليست قصة جالوت منهم بعيدة ، فبعد أن كانت صورة مثالية تختزن فى أذهان أهل بدر ، وكيف يقع نصر الله إذا هم اليوم ستار القدر ، وهم أعجوبة البشر . بهم يتحقق قدر الله فقد قتل الغلام داود جالوت ، فرعون بنى إسرائيل الجديد ، وقتل معاذ ومعوذ ابنا عفراء فرعون الأمة وكانا غلامين من الأنصار ، وآتى الله تعالى داود الحكمة والملك ، وآتى الله عبدالله بن مسعود الحكمة . فإذا هو أفقه الصحابة أو من أفقهم ، فعن حذيفة قال : « إن أشبه الناس دلاً وسمتاً وهدياً برسول الله ﷺ لابن أم عبد من حين يخرج من بيته إلى أن يعود إليه ، لاندري ما يصنع فى أهله إذا خلا (٣) . وعن عبد الله بن عمرو قال : استقرؤوا القرآن من أربعة : من عبدالله بن مسعود وسالم مولى أبى حذيفة وأبى بن كعب ومعاذ بن جبل » . (٤)

﴿ وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء ﴾ . (٥)

١٠ - ﴿ ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ . (٦)

(٣) رواه البخارى .

(٦) الأنفال / ٥٣ .

(٢) الأعراف / ١٣٧ .

(٥) البقرة / ٢٥١ .

(١) القصص / ٦٠ ، ٥٦ .

(٤) متفق عليه .

قال السدى : (نعمة الله عليهم محمد ﷺ ، فكفروا به ، فنقل إلى المدينة وحل بالمشركين العقاب) (١) وقد فقدوا بهذه النعمة خيري الدنيا والآخرة حين لم يحافظوا عليها ، لقد حل عليهم العذاب حين غادرهم رسولهم إلى المدينة ﴿ وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ﴾ وهامم يلقون مصارعهم بالسيف ، ويلقون في قلب بدر ، نعمة من الله تعالى عليهم . والأمة التي تحارب الدعاة إلى الله ، وتشردهم تحت كل نجم ، وتلاحقهم في كل أرض - سيحل بها غضب الله ونقمته كما حلت بقريش ، وأمتنا اليوم التي تنكبت صراط الله المستقيم ، واستبدلت بشرائع البشر وأهواءهم شريعة الله عز وجل نزل بها من النكال منازل بقريش ، فمن هزيمة إلى هزيمة ، ومن صراع إلى صراع ، مزق أوصالها ، وجعلها نهبة للمعتدين .

خامساً : مبادئ الحرب والسلام :

﴿ إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون . الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون . فإذا تثقفنهم في الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين ﴾ .

١ - أحكام المعاهدين :

صار للمسلمين دولة ، وافتتحوا دولتهم بالعهد مع اليهود الذين كانوا مقيمين في المدينة . والله تعالى وصف هؤلاء اليهود بنقضهم ميثاقهم ، وكفرهم بآيات الله ، وقتلهم الأنبياء بغير حق . ومع ذلك فقد أقدم عليه الصلاة والسلام على التعاهد معهم ، حرصاً على فتح صفحة جديدة من التعامل معهم ، إذ أن الإسلام وضع في حسبانته من البداية التعايش مع اليهود والنصارى من أهل الكتاب رغم اختلاف العقيدة ، ومن أجل هذا كان في أحكامه النهائية ﴿ اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتنهم أجورهن محصنين غير مسافحين .. ﴾ (٢) .

وأى شيء من التعايش يبقى أهم من الطعام والنكاح ؟

وكانت وثيقة المدينة التي كتبها النبي ﷺ منذ البداية بمثابة الدستور الذي يحكم الأمة

(١) تفسير القرطبي / ٤ / ٨ / ٢٩ . (٢) المائدة / ٥ .

المسلمة ، ويحكم غير المسلمين من اليهود والمشركين المواطنين فى المدينة. ويرى المفسرون أن هذه الآيات نزلت فى بنى قريظة ، وبنى النضير الذين ينقضون عهدهم كلما رأوا الفرصة سانحة لنقضه ، وكلما وجدوا لحظة ضعف أو بادرة محنة .

ويدعو الله تعالى نبيه إلى عقوبة هؤلاء الناكثين عقوبة تقطع دابر من وراءهم من قومهم ، ﴿ فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون ﴾ . (١)

وفى أجواء بدر وبعد العودة منها والمسلمون يتحدثون بنعمة الله تعالى عليهم بنصره فى بدر . كان اليهود . يشيعون البلبله فى الصف مع المنافقين حيث كانوا يقولون : عندما وصل يشير رسول الله ﷺ بالنصر :

(وقدم زيد بن حارثة على ناقة رسول الله ﷺ القصواء ييشر أهل المدينة ، فلما جاء المصلى صاح على راحلته : قتل عتبة وشيبة ابنا ربيعة ، وابنا الحجاج وقتل أمية بن خلف وأبو جهل وأبو البخترى وزمعة بن الأسود ، وأسر سهيل بن عمرو ذو الأنياب فى أسرى كثير . فجعل بعض الناس لا يصدقون زيداً ويقولون : ماجاء زيد بن حارثة إلا فلاً (٢) حتى غاظ ذلك المسلمين وخافوا . وقدم زيد حين سويها على رقية بنت رسول الله ﷺ بالبيع ، وقال رجل من المنافقين لأسامة : قتل صاحبكم ومن معه ؟ وقال آخر لأبى لبابة : قد تفرق أصحابكم تفرقاً لا يجتمعون فيه أبداً ، وقد قتل عليه أصحابه قتل محمد ، وهذه ناقتة نعرفها ، وهذا زيد لا يدري ما يقول من الرعب ، وجاء فلاً فقال أبو لبابة : يكذب الله قولك ، وقالت اليهود : ما جاء زيد إلا فلاً ، قال أسامة : فجئت حتى خلوت بأبى فقلت : أحق ماتقول ؟ فقال : أى والله حق ما أقول ، فقويت نفسى ورجعت إلى ذلك المنافق فقلت : أنت المرجف برسول الله وبالمسلمين ، لنقدمك إلى رسول الله إذا قدم فليضربن عنقك ، فقال : إنما هو شئ سمعته من الناس يقولونه) . (٣)

هكذا كان جو المدينة قبيل وصول الجيش الإسلامى المظفر إلى المدينة ، وكان اليهود الذين تعاهدوا وتعاهدوا مع رسول الله ﷺ يظهرون خبث نواياهم فى هذه المناسبات ، ويتجاهلون عقودهم ومواثيقهم ، فقال الله تعالى عنهم :

﴿ إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون . الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم فى كل مرة وهم لا يتقون . فإما تثقفنهم فى الحرب فشرد بهم من

(١) الأنفال / ٥٧ . (٢) فلاً : هرباً . (٣) البداية والنهاية لابن كثير عن الواقدى .

خلفهم لعلهم يذكرون . وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين ﴿١﴾ .

ويحدثنا المقرئ عن الحلقة الأولى من الخيانة . بما يتناسب وجو هذه الآيات :
(وكان سببها - أى غزوة بنى قينقاع - أن رسول الله ﷺ لما قدم المدينة مهاجراً وادعته يهود كلُّها ، وكتب بينه وبينهم كتاباً ، وألحق كل قوم بحلفائهم ، وجعل بينه وبينهم أماناً ، وشرط عليهم شروطاً منها : ألا يظاهروا عليه عدواً ، فلما قدم من بدر بَغَت يهود ، وقطعت ما كان بينها وبين رسول الله ﷺ من العهد ، فجمعهم بسوق بنى قينقاع وقال : يامعشر يهود ، أسلموا قبل أن يوقع الله بكم مثل وقعة قريش ، فوالله إنكم لتعلمون أنى رسول الله ، فقالوا : يامحمد ، لا يغرنك من لقيت ، إنك قهرت قوماً أغماراً ^(٢)) وإنا والله أصحاب الحرب ، ولئن قاتلتنا لتعلمن أنك لم تقااتل مثلاً ^(٣) .

والثابت أن الله تعالى أنزل باليهود بعد هذا الموقف :

﴿ قل للذين كفروا ستغلبون ، وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد ، قد كان لكم آية فى فتنتين القتتا ، ففة تقااتل فى سبيل الله ، وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأى العين ، والله يؤيد بنصره من يشاء إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار ﴾ ^(٤) .

وبعضهم اعتبر ، فكف عن حربه ولزم عهده ، ولو بشكل مؤقت ، وهم بنو النضير وبنو قريظة ، وبعضهم الآخر . أصر على موقفه من العداء والعناد والتحدى ، وهم بنو قينقاع (فبينما هم على ما هم عليه - من إظهار العداءة ونبذ العهد - جاءت امرأة رجل من الأنصار إلى سوق بنى قينقاع ، فحلَّ درعها من ورائها بشوكة ولا تشعر .

(وفى رواية ابن إسحاق : فجعلوا يريدونها على كشف وجهها ، فأبَت ، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعمده عند ظهرها) ^(٥) .

(فلما قامت بدت عورتها ، فضحكوا منها ، فاتبعه رجل من المسلمين فقتله ، فاجتمع عليه بنو قينقاع وقتلوه ، ونبذوا العهد إلى النبى ﷺ ، وحاربوا ، وتحصنوا فى حصنهم ،

(١) الأنفال : ٥٥ - ٥٨ .
(٢) أغماراً : جهلاء لا غناء عندهم ولا رأى ولا تجربة بالحرب .

(٣) إمتاع الأسماع / ٤ / ١٠٤ .

(٤) الفتتان هما المسلمون وقريش . والإشارة إلى موقعة بدر . واختلاف العدد بين الفتتين ، (آل عمران / ١٢ ، ١٣) .

(٥) السيرة لابن هشام / ٢ / ٤٢٦ .

فأنزل الله تعالى : ﴿ وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين ﴾ ، فقال ﷺ : « أنا أخاف بنى قينقاع » فسار إليهم رسول الله ﷺ يوم السبت النصف من شوال بعد بدر ببضع وعشرين يوماً ، وهم سبعمائة مقاتل ، منهم ثلاثمائة متدرعون بدروع الحديد ، ولم يكن لهم حصون ولا معاقل ، إنما كانوا تجاراً وصاغة ، وهم حلفاء لعبد الله بن أبي بن سلول ، وكانوا أشجع يهود ، فكانوا أول من غدر من اليهود . فحاصروهم خمسة عشرة ليلة حتى نزلوا على حكم رسول الله ﷺ ، فأمر بهم فربطوا . واستعمل على رباطهم وكتافهم المنذر بن قدامة السلمى ؛ ثم خلى عنهم بشفاعة عبد الله بن أبي بن سلول ، وأمرهم أن يجلوأ عن المدينة ، فأجلاهم محمد بن مسلمة الأنصارى ؛ وقيل عبادة بن الصامت ، وقبض أموالهم . وأخذ رسول الله ﷺ من سلاحهم ثلاث قسى^(١) وهى الكتوم والروحاء والبيضاء ، وأخذ درعين . الصغدية وفضة وثلاثة أسياف وثلاثة أرماح ، ووجدوا فى منازلهم سلاحاً كثيراً وآلة الصياغة ، وخمس ما أصاب منهم ، وقسم ما بقى على أصحابه ، وخرجوا بعد ثلاث فلحقوا بأذرعات^(٢) بنسائهم وذرازيهم^(٣) .

أما نبذ العهد فمعناه كما قال الأزهري :

(إذا عاهدت قوماً ، فعلمت منهم النقض بالعهد فلا توقع بهم سابقاً إلى النقض ، حتى تلقى إليهم أنك قد نقضت العهد والمواعدة ، فيكونوا فى علم النقض مستويين ، ثم أوقع بهم . والمعنى : وإما تخافن من قوم بينك وبينهم عهد خيانة فانبذ إليهم العهد أى قل لهم قد نبذت إليكم عهدكم وأنا مقاتلكم ليعلموا ذلك فيكونوا معك فى العلم سواء ولا تقاتلهم وبينك وبينهم عهد وهم يثقون بك) .^(٤)

وأما تشريد من خلفهم بهم . فهو :

(فشرد بهم من خلفهم ، يقول : فافعل بهم فعلاً يكون مشرداً من خلفهم من نظرائهم ممن بينك وبينه عقد وعهد .. حتى لا يجترأوا على مثل الذى اجترأ عليه هؤلاء الذين وصف الله صفتهم)^(٥) .

وقد تحقق الهدف من ذلك ، فلم يجترأ بنو النضير وبنو قريظة على مدّ إخوانهم من

(١) قسى : جمع قوس .

(٢) أذرعات : مدينة بأطراف الشام قبل الحجاز وهى التى تسمى اليوم إدراع

(٣) إمتاع الأسماع / ١ / ١٠٤ ، ١٠٥ . (٤) تفسير القرطبي / ٤ / ٨ / ٣٢ .

(٥) تفسير الطبري / ٦ / ١٠ / ١٩ .

اليهود بالسلاح أو الرجال ، كما أنهم خافوا من نقض العهد ، وتمسكوا به إلا أن نقضوه بعد أحد والخندق ، وبعد أن تغيرت أجواء النصر ورياح بدر .

٢ - مواجهة الكافرين :

﴿ ولا تحسبن الذين كفروا سبقوا إنهم لا يعجزون ، وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ، ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم ومانتفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون . وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم . وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين ﴾ . (١)

انتهت بدر وتم فيها النصر بقدر من الله ، والمؤمنون فرحون بهذا النصر . وتوجهت الأنظار إلى المسلمين ، وهم القوة الكبرى فى جزيرة العرب . وهزيمة قريش المنكرة ، وقتل سادتها وأشرافها ، ثم إجلاء بنى قينقاع من جزيرة العرب - كان هذا كله إيذاناً بأن توجه الأنظار إلى المدينة ؛ لتواجهها أو تحالفها أو تحاربها ، أو تتكتل ضدها ، ولا يجوز أن يسكر النصر المنتصرين ، بل لابد من إعداد العدة لمثل هذه المواجهة .

لقد بلغت أخبار نصر بدر الحبيشة فماذا كان الموقف ؟ :

(أرسل النجاشى ذات يوم إلى جعفر بن أبى طالب وأصحابه فدخلوا عليه ، وهو فى بيت عليه خلقان ثياب جالس على التراب . قال جعفر فأشفقنا منه حين رأيناه على تلك الحال ، فلما أن رأى مافى وجوهنا قال : إني أبشركم بما يسركم ، إنه جاءنى من نحو أرضكم عين (٢) لى ، فأخبرنى أن الله قد نصر نبيه ، وأهلك عدوه وأسر فلان وقتل فلان وفلان التقوا بوادٍ يقال له بدر كثير الأراك ، كأنى أنظر إليه ، كنت أرعى لسيدى رجل من بنى ضمرة إبله ، فقال له جعفر : مابالك جالساً على التراب ليس تحتك بساط وعليك هذه الأخلاط ؟ قال : إنا نجد فيما أنزل الله على عيسى إن حقاً على عباد الله أن يحدثوا لله تواضعاً ، عندما يحدث لهم من نعمة . فلما أحدث الله لى نصر نبيه ﷺ أحدثت له هذا التواضع) .

ولاشك أن العيون لكسرى وقبصر كذلك قد نقلت خبر هذا الانتصار ، وأصبحت القوة الإسلامية تشكل قلقاً كبيراً لأصحاب النفوذ فى المنطقة ، وبالتالي فلا بد أن يكون

(١) الأنفال / ٥٩ - ٦١ . (٢) عين لى : أى رحل يترصد لى الأخبار .

الإعداد على هذا المستوى من المواجهة .

﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة﴾ .

وفي صحيح مسلم عن عقبه بن عامر قال : سمعت رسول الله ﷺ على المنبر وهو يقول : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ، ألا إن القوة الرمي ، ألا إن القوة الرمي ، ألا إن القوة الرمي » وعن سلمة بن الأكوع قال : خرج رسول الله ﷺ على قوم من أسلم يتناضلون ^(١) بالسوق فقال : « ارموا يابني إسماعيل ، فإن أباكم كان رامياً ، وأنا مع بني فلان لأحد الفريقين ، فأمسكوا بأيديهم . فقال : مالكم ؟ قالوا : وكيف نرمي وأنت مع بني فلان ؟ قال : ارموا وأنا معكم كلكم » ^(٢) ونلاحظ التعبير النبوي بشموله حين اعتبر القوة الرمي دون تحديد ، وبذلك يدخل ضمن هذا الإطار - كل الرمي في الحرب قديمه وحديثه دون استثناء .

﴿ومن رباط الخيل﴾ والخيل كما يقول عليه الصلاة والسلام : « معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة : الأجر والغنيمة » ^(٣) ولقد دعا الإسلام إلى احتباس الخيل في سبيل الله فقال : « من احتبس فرساً في سبيل الله إيماناً بالله ، وتصديقاً بوعده ؛ فإن شبعه ورية وروثه وبوله في ميزانه يوم القيامة » ^(٤) ودعا الإسلام إلى أن تملأ التعبئة للحرب والتهيئة لها وقت السلم جده ولهوه . فعن عقبه بن عامر قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله تعالى يدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة : صانعه يحتسب في صنعته الخير ، والرامي به ومنبله ، فارموا واركبوا . وأن ترموا أحب إلي من أن تركبوا ، كل شيء يلهو به الرجل باطل إلا رميه بقوسه ، وتأديبه فرسه ، وملاعبته أهله ، فإنهن من الحق » ^(٥) . وزاد الدرامي وأبو داود : « ومن ترك الرمي بعد ما علمه رغبة عنه فإنه نعمة تركها ، أو قال : كفرها » .

وليس المجاهد في سبيل الله إذن هو المقاتل وحده ، بل صانع الأسلحة ، ومصممها ومهيئها للقتال ، فكل ذلك في سبيل الله . وكان لهذه الأحاديث فعل السحر عند المسلمين ، فتوجه المجتمع الإسلامي كله بعد بدر إلى التعبئة والتسلح ، ولم يكن لدى المسلمين في بدر غير فرسين للمقداد والزبير رضي الله عنهما ، وسبعون بعيراً ، والسيوف في القرب ، فإذا بأحد وبعد مرور سنة على بدر ... تتضاعف الأفراس ، فرس

(٣) رواه مسلم .

(٢) رواه البخاري .

(١) يتناضلون : يترامون على سبيل المسابقة .

(٥) رواه الترمذي وابن ماجة وأبو داود والدارمي .

(٤) رواه البخاري .

لرسول الله ﷺ ، وفرس لأبى بردة بن نيار رضى الله عنهما ، وإذا فى الجيش مائة دارع ، وإذا الرماة سبعون يصدون هجوم الفرسان من مكة ، أما الرماح والسيوف والأقواس فحدث ولا حرج .

وماهى حدود التعبئة والإعداد ؟

﴿ ترهبون به عدو الله وعدوكم ، وآخرين من دونهم لاتعلمونهم الله يعلمهم ﴾ فلايكفى أن يكون السلاح للدفاع ، ولايكفى أن يكون للهجوم على العدو المباشر ، بل لابد أن يكون سلاحاً رادعاً ، ييث الرعب والإرهاب فى قلب العدو ، إنه المدى المفتوح فى الأفق يرتبط مع الاستطاعة ، وينتهى مع الردع يشتى أنواعه .

والذى يملك الردع النووى فى عالمنا المعاصر هما الدولتان العظميان ، والمفهوم الإسلامى عن التعبئة والإعداد ، الذى ينطلق من الاستطاعة ، يستمر حتى يكون لدى الإسلام دولته التى تتفوق فى ردعها على هاتين الدولتين العظميين .

بهذا الفهم وبأبعد مدى منه فهم المفسرون هذا المعنى . ﴿ وآخرين من دونهم ﴾ يعنى فارس الروم ، قاله السدى . وقيل الجن ، وهو اختيار الطبرى . وقيل : المراد بذلك كل من لا تعرف عدواته .

(وقال السهيلي : قيل هم قريظة ، وقيل : هم من الجن ، وقيل غير ذلك . ولاينبغى أن يقال فيهم شيء لأن الله سبحانه وتعالى قال : ﴿ وآخرين من دونهم لاتعلمونهم الله يعلمهم ﴾ فكيف يدعى أحد علماً بهم ؟ إلا أن يصح حديث جاء فى ذلك عن رسول الله ﷺ وهو قوله فى هذه الآية هم الجن .) ^(١) ولاشك أن مثل هذا الإعداد يحتاج إلى مال طائل ونفقات باهظة ، فلاغرو فى ذلك . ﴿ وماتنفقوا من شيء فى سبيل الله يوف إليكم وأنتم لاتظلمون ﴾ ومازال عثمان رضى الله تعالى عنه يتفق فى سبيل الله حتى قال فيه رسول الله ﷺ : (ماضر عثمان ماعمل بعد اليوم) ^(٢) .

(إنه لابد للإسلام من قوة ينطلق بها فى الأرض ، لتحرير الإنسان . وأول من تصنعة هذه القوة فى حقل الدعوة - أن تؤمن الذين يختارون هذه العقيدة على حريتهم فى اختيارها ، فلايصدوا عنها ، ولايفتنو كذبت بعد اعتناقها ... والأمر الثانى : أن ترهب أعداء هذا الدين ، فلايفكروا فى الاعتداء على « دار الإسلام » التى تحميها تلك القوة ...

(١) تفسير القرطبي ٤ / ٨ / ٣٨ . (٢) رواه أحمد واسمذى بإسناد حسن .

والأمر الثالث : أن يبلغ الرعب بهؤلاء الأعداء ألا يفكروا فى الوقوف فى وجه المد الإسلامى ، وهو ينطلق لتحرير « الإنسان » كله فى « الأرض » كلها . والأمر الرابع : أن تحطم هذه القوة كل قوة فى الأرض تتخذ لنفسها صفة الألوهية ، فتحكم الناس بشرائعها هى وسلطانها ، ولا تعترف بأن الألوهية لله وحده ، ومن ثم فالحاكمة له وحده سبحانه ..

إن الإسلام ليس نظاماً لاهوتياً يتحقق بمجرد استقراره عقيدة فى القلب ، وتنظيماً للشعائر ، ثم تنتهى مهمته : إن الإسلام منهج عملى واقعى للحياة ، يواجه مناهج أخرى تقوم عليها سلطات ، وتقف وراءها قوى مادية . فلا مقر للإسلام - لإقرار منهجه الربانى . من تحطيم تلك القوى المادية ، وتدمير السلطات التى تنفذ تلك المناهج الأخرى ، وتقاوم المنهج الربانى ...

وينبغى للمسلم أن لا يتمتم ولا يجمعجم وهو يعلن هذه الحقيقة الكبيرة ... ينبغى أن لا يستشعر الخجل من طبيعة منهجه الربانى .. ينبغى أن يذكر أن الإسلام حين ينطلق فى الأرض ... إنما ينطلق لإعلان تحرير الإنسان بتقرير ألوهية الله وحده ، وتحطيم ألوهية العبيد ...! إنه لا ينطلق بمنهج من صنع البشر ، وللتقرير سلطان زعيم ، أو دولة ، أو طبقة ، أو جنس .

إنه لا ينطلق لاسترقاق العبيد ؛ ليفلحوا مزارع الأشراف كالرومان ، ولا لاستغلال الأسواق والخامات كالأسمالية الغربية ، ولا لفرض مذهب بشرى من صنع بشر جاهل قاصر كالشيوعية ، وما إليها من المذاهب البشرية . إنما ينطلق بمنهج من صنع الله الحكيم الخبير البصير ، ولتقرير ألوهية الله وحده وسلطانه لتحرير الإنسان فى الأرض من العبودية للعبيد ...

هذه هى الحقيقة الكبيرة التى يجب أن يدركها المهزومون الذين يقفون بالدين موقف الدفاع - وهم يتمتمون ويجمعجمون للاعتذار عن المد الإسلامى ! والجهاد الإسلامى ^(١) .

إنها السنة الثانية للهجرة . وإنها أول موقعة يوقعها المسلمون فى الشرك . ولكن المعانى الضخمة التى رافقت هذه المعركة ، وأنزلها الله تعالى على نبيه بعد بدر ، انتقلت بالمسلمين نقلة ضخمة من مصاف التفكير المحلى إلى مصاف التفكير العالمى :

(وكانت بدر من حيث أثرها الخطير ظاهرة كونية ، فقد احتفل بها الإنس والجن)

(١) فى ظلال القرآن / ٣ / ١٠ / ١٥٤٣ ، ١٥٤٤ .

والملائكة ، ففي عالم الأرض وعالم البشر ... نذكر أن سورة الروم عندما نزلت كانت تمثل آمال عشرات المسلمين في مكة وطموحاتهم بأن ينتصر الروم - أهل الكتاب في الأرض - على الفرس الوثنيين فيها ، حيث كان الفرس والروم يقتسمون الأرض آنذ ، وكان هؤلاء العشرات من المسلمين والمئات من المشركين غفلاً من التاريخ وأحداثه ، يتفرجون على صناعة الكبار في الأرض ، ونذكر كيف تم الرهان بين أبي بكر رضى الله عنه وأحد المشركين على نصر الروم بعد بضع سنوات ، ﴿ آلم . غلبت الروم . في أدنى الأرض ، وهم من بعد غلبهم سيغلبون . في بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم . وعد الله لا يخلف الله وعده . ولكن أكثر الناس لا يعلمون . يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون ﴾ (١) .

لقد كان أقصى ما يحلم به المسلمون آنذاك بعد بضع سنين أن ينتصر الروم على الفرس ، وبذلك تقوى شوكة المسلمين إن انتصر أهل الكتاب الأقرب إلى المسلمين ، على الفرس الأقرب إلى المشركين .

وتحقق موعود الله جل شأنه ، فانتصر الروم بعد تسع سنين من هزيمتهم أمام الفرس ، وفرح المؤمنون بنصر الله ، وكان وعد الله الذى لا يخلفه ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، هذا هو المدى الأقرب للآيات ، أما المدى الأعظم فكان أكبر وأضخم فى تاريخ البشرية ، لقد فرح المؤمنون بنصر الله يوم بدر ، ويوم نصرهم جاءت أخبار انتصار الروم على الفرس . لقد جاء خبر انتصار الروم هامشياً وثانوياً أمام انتصار بدر ، وكان فرح المؤمنين بنصر الله فى بدر هو المدلول الأعظم للآية الكريمة ، ولم يكن يدور بخلد عشرات المؤمنين فى الأرض والآيات تنزل فى مكة أنهم هم المعنيون بالنصر ، وأنهم هم صناع الأحداث . وأن الروم والفرس غدوا على هامش التاريخ بعد أن أنزل الله تعالى ملائكته لنصر المؤمنين فى بدر ، وكان وعد الله الذى لا يخلفه هو نصر محمد وحزبه لانصر الروم فقط ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، حتى المؤمنين لا يحيطون بعلم الله عز وجل ، وماذا يعد لهم من نصر ، وماذا يعد بهم من حسم .. فالمسلمون حتى قبل بدر بأيام قلائل لم يكونوا يعلمون أنهم المعنيون بنصر الله ، ينصر من يشاء ، وعد الله لا يخلف الله وعده ورسول الله ﷺ سيد الخلق لم يكن يعلم أنه المقصود بنصر الله ، ينصر من يشاء ومن أجل

(١) الروم: ١ : ٧ .

هذا كان يلح على ربه بالنصر يوم بدر حتى ليسقط رداؤه عن كتفيه ، ويخشى أن تكون هذه المعركة نهاية العصبة المؤمنة في الأرض ، « اللهم إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد في الأرض » لقد كان الرهان في عالم الأرض على افتتاح التاريخ بهذا النصر من أى الفريقين ، فلقد كان أبو جهل يقول : « والله لانرجع حتى نرد بدرأ فننحر الجزر ، ونشرب الخمر ، وتعزف علينا القيان ، ويعلم العرب بخروجنا هذا فلايزالون يهابونا أبداً » .

لقد كانت مطامح أبى جهل أن يكون مقود العرب بيده بعد بدر ، ولاتزال تهابه أبداً ، وكان رسول الله ﷺ يقول : « اللهم إن تشأ لا تعبد في الأرض » وإذا نصر الله يتنزل ، فتقلب الموازين ، ويتأرجح التاريخ ، ويصبح مقوده بيد المسلمين ، ومن ذلك الوقت لم يعودوا على هامش الأحداث يأملون ويدعون ... كما كانوا أيام انتصار الفرس على الروم ، بل صاروا صناع أحداثه في بدر وبعدها ، وجاء هذا النصر من الحسم ومن الضخامة بحيث اجتث الباطل من جذوره ، فقد سقط قادة الكفر صرعى في هذه المعركة ، وهم الذين كانوا يحملون عبء الحرب ضد الدعوة خمسة عشر عاماً أو تزيد ، إنه جيل قادة كامل سقط على الساحة صريعاً بين يدي هذه العصبة المؤمنة ، أما الجيل الجديد من القادة ، والذي نجا يوم بدر فمعظمه كتب الله تعالى له الهداية فيما بعد .

وكذلك كانت في عالم الجن .

فقد ذكر قاسم بن ثابت في - كتاب الدلائل - أن قريشاً حين توجهت إلى بدر مر هاتف من الجن على مكة في اليوم الذى أوقع بهم المسلمون وهو ينشد بأنفذ صوت ولايرى شخصه:

أذار الحنيفيون بدرأ وقيعة	سينقض منها ركن كسرى وقيصرا
أبادت رجالا من لؤى وأبرزت	خرائد يضرين الترائب حسراً
فياويح من أمسى عدو محمد	لقد جار عن قصد الهدى وتحيرا ^(١)

ولقد أدرك المؤمنون من الجن أبعاد هذه المعركة ، وأنها ستطيح بعرش كسرى وقيصر ، وبمقدار ماكان العرس في عالم الجن من المؤمنين كان المأتم والويل والثبور عند كفار الجن وشياطينهم ...

لقد إندحر الشيطان وحزبه من الإنس والجن يوم بدر ، وكانت الهزيمة الساحقة

(١) إمتاع الأسماع / ٧٢ .

للسياطين فى الأرض والكفار من الجن أشدّ هولاً وأقسى مرارة منها على كفار قريش بشهادة رسول الله ﷺ - كما علمه من ربه - ولقد كانت أقسى هزيمة لإبليس على مدار تاريخه منذ خلقه إلى يوم يبعثون حيث فر وألقى نفسه فى البحر .

وكانت عرساً فى عالم الملائكة والملا الأعلى ، فلأول مرة يؤذن للملائكة ولأميرهم جبريل عليه الصلاة والسلام أن يشترك مع ألف من سادة الملائكة فى المعركة ، وأصدر الله تعالى أوامره بدخول المعركة السافرة لهم ، والقتال مع المؤمنين . . وبقي الملائكة الذين شهدوا بدرأ فى الفضل من سادة الملائكة ، فكما أن المؤمنين فى الأرض على مدار التاريخ يعتبرون من شهد بدرأ من المؤمنين أعلى طبقة فيهم ، ويعتبرونهم خير هذه الأمة ، فكذلك الأمر فيمن شهداها من الملائكة .

فمن رفاعه بن رافع الزرقى قال : « جاء جبريل إلى النبى ﷺ فقال : ماتعدون أهل بدر فيكم ؟ قال : من أفضل المسلمين - أو كلمة نحوها . قال : وكذلك من شهد بدرأ من الملائكة » . (١) وهكذا مضت بدر مثلاً فى تاريخ الأرض والسماء ، وفرقناً فى عالم الإنس والجن والملائكة (٢) .

٣ - الجنوح إلى السلم :

﴿ وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم ﴾ (٣) .

يقول : إن مالوا - يعنى الذين نبذ إليهم عهدهم - إلى المسالمة ، أى الصلح فمل إليها ... وقد اختلف فى هذه الآية : هل هى منسوخة أم لا ، فقال قتادة وعكرمة : نسخها ﴿ فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ﴾ (٤) ﴿ وقاتلوا المشركين كافة ﴾ (٥) وقالوا : نسخت براءة كل موادة حتى يقولوا لا إله إلا الله . ابن عباس : الناسخ لها : ﴿ فلاتهنوا وتدعوا إلى السلم ﴾ (٦) وقيل ليست منسوخة ، بل أراد قبول الجزية من أهل الجزية .

وقد صالح أصحاب رسول الله ﷺ فى زمن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ومن بعده من الأئمة كثيراً من بلاد العجم على مأخذوه منهم ، وتركوه على ما هم فيه ، وهم قادرون على استئصالهم ، وكذلك صالح رسول الله ﷺ كثيراً من أهل البلاد على ما يودونه ؛ من ذلك خير رد أهلها إليها بعد الغلبة على أن يعملوا ويؤدوا النصف قال ابن

(١) انفراد بإخراجه البخارى . (٢) المهج الحركى للسيرة النبوية للمؤلف / ١ / ٢٤٢ - ٢٤٧ .

(٣) الأنفال : ٦١ . (٤) التوبة / ٥ . (٥) التوبة / ٣٦ . (٦) محمد / ٣٥ .

إسحاق : قال مجاهد . عنى بهذه الآية قريظة ؛ لأن الجزية تقبل منهم . فأما المشركون فلا يقبل منهم شيء . وقال السدى وابن زيد : معنى الآية إن دعوك إلى الصلح فأجبهم ولا نسخ فيها .

قال ابن العربي : وبهذا يختلف الجواب عنه ؛ وقد قال الله عز وجل : ﴿ فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون . والله معكم ﴾ فإذا كان المسلمون على عزة ومنعة وقوة وجماعة عديدة ، وشدة شديدة ، فلا صلح . كما قال :

فلا صلح حتى تطعن الخيل بالقنا وتضرب بالبيض الرقاق الجماجم

وإن كان للمسلمين مصلحة في الصلح لنفع يجتلبونه ، أو ضرر يدفعونه ، فلا بأس أن يتبدى المسلمون به إذا احتاجوا إليه . وقد صالح رسول الله ﷺ أهل خيبر على شروط نقضوها ، فنقض صلحهم . وقد صالح الضمرى وأكيدر دومة وأهل نجران . وقد هادن قريشاً لعشرة أعوام حتى نقضوا عهده . وما زال الخلفاء والصحابة على هذا السبيل التى شرعناها سالكة ، وبالوجوه التى شرعناها عاملة .

(قال القشيري : إذا كانت القوة للمسلمين فينبغى أن لا تبلغ الهدنة سنة ، وإن كانت القوة للكفار جاز مهادنتهم عشر سنين ، ولا تجوز الزيادة ، وقد هادن رسول الله ﷺ أهل مكة عشر سنين ، قال ابن المنذر : اختلف العلماء فى المدة التى كانت بين رسول الله ﷺ وبين أهل مكة عام الحديبية ، فقال عروة : كانت أربع سنين . وقال ابن جريج : كانت ثلاث سنين وقال ابن إسحاق : كانت عشر سنين وقال الشافعى رحمه الله : لا تجوز مهادنة المشركين أكثر من عشر سنين على ما فعل النبى ﷺ عام الحديبية ، فإن هودن المشركون أكثر من ذلك فهى منتقضة - لأن الأصل فرض قتال المشركين حتى يؤمنوا أو يعطوا الجزية . وقال ابن حبيب عن مالك رضى الله عنه : تجوز مهادنة المشركين السنة والسنتين والثلاث ، وإلى غير مدة ، وقال المهلب : إنما قاضاهم النبى ﷺ هذه القضية التى ظاهرها الوهن على المسلمين لسبب حبس ناقة رسول الله ﷺ عن مكة ، حين توجه إليها فبركت وقال : « حبسها حابس الفيل عن مكة » على ما أخرجه البخارى عن المسور بن مخرمة ، ودل على جواز صلح المشركين ومهادنتهم دون مال يؤخذ منهم إذا رأى ذلك الإمام وجهاً . ويجوز عند الحاجة للمسلمين عقد الصلح بمال يبذلونه للعدو ، موادة النبى ﷺ عيينة بن حصن الفزارى ، والحارث بن عوف المرى يوم الأحزاب على أن يعطيهم ثلاث ثمار المدينة وينصرفا بمن معهما من غطفان ويخذلا قريشاً ، ويرجعا بقومهما عنهم ،

وكانت هذه المقالة مراوغة ولم تكن عقداً (١).

وخلاصة الرأى فى الأرجح أن الجنوح للسلم من العدو ، مرتبط بوضع المسلمين قوة وضعفاً ، ومرتبط بما يحقق للمسلمين من مصالح أو يدفع عنهم مغارم ، وحكم النسخ ضعيف فى هذه القضية .

والجدير بالذكر الذى يحسن الوقوف عنده هو المقارنة بين آيتى السلم . الآية الأولى وقد نزلت بعد بدر ﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْعَلْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ الآية الثانية : وقد نزلت بعد أحد ﴿ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ ﴾ (٢).

وواضح أن هاتين الآيتين لاتتناسبان مع الصورة المطروحة . أن يكون الجنوح للسلم حالة ضعف فى السلم حال القوة ، فالدعوة إلى قبول السلم كانت بعد النصر المؤزر فى بدر ، ورفض الدعوة إلى السلم والوهن كانت بعد المحنة القاسية فى أحد ، والمعنى الأعظم الذى نراه فى هذه المقارنة - هو أن السلم فى حالة الضعف قد يكون استسلاماً أو ذلاً يرفضه الإسلام ، ولذلك قال : ﴿ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ ﴾ أى السلم الحقيقى - هو السلم المرتبط بالقوة . الذى يجعل العدو يطلب المسالمة والمواذعة ، ومن أجل هذا وجدنا النص الأول يؤكد على أن طلب السلم قد جاء من العدو المنهزم المرعوب من قوة المسلمين ، بينما نجد النص الثانى يشحذ من عزيمة المسلمين ألا يدعوا إلى السلم عند اشتداد الحن ، وألا ينسوا عزتهم وكبرياءهم ، وأنهم الأعلون بإيمانهم فى هذا الوجود ، والوهن والاستسلام لا يتلاءم وعزة المؤمنين .

٤ - الخوف من الخداع :

﴿ وَإِنْ يَرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنْ حَسِبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيْدِكَ بِنَصْرِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٣).

وسرعان مايتبادر إلى الذهن أن يكون المعاهدون أو الجانحون إلى السلم يريدون الخديعة والمكر بالمؤمنين ، وأمام هذا الاحتمال فقد يسود الرأى ألا يكون تعاهد ولاسلام مع العدو ، لكن الإسلام الذى جاء يرعى أحوال البشرية جمعاء - لم يجعل الحرب هى الأصل ، والقتال هو الهدف ، إنما كان القتال وسيلة لتحقيق سلم تسود فيه شريعة الله ،

(٣) الأنفال / ٦٢ .

(٢) محمد / ٣٥ .

(١) تفسير القرطبي ٤ / ٨ / ٣٩ - ٤١ .

وتحكمه شرائعه . صحيح أن الجهاد ماضٍ إلى يوم القيامة ، إلا أن القوة المرهوبة الجانب تجعل الآخرين يجنحون إلى السلم والمعاهدة والموادة . فلا بد من الاستجابة لذلك ، والله تعالى كاف عبده وجنده ، فهو الذى يعلم المؤمنين خبث طوايا العدو . ويهيم لهم كشف خداعهم . والقوة الضخمة من المؤمنين كافية لتردع أولئك الغادرين والمخاتلين . إنه السلم المسلح ، وليس السلم الهزيل الدليل .

﴿ هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين ﴾ وما لقي المؤمنون من نصر يوم بدر يفوق كل تصوراتهم وتوقعاتهم - لم يكن مصدره قوتهم الذاتية ، وحتى التأييد بالمؤمنين كان قدراً من الله أن شرح قلوبهم للإسلام ، وهم العصبة المؤمنة من الأنصار ، فإذا هم يتبارون إلى الجنة ، ويتسابقون إلى الجهاد ويعلنون له ، (لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد ، إنا لصبرٌ في الحرب صدقٌ عند اللقاء . فسر بنا على بركة الله ، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك) .

وها نحن أولاء نلاحظ فى سورة الأنفال بعد أن انتزع الله تعالى من المؤمنين اعتزازهم بذواتهم ، وأعلمهم أن النصر من عند الله ، هاهى ذى المرة الأولى التى يرد بها الثناء على العصبة المؤمنة التى خاضت حربها مع النبى ﷺ فى معرض المن على رسول الله . وهى خطوة مهمة فى تربية نفوس هذه العصبة المؤمنة ، بحيث برأها من ذاتها وأنايتها ، ثم عاد فقدمهم رصيذاً مذخوراً بمن الله تعالى بهم على رسوله ، بعد أن انتفى عامل الاغترار والاعتزاز بالذات . وكم هو ثناء ضخم أن يقول الله تعالى فى الخطوات الجديدة من تربية هذه النفوس ﴿ هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين ﴾ وبعد أن علموا أنهم لم يحققوا هذا النصر بوجه من الوجوه .

هؤلاء المؤمنون الذين أيد الله تعالى بهم رسوله - هم هم الذين ساءت أخلاقهم فى الأنفال ، وهم هم الذين كانوا يريدون غير ذات الشوكة ، وهم هم الذين كان فيهم فريق كاره للقاء العدو كأنما يساقون إلى الموت . هؤلاء هم أنفسهم الذين يمن الله تعالى بهم على رسوله بتأييده بهم ، إنها التربية الربانية الخالصة . فأى شئ يخيف بعدها ويرهب من أولئك الضعاف المهازيل الذين يريدون الخداع ؟

سادساً : الصف المؤمن :

١ - ألفة القلوب :

﴿ وألف بين قلوبهم لو أنفقت مافى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ، ولكن الله

ألف بينهم ، إنه عزيز حكيم ﴿ ١ ﴾ .

(قال النعمان بن بشير : نزلت في الأنصار (وألف بين قلوبهم) أى جمع بين قلوب الأوس والخزرج ، وكان تألف القلوب مع العصبية الشديدة في العرب من آيات النبي ﷺ ومعجزاته ؛ لأن أحدهم كان يلطم اللطمة فيقاتل عنها حتى يستقيدها ، وكانوا أشد خلق الله حمية ، فألف الله في الإيمان بينهم ، حتى قاتل الرجل أباه وأخاه بسبب الدين ، وقيل أراد التأليف بين المهاجرين والأنصار . والمعنى متقارب) (١) .

(ولقد وقعت المعجزة التي لا يقدر عليها إلا الله ؛ والتي لا تصنعها إلا هذه العقيدة ؛ فاستحالت هذه القلوب النافرة ، وهذه الطباع الشموس ، إلى هذه الكتلة المتراسة المتآخية الذلول بعضها لبعض ، المحب بعضها لبعض ، المتآلف بعضها مع بعض ، بهذا المستوى الذي لم يعرفه التاريخ ، والذي تتمثل فيه حياة الجنة وسمتها البارزة - أو يمدح حياة الجنة وسمتها البارزة ﴿ ونزعنا ما في قلوبهم من غل إخواناً على سرر متقابلين ﴾ .

أن هذه العقيدة عجيبة فعلاً . إنها حين تخالط القلوب تستحيل إلى مزاج من الحب والألفة ومودات القلوب ، التي تلين جاسيها ، وترقق حواشيها ، وتندى جفافها ، وتربط بينها برباط وثيق عميق رفيق . فإذا نظرة العين ، ولمسة اليد ، ونطق الجارحة ، وخفقة القلب ، ترانيم من التعارف والتعاطف ، والولاء والتناصر ، والسماحة والهوادة ، لا يعرف سرها إلا من ألف بين هذه القلوب ، ولا تعرف مذاقها إلا هذه القلوب !

وهذه العقيدة تهتف للبشرية بنداء الحب في الله ، وتوقع على أوتارها ألحان الخلوص له ، والالتقاء عليه ، فإذا استجابت وقعت تلك المعجزة التي لا يعرف سرها إلا الله ، ولا يقدر عليها إلا الله .

يقول رسول الله ﷺ : « إن من عباد الله لأناساً ما هم بأنبياء ولا شهداء ، يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله تعالى .. قالوا : يارسول الله تخبرنا من هم ؟ قال : هم قوم تحابوا بروح الله بينهم ، ولا أموال يتعاطونها ، والله إن وجوههم لنور ، وإنهم لعلى نور ، لا يخافون إذا خاف الناس ، ولا يحزنون إذا حزن الناس » أخرجه أبو داود .

ويقول ﷺ : « إن المسلم إذا لقي أخاه فأخذ بيده تحاتت ذنوبهما كما تتحات الورق

(١) تفسير القرطبي / ٤ / ٨ / ٤٢ .

من الشجرة اليابسة فى يوم ريح عاصف . وإلا غفر لهما ذنوبهما ولو كانت كمثل زبد البحر » رواه الطبرانى .

وتتوارد أقوال الرسول ﷺ ترى فى هذا الباب ، وتشهد أعماله بأصالة هذا العنصر فى رسالته عليه الصلاة والسلام ، كما تشهد الأمة التى بناها على الحب أنها لم تكن مجرد كلمات مجنحة ، ولا مجرد أعمال مثالية فردية ، إنما كانت واقعاً شامخاً قام على هذا الأساس الثابت ، بإذن الله ، الذى لا يقدر على تأليف القلوب هكذا سواء (١) .

ونقف أمام هذه الآية لنستعرض الواقع المعاصر لأمتنا المنكودة التى طرحت شعار الوحدة وهى جزء من الدولة العثمانية ، وذلك حين كان الهدف أن تجمع تركيا ومستعمراتها تحت راية واحدة ، هى الراية التركية فكانت شعارها : حريات ، عدالات ، مساواة ، لتكون البديل عن الإسلام ، ولم ينته الثلث الأول من هذا القرن إلا وأطيح بهذه الراية ، وهذا التجمع ، ليحل محلها الطرح القومى للأمم التى كانت تحت لوائها .

وجاء الطرح القومى ليكون شعار الأمة العربية فى القرن العشرين ، لتتوحد القلوب وتأتلف تحت رايته . كان هذا فى بداية هذا القرن ، ومع شعار الثورة العربية التى انطلقت على يد الشريف حسين ، ولم ينل عون الكافرين إلا بالتخلى الأول عن غرب هذه الأمة العربية فلا علاقة له بمصر وما وراءها من دول ، ولم تتوحد الأمة العربية ، ولم تتألف القلوب ، ثم كانت الخطوة الثالثة للحاكمين حين خضعوا لمخططات اليهود والنصارى فى الإقليمية المصطنعة ، والحدود المقررة فى المؤتمرات الدولية لتحقيق هذه المخططات ، وأصبح الانقسام الدولى شرعياً ، وتوج بالجامعة العربية التى جمعت سبع دول ، وكانت هى دول المنطقة آنذاك لتجعل شرطاً أساسياً فيها هو الإقليمية الأصيلة ، وكل دولة لاترضى بالقرار العربى المشترك فهى فى حل منه ، وازدادت التفرقة والانقسام وتنافر القلوب فى هذه الأمة العربية .

وانتهى جيلان فى هذه الأمة ليحمل وزر زيادة التنافر ، والحروب أحياناً بين هذه الدول . وقام جيل ثالث مع بداية منتصف القرن العشرين ينحى باللائمة والخيانة على الجيلين السابقين اللذين كانا مطية للاستعمار كما يزعم ، ليكون هو البديل الشعبى الصحيح عن الحكام المرتبطين بعجلة الاستعمار . وقدم هذا الجيل له أنبياء للقومية وفلاسفة لها ، وطرح شعار الوحدة والحرية والاشتراكية ، على تفاوت فى التقديم والتأخير ، وبقي

(١) فى ظلال القرآن / ٣ / ٨ / ١٥٤٨ ، ١٥٤٩ .

يكافح حتى وصل إلى سدة الحكم ، وأعلن رفضه للإسلام ديناً وشرعية حرصاً على وحدة الأمة .

وماذا كانت الحصيلة بعد ثلث قرن من التمكين والتجربة ؟

ازدادت دول الجامعة العربية من سبع دول إلى اثنتين وعشرين دولة لكل دولة علم وجيش وحدود ، وزاد التجزئة والانقسام والصراع ، وأوجد كيانات أخرى ضمن هذا التجمع الهش . وانقسم الحزب الواحد القومى إلى أحزاب متصارعة ، وعانت أمتنا تشرداً عجيباً ، فكك أوصالها وحطم وجودها ، ومكن لأعدائها من اليهود أن يقيموا دولتهم بعد عجز أربعة عشر قرناً من الزمان .

ونتساءل ماهى حصيلة هذا القرن ؟ والقوم جادون فى وحدة القلوب والصفوف للأمة الواحدة ولكن على غير مشيئة الله ، وعلى غير شريعة الله ، وعلى غير مبادئ هذا الدين ، يحاربون الله تعالى علانية ، ويخطئون شريعته ، ويشككون فى صلاحيتها لحكم الأمة وإنقاذها وتوحيدها . ويخترعون دساتير وقوانين تحكمهم من صنع البشر . وبذلوا أموال الأرض وأرواح الناس وثروات الأمة لتوحيد القلوب ، والفرقة تزداد ، والخلاف يتفاقم ، والصراع يشتد أواره .

لماذا ؟ ويأتى الجواب : ليين أن توحيد القلوب لا يتم بفعل البشر بل يتم بفعل خالقها : ﴿ وألف بين قلوبهم ، لو أنفقت مافى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم . ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم ﴾ (١) .

وهو رد من طرف آخر على المقولة التى تدعى وجود القائد الصالح الذى تأتلف عليه القلوب ، أو الحاكم المصلح ، أو الزعيم المخلص ، وحتى تنتهى هذه المقولة من أذهان البشر . وما كان لسيد الزعماء والقادة والمصلحين فى الأرض ، لا يملكها بعد ما كان لسيد ولد آدم عليه السلام أن يفعل ذلك ﴿ لو أنفقت ما فى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ﴾ فقد حسمت الآية الكريمة هذا الموضوع . فهو أمر إذن قائم فوق إرادة البشر ، وخارج إرادة البشر ، لا يملكه إلا الله تعالى ، ولا يعطيه إلا لمن يقدم له العبودية ، ويزعن لشرعه وشرعته ، وينطلق منها على أنها الحق الذى قامت عليه السموات والأرض .

﴿ ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم ﴾ .

٢ - ﴿حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين﴾ :

﴿يأيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين ، يأيها النبي حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين . وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون . الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً . فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين ، وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله ، والله مع الصابرين﴾ (١) .

وتأتى هذه الآيات رداً على الطرح القومى كله الذى يريد أن يحشد أبناء الجنس الواحد ، وأبناء الأمة العربية تحت راية واحدة ، ليواجه بهم العدو المشترك . مؤمنهم وكافرهم على السواء . هذا مايقوله الطرح القومى .

والذى يقوله الطرح الإسلامى : ﴿حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين﴾ .
والله تعالى معك ، فلو كانت قوى الأرض كلها ضدك ، فلن يضيرك ذلك لأن الله تعالى معك .

﴿وحسبك من اتبعك من المؤمنين﴾ .

فالذين آمنوا بك وصدقوك أن ماجئت به هو الحق ، وأيدوك ونصروك ، هؤلاء يكفونك ، ولست بحاجة إلى رجل واحد من غير المؤمنين بك ، فالله تعالى ينصرك بهم ، وهم كافون لك جنداً وذخراً ، تقاوم بهم كل أعدائك والمحاربين لك ، والمطلوب منك أن تشحذ عزائمهم ، وتحرضهم على القتال ، وتوظف طاقاتهم لتكون كلها معك .

ولا يضيرنك العدد ، يتضح ذلك فى قوله تعالى :

﴿إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ، وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا ، بأنهم قوم لا يفقهون﴾ (٢) .

(فأما تعليل هذا التفاوت فهو تعليل مفاجئ عجيب ، ولكنه صادق عميق « بأنهم قوم لا يفقهون » فى صلة الفقه بالغلب فى ظاهر الأمر ، ولكنها صلة حقيقية ، وصلة قوية ، إن الفئة المؤمنة إنما تمتاز بأنها تعرف طريقها ، وتفقه منهجها ، وتدرك حقيقة وجودها وحقيقة غايتها ، إنها تفقه حقيقة الألوهية ، وحقيقة العبودية ، تفقه أن الألوهية لا بد أن

(١) الأنفال / ٦٥ .

(٢) الأنفال / ٦٤ - ٦٦ .

تفرد وتستعلى ، وأن العبودية يجب أن تكون لله بلا شريك ، وتفقه أنها هي - الأمة المسلمة - المهتدية بهدى الله ، المنطلقة في الأرض بإذن الله لإخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، وأنها هي المستخلفة عن الله في الأرض ، الممكنة فيها لا تستعلى هي وتستمنع ، ولكن لتعلى كلمة الله ، وتجاهد في سبيل الله ، ولتعمر الأرض بالحق ، وتحكم بين الناس بالقسط ، وتقيم في الأرض مملكة الله التي تقوم على العدل بين الناس ... وكل ذلك فقه يسكب في قلوب العصبة المسلمة النور والثقة والقوة واليقين ، ويدفع بها إلى الجهاد في سبيل الله في قوة وفي طمأنينة للعاقبة تضاعف القوة . بينما أعداؤها قوم لا يفقهون ، قلوبهم مغلقة ، وبصائرهم مطموسة ، وقوتهم كليلة عاجزة مهما تكن متفوقة ظاهرة ، إنها قوة منقطعة معزولة عن الأصل الكبير ، وهذه النسبة واحد لعشرة ... هي الأصل في ميزان القوى بين المؤمنين الذين يفقهون والكافرين الذين لا يفقهون .. وحتى في أضعف حالات المسلمين الصابرين فإن هذه النسبة هي واحدة لاثنتين .

﴿ الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا - فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين ، وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله . والله مع الصابرين ﴾ . (١)

(وروى أبو داود عن ابن عباس قال :

نزلت ﴿ إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ﴾ فشق ذلك على المسلمين حين فرض الله عليهم ألا يفر واحد من عشرة ، ثم إنه جاء التخفيف فقال :

﴿ الآن خفف الله عنكم ﴾ إلى قوله ﴿ مائة صابرة يغلبوا مائتين ﴾ فلما خفف الله تعالى عنهم من العدد نقص من الصبر بقدر ما خفف عنهم .

وقال ابن العربي :

قال قوم : إن هذا كان يوم بدر ونسخ ، وهذا خطأ من قائله . ولم ينقل قط أن المشركين صافوا المسلمين عليها ، ولكن الباري عز وجل فرض ذلك عليهم أولاً ، وعلل ذلك بأنكم تفقهون ماتقاتلون عليه وهو الثواب ، وهم لا يعلمون ما يقاتلون عليه .

قلت : وحديث ابن عباس يدل على أن ذلك فرض ، ثم لما شق عليهم حط الفرض إلى ثبوت الواحد إلى اثنين فخفف عنهم وكتب عليهم ألا يفر مائة من مائتين فهو على هذا القول تخفيف لانسخ وهذا حسن (٢) .

(١) في ظلال القرآن ٣ / ١٠ / ١٥٥٠ - الأنفال / ٦٦ . (٢) تفسير القرطبي ٤ / ٨ / ٤٤ .

وبين يدينا حديث رسول الله ﷺ تنمة للإيضاح : « خير الصحابة أربعة ، وخير السرايا أربعمائة ، وخير الجيوش أربعة آلاف . ولن يغلب اثنا عشر ألفاً من قلة » (١) .

وقد فهم المسلمون أن الجيش إذا زاد عن اثني عشر ألفاً قلن يغلب من قبل عدده ، وإنما يغلب من أشياء أخرى سواء في عدته ، أو تركيب أفرادها أو ضعف ووهن فيه .

كما روى عن المسلمين في فتح مصر :

(أن عمرو بن العاص حصرهم (أى العدو من أهل مصر) بالقصر الذى يقال له بابلون حيناً ، وقاتلهم قتالاً شديداً يصحبهم ويمسيهم ، فلما أبطأ الفتح عليه كتب إلى عمر بن الخطاب يستمده ويعلمه ذلك ، فأمدّه عمر بأربعة آلاف رجل على كل ألف رجل منهم رجل ، وكتب إليه عمر بن الخطاب : إني قد أمددتك بأربعة آلاف رجل على كل ألف رجل منهم رجل مقام الألف ، الزبير بن العوام ، والمقداد بن عمرو ، وعبادة بن الصامت ، ومسلمة بن مخلد وقال آخرون بل خارجة بن حذافة الرابع لا يعدون مسلمة - وقال عمر بن الخطاب : اعلم أن معك اثني عشر ألفاً ، ولا يغلب اثنا عشر ألفاً من قلة » (٢) .

وهكذا نرى أن الأمر يختلف حسب - قوة المسلمين وضعفهم ، وأنواع أشخاصهم . إذ أن عمرو بن العاص رضى الله عنه إنما غزا مصر بأربعة آلاف ، وأمدّه عمر رضى الله عنه بأربعة آلاف وبأربعة رجال كل واحد منهم بألف ، فأصبح المجموع الحقيقى اثني عشر ألفاً باجتهد عمر رضى الله عنه ، بينما كان المجموع العددي الرقعى ثمانية آلاف وأربعة . ففوعة المسلمين ذات أثر بارز في تحديد قوتهم . ولقد خاض المسلمون معارك بعد رسول الله ﷺ ، وطبقت نسبة الواحد إلى عشرة فيها ، بل خاضوها كذلك في العهود الإسلامية اللاحقة .

(روى المؤرخون أن المجموع التى جمعها هرقل للمعركة الفاصلة فيها بينه وبين العرب من الروم والشام والجزيرة وأرمينية كانت زهاء مائتى ألف ، وكان يأتيها المدد خشية الهزيمة . وكان عدد جيش الصحابة رضى الله عنهم أربعة وعشرين ألفاً ، ورووا أن قتلى الروم بلغت سبعين ألفاً . فمن شك أو مارى فى العدد فى هذه المعركة - أى اليرموك - وغيرها من المعارك الفاصلة المعينة فهل يمكنه أن يمارى فى القدر المشترك فى جملة المعارك التى فتح بها الصحابة رضى الله عنهم تلك الممالك الواسعة على قلة عددهم وكونهم

(١) رواه أبو داود والترمذى والدارمى . وقال الترمذى : هذا حديث حسن غريب .

(٢) فتوح مصر وأخبارها لابن عبد الحكم / ٦١ .

كانوا فى مجموعها أو أكثرها أقل من عشر أعدائهم ؟ أنى وهو عين التواتر المعنوى الذى يفيد علم اليقين ؟ (١) .

ولابد أن نلاحظ الفرق بين جواز الفرار إذا كان عدد العدو ضعفى عدد المسلمين ، أو عشرة أضعافهم ، على حسب قوتهم المعنوية ، وبين أفضلية الثبات فى المعركة حتى يأتى نصر الله ، وما حديث مؤتة عنا بسر ، حين صمد ثلاثة آلاف من المؤمنين لمائتى ألف من العرب والروم ، جعل الله تعالى لهم الفتح على يدى سيف الله خالد بن الوليد .

سابعاً : أحكام الأسرى :

١ - الإثخان فى القتل أولى :

﴿ ما كان لى أن يكون له أسرى حتى يشخن فى الأرض ، تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم . لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم ﴾ (٢) .

وتتضافر الروايات الصحيحة فى هذا الصدد ؛ لتعطى الإضاءة الكاملة على هاتين الآيتين :

فقد روى الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى حديث طويل :

«... واستشار رسول الله ﷺ أبا بكر وعلياً وعمر ، فقال أبو بكر : يارسول الله هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان ، وإنى أرى أن تأخذ منهم الفدية فيكون مأخذناه قوة لنا على الكفار ، وعسى أن يهديهم الله فيكونوا لنا عضداً . فقال رسول الله ﷺ : ماترى يا بن الخطاب ؟ قال : قلت : والله ما أرى ما رأى أبو بكر ، ولكن أرى أن تمكننى من فلان قريب لعمر فأضرب عنقه ، وتمكن علياً من عقيل فيضرب عنقه ، وتمكن حمزة من فلان أخيه فيضرب عنقه ؛ حتى يعلم الله أنه ليست فى قلوبنا هودة للمشركين ، وهؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم ، فهوى رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر ، ولم يهو ما قلت ، وأخذ منهم الفداء . فلما كان من الغد قال عمر : فغدوت إلى النبی ﷺ وأبى بكر وهما يكيان ، فقلت يارسول الله أخبرنى ، ماذا ييكيك أنت وصاحبك ؟ فإن وجدت بكاء بكيت وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما . فقال رسول الله ﷺ : « للذى عرض على أصحابك من أخذهم الفداء . قد عرض على عذابكم أدنى من هذه الشجرة » لشجرة

(١) تفسير المنار لرشيد رضا / ١٠ / ٧٩ .

(٢) الأنفال / ٦٧ ، ٦٨ .

قرية . وأنزل الله تعالى : ﴿ ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض ، تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم . لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم ﴾ (١) .

وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمر قال : لما كان يوم بدر ، قال رسول الله ﷺ : « ماتقولون في هؤلاء الأسرى ؟ » قال فقال أبو بكر : يا رسول الله ، قومك وأهلك ، استبقهم واستأن بهم لعل الله أن يتوب عليهم ، قال وقال عمر : يا رسول الله ، أخرجوك وكذبوك قربهم فاضرب أعناقهم . قال : وقال عبد الله بن رواحة : يا رسول الله ، انظر وادياً كثير الخطب فأدخلهم به ثم اضرمه عليهم نارا . قال : فدخل رسول الله ﷺ ، ولم يرد عليهم شيئاً ، فقال ناس يأخذ برأى أبى بكر ، وقال ناس يأخذ برأى عمر ، وقال ناس : يأخذ برأى عبد الله بن رواحة ، فخرج عليهم فقال : « إن الله ليلين قلوب رجال فيه حتى تكون ألين من اللبن ، وإن الله ليشدد قلوب رجال حتى تكون أشد من الحجارة ، وإن مثلك يا أبا بكر كمثل إبراهيم قال : ﴿ فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم ﴾ (٢) ومثلك يا أبا بكر كمثل عيسى قال : ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾ (٣) . وإن مثلك ياعمر كمثل نوح إذ قال ﴿ رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ﴾ (٤) ، وإن مثلك ياعمر كمثل موسى قال : ﴿ ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم ﴾ (٥) . أنتم عالة ، فلا ينفلتن أحد إلا بفداء أو ضربة عنق » قال عبد الله : يا رسول الله إلا سهيل بن بيضاء ، فإنني سمعته يذكر الإسلام ، قال : فسكت . قال : فمارأيتني في يوم أخوف أن تقع على حجارة من السماء من ذلك اليوم حتى قال : إلا سهيل بن بيضاء ، فأنزل الله ﴿ ما كان لنبي ... ﴾ (٦) إلى آخر الآيتين .

ونقف وقفة عند فقه النبوة العظيم في قضية الأسرى :

أ - ها هو ذا عليه الصلاة والسلام يستشير صحبه في الأمر ، وبين يديه سبعون أسيراً ، وهو الغنى عن المشورة بالوحي ، والغنى عن المشورة بسداد رأيه وعظمة تفكيره . ولكنها التربية النبوية للقيادات بعده أن لاتستغنى عن الاستشارة إذا نزل بها أمر ذوبال .

(١) ورواه مسلم وأبو داود والترمذي وصححه . (٢) إبراهيم / ٣٦ .

(٣) المائدة / ١١٨ .

(٤) نوح / ٢٦ .

(٥) يونس / ٨٨ .

ب - ونجد أدب الأصحاب قد ترك الرأى لأولى النهى والرأى ، فقد كفاهما أبو بكر وعمر رضى الله عنهما الرأى ، ولم يبادر الصحب إلى التكرار واللغو طالما أنه لم يخرج عن هذين الرأيين ، بينما تقدم عبد الله بن رواحة رضى الله عنه برأى ثالث . هو : أن يجمعهم فى وإد كثير الخطب ، ويضرم بهم النار . فلقد كان سعد بن معاذ رضى الله عنه من أنصار القتل كما تذكر الرواية المشهورة :

(فلما وضع القوم أيديهم يأسرون ، ورسول الله ﷺ فى العريش ، وسعد بن معاذ قائم على باب العريش الذى فيه رسول الله ﷺ متوشحاً السيف فى نفر من الأنصار ، يحرسون رسول الله ، يخافون عليه كرة العدو ، ورأى رسول الله ﷺ - فيما ذكر لى - فى وجه سعد بن معاذ الكراهية لما يصنع الناس - فقال له رسول الله ﷺ « والله لكأنك ياسعد تكره ما يصنع القوم » قال : أجل والله يارسول الله ، كانت أول وقعة أوقعها الله بأهل الشرك ، فكان الإثخان بالقتل أحب إلى من استبقاء الرجال .) (١) ومع ذلك لم نسمعه يبدى رأياً أو يشارك ، طالما أن عمر رضى الله تعالى عنه كفاه المؤونة .

ج - وتفاوت الرأيين كبير بين العفو وبين القتل أو الإحراق بالنار ، ومع ذلك لم يتهم فريق الآخر كما نرى فى دنيانا المعاصرة وفى رجالنا اليوم ، ومثل هذا التفاوت قد يقود إلى المفاصلة بين الفريقين . فريق يتهم الأول بالمداينة فى شريعة الله ، وتفضيل القرابة على الدين ، والتساهل مع العدو ، وفريق يتهم الثانى بالاندفاع الأعمى والتعصب وفقدان الحكمة والموعظة الحسنة فى الدعوة إلى الله ، ويتعصب ناس لهذا الرأى ، وآخرون للرأى الثانى ، وينقسم الصف ويقع الشقاق . ومع أننا لاننكر أن وجود رسول الله ﷺ بين ظهرانيهم يحول دون استفحال هذا الموقف أو ذاك ، لكننا نجد فرصة للنيل من أحد الرأيين ، طالما أن رسول الله ﷺ لم يبد تبنيأ لأى من هذين الرأيين ، ودخل بيته . فكل ما قاله الناس : أن رسول الله ﷺ قد يأخذ برأى أبى بكر أو عمر أو ابن رواحة رضى الله عنهم .

د - وسيد الساسة والقادة محمد عليه الصلاة والسلام خرج على الناس ، وكان بإمكانه أن يعلن رأيه مباشرة بترجيح أحد الآراء الثلاثة ، إلا أنه أراد أن يربى هذه الأمة على اختلاف الرأى ، واحترام هذا الاختلاف ، وفقه الرأى الآخر - كما يقال - ومن أجل ذلك قدم للمسلمين نموذج أبى بكر رضى الله عنه فى اللين ، ونموذج عمر رضى

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ٢٦٨ ، ٢٦٩ .

الله عنه في الشدة ، وأن كلا الرأيين منبثق من الإسلام ، ويتسع الإسلام لهما دون حرج ، فالشدة في الله ، واللين لدعوة الله كلاهما مواقف في هذا الدين ، لاتعارض بينهما ، وحتى تتضح الصورة لدى الصحب استحضر لهم نماذج الأنبياء من أولى العزم ، حيث مثل اثنان منهم الشدة في دين الله وهما موسى ونوح ، ومثل اثنان آخران اللين في دعوة الله هما إبراهيم وعيسى ، وبذلك انسكب في نفوس الصحب الطمأنينة إلى صواب الموقفين ، وكل واحد منهما مناسب لحالة معينة .

هـ - ومع هذه المقدمة المسهبة التي أوضحت وزن الصحابين عند الله تعالى ورسوله ، جاء اختيار رسول الله ﷺ لرأى أبى بكر في أسلوب من الروعة والحكمة بحيث يبدو وكأنما أخذ برأى عمر .

« لا ينفلتن أحد منهم إلا بفداء أو ضرب عنق » .

إن هذه الصياغة النبوية في التعبير . لتوحى بعظمة إمام المرين ، وهو يعلم أمته . أصول الشورى ، واحترام الرأي ، وطريقة التعبير عنه ، وفن التعامل مع الآراء المختلفة والنفوس المختلفة . بحيث يجعل منها كلاً واحداً ؛ لتحقيق الهدف المطلوب .

و- ويستوقفنا كذلك ذلك التجرد العظيم عند عمر رضى الله عنه ، بحيث لاتأخذه في الله لومة لائم ، فهو لم يكتف بالمشورة أن يقتل قادة الشرك وصناديدهم من الأسرى ، وفي هذا مايكفيه للتجرد لله ، وهو يدعو إلى قتل قومه ، بل نجد قمة التجرد يوم قال : (ولكن أرى أن تمكثني من فلان قريب لعمر فأضرب عنقه ، وتمكن علياً من عقيل فيضرب عنقه ، وتمكن حمزة من فلان أخيه فيضرب عنقه ، حتى يعلم الله أنه ليست في قلوبنا هودة للمشركين) . فهو لا يكتفى رضى الله عنه بالقتل على عمومهم ، بل لابد أن يقوم الأخ بقتل أخيه ، وكل واحد يقتل أقرب الناس إليه . ولم يكن هذا مجرد حماسة أو رغبة جارفة منه فقط ، بل كان واقعاً حياً نفذه في بدر (قال ابن هشام : وحدثني أبو عبيدة وغيره من أهل العلم بالمغازي أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال لسعيد بن العاص ومر به : إنى أراك كأن في نفسك شيئاً ، أراك تظن أنى قتلت أباك ، إنى لو قتلتك لم أعتذر إليك من قتله ، ولكنى قتلت خالى العاص ابن هشام بن المغيرة ، فأما أبوك فإنى مررت به ، وهو يبحث بحث الثور برذقه ، فحدثت عنه ، وقصد له ابن عمه على فقتله .)^(١) .

فعمر إذن قصد خاله ، وحاد عن الغريب عنه بينما قصد على رضى الله عنه لابن

(١) السيرة النبوية لابن هشام / ٢ / ٢٧٧ .

عمه فقتله وبذلك نشأ جيل ، يرى من قرابة العقيدة ماهو أكبر وأضخم بكثير من قرابة النسب ، ومانعلم جيلاً بلغ من التجرد مابلغه جيل بدر .

ز - ويستوقفنا كذلك الحس الإسلامى لدى عبدالله بن عمر رضى الله عنهما يوم يرفع صوته تعقياً على قول رسول الله ﷺ : « فلا يفلتن أحد منهم إلا بفداء أو ضربة عنق » ، إلا سهيل بن بيضاء فإنى قد سمعته يذكر الإسلام . قال : فسكت .

لقد رأى عبد الله نفسه - وقد تجاوز الأدب مع قائده محمد عليه الصلاة والسلام ، حين استثنى سهيل بن بيضاء لذكره الإسلام . وخلال اللحظات القليلة جداً من صمت النبي ﷺ أحس عبد الله أن الحجارة من السماء ستنزل عليه لتأليه على رسول الله ﷺ (فما رأيته في يوم أخوف أن تقع على حجارة من السماء من ذلك اليوم ، حتى قال : إلا سهيل بن بيضاء . فانداح خوفه بإقرار رسول الله ﷺ له بذلك وجميل جداً أن يكون هذا الحس الإسلامى ، بين الجندي وقائده بحيث لايتجاوز الجندي حده ويدخل رأيه بكل صغيرة وكبيرة) .

٢ - ﴿ لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم ﴾ (١) :

(اختلف الناس فى كتاب الله السابق على أقوال ؛ أصحها ماسبق من إحلال الغنائم ، فإنها كانت محرمة على من قبلنا ، فلما كان يوم بدر ، أسرع الناس إلى الغنائم فأنزله عز وجل : ﴿ لولا كتاب من الله سبق ﴾ أى بتحليل الغنائم ، وروى أبو داود الطيالسى فى مسنده عن أبى هريرة قال : لما كان يوم بدر تعجل الناس إلى الغنائم فأصابوها ، فقال رسول الله ﷺ : « إن الغنيمة لاتحل لأحدٍ سود الرؤوس غيركم فكان النبي ﷺ وأصحابه إذا غنموا الغنيمة جمعوها ، ونزلت نار من السماء فأكلتها (٢) » ، فأنزل الله تعالى ﴿ لولا كتاب من الله سبق ﴾ إلى آخر الآيتين ، وأخرجه الترمذى وقال حديث حسن صحيح وقال مجاهد والحسن ، وعنهما أيضاً وسعيد بن جبير : الكتاب السابق هو مغفرة الله لأهل بدر ماتقدم أو تأخر من ذنوبهم ، وقالت فرقة : الكتاب السابق هو عفو الله عنهم فى هذا الذنب معنياً والعموم أصح لقول رسول الله ﷺ لعمر فى أهل بدر : « وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر يوم بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » أخرجه مسلم . وقيل الكتاب السابق ألا يعذبهم ومحمد عليه السلام فيهم ، وقيل : الكتاب السابق هو ألا يعذب أحداً بذنب أتاه جاهلاً حتى يتقدم إليه ، وقالت فرقة : الكتاب السابق هو مما

(١) الأنفال / ٦٨ . (٢) المعروف أن هذا كان فى الأمم السالفة ولعل اللفظ عن النبي ﷺ وأصحابه من قبل .

قضى الله في محو الصغائر باجتنب الكبائر . وذهب الطبرى إلى أن هذه المعاني كلها داخلية تحت هذا اللفظ وأنه يعمها .. (١) .

الرواية السابقة توضح هذا المعنى .

(فلما كان من الغد جئت فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر قاعدان يكيان فقلت : يارسول الله أخبرنى من أى شىء تبكى أنت وصاحبك ، فإن وجدت بكاء بكيت ، وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما . فقال رسول الله ﷺ : « أبكى للذى عرض على أصحابك من أخذهم الفداء ، لقد عرض على عذابهم أدنى من هذه الشجرة ») وبالله من وقفة مؤثرة هزت أعماق النبى ﷺ وصاحبه ، فراحا يكيان على أخذ الفداء ، وكاد العذاب أن يقع لولا كتاب من الله سبق .

إنه حنو النبى ﷺ على أمته ، وأن يشارك أبو بكر رضى الله عنه فى البكاء ، فلاغربة فى ذلك فهو صاحب رأى الفداء ، وأن يشارك عمر رضى الله عنه فى ذلك بكاء أو تباكياً فلاغربة . فالمسلمون واحد ، وأى عين لاتدمع ، وقد رأت رسول الله ﷺ يبكى خوفاً من العذاب على صاحبه ؟ .

وكان القرآن من الوضوح بحيث لايحتمل إلا معنى الإثخان فى القتل فى أول موقعة أوقعها الله فى الشرك ، وفى الثانية والثالثة حتى يتمكن من عدوه ، فلايعود هؤلاء الأسرى ليحملوا السلاح ضده مرة ثانية .

وعاد الوصف للمؤمنين من جديد : ﴿ تريدون عرض الدنيا ﴾ .

والتمكين للإسلام ، وذات الشوكة ، واستئصال الشأفة هى الأولى من المال فى هذه الموقعة . لقد كان رأى سعد بن معاذ رضى الله عنه ، ورأى عمر ، ورأى ابن رواحة هو الذى يمثل حكم القرآن الكريم فى هذه الموقعة .

وينزل القرآن الكريم بهذا الحكم ، وماتند كلمة واحدة من صحابى واحد تنال من أبى بكر رضى الله عنه ، أو تفخر عليه ، أو تغمز من قناته . ومعها حكم الله .

إنه الجيل الفريد فى تاريخ البشرية . الذى لم ولن يتكرر حتى يرث الله الأرض ومن عليها . « خير أمتى قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم » . (٢)

(١) تفسير القرطبي / ٤ / ٨ / ٥١ . (٢) متفق عليه .

(وروى الترمذى والنسائى وابن ماجه .. عن على رضى الله عنه قال : جاء جبريل إلى النبى ﷺ ، فقال : خير أصحابك فى الأسارى إن شأؤوا الفداء ، وإن شأؤوا القتل ، على أن يقتل عاماً قابلاً منهم مثلهم ، قالوا : الفداء أو يقتل منا ، وهذا حديث غريب جداً . ومنهم من رواه مراسلاً عن عبيدة والله أعلم .) (١)

وأسند الطبرى وغيره أن رسول الله ﷺ قال للناس : « إن شئتم أخذتم فداء الأسارى ويقتل منكم فى الحرب سبعون على عددهم وإن شئتم قتلوا وسلمتم » . فقالوا : نأخذ الفداء ، ويستشهد منا سبعون . وذكر عبد بن حميد بسنده أن جبريل عليه السلام نزل على النبى ﷺ بتخير الناس هكذا . (٢) وقد مضى فى (آل عمران) القول فى هذا . وقال عبيدة السلماني طلبوا الخيرتين كلتيهما ؛ فقتل منهم يوم أحد سبعون . وينشأ هنا إشكال ... هو أن يقال : إذا كان التخيير فكيف وقع التوبيخ بقوله : ﴿ لمسكم ﴾ . فالجواب . - أن التوبيخ وقع أولاً لحرصهم على أخذ الفداء ، ثم وقع التخيير بعد ذلك . ومما يدل على ذلك أن المقداد قال حين أمر رسول الله ﷺ بقتل عقبة بن أبى معيط : أسيرى يارسول الله . وقال مصعب بن عمير للذى أسر أخاه : شدّ عليه يدك فإن له أماً موسرة ... إلى غير ذلك من قصصهم وحرصهم على أخذ الفداء ، فلما تحصل الأسارى ، وسبقوا إلى المدينة . وأنفذ رسول الله ﷺ القتل فى النضر وعقبة وغيرهما ، وجعل يرتقى فى سائرهم نزل التخيير من الله عز وجل ، فاستشار رسول الله ﷺ أصحابه حينئذ ، فمر عمر على أول رآيه بالقتل ، ورأى أبو بكر المصلحة فى قوة المسلمين بمال الفداء ، ومال رسول الله ﷺ إلى رأى أبو بكر ، وكلا الرأيين اجتهدا بعد تخيير ، فلم ينزل بعد على هذا شىء من تعنيت والله أعلم . (٣)

٣ - الحلال الطيب :

﴿ فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً واتقوا الله إن الله غفور رحيم ﴾ (٤)

ويأتى بعد هذا التعنيف لتقديمهم عرض الحياة الدنيا ذلك العفو العظيم من الرب الرحيم ، فقد سبق عفو غضبه جل وعلا ، وليهنأ المؤمنون بأكلهم ماغنموا من المعركة ، وما أخذوا من الفداء حلالاً طيباً ، ويستغفروا الله تعالى على هذا الضعف البشرى . بعد أن أبيع لهم مأخذوه ، والله غفور رحيم .

(٢) تفسير القرطبي ٤ / ٨ / ٣٢ .

(٤) الأنفال / ٦٩ .

(١) البداية والنهاية ٢ / ٣ / ٢٩٩ .

(٣) تفسير القرطبي ٤ / ٨ / ٤٩ .

٤ - حوار مع الأسرى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنَّ يَعْلَمَ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ . (١)

ولنا مع العباس رضى الله عنه الشرح المستفيض لهذه الآية . ورغم أن العباس كان من المطعمين في قريش ، فقد وجه رسول الله ﷺ منذ بداية الأمر إلى أسرته فقال : (إني قد عرفت رجالاً من بنى هاشم وغيرهم قد أخرجوا كرهاً لاحتاجة لهم بقتالنا ، فمن لقي منكم أحداً من بنى هاشم فلا يقتله ، ومن لقي أبا البختري بن هشام فلا يقتله ، ومن لقي العباس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ فلا يقتله فإنه إنما أخرج مستكراً) . (٢)

(وجاء رجل من الأنصار بالعباس بن عبد المطلب أسيراً ، فقال العباس : هذا والله مأسرني لقد أسرني رجل أجلب من أحسن الناس وجهاً على فرس أبلق ، وما أراه في القوم ، فقال الأنصارى : أنا أسرته يارسول الله ، فقال : اسكت فقد أيدك الله بملك كريم) . (٣)

(فقد شاركت الملائكة في أسره . وشغل رسول الله ﷺ به فلم يجد النوم إلى عينيه سبيلاً فقد روى ابن إسحاق عن ابن عباس قال : لما أمسى رسول الله ﷺ يوم بدر والأسارى محبوسون في الوثاق بات النبي ﷺ ساهراً أول الليل ، فقال له أصحابه : مالك لا تنام يا رسول الله ؟ فقال : سمعت أنين عمى العباس في وثاقه ، فأطلقوه فسكت فنام ﷺ) (٤) .
وشارك بالرأى وهو فى الأسر .

(فقد روى الإمام أحمد عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : لما فرغ رسول الله ﷺ من القتلى ، قيل له : عليك بالغير ليس دونها شيء ، فناداه العباس وهو فى الوثاق : إنه لا يصلح لك . قال : لم ؟ قال : لأن الله وعدك إحدى الطائفتين ، رقد أنجز لك ما وعدك) . (٥)

وعندما أحس بالخطر عليه بعث من يطمئن عليه ويحميه . فقد روى ابن مردويه والحاكم فى المستدرک عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : لما أسر الأسارى يوم بدر أسر

(٢) السيرة النبوية لابن هشام / ٢ / ٦٩ .

(٤) البداية والنهاية / ٢ / ٣ / ٣٠٠ .

(١) الأنفال / ٧٠ .

(٣) الرحيق المختوم للمباركفورى / ٢٤٣ .

(٥) المصدر نفسه / ٢ / ٣ / ٢٩٦ .

العباس فيمن أسر ، أسره رجل من الأنصار قال ، وقد أوعدته الأنصار أن يقتلوه ، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال : « إني لم أتم الليلة من أجل عمى العباس ، وقد زعمت الأنصار أنهم قاتلوه » ، قال عمر : أفاتيهم ؟ قال : نعم . فأتى عمر الأنصار فقال لهم : ارسلوا العباس ، فقالوا : لا والله لأنرسله ، فقال لهم عمر : فإن كان لرسول الله رضى ؟ قالوا : فإن كان له رضى فخذ ، فأخذه عمر فلما صار فى يده ، قال له عمر : يا عباس أسلم فوالله لئن تسلم أحب إلى من أن يسلم الخطاب ، وماذا لك إلا لما رأيت رسول الله يعجبه إسلامك .. (١) ولاغرو فى هذا الأمر ، فلقد كان رسول الله ﷺ فى جواره منذ وفاة أبى طالب حتى الهجرة ، وحضر معه بيعة العقبة ليطمئن عليه إن غادر مكة .

ثم ماذا عن إسلامه وفدائه .

وعن ابن إسحاق (بعثت قريش إلى رسول الله ﷺ فى فداء أسراهم ، ففدى كل قوم أسيرهم بما رضوا . وقال العباس : يا رسول الله ، إني كنت مسلماً . فقال رسول الله ﷺ : « الله أعلم بإسلامك . فإن يكن كما تقول ، فالله يجزيك بذلك ، فأما ظاهر أمرك فكان علينا ، فافد نفسك وابنى أخويك نوفل بن الحارث بن عبد المطلب وعقيل بن أبى طالب وحليفك عتبة بن عمرو أخا بنى الحارث بن فهر » . وقال : ماذا عندى يا رسول الله ؟ قال : « فأين المال الذى دفنته أنت وأم الفضل ؟ فقلت لها : إن أصبت فى سفرى هذا فهذا المال لبنى الفضل وعبد الله وقتم » فقال . يا رسول الله ، إن هذا لشيء ما علمه غيرى وغير أم الفضل ، فأحسب لى يا رسول الله ما أصبتم منى عشرين أوقية من مال كانت معى . فقال رسول الله ﷺ : « لا . ذاك شيء أعطاناه الله منك » ففدى نفسه وابنى أخويه وحليفه وأنزل الله فيه : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى .. ﴾ الآية . قال ابن إسحاق : وكان أكثر الأسارى فداء العباس بن عبد المطلب ؛ لأنه كان رجلاً موسراً ، فافتدى نفسه بمائة أوقية من الذهب ، وفى البخارى : وقال موسى بن عقبة قال ابن شهاب : حدثنى أنس بن مالك أن رجلاً من الأنصار استأذنوا رسول الله ﷺ ، فقالوا : يا رسول الله ائذن لنا ، فلتترك لابن أختنا عباس فداء . فقال : « لا والله لا تذكرون درهماً » .

وذكر النقاش وغيره أن فداء تكل واحد من الأسرى كان أربعين أوقية ، إلا العباس فإن النبي ﷺ قال : « أضعفوا الفداء على العباس » وكلفه أن يفدى ابنى أخويه عقيل بن أبى

(١) قال الحاكم فى صحيحه : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه .

طالب ونوفل بن الحارث . فأدى عنهما ثمانين أوقية ، وعن نفسه ثمانين أوقية . (١) لقد فرق رسول الله ﷺ بين حسن معاملة العباس بصفته الردء للدعوة والحامى لها فى أحلك مراحلها ، أو بصفته المسلم المكلف بإخفاء إسلامه ، والذى يحمل دوراً خطيراً بوجوده فى مكة ، وبين إعفائه من الفداء وهو القادر عليه . وبمقدار ما أحسن معاملته ﷺ ، شدد بأخذ المال منه ، فهو يرفض أن يعفى ولو من درهم واحد ، بل يضاعف عليه الفداء . ويكلفه بفداء ثلاثة آخرين هم أبناء أخويه وحليفه .

لكننا نجد تدخلاً آخر بالإعفاء مع فقيرة من فقيرات مكة ، بعثت تفدى زوجها بالقلادة التى تملكها ، وكانت هذه الفقيرة زينب بنت محمد ﷺ (ففى مصنف أبى داود عن عائشة رضى الله عنها قالت : لما بعث أهل مكة فى فداء أسراهم بعثت زينب فى فداء أبى العاص بمال ، وبعثت فيه بقلادة لها كانت عند خديجة ، أدخلتها بها على أبى العاص ، قالت . فلما رآها رسول الله ﷺ رق لها رقة شديدة ، وقال : « إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها الذى لها ؟ » فقالوا نعم ، وكان النبى ﷺ أخذ عليه أو وعده أن يخلى سبيل زينب إليه ، وبعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة ورجلاً من الأنصار ، فقال : « كونا بيطن يأجج » (٢) حتى تمر بكما زينب فتصحبها حتى تأتيا بها » قال ابن إسحاق : وذلك بعد بدر بشهر ، قال عبدالله بن أبى بكر : حدثت عن زينب بنت رسول الله ﷺ أنها قالت :

لما قدم أبو العاص مكة قال لى : تجهزى . فالحقى بأبيك ، قالت فخرجت أتجهز فلقيتنى هند بنت عتبة فقالت : يابنت محمد ، ألم يبلغنى أنك تريدين اللحوق بأبيك ؟ فقلت لها : ما أردت ذلك ، فقالت : أى بنت عم . لا تنفعلى إنى امرأة موسرة ، وعندى سلع من حاجتك ، فإن أردت سلعة بعتكها ، أو قرضاً من نفقة أقرضتك ، فإنه لا يدخل بين النساء ما بين الرجال . قالت : فوالله ما أراها قالت ذلك إلا لتفعل ، سخفتها فكتمتها ، وقلت : ما أريد ذلك . فلما فرغت زينب من جهازها ارتحلت ، وخرج بها حموها يقود بها نهراً كنانة بن الربيع . وتسامع بذلك أهل مكة ، وخرج فى طلبها هبار بن الأسود ، ونافع بن عبد القيس الضهرى ، وكان أول من سبق إليها هبار ، فروعها بالرمح وهى فى هودجها ، وبرك كنانة ونثر نبله ثم أخذ قوسه وقال : والله لا يدنو منى رجل إلا وضعت فيه سهماً . وأقبل أبو سفيان فى أشراف قريش ، فقال : يا هذا ، أمسك عنا بنبلك حتى نكلمك

(٢) بطن يأجج : موضع بمكة .

(١) تفسير القرطبى / ٤ / ٨ / ٥٢ / ٥٣ .

فوقف عليه أبو سفيان ، وقال : إنك لم تصنع شيئاً ، خرجت بالمرأة على رؤوس الناس ، وقد عرفت مصيبتنا التي أصابتنا بيدر ، فتظن العرب وتحدث أن هذا وهن منا وضعف خروجك إليه بابتته على رؤوس الناس من بين أظهرنا . ارجع بالمرأة فأقم أياماً ثم سلّها^(١) سلاً رقيقاً في الليل ، فألحقها بأبيها ، فلعمري مالنا بحبسها عن أبيها من حاجة ، ومالنا في ذلك الآن من ثورة^(٢) فيما أصاب منا ، ففعل ، فلما مرّ به يومان أو ثلاثة سلّها ، فانطلقت حتى قدمت على رسول الله ﷺ . فذكروا أنها قد كانت ألقت للروعة التي أصابتها حين روعها هبار بن أم درهم - مافي بطنها^(٣) .

رسول الله ﷺ يفتح الله تعالى عليه في بدر . والملائكة تشهد المعركة بجانيه ، وابتناه لإحدهما رهينة في مكة بيد العدو والثانية رهينة المرض الشديد في المدينة وهي رقية رضى الله عنها . وبشائر النصر في بدر وصلت إلى المدينة ، والمسلمون يهيلون التراب على قبرها ، فلم يقعه المرض الشديد للثانية ، ولا الإقامة في أرض العدو للأولى عن أداء مهمته في حرب العدو ومواجهته ، ولم يثنه عن رسالته خوفه على ابنته في مكة أن يخوض حرباً طاحنة ضد قريش ، وهو درس للدعاة والمجاهدين أن لا يثنيهم خوف عن أداء رسالتهم أو جزع على أولادهم عن متابعة جهادهم ، فكل شيء يهون في سبيل الله وكل شيء في جنب الله قليل . والأصوات التي ترتفع أحياناً وتدعو لوقف الجهاد مع الطاغوت ؛ لأن بناتنا رهائن بين يديه ، ونساءنا وأعراضنا - هي أصوات صادقة ، لكنها مخطئة بدون شك . فالحرب لا بد لها من خسائر في الأموال والأرواح والأولاد ، لقد كان المسلمون يخوضون المعارك ، واحتمال الهزيمة قائم . وفي الهزيمة حسب قانون الحرب في تلك العهود يكون نساء المسلمين سبايا بيد العدو ، ولم يقعد ذلك الأمر المسلمين عن الجهاد ، أو يرر لهم التخاذل والنكوص على الأدبار ، والاستسلام للعدو الكافر . لكننا ننظر للموضوع من ناحية ثانية ونعجب . نعجب لقيم الجاهلية في تلك الأيام وقيمها اليوم !!!

بنت محمد ﷺ الذي ذبح سبعين من قادة مكة وأسر سبعين من أشرفها بين يدي طواغيت مكة ، وحسب فهمنا اليوم . لا بد أن ينتقم منها ، وتقطع إرباً إرباً . وتؤخذ إلى كل بيت فيه قتيل ، يأخذون ثأرهم منها ، بل ليس بنت محمد فقط . لكن كل من يمت إلى محمد من بني هاشم رجالاً ونسوة . زينب بنت محمد يخرج بها حموها الكافر على عيون الشهداء ، والأحقاد والدماء والثارات في كل بيت ، فيتعرض لها سفيه من سفهاء

(١) سلّها : انطلق بها في استخفاء . (٢) ثورة : ثأر منها . (٣) مافي بطنها : تفسير القرطبي ٤ / ٨ / ٥٤ .

مكة . لعله وتر بأخيه أو ابنه أو قزيبه ، ويروِّعها في هودجها ، فينثر الحمى الكافر كنانته ، ويستعد لمجزرة جديدة في مكة . يقتل بعدها حفاظاً على بنت محمد وهو على غير دينها ، وأخوه كان في الجيش الذى مضى لحرب محمد ﷺ .

ولانبتغرب هذه الصورة ، فقد يحوى مجتمعنا مثل هذه الشهامة والمروءة عند بعض الجاهليين فيه .

لكن الأغرب والأعجب هو صنيع أبى سفيان زعيم مكة ، وزوجه هند بنت عتبة . أما هند . فهي التى كانت تضاهى العرب بمصيبتها فى بدر ، فى سوق عكاظ وترد على الخنساء فلقد قتل أبوها وأخوها وعمها وابنها البكر فى بدر ، وهى التى بلغ الحقد عندها مبلغاً لم نسمعه عن امرأة فى التاريخ حين لاكت كبد الحمزة بعد مقتله ، وهو الذى قتل لها أركانها الأربعة ، واتخذت من أذنيه وأنفه أقرطاً لها ، وأعطت أقرطها وذهبها وجواهرها لمن ثار لها منه ، هند هذه . تأتى إلى زينب بنت محمد التى تريد أن تذهب إلى أبيها محمد ﷺ . تأتى إليها فتخاطبها : يا بنت عم . لاتفعلى . (أى لاتخافى وتكتمى على سفرك) إنى إمراة موسرة وعندى سلع من حاجتك ، فإن أردت سلعة بعتكها ، أو قرضاً من نفقة أقرضتك ، فإنه لايدخل بين النساء ما بين الرجال .) ؟ ! إنها قيم من قيم الجاهلية . لايدخل بين النساء ما بين الرجال ، ولاتنسى واجبها نحو ابنة عمها نحو ابنة أعدى أعدائها . فتعرض عليها المعونة . وبشهادة زينب رضى الله عنها . وفو الله ما أراها قالت ذلك إلا لتفعل ، أى امرأة هذه ؟ وأى قيم هذه ؟ حين نقارن هذه الصور بجاهليتنا اليوم . بل دعونا نقول أكثر . بمسلماتنا اليوم . هل تستطيع مسلمة داعية اليوم أن تصنع صنيع هند ؟ فلقد قُتل نسيب إحدى الداعيات فى عملية من العمليات ضد الطغاة ، فكادت أن تفقد وعيها عن متابعة العمل الجهادى . لهول الصدمة ، وهند الموتورة الثائرة بأركانها الأربعة تعرض لبنت محمد ﷺ . المال والمعونة ... !

وتوجت موقفها هذا بأن نظرت إلى هبار بن الأسود ومن معه اللذين تعرضا لبنت محمد عندما أرادت الخروج وروِّعها بالرمح ، نظرت إليهم نظرة احتقار ، واكتفت أن تقول لهما : أفى السلم أعيار جفاء وغلظة وفى الحرب أشباه النساء العوارك (١) . ولم يكن صنع أبى سفيان قائد مكة بأقل عجباً من تصرف زوجته ، فعلى مسؤوليته مع

(١) الد - - - - - نشام / ٣٠٢ / ٢ / (الأعيار : الحمير) ، (والعوارك : الحيز) .

أشراف مكة يعالج الوضع ، ويرضى خواطر بنت محمد . ويحذر حماها سفاهة السفهاء والموتورين ، ويبين له ألا يأخذ خروج بنت محمد طابع التحدى لمكة الموتورة المقهورة ويحثه على الخروج بها ليلاً ، فلن يكون الثأر من بنت محمد .

نتحدث عن هذه الجاهلية وقيمها : فى الوقت الذى نرى فيه جاهلية اليوم تفعل بالآمنين العزل ما يشيب له الوالدان ، فقد حبس زوج وزوجة أربع سنين رهينة عن صهرهما ، ولاقيا أنواع التعذيب والتنكيل ؛ لأن صهرهما يقاوم الطغاة . وهاهن أولاء عشرات النسوة يقمن فى الزنانات السنين الطوال ، ويمكن عشر سنين أو عشرين سنة . حين ينظر إليهن من بين المعتقلين ولاكرامة لامرأة أو شيخ أو طفل !.. إن وحوش الغابة عندها قيم أكثر من قيم طغاة اليوم . و ﴿ إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون ﴾ ﴿ أولئك كالأنعام بل هم أضل ﴾ ^(١) وقد نزلت هذه الآيات فيمن يملكون ماذكرنا من هذه القيم ... فمن هؤلاء اليوم الذين فقدوا كل قيم السماء والأرض والدواب والوحوش . وهم يتعاملون مع الدعاة إلى الله ٢٢ . من هؤلاء ٢٢٢ .

ومن أجل مشكلة الأسرى تم دخول شيطان قريش فى الإسلام .

(روى ابن إسحاق عن عروة بن الزبير قال :

جلس عمير بن وهب الجمحى مع صفوان بن أمية بعد مصاب أهل بدر من قريش فى الحجر ييسر وكان عمير بن وهب شيطاناً من شياطين قريش ، ومن كان يؤذى رسول الله ﷺ وأصحابه ، ويلقون منه عناءً وهو فى مكة . وكان ابنه وهب بن عمير فى أسارى بدر ، فذكر أصحاب القليب ومصابهم فقال صفوان : والله إن ^(٢) فى العيش بعدهم خير . قال له عمير : صدقت والله ، أما والله لولا دين على ليس له عندى قضاء ، وعيال أخشى عليهم الضيعة بعدى لركبت إلى محمد حتى أقتله ، فإن لى قبلهم علة ، ابنى أسير بين أيديهم ، قال : فاغتنمها صفوان . وقال : على دينك أنا أقضيه عنك ، وعيالك مع عيالى أواسيهم مابقوا . لايسعنى شئ ويعجز عنهم ، فقال له عمير : اكنتم عنى شأنى وشأنك قال : أفعل ، ثم أمر عمير يسيفه فشحذ له ^(٣) وسُم ، ثم انطلق حتى قدم المدينة ، فبينما عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى نفر من المسلمين يتحدثون عن يوم بدر ، ويذكرون ما أكرمهم الله به وما أراهم به من عدوهم إذ نظر عمر إلى عمير بن وهب حين

(٢) والله ما فى العيش بعدهم خير ، وإن هنا بمعنى ما النافية .

(١) الأعراف / ١٧٩ .

(٣) شحذ له : سله وحذ .

أناخ على باب المسجد متوشحاً السيف فقال : هذا الكلب عدو الله عمير بن وهب والله ما جاء إلا لشر ، وهو الذى حرش ^(١) بيننا وحزنا ^(٢) للقوم يوم بدر ، ثم دخل عمر رضى الله عنه على رسول الله ﷺ فقال له : يا رسول الله هذا عدو الله عمير بن وهب ، قد جاء متوشحاً سيفه ، قال : « فأدخله على » قال : فأقبل عمر حتى أخذ بحمالة سيفه فى عنقه فلبّيه ^(٣) بها ، وقال لرجال ممن كان معه من الأنصار : ادخلوا على رسول الله ﷺ فاجلسوا عنده . واحذروا عليه من هذا الخبيث ، فإنه غير مأمون ، ثم دخل به على رسول الله ﷺ ، فلما رآه رسول الله ﷺ وعمر أخذ بحمالة سيفه فى عنقه قال : « أرسله ياعمير ، ادن ياعمير » فدنا ثم قال : انعموا صباحاً - وكانت تحية أهل الجاهلية بينهم - فقال رسول الله ﷺ : قد أكرمنا الله بتحية خير من تحيتك ياعمير ، بالسلام تحية أهل الجنة ، فقال . أما والله يا محمد إن كنت بها لحديث عهد ، قال : فما جاء بك ياعمير ، قال : جئت لهذا الأسير الذى بين أيديكم فأحسنوا فيه ، قال : فما بال السيف فى عنقك ؟ قال : قبحها الله من سيوف ، وهل أغنت عنا شيئاً ؟ قال : اصدقنى ما الذى جئت له ؟ قال : ماجئت إلا لذلك . قال : بل قعدت أنت وصفوان بن أمية فى الحجر ، فذكرتما أصحاب القليب من قريش ، ثم قلت : لولا دين على وعيال عندى لخرجت حتى أقتل محمداً ، فتحمل لك صفوان بدينك وعيالك على أن تقتلنى له ، والله حائل بينك وبين ذلك . قال عمير : أشهد أنك رسول الله ، قد كنا يا رسول الله نكذبك بما كنت تأتينا من خير السماء ، وما ينزل عليك من الوحي ، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان ، فوالله إني لأعلم ما أتاك به إلا الله ، فالحمد لله الذى هدانى للإسلام ، وساقنى هذا المساق ، ثم شهد شهادة الحق ، فقال رسول الله ﷺ : « فقهوا أحاكم فى دينه ، وأقرئوه القرآن ، وأطلقوا له أسيره » ففعلوا .

ثم قال : يا رسول الله ، إني كنت جاهداً على إطفاء نور الله ، شديد الأذى لمن كان على دين الله عز وجل ، وأنا أحب أن تأذن لى ، فأقدم مكة ، فأدعوهم إلى الله تعالى . وإلى رسوله ﷺ وإلى الإسلام ، لعل الله يهديهم ، وإلا أذيتهم فى دينهم ، كما كنت أؤذى أصحابك فى دينهم ، قال : فأذن له رسول الله ﷺ ، فلحق بمكة . وكان صفوان بن أمية حين خرج عمير بن وهب يقول : أبشروا بواقعة تأتيكم الآن فى أيام تنسيكم وقعة بدر ، وكان صفوان يسأل عنه الركبان ، حتى قدم راكب فأخبره عن إسلامه ، فحلف أن

(٢) حزنا : قدر عددنا .

(١) حرش بيننا : أفسد بيننا .

(٣) لبّيه بها : جمع ثيابه عند نحره فى الخصومة ثم جرّه .

لا يكلمه أبداً ، ولا ينفعه بنفع أبداً . قال ابن إسحاق : فلما قدم عمير مكة أقام بها يدعو إلى الإسلام ، ويؤذى من خالفه أذى شديداً ، فأسلم على يديه ناس كثير . (٢) . قال ابن إسحاق : وعمير بن وهب ، أو الحارث بن هشام ، قد ذكر لي أحدهما الذى رأى إبليس حين نكص على عقبيه يوم بدر ، فقال : أين أى سراق ، ومثل (١) عدو الله فذهب (٢) .

بقى أن نعيد إلى الذاكرة أن عمير بن وهب رضى الله عنه هو الذى كان يعد فى المسلمين بألف رجل ، وهو واحد من الأربعة الذين بعثهم عمر بن الخطاب رضى الله عنه مدداً لعمره فى مصر ، وحسبهم على عمرو بأربعة آلاف .

وأما قصة الفداء بتعليم الكتابة أو بغير فداء فهى كما رواها المقرئ (وفك رسول الله ﷺ عن السائب بن عبيد . وعبيد بن عمرو بن علقمة بغير فدية . وقد أسرهما سلمة بن أسلم بن حريش الأشهل ؛ لأنهما لآمال لهما ، ولم يقدم لهما أحد . وكان فى الأسرى من يكتب . ولم يكن فى الأنصار من يحسن الكتابة ، وكان منهم من لا مال له ، فيقبل منه أن يعلم عشرة من الغلمان الكتابة ، ويخلى سبيله . فيؤمئذ تعلم زيد بن ثابت الكتابة فى جماعة من غلمان الأنصار . خرج الإمام أحمد من حديث عكرمة عن ابن عباس قال : كان ناس من الأسرى يوم بدر لم يكن لهم فداء . فجعل رسول الله ﷺ فدائهم أن يعلموا أولاد الأنصار الكتابة ، قال : فجاء غلام ييكى إلى أبيه . قال : ماشأنك ؟ قال : ضربنى معلمى ، قال : الخبيث يطلب بذحل (٣) بدر . والله لاتأتيه أبداً . وقال عامر الشعبي : كان فداء الأسرى من أهل بدر أربعين أوقية . فمن لم يكن عنده علم عشرة من أولاد المسلمين فكان زيد بن ثابت ممن علم (٤) .

وهكذا كان وضع الأسرى مدرسة تربوية فى المدينة . نشروا العلم فى ربوع الأنصار وتعرفوا على المجتمع الإسلامى عن كثب . حيث كان أمر رسول الله ﷺ بالإحسان إليهم واضحا إذ قال : استوصوا بالأسارى خيراً .. وكثير منهم أسلم بعد مارأى من حسن هذه المعاملة ، وذلك كما يروى لنا ابن إسحاق عن أبى عزيز بن عمير (فكنت فى رهط من الأنصار حين أقبلوا بى من بدر . فكانوا إذا قدموا غداهم وعشاءهم خصونى بالخير وأكلوا التمر لوصية رسول الله ﷺ إياهم بنا ، ماتقع فى يد رجل منهم كسرة خبز إلا نفحنى بها ، فاستحى فأردها فبردها على مايمسها .) (٥) ولاغرو أن يخاطبهم الله تعالى :

(٢) السيرة النبوية لابن هشام / ٢ / ٣٠٩ .

(٤) إمتاع الأسماع للمقرئ / ١ / ١٠١ .

(١) مثل عدو الله : أى لطفى بالأرض واختفى .

(٣) الذحل : الثأر أو العداوة والحدق .

(٥) السيرة لابن هشام / ٢ / ٢٨٨ .

٤ - ﴿يُؤْتِكُمْ خَيْراً مَّا أَخَذَ مِنْكُمْ﴾ :

﴿إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً يُؤْتِكُمْ خَيْراً مَّا أَخَذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(١) ﴿إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً﴾ أى إسلاماً (يؤتكم خيراً مما أخذ منكم) أى من الفدية قيل فى الدنيا وقيل فى الآخرة وفى صحيح مسلم : أنه لما قدم على النبى ﷺ مال من البحرين قال له العباس : إني فاديت نفسى . وفاديت عقيلاً فقال رسول الله ﷺ «خذ» فبسط ثوبه وأخذ ما استطاع أن يحمله .^(٢)

وقال البخارى : عن أنس أن النبى ﷺ أتى بمالٍ من البحرين . فقال : انثروه فى المسجد فكان أكثر مال أتى به رسول الله ﷺ ، إذ جاءه العباس فقال : يا رسول الله أعطني إني فاديت نفسى ، وفاديت عقيلاً ، فقال : خذ فحثا فى ثوبه ثم ذهب يقله فلم يستطع فقال : مر بعضهم يرفعه إليّ قال : لا . قال : فارفعه أنت على ، قال : لا فشر منه ثم احتمله على كاهله ، ثم انطلق فما زال يتبعه بصره حتى خفى علينا عجباً من حرصه فما قام رسول الله ﷺ وثم منها درهم .^(٣) (وفى غير الصحيح . فقال له العباس : هذا خير مما أخذ منى وأنا بعد أرجو أن يغفر الله لى ، قال العباس : وأعطاني زمزم ، وما أحب أن لى بها جميع أموال مكة . وأسند الطبرى إلى العباس أنه قال : فى نزلت حين أعلمت رسول الله ﷺ بإسلامى ، وسألته أن يحاسبني بالعشرين أوقية التى أخذت منى قبل المفاداة فأبى وقال : ذلك فىء ، فأبدلنى الله من ذلك عشرين عبداً كلهم تاجر بمالى .^(٤) وهو يرجو الثانية من المغفرة رضى الله عنه

٥ - ﴿وَإِنْ يَرِيدُوا خِيَانَتَكَ﴾ :

﴿وَإِنْ يَرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ إِنْ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾^(٥) (قال ابن العربى : لما أسر من أسير من المشركين تكلم قوم منهم بالإسلام ، ولم يمضوا فيه عزيمة ولا اعترفوا فيه اعترافاً جازماً ، ويشبه أنهم أرادوا أن يقربوا من المسلمين ولا يبعدوا من المشركين ... وقد بين الله لرسوله ﷺ الحقيقة فقال : ﴿وَإِنْ يَرِيدُوا خِيَانَتَكَ﴾ أى إن كان القول منهم خيانة ومكراً ، فقد خانوا الله من قبل بكفرهم ، ومكرهم بك ، وقتالهم لك وإن كان هذا القول منهم خيراً ويعلمه الله فيقبل منهم ذلك ، ويعوضهم خيراً مما خرج عنهم ، ويغفر لهم ما تقدم من كفرهم وخيانتهم ومكرهم)^(٦) .

(٢) تفسير القرطبي ٤ / ٨ / ٥٣ .

(١) الأنفال / ٧٠ .

(٤) تفسير القرطبي ٤ / ٨ / ٥٣ .

(٣) البداية والنهاية ٣ / ٤ / ٣٠٠ .

(٦) المصدر نفسه ٤ / ٨ / ٥٥ .

(٥) الأنفال / ٧١ .

ولاغربة أن يظهر المشركون بميلهم للإسلام أو يتظاهرون بذلك وهم يرون هذه المعاملة الحسنة والروح الإسلامية ، والمجتمع المتلاحم المتحاب ، وأن يكون هذا الأسر دورة لهم فى المجتمع المسلم ، أما النموذج الذى تقدمه عن الخيانة فهو نموذج أبى عزة الجمحى الشاعر .

قال ابن إسحاق : وأبو عزة عمرو بن عبدالله بن عثمان بن أهيب بن حذافة بن جمح وكان محتاجاً ذابنات ، فكلم رسول الله ﷺ ، فقال : يارسول الله ، لقد عرفت مالى من مال وإنى لذوحاجة وذوعيال ، فامنن على ، فمن عليه رسول الله ﷺ ، وأخذ عليه أن لا يظهر عليه أحداً ، فقال أبو عزة فى ذلك يمدح رسول الله ﷺ ويذكر فضله فى قومه :

من مبلغ عنى الرسول مجمداً	بأنك حق والمليك حميد
وأنت امرؤ تدعو إلى الحق والهدى	عليك من الله العظيم شهيد
وأنت امرؤ بوئت فينا مباءة	لها درجات سهلة وصعود (١)
فإنك من حاربتك لحارب	شقى ومن سالمته لسعيد
ولكن إذا ذكرت بدرأ وأهله	تأوب مابى حسرة وقعود (٢) . (٣)

ثم ماذا فعل يوم أحد . ؟

قال ابن إسحاق : (... فقال له صفوان بن أمية : ياأبا عزة ، إنك امرؤ شاعر ، فأعنا بلسانك ، فاخرج معنا . فقال : إن محمداً قد من على فلا أريد أن أظاهر عليه . قال : فأعنا بنفسك - فلك الله على إن رجعت أن أغنيك ، وإن أصبت أن أجعل بناتك مع بناتى يصبهن ما أصابهن من عسر ويسر . فخرج أبو عزة يسير فى تهامة ، ويدعو بنى كنانة ويقول :

إيها بنى عبد مناة الرزأ	أنتم حماة وأبوكم حام
لا تعدونى نصركم بعد العام	لا تسلمونى لا يحل سلام . (٤)

وهكذا خان الله ورسوله . وانضم إلى معسكر المشركين . ونكت بعهوده ووعوده . فأمكن الله تعالى منه يوم أحد .

(فقال : يارسول الله ألقنى . فقال رسول الله ﷺ : لا والله لا تمسح عارضك بمكة)

(١) بوئت مباءة : نزلت منزلة .
(٢) تأوب : رجع إلى وعادنى .
(٣) السيرة السوية لابن هشام / ٢ / ٣٠٥ ، ٣٠٦ . (٤) المصدر السابق / ٣ / ٤ .

بعدها وتقول : خدعت محمداً مرتين . « اضرب عنقه يازبير » فضرب عنقه .

قال ابن هشام : وبلغنى عن سعيد بن المسيب أنه قال : قال له رسول الله ﷺ : « إن المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين » . « اضرب عنقه يا عاصم بن ثابت » فضرب عنقه (١) وهكذا نجد أبا عزة يمثل نموذج الذى خان ، فأمكن الله تعالى منه ، بينما وجدنا العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه يمثل النموذج الأول ، الذى صدق بإسلامه وفاز بالحسنين .

ثامناً : الولاء

١ - ﴿ بعضهم أولياء بعض ﴾ :

﴿ والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله . والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض ﴾ (٢) .

و (القاعدة النظرية التى يقوم عليها الإسلام على مدار التاريخ البشرى ، هى قاعدة : شهادة أن لا إله إلا الله ، أى إفراد الله - سبحانه - بالألوهية والربوبية والقوامة والسلطان والحاكمة .. إفراده بها اعتقاداً فى الضمير ، وعبادة فى الشعائر ، وشرعية فى واقع الحياة . فشهادة أن لا إله إلا الله ، لا توجد فعلاً ، ولا تعتبر موجودة شرعاً إلا فى هذه الصورة . المتكاملة التى تعطيها وجوداً جدياً حقيقياً يقوم عليه اعتبار قائلها مسلماً أو غير مسلم ومعنى تقرير هذه القاعدة من الناحية النظرية .. أن تعود حياة البشر بجملتها إلى الله ، لا يقضون هم فى أى شىء من شؤونها ، ولا فى أى جانب من جوانبها من عند أنفسهم ، بل لابد لهم أن يرجعوا إلى حكم الله فيها ليتبعوه وحكم الله هذا يجب أن يعرفه من مصدر واحد يبلغهم إياه ، وهو رسول الله ... وهذا يتمثل فى شطر الشهادة الثانى من ركن الإسلام الأول : شهادة أن محمداً رسول الله .

هذه هى القاعدة النظرية التى يتمثل بها الإسلام ويقوم عليها ، وهى تنشئ منهجاً كاملاً للحياة حين تطبق فى شؤون الحياة كلها ، يواجه به المسلم كل فرع من فروع الحياة الفردية والجماعية فى داخل دار الإسلام وخارجها ، فى علاقاته بالمجتمع المسلم وفى علاقات المجتمع المسلم بالمجتمعات الأخرى .

ولكن الإسلام - كما قلنا - لم يكن يملك أن يتمثل فى نظرية مجردة ؛ ليعتنقها من

(٢) الأنفال : ٧٢ .

(١) المصدر نفسه ٥ / ٣ .

يعتقها اعتقاداً ويزاولها عبادة ، ثم يبقى معتقوها على هذا النحو أفراداً ضمن الكيان العضوى للتجمع الحركى الجاهلى القائم فعلاً ، فإن وجودهم على هذا النحو - مهما كثر عددهم - لا يمكن أن يؤدي إلى وجود فعلى للإسلام ، لأن الأفراد المسلمين نظرياً الداخلين فى التركيب العضوى للمجتمع الجاهلى سيظلون مضطرين حتماً للاستجابة لمطالب هذا المجتمع العضوى . سيتحركون طوعاً أو كرهاً ، بوعى أو بغير وعى لقضاء الحاجات الأساسية لحياة هذا المجتمع الضرورية لوجوده ، وسيدافعون عن كيانه . وسيدافعون العوامل التى تهدد وجوده وكيانه ، لأن الكائن العضوى يقوم بهذه الوظائف بكل أعضائه سواء أرادوا أم لم يريدوا ، أى أن الأفراد المسلمين نظرياً سيظلون يقومون فعلاً بتقوية المجتمع الجاهلى الذى يعملون نظرياً لإزالته ، وسيظلون خلايا حية فى كيانه تمده بعناصر البقاء والامتداد ، وسيعطونه كفاياتهم وخبراتهم ونشاطهم ليحيا ويقوى ، وذلك بدلاً من أن تكون حركتهم فى اتجاه تقويض هذا المجتمع الجاهلى لإقامة المجتمع الإسلامى .

ومن ثم لم يكن بد أن تتمثل القاعدة النظرية للإسلام (أى العقيدة) فى تجمع عضوى حركى منذ اللحظة الأولى . لم يكن بد أن ينشأ تجمع عضوى حركى آخر غير التجمع الجاهلى ، منفصل ومستقل عن التجمع العضوى الحركى الجاهلى الذى يستهدف الإسلام إلغائه ، وأن يكون محور هذا التجمع الجديد هو القيادة الجديدة المتمثلة فى رسول الله ﷺ ومن بعده فى كل قيادة إسلامية ، تستهدف رد الناس إلى ألوهية الله وحده وربوبيته وقوامته وحاكميته وسلطانه وشريعته ، وأن يخلع كل من يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ولاءه من التجمع العضوى الحركى الجاهلى - أى التجمع الذى جاء منه - ومن قيادة ذلك المجتمع - فى أية صورة كانت ، سواء كانت فى صورة قيادة دينية من الكهنة والسدنة والسحرة والعرافين ومن إليهم ، أو فى صورة قيادة سياسية واجتماعية واقتصادية كالتى كانت لقريش ، وأن يحصر ولاءه فى التجمع العضوى الحركى الإسلامى الجديد وفى قيادته المسلمة .

لم يكن بد أن يتحقق هذا منذ اللحظة الأولى لدخول المسلم فى الإسلام ، ولنطقه بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله لأن وجود المجتمع المسلم لا يتحقق إلا بهذا ، لا يتحقق بمجرد قيام القاعدة النظرية فى قلوب أفراد مهما تبلغ كثرتهم ، لا يتمثلون فى تجمع عضوى متناسق متعاون . له وجود ذاتى مستقل ، يعمل أعضاؤه عملاً عضوياً -

كأعضاء الكائن الحي - على تأصيل وجوده وتعميقه وتوسيعه ، وعلى الدفاع عن كيانه ضد العوامل التي تهاجم وجوده وكيانه ، ويعملون في هذا تحت قيادة مستقلة عن قيادة المجتمع الجاهلي تنظم تحركهم وتنسقه وتوجهه لتأصيل وتعميق وتوسيع وجودهم الإسلامي ، ولمكافحة ومقاومة وإزالة الوجود الآخر الجاهلي .

وهكذا وجد الإسلام .. هكذا وجد متمثلاً في قاعدة نظرية مجملة - ولكنها شاملة - يقوم عليها في نفس اللحظة تجمع عضوى حركى مستقل منفصل عن المجتمع الجاهلي ، ومواجه لهذا المجتمع .. ولم يوجد قط في صورة نظرية مجردة عن هذا الوجود الفعلى . وهكذا يمكن أن يوجد الإسلام مرة أخرى .. ولا سبيل لإعادة نشأته في ظل المجتمع الجاهلي في أى زمان وفي أى مكان ، بغير الفقه الضرورى لطبيعة نشأته العضوية الحركية .

وحين ندرك طبيعة هذه النشأة ، وأسرارها الفطرية ، وندرك معها طبيعة هذا الدين وطبيعة منهجه الحركى .. ندرك معه مدلولات هذه النصوص والأحكام التي تواجهها في ختام هذه السورة ، في تنظيم المجتمع المسلم ، وتنظيم علاقته مع المؤمنين المهاجرين المجاهدين - بطبقاتهم - والذين آووا ونصروا ، وعلاقته مع الذين آمنوا ولم يهاجروا ، وعلاقته مع الذين كفروا .

إنها كلها تقوم على أساس ذلك الفقه بطبيعة النشأة العضوية الحركية للمجتمع الإسلامى .

ونستطيع الآن أن نواجه هذه النصوص والأحكام الواردة فيها (١) .

﴿ إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض ﴾ .

(لقد انخل كل من قال أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فى مكة من الولاء لأسرته والولاء لعشيرته ، والولاء لقبيلته ، والولاء لقيادته الجاهلية الممثلة فى قريش ، وأعطى ولأه وزمامه لمحمد رسول الله ﷺ وللتجمع الصغير الناشئ الذى قام بقيادته ، فى حين وقف المجتمع الجاهلى ، يدفع عن وجوده الذاتى خطر هذا التجمع الجديد . الخارج عليه حتى قبل اللقاء فى المعركة الحربية - ويحاول نسحق هذا التجمع الوليد فى نشأته .

(١) فى طلال القرآن / ٣ / ١٥٥٦ .

عندئذ آخى رسول الله ﷺ بين أعضاء هذا التجمع الوليد أى أنه حول هؤلاء الأفراد الآتين من المجتمع الجاهلى أفراداً إلى مجتمع متكافل ، تقوم رابطة العقيدة فيه مقام رابطة الدم والنسب ، ويقوم الولاء لقيادته الجديدة مقام الولاء للقيادة الجاهلية ، ويقوم الولاء فيه للمجتمع الجديد مقام كل ولاء سابق .

ثم لما فتح الله للمسلمين دار الهجرة فى المدينة ، بعد أن وجد فيها مسلمون بايعوا القيادة الإسلامية على الولاء المطلق والسمع والطاعة فى المنشط والمكره ، وحماية رسول الله ﷺ مما يحمون منه أموالهم وأولادهم ونساءهم ، وقامت الدولة المسلمة فى المدينة بقيادة رسول الله ﷺ عاد رسول الله ﷺ آخى بين المهاجرين والأنصار ، تلك المؤاخاة التى تقوم مقام رابطة الدم والنسب كذلك بكل مقتضياتها ، بما فى ذلك الإرث والديات والتعويضات التى تقوم بها رابطة الدم فى الأسرة والعشيرة .. وكان حكم الله تعالى : ﴿ إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض ﴾ .

(أولياء فى النصرة ، وأولياء فى الإرث وأولياء فى الديات والتعويضات وسائر ما يترتب على رابطة الدم والنسب من التزامات وعلاقات) . (١)

٢ - ﴿ الذين آمنوا ولم يهاجروا ﴾ :

(ثم وجد أفراداً آخرون ، دخلوا فى هذا الدين (عقيدة) ولكنهم لم يلتحقوا بالمجتمع المسلم فعلاً .. لم يهاجروا إلى دار الاسلام التى تحكمها شريعة الله ، وتدبر أمرها القيادة المسلمة ، ولم ينضموا إلى المجتمع المسلم الذى أصبح يملك داراً يقيم فيها شريعة الله ، ويحقق فيها وجوده الكامل ، بعدما تحقق له وجوده فى مكة نسبياً ، بالولاء للقيادة الجديدة والتجمع فى تجمع عضوى حركى ، مستقل ومنفصل عن المجتمع الجاهلى ، ومواجه له بهذا الوجود المستقل المتميز .

وجد هؤلاء الأفراد سواءً فى مكة ، أو فى الأعراب حول المدينة ، يعتنقون العقيدة ولكنهم لا ينضمون للمجتمع الذى يقوم على هذه العقيدة ، ولا يدينون فعلاً دينونة كاملة للقيادة القائمة عليه .

وهؤلاء لم يعتبروا أعضاء فى المجتمع المسلم ، ولم يجعل الله لهم ولاية - بكل أنواع

(١) فى ظلال القرآن ١٥٥٨/٣ .

الولاية - مع هذا المجتمع ، لأنهم بالفعل ليسوا من المجتمع الإسلامى ، وفى هؤلاء نزل هذا الحكم ﴿والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا . وإن استنصروكم فى الدين فعليكم النصر . إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق﴾ (١) (٢) .

(وهذا الحكم منطقى ومفهوم مع طبيعة هذا الدين - التى أسلفنا - ومع منهجه الحركى الواقعى ، فهؤلاء الأفراد ليسوا أعضاء فى المجتمع المسلم ، ومن ثم لا تكون بينهم وبينه ولاية .. ولكن هناك رابطة العقيدة ، وهذه لا ترتب - وحدها - على المجتمع المسلم تبعات تجاه هؤلاء الأفراد ، اللهم إلا أن يعتدى عليهم فى دينهم ، فيفتنوا مثلاً عن عقيدتهم ، فإذا استنصروا المسلمين - فى دار الإسلام - فى مثل هذا ، كان على المسلمين أن ينصروهم فى هذه وحدها ، على شرط أن لا يخل هذا بعهد من عهود المسلمين مع معسكر آخر . ولو كان هذا المعسكر هو المعتدى على أولئك الأفراد فى دينهم وعقيدتهم ! ذلك أن الأصل هو مصلحة المجتمع المسلم وخطته الحركية وما يترتب عليها من تعاملات وعقود ، فهذه لها الرعاية أولاً ، حتى تجاه الاعتداء على عقيدة أولئك الذين آمنوا ، ولكنهم لم ينضموا للوجود الفعلى لهذا الدين المتمثل فى التجمع الإسلامى . وهذا يعطينا مدى الأهمية التى يعلقها هذا الدين على التنظيم الحركى الذى يمثل وجوده الحقيقى .

والتعقيب على هذا الحكم ﴿والله بما تعملون بصير﴾ .

فكل عملكم تحت بصره سبحانه ، يرى مداخله ومخارجه ، ومقدماته ونتائجه ، وبواعثه وآثاره .

٣ - ﴿والذين كفروا بعضهم أولياء بعض﴾ :

وكما أن المجتمع المسلم مجتمع عضوى حركى متناسق متكافل متعاون يتجمع فى ولاء واحد فكذلك المجتمع الجاهلى .

﴿والذين كفروا بعضهم أولياء بعض﴾ .

إن الأمور بطبيعتها كذلك - كما أسلفنا ، إن المجتمع الجاهلى لا يتحرك كأفراد ، إنما يتحرك ككائن عضوى ، تندفع أعضاؤه بطبيعة وجوده وتكوينه ؛ للدفاع الذاتى عن وجوده وكيانه ، فهم بعضهم أولياء بعض طبعاً وحكماً .. ومن ثم لا يملك الإسلام أن يواجههم إلا فى صورة مجتمع آخر له ذات الخصائص ، ولكن بدرجة أعمق وأمتن

(٢) فى ظلال القرآن / ٣ / ١٥٥٨ .

(١) الأنفال / ٧٢

وأقوى ، فأما إذا لم يواجههم مجتمع ولاؤه بعضه لبعض فستقع الفتنة لأفراده من المجتمع الجاهلى - لأنهم لا يملكون مواجهة المجتمع الجاهلى المتكافل أفراداً - وتقع الفتنة فى الأرض عامة بغلبة الجاهلية على الإسلام بعد وجوده ، ويقع الفساد فى الأرض بطغيان الجاهلية على الإسلام ، وطغيان ألوهية العباد على ألوهية الله ، ووقوع الناس عبيدا للعباد مرة أخرى ، وهو أفسد الفساد .

﴿ إلا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير ﴾ ^(١) . ^(٢)

ولا يكون بعد هذا النذير نذير ، ولا بعد هذا التحذير تحذير ... والمسلمون الذين لا يقيمون وجودهم على أساس التجمع العضوى الحركى ذى الولاء الواحد والقيادة الواحدة ، يتحملون أمام الله - فوق ما يتحملون فى حياتهم ذاتها - تبعة تلك الفتنة فى الأرض وتبعة هذا الفساد الكبير .

٥ - ﴿ أولئك المؤمنون حقا ﴾ :

(ثم يعود السياق القرآنى ليقرر أن الإيمان الحق إنما يتمثل فى هذه الصورة ﴿ والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله ، والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقا لهم مغفرة ورزق كريم ﴾ ^(٣))

وما أروع أن نربط بين بداية السورة وختامها والجولة الضخمة فى ثنايا السورة .

- البداية تقول :

﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا ، وعلى ربهم يتوكلون ، الذين يقيمون الصلاة وما رزقناهم ينفقون ، أولئك هم المؤمنون حقا لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم ﴾ .

ويسبق هذه البداية تهديد بخطورة زوال الإيمان أمام أزمة الغنائم .

- ﴿ فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم إن كنتم مؤمنين ﴾ .

فكيف يلتقى الإيمان وفساد ذات البين الذى حل بالطليعة المؤمنة يوم بدر ؟

ويعقب هذه البداية تهديدا آخر بخطورة زوال الإيمان بعد الوصف الرعيب للكارهين

(١) الأنفال / ٧٣ .

(٢) فى ظلال القرآن / ٣ / ١٥٥٩ .

(٣) الأنفال / ٧٤ .

للمعركة : ﴿ .. وإن فريقا من المؤمنين لكارهون . يجادونك في الحق بعد ما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون .. ﴾ .

ويتلقى أهل بدر هذا العرض كما نتلقاه نحن ، بعد أن اختلفوا على الغنائم ، ثم بعد أن جادلوا في الحق كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون ، بعد هذه الأخطاء الضخمة الجسيمة لا يبقى لهم غير الأمل بعفو الله ومفرته ، والأمل بأن يدخلوا في حظيرة المؤمنين ، وحظيرة : الإيمان ، وبعد أن أوضح لهم العرض الرباني خطورة ما أقدموا عليه من ذنب راجين ربهم أن يتجاوز عن سيئاتهم ويدخلهم في عداد المؤمنين . خاصة وقد أوضح العرض الرباني لهم أن هناك من هم المؤمنون ادعاءً ، وهناك من هم المؤمنون حقاً ، ولا بد من تكامل المواصفات ، حتى يكونوا المؤمنين حقاً .

ويتابع السياق القرآني هذا العرض ، وهذا المنهج ، فتنصب الآيات كلها على عجزهم وضعفهم ونقصهم ، ويكون التركيز في المقابل على النعمة الربانية في النصر والتمكين الذي لا يملكون مؤهلاته ، ويستمر هذا العرض حتى الآيتين الأخيرتين ، بعد استعراض كل جوانب الضعف البشري والعجز والخلل البشري .

تأتي هاتان الآيتان لتزفا لهم أعظم بشري بعد مناقشة وحساب ، تأتيهم هذه البشري ولا يزالون ملتصقي الأقدام بالأرض ، ولا يزالون يعانون من هول الذنب وجسامة الخطيئة .

تأتي هذه البشري لتقول لهم :

أنتم ، أنتم بالذات المؤمنون حقاً ، وليس المعني غيركم ، رغم شدة الخطأ ، وشدة الضعف ، وضخامة الذنب .

أنتم بفرعكم : المهاجرين ، والأنصار .

﴿ الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله .. ﴾ .

﴿ والذين آووا ونصروا .. ﴾ .

ولم تأت هذه البشري إلا بعد استفراغ الحساب :

﴿ أولئك هم المؤمنون حقاً ﴾ .

أما (أولئك هم المؤمنون حقاً) الأولى - في بداية السورة - فهيها أن يرى المسلم

البدرى أنه هو المقصود ، بعد الخلل فى الخروج للمعركة فى البداية ، وبعد الخلل فى الموقف من الغنائم فى النهاية .

لكن هنا .. فهذه هى الأرض كلها ، فمن فيها ﴿ الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله ﴾ غير المهاجرين ؟

وهذه هى الأرض كلها فمن فيها ﴿ .. الذين آووا ونصروا .. ﴾ غير الأنصار ؟ وما أروعها من خاتمة .. وما أروعها من بشارة للذين جثوا بين يدى ربهم يحاسبهم على ما جرى فى بدر وقبلها وبعدها ، ليقول لهم قوموا بعد ذلك كله ، ورغم كل الحساب فأنتم أنتم المومنون حقاً .

فقد وقعت المغفرة ، ووقع الرزق الكريم فى علم الله ، منذ الأزل .

﴿ لهم مغفرة ورزق كريم ﴾ .

« وما يدريك : لعل الله اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » ^(١) وما أروع أن يجثو العبد للحساب على كل صغيرة وكبيرة ، ويأخذ النتيجة مع نهاية الحساب : قم مغفوراً لك .

ولعلمهم قبل بدر قد لا يدخلون مع الذين جاهدوا فى سبيل الله ، أما الآن فهم المنصوص عليهم بذلك ... هاجروا وجاهدوا .

٦ - ﴿ والذين آمنوا من بعد ﴾ ^(٢) .

فإذا كانت الآية السابقة لأهل بدر .. فهذه الآية لأجيال المسلمين التى تتعاقب على ظهر الأرض حتى يرث الله الأرض ومن عليها - ولعلنا من آلاف الملايين التى تتعاقب وتعاقبت على ظهر الأرض ندخل فى هذه الحظيرة القدسية مع أهل بدر إن شاء الله .

﴿ والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله والله بكل شىء عليم ﴾ ^(٣) .

فقد انتهت الطفرة التى استمرت سنتين أو تزيد ، وعاد التوارث على أساس الرحم لا على أساس العقيدة فقط . أصبحت القرابة والعقيدة صنوين فى التوارث . فلا توارث بين مسلم وكافر ، لكن المسلمين يبقى التوارث بينهم على أساس القرابة والرحم .

(١) (٣٠٢) لأفان ٧٥ .

(٢) البخارى ومسلم .

وكأثما نقول هذه الآية : السمو الخالد فترات قصيرة ، لكن الخط الفطرى الطبيعى هو الأصل .

(ولقد كان لفترة البناء الأولى للوجود الإسلامى أحكامها الخاصة ، وتكاليفها الخاصة .. قام الولاء فى العقيدة مقام الولاء فى الدم ، فى كل صوره وأشكاله ، وفى كل التزاماته ومقتضياته ، بما فى ذلك الإرث والتكافل فى الديات والمغارم .. فلما أن استقر الوجود الإسلامى بيوم الفرقان فى بدر عدلت أحكام تلك الفترة الاستثنائية اللازمة لعملية البناء الأولى ، المواجهة لتكاليفه الاستثنائية ، وكان من هذه التعديلات عودة التوارث والتكافل فى الديات وغيرها إلى القرابة - ولكنه فى إطار المجتمع المسلم فى دار الإسلام .

﴿ وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله ﴾ .

فلأبأس بعد استقرار الوجود الفعلى للإسلام - من أولوية ذوى القربى فى داخل الإطار العام .. إن هذا يلبي جانباً فطرياً فى النفس الإنسانية ، ولا ضرر من تلبية المشاعر الفطرية فى النفس الإنسانية ، مادام أن ليس هناك مايعارض هذه المشاعر من تكاليف الوجود الإسلامى ، إن الاسلام لا يحطم المشاعر الفطرية ، ولكنه يضبطها . يضبطها لتستقيم مع الحاجات العليا للوجود الإسلامى ، فمتى انقضت هذه الحاجات عاد يلبيها فى إطاره العام - ومن ثم تكون لبعض الفترات الاستثنائية فى الحركة تكاليفها الخاصة ، التى ليست واردة فى الأحكام النهائية للإسلام ، التى تحكم المجتمع الإسلامى المستقر الآمن فى حياته العادية .. وكذلك ينبغى أن نفقه تكاليف مرحلة البناء الأولى ، وطبيعة الإسلام العامة وأحكامه الأخرى .

﴿ إن الله بكل شئ عليم ﴾ .

وهو التعقيب المناسب على هذه الأحكام والتنظيمات والمشاعر ، وتداخلها وتنظيمها وتنسيقها ، فهى من العلم المحيط بكل شئ ، علم الله تعالى . (١)

(يقول تعالى ذكره : والمتناسبون فى الأرحام بعضهم أولى ببعض فى الميراث إذا كانوا ممن قسم الله له نصيباً وحظاً من الخليف والولى و (فى كتاب الله) يقول : فى حكم الله الذى كتبه فى اللوح المحفوظ ، والسابق من القضاء (وأن الله بكل شئ عليم) يقول : إن الله عالم بما يصلح عباده فى توريثه بعضهم من بعض فى القرابة والنسب دون

(١) فى ظلال القرآن / ٣م / ج ١٠ ص ١٥٦٠ ، ١٥٦١ .

الحلف بالعقد وبغير ذلك من الأمور كلها ، لا يخفى عليه شئ منها) . (١)

وبعد :

فماذا عن بدر :

وأكد أجيب أنها خصوصية من خصوصياته عليه الصلاة والسلام فبدر : هبة له ، وميزة له ، وإكرام له صلوات الله وسلامه عليه فضمير المخاطب حى دائما فى ثنايا السورة .

يسألونك ، قل ، كما أخرجك ربك من بيتك ، يجادلونك ، إذ يوحى ربك ، وما رميت إذ رميت ، وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ، قل للذين كفروا ، إذ يريكم الله فى منامك قليلا ولو أراكم كثيرا لفشلتم ، ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة ، الذين عاهدت منهم ، إنما تثقفنهم فى الحرب فشرد بهم من خلفهم ، وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء ، فاجنح لها وتوكل على الله ، وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين ، لو أنفقت مافى الأرض جميعاً ما ألقت بين قلوبهم ، يأيها النبى حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين ، يأيها النبى حرص المؤمنين على القتال ، ماكان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض ، يأيها النبى قل لمن فى أيديكم من الأسرى ، وإن يريدوا خيانتك .

أى لا يقل عن ست وثلاثين خطاباً له فى خمس وسبعين آية .

لقد صبر عليه الصلاة والسلام ثلاثة عشر عاماً لم تلن له قناة ، ولم تهن له عزيمة ، وتلقى من الابتلاء ما لم يبلغه أحد . فأشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأئمة فالأئمة ، وكانت قمة ابتلائه يوم اضطر للعودة لهم بعد الطائف ، وبعد أذى الطائف ، ثم لم يمهله ، ولم يتركوه فى مكة دون أذى حتى اضطر للجوء إلى القبائل يستنصرها لدين الله ، بعد أن كفرت قريش وحادث الله ورسوله ، وحالت بينه وبين القبائل كذلك ، وتمادت أكثر فأكثر يوم الهجرة فتأمرت به عليه الصلاة والسلام لتقتله أو تثبته أو تخرجه ، ومكر الله بها وأنجاه من بين أيديهم . وهاهو ذا الآن يود أن يسترد بعض ما فقدته والمسلمون من خلال القافلة ، وإذا بها الطامة ، وإذا بها قريش جاءت بخيلها وخيلائها تحاد الله وتكذب رسوله . وتريد - كما قال أبو جهل : (فنقيم عليها ثلاثا ..) .

(١) تفسير الطبرى / ٦ / ١٠ .

(والله لا نرجع حتى نرد بدرا . فنشرب الخمر ، ونطعم الطعام ، وتعزف علينا القيان ، وننحر الجزر . ويعلم العرب بمسيرنا هذا . فلا يزالون يهابوننا أبداً ..)

إنها لحظة حاسمة من اللحظات الحاسمة في تاريخ البشرية ، أن يلتقى سيد ولد آدم ، مع الحفاة الجياع العزل من السلاح ، بقريش وقد أحضرت سادتها وكبرائها الذين أضلوها السبيل ، ومع قريش إبليس يشد الأزر ، ويشحذ العزيمة ، ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ولو شاء ربك مافعلوه فذرهم وما يفترون : ﴾^(١) .

﴿ وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا من المجرمين وكفى بربك هادياً ونصيراً . ﴾^(٢) .
وهؤلاء أكابر المجرمين قد حضروا على مرمى السمع والبصر .

فهل يكون هذا اللقاء حاسماً بين الفريقين ؟

واتجه سيد الخلق إلى ربه يناجيه ، ويعرب عما يعتلج في صدره من هم وأمل :

(اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها ، تحادك وتكذب رسولك ، اللهم نصرك الذى وعدتنى ، اللهم أحنهم الغداة ، اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد فى الأرض) ولقد سبق تحدى أبى جهل ل محمد ﷺ والمسلمين معه (اللهم أقطعنا للرحم وآتانا بما لا يعرف فأجبه^(٣) الغداة) .

وما رواه السدى كذلك :

وكان المشركون حين خرجوا إلى النبی ﷺ من مكة أخذوا بأستار الكعبة واستنصروا الله وقالوا : (اللهم انصر أعز الجندين وأكرم الفئتين وخير القبيلتين) .

(.. يوم التقى الجمعان) ﴿ إذ أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى . والركب أسفل منكم ولو تواعدتم لاختلفتم فى الميعاد ولكن ليقضى الله أمراً كان مفعولاً .. ﴾ .

وشاء قدر الله الغالب أن يكون اللقاء المباشر بين الفريقين ، على غير إرادة من المؤمنين ﴿ وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ﴾ .

وشاء قدر الله الغالب أن ترمى مكة بأفلاذ أكبائها فى المعركة ، وهؤلاء أكابر المجرمين على رأس الحملة .

(٣) أحهم ، وأحنه . أى آتاه أجله وموته واهرمه .

(١) الأنعام / ١١٢ . (٢) الفرقان / ٣١

وفى هذه اللحظات الحاسمة من تاريخ البشرية - يتجه إمام الأنبياء إلى ربه يتضرع إليه راجياً أن يحكم بينه وبين عدوه .

وكانت دعوات نوح ، وموسى ، ولوط ، وشعيب ، وهود ، وصالح . فهل هذه هي الفرصة السانحة للقضاء على أكابر المجرمين ؟

لو راجعنا تاريخ السيرة كله ، لما وجدنا أعظم تضرعاً من هذا الموقف ، ولا إلحاحاً من هذا المشهد .

(وما زال يهتف بربه حتى سقط رداؤه ..) .

محنة الطائف على أشد ما فيها من قساوة . جاءه جبريل أمير الملائكة يستأذنه فى إبادة القوم (إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك ، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم .. فقال :

« بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً » . (١)

ولم تطب نفسه عليه الصلاة والسلام فى إبادة القوم .

ومحنة أحد على أشد ما فيها من هول - كان أعظم ماعبر عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم من أسى :

« كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم بالدم وهو يدعوهم إلى الله ؟ » . (٢)

وما كان قوله عليه الصلاة والسلام كلما اشتد الكرب عليه والأذى من قومه إلا أن يقول « اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون » .

إلا ما تذكره كتب السيرة عن دعائه على قتلة شهداء بئر معونة ، حيث قنت شهراً يدعو عليهم ، إلى أن نزل قوله تعالى : ﴿ ليس لك من الأمر شئ ، أو يتوب عليهم ، أو يعذبهم ، فإنهم ظالمون ﴾ (٣) فترك القنوت . (٤)

بينما نرى اتجاه الرسول ﷺ يوم بدر من الدعاء على قريش بالهزيمة وطلب النصر الموعود ، فى أضخم لقاء وأكبر لقاء بين المشركين والمسلمين (وما زال يهتف بربه - أى

(١) حقائق الأنوار لابن الربيع الشيبانى ٣٤٣ . تحقيق عبد الله الأنصارى .

(٢) حقائق الأنوار ٥٤٣ ٥٤٤ . (٣) آل عمران / ١٢٨ .

(٤) المصدر نفسه / ٥٠٤ ، ٥٠٦ .

يدعوه - حتى سقط رداؤه ، فأخذ أبو بكر بيده ، وقال : حسبك يا رسول الله فقد ألححت على ربك - أى بالغت فى سؤاله - فخرج صلى الله عليه وسلم وعليه الدرع ، وهو يقول ﴿ سيهزم الجمع ويولون الدبر بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر ﴾ ^(١) ثم أخذ ﷺ يعدل صفوفهم ، وأمرهم أن لا يحملوا حتى يأمرهم ، ثم رجع إلى العريش ومعه أبو بكر رضى الله عنه ، فحقق حفقة ، وهو بالعريش ، ثم انتبه فقال : « أبشر يا أبا بكر ، أتاك نصر الله ، هذا جبريل أخذ بعنان فرسه يقوده على ثناياه النقع » ثم خرج إلى صف أصحابه ، فلما تراحف الناس أخذ حفنة من الحصباء ، ورمى بها فى وجه المشركين ، وقال لأصحابه : شدوا باسم الله » وكانت الهزيمة فيهم بإذن الله ، ونصر الله عبده ، وأعز جنده .

وأُنزل الله فى قسمة غنائم بدر سورة الأنفال ، وفيها أيضا ليعلموا أنه الناصر لهم ﴿ فلم تقتلوهم . ولكن الله قتلهم ﴾ ﴿ وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾ .
فهذه بدر إذن .

دعاء وتضرع ، حتى ليمسقط الرداء .

وتأتى الاستجابة الفورية ... جند الله تعالى من الملائكة على رأسهم جبريل عليه السلام ، وميكائيل فى ألف من الملائكة مردفين ، وحفنة من الحصباء ، يرمى بها وجوه المشركين .

بينما المؤمنون من طرف آخر قد غشاهم النعاس أمانة منه ؛ ليقع قدر الله استجابة لدعاء نبيه .

وكدعوات موسى ، وشعيب ولوط وإبراهيم ويونس - كانت دعوة إمام الأنبياء فى بدر وكعصا موسى التى انفلت منها البحر ، والتى التقفت جبال وعصى السحرة - كانت كف الحصباء التى ألقيت فى وجوه القوم :

﴿ وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾ .

وكما يقول أبو سفيان بن الحارث ، جوابا لسؤال أبى لهب عن أخبار معركة بدر :
(والله ما هو إلا أن لقينا القوم فمئناهم أكتافنا ، يقتلوننا كيف شاؤوا ، ويأسروننا كيف

نساؤوا ، وإيم الله مع ذلك مالت الناس ؛ لقينا رجلاً بيضاً على خيل بلق بين السماء والأرض ، والله ماتليق شيئاً ،^(١) ولا يقوم لها شيء .^(٢)

إنها بدر خصوصية من خصوصيات الرسول ﷺ ، ولكن شاءت إرادة الله تعالى أن تتم المعجزة ، ظاهراً بجهد بشرى ، وقاتل ، ودماء ، وهم فى الحقيقة ستار لقدر الله فقد استشهد من المسلمين اثنا عشر رجلاً .

وكيف يسقط مقابل ذلك سبعون من المشركين فى القتل وسبعون فى الأسر؟

﴿ إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا سألنى فى قلوب الذين كفروا الرعب ، فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان . ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ، ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب ﴾^(٣) .

وشاء قدر الله أن يسقط أكابر المجرمين ضرعى بين يدى نبي الله .

(كان أول من قدم مكة بمصاب قریش الحيسمان بن عبد الله الخزاعى ، فقالوا ماوراء؟ قال : قتل عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وأبو الحكم بن هشام ، وأمىة بن خلف ، وزمعة بن الأسود ، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج ، وأبو البختري بن هشام ، فلما جعل يعدد أشراف قریش قال صفوان بن أمية وهو قاعد فى الحجر : والله إن يعقل هذا ، فاسألوه عنى فقالوا : وما فعل صفوان بن أمية ؟ قال : هاهو ذاك جالساً فى الحجر ، وقد والله رأيت أباه وأخاه حين قتل) .

لقد اعتبر صفوان أن الخبل والجنون قد نزل بالحيسمان ، وهو يعدد أشراف مكة الذين صرعوا فى بدر ، وكانت اللطمه له يوم تأكد من سلامة عقله ، وأنه أمام الحيسمان ، وأن أباه وأخاه من بين الصرعى فى بدر .

وهكذا عرضت سورة الأنفال غزوة بدر بصفقتها معجزة من معجزات النبي ﷺ ، وكان الخطاب فيها من رب السموات والأرض لمحمد بن عبد الله ورسوله ، فى مناجاة حية استغرقت خمسا وسبعين آية ، وست وثلاثين خطاباً حيا لمحمد رسول الله عليه الصلاة والسلام .

وما كنا لنذكر هذه الصورة ، لولا العرض القرآنى للغزوة .

(١) . تليق شيئاً : تبقئ شيئاً . (٢) السيرة لابن هشام / م ٢ / ٢٩٠ . (٣) الأنفال / ١٢ ، ١٣ .

وكان يمكن أن تضيق هذه الصورة في ثنايا الأحداث المتشعبة في بدر ، كما تناولتها كتب السيرة . ومن هنا نجد لزوماً علينا أن نجعل الانطلاق إلى السيرة أولاً وقبل كل شيء من العرض الرباني لها ، فهو القصد الأول الذي يعيننا ، وهو الذي خلده رب السموات والأرض في كتابه الخالد ، وهو الذي يريد منا ربنا عز وجل أن نأثري به .

وكما يقول صاحب الظلال رحمه الله :

(إنها المعركة كلها تدار بأمر الله ومشيئته ، وتدبيره وقدره وتسير بجند الله وتوجيههم وهي شاخصة بحر كاتها وخطراتها من خلال العبارة القرآنية المصورة المتحركة المحيية للمشهد الذي كان ، كأنه يكون الآن !) (١)

(لقد أراد الله - وله الفضل والمنة - أن تكون ملحمة لاغنية ، وأن تكون موقعة بين الحق والباطل ليحقق الحق ويثبت ، ويبطل الباطل ويزهقه ، وأراد أن يقطع دابر الكافرين ، فيقتل منهم من يقتل ، ويؤسر منهم من يؤسر ، وتذل كبرياؤهم ، وتخضد شوكتهم . وتعلوا راية الإسلام وتعلوا معها كلمة الله ، ويمكن الله للعصبة المؤمنة التي تعيش بمنهج الله ، وتنطلق به لتقرر ألوهية الله في الأرض ، وتحطمهم طاغوت الطواغيت ، وأراد أن يكون هذا التمكين عن استحقاق لآخر جزاف - تعالى الله عن الجزاف - وبالجهاد والجهاد ، وبتكاليف الجهاد ، ومعاناتها في عالم الواقع وفي ميدان القتال) . (٢)

وإن كنا نرى أن هذا الجانب من الجهد البشري لم يكن مكافئاً لمواجهة العدو ، وكان بإمكان النبي ﷺ أن يجند لمواجهة الطاغوت أكثر بكثير من أهل بدر ، ولكن الإرادة الربانية التي استجابت لتضرع النبي ﷺ ، ودعائه - أعطت هذه المعجزة وهذه الهبة بأقل جهد بشري ممكن ، وأقل تكاليف ممكنة . وكما قال سعد بن معاذ رضي الله عنه :

(يا بني الله ألا نبني لك عريشاً تكون فيه ونعد عندك ركائبك ، ثم نلقى عدونا ، فإن أعزنا الله ونصرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا ، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحققت بمن ورائنا من قومنا ، فقد تخلف عنك أقوام يا بني الله مانحن بأشد لك حياً منهم ، ولو ظنوا أنك تلقى حرباً ماتخلفوا عنك ، يمنعك الله بهم ، يناصحونك ، ويجاهدون معك) . (٣)

والله تعالى جل شأنه لا يريد أن ينتهي المسلمون جميعاً حتى تقوم دولتهم . فيعطيه

(٢) المصدر نفسه / ٣ / ١٤٨١ .

(١) في ظلال القرآن / ٣ / ١٤٨٣ .

(٣) السيرة لابن هشام ج ٢ / ٢٦٠ .

عطاءه ويمنحهم منحتهم حين يصدقون جهدهم وتوكلهم عليه بأقل التكاليف ، وأقل الجهد .
 فالثلاثمائة والثلاثة عشر الذين خرجوا - هم عدة القافلة ، وليسوا عدة المعركة ، هم عدة
 العير ، وليسوا عدة النفير ، ومع ذلك ، وقد حضر من حضر ، وجاءت قریش بهذا الحشد
 الضخم ، وعلى رأسها أكابر مجرميها . وأحب عبد الله ورسوله أن يكون الحسم كله
 ضد هؤلاء العتاة ، فنزلت الملائكة من السماء استجابة لأمر الله ، وسدت ثغرات النقص
 البشري كله ، وشاءت إرادة الله تعالى أن تكون بدر هي الفرقان بين الحق
 والباطل ؛ تلبيةً لنبیهم محمد ﷺ .

ونقف أمام نقطة أخيرة في بدر . وهي موطن الأسوة والقُدوة . حتى لا يترأى
 للمسلمين أن هذه المعجزة في بدر لن تتكرر كرامة للمؤمنين على مدار التاريخ . هذه
 النقطة هي أن المستغيث والمتضرع والداعي لربه سبحانه محمد ﷺ ، ومع ذلك لم يأت
 النص القرآني في هذا المجال . بصيغة الخطاب للمفرد ، إنما جاء : ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ .
 فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفَلَاحِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدَفِينَ ﴾ . هكذا استغاثة ... فاستجابة .
 لقد كانت حية أمام أعين المؤمنين في اللحظة الحاسمة ، وجاءت عظمة الدرس القرآني
 لتقول للمؤمنين . كاستغاثة محمد ﷺ واستجابة ربه سبحانه له . يمكن أن تتكرر الصورة
 وعلى مدار التاريخ .

﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ . فَاسْتَجَابَ لَكُمْ ﴾ .

ويمكن أن تتكرر الصورة كما رأيتوها شاخصة أمام أعينكم ، وليست خاصة
 بنبیكم وحده ، إنما هي لكم أيها المؤمنون على مدار التاريخ ، تستغيثون فيستجاب لكم .
 وإذا كان القلب البشري لمحمد ﷺ يمثل أعظم عبودية في الوجود ، فكانت إجابة الدعاء
 على أرفع مستوى عرفه التاريخ البشري أن يقاتل ألف من الملائكة معه - فكل قلب
 بشري صادق مخلص ، وكل قائد متجرد متذلل ماضٍ في طريق العبودية لله ينال على هذا
 الأفق نفسه ، هذه الكرامة ، بمقدار ما يقترب من عظمة العبودية النبوية . وإذن ، فالقائد
 الفذ . الذي يقود الحركة الإسلامية . التي تريد أن تغير هذا التاريخ - لا بد أن يكون من
 جهة على المستوى الأرفع كفاءة وقدرة ، على أعتاب النبي ﷺ ، وأن يكون من جهة
 ثانية على المستوى الأرفع طاعة وعبودية ، وتذللًا لله سبحانه في حسن الالتجاء إلى الله
 سبحانه ، على أعتاب النبي ﷺ ولا بد أن يكون الجنود المسلمون كذلك في كل جيل على
 صورة القدوة من جيل النبوة . وكلما اقتربوا أكثر كانت النتائج المتقاربة أكثر .

وإنها لمنة ربانية أن قال الله تعالى للمؤمنين على مدار التاريخ : ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ

فاستجاب لكم ﴿ ولم يقل (إذ تستغيث ربك فاستجاب لك) حتى لا يتبادر إلى الذهن أنها تجربة لن تتكرر على مدار التاريخ نعم لن تتكرر بهذا المستوى ، ولكن قد تتكرر من هذا النوع ، وقد رأيناها كثيراً فى جيل النبوة وجيل الصحابة والتابعين فيما بعد .

وإنها لمنة ربانية . أن قال الله تعالى لنبية : ﴿ وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾ كما قال جل شأنه : ﴿ فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم ﴾ وكانت للمؤمنين فى السياق القرآنى قبل أن تكون لرسول الله عليه الصلاة والسلام .

وأما عظمة هذه المعجزة فيبقى سيد رحمه الله هو الأقدر على وصفها إذ يقول : (نعم أراد الله للعصبة المسلمة أن تصبح أمة ، وأن تصبح دولة ، وأن يصبح لها قوة وسلطان ، وأراد لها أن تقيس قوتها الحقيقية إلى قوة أعدائها ، فترجح ببعض قوتها على قوة أعدائها ، وأن تعلم أن النصر ليس بالعدد وليس بالعدة ، وليس بالمال والخيل والزراد ... إنما هو بمقدار اتصال القلوب بقوة الله التى لاتقف لها قوة العباد ، وأن يكون هذا كله عن تجربة واقعية ، لاعن مجرد تصور واعتقاد قلبى ، ذلك لتزود العصبة المسلمة من هذه التجربة الواقعية لمستقبلها كله ، ولتوقن كل عصبة مسلمة أنها تملك فى كل زمان وفى كل مكان أن تغلب خصومها وأعداءها مهما تكن هى من القلة ويكون عدوها من الكثرة ومهما تكن هى من ضعف العدة المادية ، ويكون عدوها من الاستعداد والعتاد .. وما كانت هذه الحقيقة لتستقر فى القلوب كما استقرت بالمعركة الفاصلة بين قوة الإيمان وقوة الطغيان .

وينظر الناظر اليوم ، وبعد اليوم ، ليرى الآماد المتطاولة بين ماأرادته العصبة المسلمة لنفسها يومذاك وماأراده الله لها ، بين ماحسبته خيراً لها ، وما قدره الله لها من الخير .. ينظر فيرى الآماد المتطاولة ، ويعلم كم يخطيء الناس حين يحسبون أنهم قادرون على أن يختاروا لأنفسهم خيراً مما يختاره الله لهم ، وحين يتضررون مما يريد الله لهم ، مما قد يعرضهم لبعض الخطر ، أو يصيبهم بشيء من الأذى - بينما يكن وراءه الخير الذى لا يخطر لهم ببال ولا بخیال .

فأين ما أرادته العصبة المسلمة لنفسها مما أراد الله لها ؟ لقد كانت تمضى - لو كانت لهم غير ذات الشوكة - قصة غنيمة ، قصة قوم أغاروا على قافلة فغنموها ! فأما بدر فقد مضت فى التاريخ كله قصة عقيدة ، قصة نصر حاسم ، وفرقان بين الحق والباطل ، قصة انتصار الحق على أعدائه المدججين بالسلاح المزودين بكل زاد ، والحق فى قلة من العدد ، وضعف فى الزاد والراحلة ، قصة انتصار القلوب حين تتصل بالله ، وحين تتخلص من

ضعفها الذاتى ، بل قصة انتصار حفنة من القلوب من بينها الكارهون للقتال ! ولكنها بيقينها الثابتة المستعلية على الواقع المادى وبيقينها فى حقيقة القوى وصحة موازينها ، قد انتصرت على نفسها ، وانتصرت على من فيها ، وخاضت المعركة والكفة راجحة رجحاناً ظاهراً فى جانب الباطل فقلبت بيقينها ميزانها الظاهر فإذا الحق راجح غالب .^(١)

﴿ فوق الحق وبطل ما كانوا يعملون ، فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين ﴾^(٢).

(٢) الأعراف / ١١٨ ، ١١٩ .

(١) فى ظلال القرآن / م ٣ / ١٤٨١ ، ١٤٨٢ .

غزوة بنى قينقاع

انتهت بدر . وكانت عزاً للمسلمين وذلاً للمشركين ، وبدأت ردود الفعل العتيقة تظهر على الساحة العربية .

يقول الإمام ابن يوسف الصالحى الشامى :

(وقد كان الكفار بعد الهجرة مع النبى ﷺ على ثلاثة أقسام : قسم وادعهم على ألا يحاربوه ولا يوالوا عليه عدوه ، وهم طوائف اليهود الثلاثة : قريظة والنضير وبنى قينقاع ، وقسم حاربوه ونصبوا له العداوة : وهم قريش ، وقسم تاركوه وانتظروا ما يؤول إليه أمره كطوائف من العرب ، فمنهم من كان يحب ظهوره فى الباطن كخزاعة ، وبالعكس كبنى بكر ، ومنهم من كان معه ظاهراً ومع عدوه باطناً وهم المنافقون) .^(١)

بين أيدينا ثلاثة نصوص قرآنية ذات صلة وثيقة بغزوة بنى قينقاع :

النص الأول :

قوله تعالى : ﴿ .. وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين ﴾^(٢)

يقول ابن جرير :

(يقول تعالى ذكره : وإما تخافن يا محمد من عدو لك بينك وبينه عهد وعقد أن ينكث عهده وينقض عقده ، ويغدر بك ، وذلك هو الخيانة والغدر ﴿ فانبذ إليهم على سواء ﴾ يقول : فناجزهم بالحرب ، وأعلمهم قبل حربك إياهم - أنك قد فسخت العهد بينك وبينهم ، بما كان عن ظهور آثار الغدر والخيانة منهم حتى تصير أنت وهم على سواء فى العلم بأنك لهم محارب ، فيأخذوا للحرب آلتها ، وتبرأ من الغدر ﴿ إن الله لا يحب الخائنين ﴾ : الغادرين بمن كان منه أمان وعهد بينه وبينه ، أن يغدر به ، فيحاربه قبل إعلامه إياه : أنه له حرب ، وأنه قد فاسخه العقد .

(٢) الأنفال / ٥٨ .

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى / ٤ / ١٣ .

فإن قال قائل : وكيف يجوز نقض العهد بخوف الخيانة ، والخوف ظن لا يقين ؟ قيل : إن الأمر بخلاف ما إليه ذهب ، وإنما معناه : إذا ظهرت آثار الخيانة من عدوك ، وخفت وقوعهم بك ، فالتق إليهم مقاليد السلم ، وأذنهم بالحرب ، وذلك كالذى كان من بنى قريظة ... (١).

وهكذا نلاحظ أن الإمام الطبرى لم يذكر بنى قينقاع مثلاً على ذلك وإنما ذكر بنى قريظة .

يقول القرطبى : (قوله تعالى : ﴿ وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين ﴾) فيه ثلاث مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ وإما تخافن من قوم خيانة ﴾ أى غشاً ونقضاً للعهد . ﴿ فانبذ إليهم على سواء ﴾ وهذه الآية نزلت فى بنى قريظة وبنى النضير ، وحكاها الطبرى عن مجاهد . وقال ابن عطية : والذى يظهر من ألفاظ القرآن أن أمر بنى قريظة : انقضى عند قوله : ﴿ فشرد بهم من خلفهم ﴾ ثم ابتداء تبارك وتعالى فى هذه الآية يأمره فيما يصنعه فى المستقبل مع من يخاف منه خيانة ، فتترتب فيهم هذه الآية (وبنى قريظة لم يكونوا فى حد من تخاف خيانتهم) وإنما كانت خيانتهم ظاهرة مشهورة .

الثانية : قال ابن العربى : فإن قيل كيف يجوز نقض العهد مع خوف الخيانة ، والخوف ظن لا يقين معه ؟ فكيف يسقط يقين العهد مع ظن الخيانة ؟ فالجواب من وجهين : أحدهما - أن الخوف قد يأتى بمعنى اليقين ، كما قد يأتى الرجاء بمعنى العلم ، قال الله تعالى : ﴿ مالكم لا ترجون لله وقارا ﴾ .

ثانيهما : إذا ظهرت آثار الخيانة وثبتت دلائلها ، وجب نبذ العهد لئلا يقع التماذى عليه فى الهلكة ، وجاز إسقاط اليقين هنا ضرورة ، وأما إذا علم اليقين فيستغنى عن نبذ العهد إليهم ، وقد سار النبى ﷺ إلى مكة عام الفتح : لما اشتهر منهم نقض العهد من غير أنه ينبذ إليهم عهدهم ، والنبذ : الرمى والرفض ، وقال الأزهري : معناه إذا عاهدت قوما فعلمت منهم النقض بالعهد فلا توقع بهم سابقاً إلى النقض حتى تلقى إليهم أنك قد نقضت العهد والموادعة ، فيكونوا فى علم النقض مستويين ، ثم أوقع بهم . قال النحاس : هذا من معجز ما جاء فى القرآن مما يوجد فى الكلام مثله على اختصاره وكثرة معانيه ، والمعنى :

(١) تفسير الطبرى / ١٠ / ١٩ ، ٢٠ .

وإما تخافن من قوم بينك وبينهم عهد خيانة فانبذ إليهم العهد ، أى قل لهم قد نبذت إليكم عهدكم ، وأنا مقاتلكم ؛ ليعلموا ذلك ، فيكونوا معك فى العلم سواء ، ولاتقاتلهم وبينك وبينهم عهد وهم يثقون بك ؛ فيكون ذلك خيانة وغدرأ . ثم بين هذا بقوله : ﴿ إن الله لا يحب الخائنين ﴾ ^(١) .

وهكذا نرى أن القرطبى ، وإن وافق ابن جرير فى تفسير الآية . لكنه لم يوافقه فى مدلولها على بنى قريظة والنضير ، كما روى عن ابن عطية ، وذلك لأن نقض قريظة للعهد كان واضحاً ييناً لا لبس فيه ، وقد أعلنوه مالمؤوا كفار قريش ، وقالوا : من محمد ؟ لا عهد بيننا وبينه .

لكننا لانرى صحة قول القرطبى عن ابن جرير : فى أنه نقل هذا الرأى عن مجاهد . فلم يقل الطبرى فيما رواه عن مجاهد ، وهذه الآية نزلت فى بنى قريظة وبنى النضير .

فإذا عدنا إلى الطبرى نراه يقول :

(ذكر من قال ذلك : حدثنى محمد بن عمرو ، قال : حدثنا أبو عاصم : قال : حدثنا عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد . ﴿ فانبذ إليهم على سواء ﴾ قال قريظة) . ^(٢)

والطبرى يمثل للحالة التى هى نبذ للعهد ببنى قريظة وبنى النضير ، ولم يقل أنها نزلت فيهم . واستأنس برأى مجاهد فى أن المقصود قريظة .

وبقى الأمر عائماً فى التفسيرين . إذ اتفقا على المعنى ، واختلفا على الحالة التى تمثل هذا المعنى .

وفى العودة إلى الدر المنثور للسيوطى نجده يحرر الأمر أكثر ، فينقل عن مجاهد أن وصف بنى قريظة إنما كان فى الآية التى سبقت هذه الآية حيث يقول :

(وأخرج ابن أبى شيبه وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عم مجاهد رضى الله عنه فى قوله : ﴿ الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم ﴾ قال : قريظة يوم الخندق مالمؤوا على محمد ﷺ أعداءه) . ^(٣)

(١) تفسير القرطبى ٤ / ٨ / ٣١ . (٢) تفسير الطبرى ١٠ / ٢١ . (٣) الدر المنثور ٤ / ٤ / ٨١ .

ولا شك أن الالتباس قد وقع فى هذه المعانى بين من يرى أن مدلول هذه الآيات متصل بعضها أو منفصل .

فالذين يرون اتصاله . يرون أن المعنى والحالة واحدة فى قوله عز وجل : ﴿ إِنْ شَرِ الدُّوَابُّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ، الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ . فَمَا تَعْلِفُهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرَّدَ بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ . إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴾ . (١)

والإمام الطبرى على هذا رأى فى أن الآيات تعالج موضوعاً واحداً وحالة واحدة ، بينما يفصل القرطبي بين حالتين :

الحالة الأولى : تمثلها الآيات حتى قوله تعالى : ﴿ فَشَرَّدَ بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ ﴾ .

الحالة الثانية : ويمثلها قول الله عز وجل : ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً ... ﴾ .

ودليل ذلك ماسبق أن نقلناه عن القرطبي فيما ساقه عن ابن عطية :

(والذى يظهر من ألفاظ القرآن أن أمر بنى قريظة قد انقضى عند قوله : ﴿ فَشَرَّدَ بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ ... ﴾ ثم ابتدأ تبارك وتعالى فى هذه الآية يأمره فيما يصنعه فى المستقبل مع من يخاف منهم خيانة ، فترتب فيهم هذه الآية . وبنو قريظة لم يكونوا فى حد من تخاف خيانتهم ، وإنما كانت خيانتهم ظاهرة مشهورة) .

غير أن السيوطى ينقل نصاً صريحاً فى تفسيره ، فى أن هذه الآية الثانية ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ ... ﴾ إنما نزلت فى بنى قريظة ، إذ يقول :

وأخرج أبو الشيخ عن ابن شهاب رضى الله عنه قال : « دخل جبريل عليه السلام على رسول الله ﷺ فقال : قد وضعت السلاح ومازلنا فى طلب القوم ؟ فأخرج فإن الله قد أذن لك فى قريظة ، وأنزل فيهم ﴾ وإما تخافن من قوم خيانة ... ﴾ (الآية) (٢) .

ورواية أبى الشيخ عن ابن شهاب تفتقر إلى السند للحكم عليها . وهذا كل ما أوردته كتب التفسير فى هذا الموضوع . أما كتب السيرة ، فقد أوردت نزول هذه الآية فى بنى قينقاع .

ومدار الحادثة في كتب السيرة على المغازى للواقدي . إذ أن كل من أوردها إنما نقلها بنصها من الواقدي دون أن يعزوها إليه ، كما وردت في إمتاع الأسماع للمقرئزي ، وفي سبيل الهدى والرشاد للصالحي الشامي .

ومع أن الواقدي غير ثقة في الحديث . لكنه مجمع على إمامته في التاريخ والسير . وقد أورد هذه الحادثة كما يلي :

(فحدثني محمد عن الزهري عن عروة ^(١) قال : إن رسول الله ﷺ لما رجع من بدر حسدوا فأظهروا الغش ، فنزل جبريل عليه السلام بهذه الآية : ﴿ وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين ﴾ قال . فلما فرغ جبريل ، قال له رسول الله ﷺ : « فأنا أخافهم » فسار رسول الله ﷺ بهذه الآية حتى نزلوا على حكمه ، ولرسول الله ﷺ أموالهم ولهم الذرية والنساء) . ^(٢)

وحين نعود إلى تفاصيل الغزوة التي اتفق ابن إسحاق والواقدي عليها نجد أن الأقرب إلى نص الآية كما أورد ذلك الطبري هو أن تكون قد نزلت في بني قينقاع .

أما ما ذكره ابن إسحاق فهو :

(وقد كان فيما بين ذلك من غزو الرسول ﷺ أمر بني قينقاع . وكان من حديث بني قينقاع أن رسول الله ﷺ . جمعهم يسوق بني قينقاع ، ثم قال : « يامعشر يهود ، احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النعمة ، وأسلموا فإنكم قد عرفتم أني نبي مرسل ، تجدون ذلك في كتبكم وعهد الله إليكم » . قالوا : يامحمد إنك ترى أنا قومك : لا يغرنك أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب ، فأصبت منهم فرصة ، إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس) . ^(٣)

بينما نجد تفصيلاً دقيقاً ، وأحداثاً متتابعة عند الواقدي تجلو الصورة أكثر فأكثر .

(وغزوة قينقاع يوم السبت للنصف من شوال على رأس عشرين شهراً حاصروهم النبي ﷺ إلى هلال ذي القعدة .

حدثني عبد الله بن جعفر عن الحارث بن الفضيل عن ابن كعب القرظي ^(١) قال :

(١) محمد بن عبد الله بن مسلم . ابن أبي الزهري صدوق له أوهام . الزهري : المقيي الحافظ . عروة : ثقة فقيه مشهور .

(٢) المغازي للواقدي / ١ / ١٨٠ .

(٣) نسخة نسوية لاس هشام .

لما قدم رسول الله ﷺ المدينة ، وادعته يهود كلها ، وكتب بينه وبينها كتاباً ، وألحق رسول الله ﷺ كل قوم بحلفائهم ، وجعل بينه وبينهم أماناً ، وشرط عليهم شروطاً ، فكان فيما شرط - ألا يظاهروا عليه عدواً . فلما أصاب رسول الله ﷺ أصحاب بدر ، وقدم المدينة . بغت يهود ، وقطعت ما كان بينها وبين رسول الله ﷺ من العهد . فأرسل رسول الله ﷺ إليهم فجمعهم ثم قال :

« يامعشر يهود أسلموا فوالله إنكم لاتعلمون أنى رسول الله قبل أن يوقع الله بكم مثل وقعة قريش » .

فقالوا : يامحمد لا يغرّنك من لقيت ، إنك قهرت قوماً أغماراً^(٢) ، وإنا والله أصحاب الحرب ، ولئن قاتلنا لتعلمن أنك لم تقا تل مثلنا . فبينما هم على ما هم عليه من إظهار العداوة ونبد العهد جاءت امرأة نزيعة^(٣) من العرب تحت رجل من الأنصار إلى سوق بنى قينقاع ، فجلست عند صائغ فى حلى لها ، فجاء رجل من يهود بنى قينقاع من ورائها ولاتشعر فخل^(٤) درعها إلى ظهرها بشوكة ، فلما قامت المرأة بدت عورتها ، فضحكوا منها . فقام إليه رجل من المسلمين فاتبعه فقتله ، فاجتمعت بنو قينقاع وتحاشوا^(٥) فقتلوا الرجل ، ونبدوا العهد إلى النبي ﷺ وحاربوا وتحصنوا فى حصنهم ، فسار إليهم رسول الله ﷺ . فكانوا أول من سار إليه رسول الله ﷺ ، وأجلى يهود قينقاع ، وكانوا أول يهود حاربت^(٦) .

واختيار بنى قينقاع خاصة لتذكيرهم بالله والإسلام مرتبط ارتباطاً وثيقاً بإسلام زعيمهم عبد الله بن سلام رضى الله عنه . كما أورده ابن إسحاق :

قال : (وكان من حديث عبد الله بن سلام كما حدثنى بعض أهله عنه وعن إسلامه حين أسلم وكان حبراً عالماً قال :

لما سمعت برسول الله ﷺ عرفت صفته واسمه وزمانه الذى كنا نتوكف^(٧) له ، فكنت مسرّاً لذلك ، صامتاً عليه ، حتى قدم رسول الله ﷺ المدينة ، فلما نزل بقاء فى

(١) عبد الله بن جعفر بن عبد الرحمن بن المسور بن مخزومة (ليس به بأس) ، الحارث بن فضيل (ثقة) محمد بن كعب القرظى (ثقة عالم) .

(٢) الأغمار ج غمر وهو الجاهل . (٣) النزيعة : المرأة التى تزوج فى غير قومها فتنتقل .

(٤) وخل : جمع بين طرفى الشيء . (٥) تحاشوا : حاووه من حواله .

(٦) المعازى للواقدي / ١ / ١٧٦ - ١٧٨ . (٧) نتوكف : نترقب ونتوقع .

عمرو بن عوف أقبل رجل حتى أخبر بقدمه ، وأنا فى رأس نخلة لى أعمل فيها ، وعمتى خالدة بنت الحارث تحتى جالسة ، فلما سمعت الخبر يقدم رسول الله ﷺ كبرت : فقالت لى عمتى حين سمعت تكبيرى : خيىك الله ، والله لو كنت سمعت بموسى بن عمران قادماً مازدت . قال : فقلت لها : أى عمة ، هو والله أخو موسى بن عمران ، وعلى دينه ، بعث بما بُعث به . قال . فقالت : يابن أخى ، أهو النبى الذى كنا نخبر أنه يبعث مع نفس الساعة ^(١) قال . قلت لها : نعم . قالت : فذاك إذاً . قال : ثم خرجت إلى رسول الله ﷺ فأسلمت ثم رجعت إلى أهل بيتى فأسلموا .

قال : وكنتم إسلامى عن يهود ، ثم جئت رسول الله ﷺ فقلت : يا رسول الله إن يهود قوم بهت ^(٢) . وإنى أحب أن تدخلنى فى بعض بيوتك ، وتغيبنى عنهم ، ثم تسألهم عنى ، حتى يخبروك كيف أنا فيهم ، قبل أن يعلموا بإسلامى ، فإنهم إن علموا به بهتونى وعابونى . قال : فأدخلنى رسول الله ﷺ فى بعض بيوته ، ودخلوا عليه ، فكلموه وسألوه ، ثم قال لهم : أى رجل الحصين بن سلام فيكم ؟ قالوا : سيدنا وابن سيدنا وحبرنا وعالمنا .

قال : فلما فرغوا من قولهم خرجت إليهم ، فقلت لهم : يا معشر يهود اتقوا الله ، واقلوا ماجاءكم به . فوالله إنكم لتعلمون إنه لرسول الله ، تجدونه مكتوباً عندكم فى التوراة باسمه وصفته ، فإنى أشهد أنه رسول الله ﷺ وأؤمن به ، وأصدق به ، وأعرفه ، فقالوا : كذبت ، ثم وقعوا بى . قال : فقلت لرسول الله ﷺ : ألم أخبرك يا رسول الله أنهم قوم بهت ، أهل غدر وكذب وفجور ! قال : فأظهرت إسلامى وإسلام أهل بيتى ، وأسلمت عمتى خالدة بنت الحارث . فحسن إسلامها ^(٣) .

فقد كان يهود بنو قينقاع مؤهلين أكثر من غيرهم للدخول فى هذا الدين بعد أن دخل فيه سيدهم عبد الله بن سلام ، غير أنهم نبذوا العهد وهددوا وتوعدوا ، فحق نبذ العهد إليهم على سواء .

(٢) البهت : الباطل .

(١) نفس الساعة : الفتن المؤذنة بقيام الساعة .

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ٢٠ / ١١٨ .

النص الثاني :

يقول تعالى ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ . قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ . يُرَوِّنَهُمْ مِّثْلِهِمْ رَأَى الْعَيْنَ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَن يَشَاءُ إِن فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ . (١)

وإذا كانت الآيتان السابقتان محل خلاف في كونهما في بنى قريظة أو بنى قينقاع . فإن هاتين الآيتين ليستا محل خلاف عند المفسرين .

يقول ابن جرير رحمه الله :

(حدثنا يونس بن بكير عن محمد بن إسحاق قال حدثني محمد بن أبي محمد مولى زيد عن سعيد بن جبيرة أو عكرمة عن ابن عباس قال : (لما أصاب رسول الله قريشاً يوم بدر ، فقدم المدينة ، جمع يهود في سوق بنى قينقاع فقال : يامعشر يهود أسلموا قبل أن يصيبكم مثل ما أصاب قريشاً ، فقالوا يامحمد لاتغرنك نفسك أنك قتلت نفرأ من قريش كانوا أعماراً لا يعرفون القتال ... إنك والله لو قاتلتنا لعرفت أننا نحن الناس ، وأنك لم تأت مثلنا ، فأنزل الله عز وجل في ذلك من قولهم . ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ إِلَىٰ قَوْلِهِ ﴾ (لأولي الأبصار) ﴾ . (٢)

(وقال : حدثنا ابن حميد قال حدثنا سلمة عن محمد بن إسحاق بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت عن سعيد بن جبيرة أو عكرمة عن ابن عباس قال : ما نزلت هذه الآيات إلا فيهم ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ إِلَى ... ﴾ (لأولي الأبصار) ﴾ . (٣)

أما ابن كثير . فيوجز ما ورد من أقوال في تفسيرها تبين الآيتين . فيقول :

وقال بعض العلماء فيما حكاه ابن جرير : يرى المشركون يوم بدر المسلمين مثلهم في العدد رأى أعينهم ، أى جعل الله ذلك فيما رأوه سبباً لنصرة الإسلام عليهم ، وهذا لا إشكال عليه إلا من جهة واحدة . وهى أن المشركين بعثوا عمير بن سعد يومئذ قبل القتال يحرز لهم المسلمين ، فأخبرهم بأنهم ثلثمائة يزيدون قليلاً أو ينقصون قليلاً وهكذا كان الأمر . كانوا ثلثمائة وبضعة عشر رجلاً ، ثم لما وقع القتال أمدهم الله بألف من خواص

(١) آل عمران / ١٢ ، ١٣ .

(٢) تفسير الطبرى / م ٣ / ج ٣ / ١٢٨ .

(٣) المصدر نفسه / ١٢٩ .

والقول الثانى : أن المعنى فى قوله تعالى ﴿ يرونهم مثليهم رأى العين ﴾ أى يرى الفئة المسلمة الفئة الكافرة مثليهم ، أى ضعفهم فى العدد ومع هذا نصرهم الله عليهم ، وهذا لإشكال فيه على مارواه العوفى عن ابن عباس أن المؤمنين كانوا يوم بدر ثلثمائة وثلاثة عشر رجلاً ، والمشركين كانوا ستمائة وستة وعشرين رجلاً ، وكأن هذا القول مأخوذ من ظاهر هذه الآية ، ولكنه خلاف المشهور عند أهل التواريخ والسير وأيام الناس ، وخلاف المعروف عند الجمهور أن المشركين كانوا مابين تسعمائة إلى ألف كما رواه محمد بن إسحاق عن يزيد بن رومان ، عن عروة بن الزبير أن رسول الله ﷺ . لما سأل ذلك العبد الأسود لبنى الحجاج عن عدة قريش - قال : كثير . قال : « كم ينحرون كل يوم ؟ » قال : يوماً تسعاً ويوماً عشراً ، قال النبى ﷺ « القوم مابين تسعمائة إلى ألف » . وروى أبو إسحاق السبيعى ، عن جارية ، عن على رضى الله عنه قال : كانوا ألفاً ، وكذا قال ابن مسعود . والمشهور أنهم كانوا بين التسعمائة إلى الألف ، وعلى كل تقدير فقد كانوا ثلاثة أمثال المسلمين ، وعلى هذا فيشكل هذا القول والله أعلم ؛ لكن وجه ابن جرير هذا وجعله صحيحاً كما تقول : عندى ألف ، وأنا محتاج إلى مثليها ، وتكون محتاجاً إلى ثلاثة آلاف ، كذا قال ؛ وعلى هذا فلا إشكال .

لكن بقى سؤال آخر وهو وارد على القولين ، وهو أن يقال : ماوجه الجمع بين هذه الآية وبين قوله تعالى فى قصة بدر ﴿ وإذ يريكموهم إذ التقيتم فى أعينكم قليلاً ويقللكم فى أعينهم ليقضى الله أمراً كان مفعولاً ﴾ . فالجواب أن هذا كان فى حالة . والآخر كان فى حالة أخرى ، كما قال السدى عن الطيب عن ابن مسعود فى قوله تعالى ﴿ قد كان لكم آية فى فتنتين التقتا ﴾ الآية ؛ قال : هذا يوم بدر . قال عبد الله بن مسعود : وقد نظرنا إلى المشركين فرأيناهم يضعفون علينا ، ثم نظرنا إليهم فمارأيناهم يزيدون علينا رجلاً واحداً ، وذلك قوله تعالى ﴿ وإذ يريكموهم إذ التقيتم فى أعينكم قليلاً ويقللكم فى أعينهم ﴾ ، وقال أبو إسحاق عن أبى عبيدة ، عن عبد الله بن مسعود ، قال : لقد قللوا فى أعيننا حتى قلت لرجل إلى جانبى : تراهم سبعين : قال : أراهم مائة . قال : فأسرنا رجلاً منهم ، فقلنا : كم كنتم ؟ قال : ألفاً . فعندما عاين كل من الفريقين الآخر رأى المسلمون المشركين مثليهم ، أى أكثر منهم بالضعف ليتوكلوا ويتوجهوا ويطلبوا الإعانة من ربهم عز وجل ، ورأى المشركون المسلمين كذلك ليحصل لهم الرعب والخوف والجزع والهلع ؛ ثم لما حصل التصاف ، والتقى الفريقان قلل الله هؤلاء فى أعين هؤلاء ، وهؤلاء فى أعين هؤلاء ؛ ليقدم كل منهما على الآخر ﴿ ليقضى الله أمراً كان مفعولاً ﴾ أى ليفرق بين الحق

والباطل ، فيظهر كلمة الإيمان على الكفر والطغيان ، ويعز المؤمنين ويذل الكافرين ، كما قال تعالى ﴿ ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة ﴾ ^(١) وقال هاهنا ﴿ والله يؤيد بنصره من يشاء إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار ﴾ ^(٢) أى أن فى ذلك لعبرة لمن له بصيرة وفهم ليهتدى به إلى حكم الله وأفعاله وقدره الجارى بنصر عباده المؤمنين فى هذه الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد . ^(٣)

ونقف على تفصيل دقيق فى المغازى للواقدى بالسند السابق ، يقودنا هذا التفصيل إلى النص القرآنى الثالث .

يقول الواقدى : فحدثنى محمد بن عبد الله عن الزهرى عن عروة ، قال :

(لما نزلت هذه الآية ﴿ وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين ﴾ ^(٤) فسار إليهم رسول الله ﷺ بهذه الآية .

قالوا : فحصرهم فى حصنهم خمس عشرة ليلة أشد الحصار ؛ حتى قذف الله فى قلوبهم الرعب ، قالوا : أفنزل ونطلق ؟ فقال رسول الله ﷺ : « لا ، إلا على حكمى ! » فنزلوا على حكم رسول الله ﷺ ، فأمر بهم فربطوا ، قال : فكانوا يكتفون كتافاً ، قالوا : واستعمل رسول الله ﷺ على كتافهم المنذر بن قدامة السالمى . قال : فمر بهم ابن أبى وقال : خلّوهم ! فقال المنذر : أتخلّون قوماً ربطهم رسول الله ﷺ ؟ لا والله لا يحلّهم رجل إلا ضربت عنقه ، فوثب ابن أبى إلى النبي ﷺ ، فأدخل يده فى جنب درع النبي ﷺ من خلفه فقال : يا محمد ، أحسن فى موالى ! فأقبل عليه النبي ﷺ غضبان . متغير الوجه ، فقال « ويلك ، أرسلنى » فقال : لا أرسلك حتى تحسن فى موالى . أربع مائة دراع وثلاثمائة حاسر منعونى يوم الحداثق ويوم بعث من الأحمر والأسود ، تريد أن تحصدهم فى غداة واحدة ؟ يا محمد ، إنى امرؤ أخشى الدوائر ! قال رسول الله ﷺ : « خلّوهم ، لعنهم الله ، ولعنه معهم ! » فلما تكلم ابن أبى فيهم تركهم رسول الله ﷺ من القتل ، وأمر بهم أن يجلبوا من المدينة ، فجاء ابن أبى بحلفائه معه ، وقد أخذوا بالخروج يريد أن يكلم رسول الله ﷺ أن يقرهم فى ديارهم ، فيجد على باب النبي ﷺ عويم بن ساعدة فذهب ليدخل فردّه عويم وقال : لا تدخل حتى يؤذن رسول الله ﷺ لك . فدفعه ابن أبى ، فغلظ عليه عويم حتى جحش وجه ابن أبى بالجدار فسال الدم ، فتصايح حلفاؤه من يهود ، فقالوا :

(١) آل عمران / ١٢٣ . (٢) آل عمران / ١٣ .

(٣) الداية والنهاية / ١٦/٢ . (٤) الأنفال / ٥٣ .

أبا الحباب ، لانقيم أبداً بدار أصاب وجهك فيها هذا ، لا نقدر أن نغيره ، فجعل ابن أبي يصيح عليهم ، وهو يمسح الدم عن وجهه ، يقول : ويحكم ، قروا ، فجعلوا يتصايحون : لانقيم أبداً بدار أصاب وجهك فيها هذا ، لانستطيع له غيراً ! ولقد كانوا أشجع يهود ، وقد كان ابن أبي أمرهم أن يتحصنوا ، وزعم أنه سيدخل معهم ، فدخلهم ولم يدخل معهم ، ولزموا حصنهم فما رموا بسهم ولا قاتلوا حتى نزلوا على صلح رسول الله ﷺ وحكمه ، وأموالهم لرسول الله ﷺ ، فلما نزلوا وفتحوا حصونهم . كان محمد بن مسلمة هو الذى أجلاهم ، وقبض أموالهم . وأخذ رسول الله ﷺ من سلاحهم ثلاث قسى ، قوس تدعى الكتوم كسرت بأحد ، وقوس تدعى الروحاء ، وقوس تدعى البيضاء ؛ وأخذ درعين من سلاحهم ، درعاً يقال له الصفدية ، وأخرى فضة . وثلاثة أسياف سيف قلعى ^(١) ، وسيف يقال له بتار ، وسيف آخر ، وثلاثة أرماع ، ووجدوا فى حصونهم سلاحاً كثيراً وآله للصياغة ، وكانوا صاغة .

قال محمد بن مسلمة : فوهب لى رسول الله ﷺ درعاً من دروعهم ، وأعطى سعد بن معاذ درعاً له مذكورة ، يقال له السحل ، ولم يكن لهم أرضون ولا قراب — يعنى مزارع — وخمس رسول الله ﷺ ما أصاب منهم ، وقسم ما بقى على أصحابه ، وأمر رسول الله ﷺ عبادة بن الصامت أن يجليهم ، فجعلت قينقاع تقول :

يا أبا الوليد من بين الأوس والخزرج — ونحن مواليك — فعلت هذا بنا ؟

قال لهم عبادة : لما حاربتم جئت لرسول الله ﷺ ، فقلت : يا رسول الله ، إني أبرأ إليك منهم ومن حلفهم ، وكان ابن أبي وعبادة بن الصامت منهم بمنزلة واحدة فى الحلف ، فقال عبد الله بن أبي : تبرأت من حلف مواليك ؟ ماهذه بيدهم عندك ! فذكره مواطن قد أبلوا فيها ، فقال عبادة : أبا الحباب ، تغيرت القلوب ، ومحا الإسلام العهود ؛ أما والله إنك لمعصم ^(٢) بأمر سترى غيبه ^(٣) غداً ! فقالت قينقاع : يا محمد إن لنا ديناً فى الناس ، قال النبي ﷺ : « تعجلوا وضعوا » وأخذهم عبادة بالرحيل والإجلاء ، وطلبوا التنفس ^(٤) فقال لهم : ولا ساعة من نهار ؛ لكم ثلاث لا أزيدكم عليها ! هذا أمر رسول الله ﷺ ولو كنت أنا مانفستكم .

فلما مضت ثلاث خرج فى آثارهم حتى سلكوا إلى الشام ، وهو يقول : الشرف

(٢) إنك لمعصم بأمر : متمسك بأمر .

(٤) التنفس : الإمهال .

(١) قلعى : نسبة إلى قلعة موضع فى البادية .

(٣) غيبه : عاقبته .

الأبعد^(١) ، الأقصى فأقصى ، ! وبلغ خلف ذُباب^(٢) ثم رجع ولحقوا بأذرعات^(٣) . (٤) .

النص الثالث :

يقول تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ . بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ . فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ . فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسْرَوْا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ . وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهْؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأُصْبِحُوا خَاسِرِينَ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِيَ اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ . إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ، وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنْ حَزَبَ اللَّهُ هُمْ الْغَالِبُونَ ﴾ . (٥)

(روى ابن جرير عن الزهري قوله :

لما انهزم أهل بدر قال المسلمون لأوليائهم من يهود : آمنا قبل أن يصيبكم الله يوم مثل يوم بدر ، فقال مالك بن الصيف : غرركم أن أصبتم رهطاً من قريش لاعلم لهم بالقتال ، أما لو أسررنا العزيمة أن نستجمع عليكم — لم يكن لكم يد أن تقاتلونا ، فقال عبادة : يا رسول الله ، إن أوليائي من اليهود كانت شديدة أنفسهم كثيراً سلاحهم ، شديدة شوكتهم ، وإنى أبرأ إلى الله وإلى رسوله من ولايتهم ، ولا مولى لى إلا الله ورسوله ، فقال عبد الله بن أبي : لكنى لا أبرأ من ولاء يهود ، إنى رجل لا بد لى منهم ، فقال رسول الله ﷺ : يا أبا حباب أرايت الذى نفست به من ولاء يهود على عبادة ، فهو لك دونه . قال : إذن أقبل .

(١) الشرف الأبعد : مسافة ميل أو ميلين . أو الجبل الأبعد والأقصى حارج المدينة .

(٢) خلف ذُباب : خلف جبل ذباب وهو جبل بالمدينة .

(٣) أذرعات : بلد فى أطراف الشام يجاور أرض البلقاء و عمان ويسمى اليوم درعا .

(٤) المغارى للواقدي / ١ / ١٧٦ - ١٨٠ .

(٥) المائدة / ٥١ - ٥٦ .

فأنزل الله تعالى ذكره : ﴿يَأْيِهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى
أَوْلِيَاءَ...﴾ (١) .

ثم يرجع ابن جرير رحمه الله الرأى بعد روايات عدة بقوله :

(والصواب من القول فى ذلك عندنا أن يقال : إن الله تعالى ذكره نهى المؤمنين جميعاً أن يتخذوا اليهود والنصارى أنصاراً أو حلفاء على أهل الإيمان بالله ورسوله . وأخبر أنه من اتخذهم نصيراً ، أو حليفاً أو ولياً من دون الله ورسوله والمؤمنين - فإنه منهم فى التحزب على الله وعلى رسوله والمؤمنين . وأن الله ورسوله منه بريئان . وقد يجوز أن تكون الآية نزلت فى شأن عبادة بن الصامت وعبد الله بن أبى بن سلول وحلفائهما من اليهود ، ويجوز أن تكون نزلت فى أبى لبابة بسبب فعله فى بنى قريظة ، ويجوز أن تكون نزلت فى شأن الرجلين اللذين ذكر السدى أن أحدهما هم باللاحاق بدهلك اليهودى والآخر بنصرانى الشام ، ولم يصح بواحد من هذه الأقوال الثلاثة خير يثبت بمثله حجة ، فيسلم لصحته بالقول بأنه كما قيل فإذا كان كذلك ، فالصواب أن يحكم لظاهر التنزيل بالعموم غير أنه لاشك أن الآية نزلت فى منافق كان يوالى يهود أو نصارى خوفاً على نفسه من دوائر الدهر ، لأن الآية التى بعد تدل على ذلك وذلك قوله ﴿فترى الذين فى قلوبهم مرض يسمعون فىهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة﴾ (٢) .

وإن كان الإمام ابن جرير رحمه الله لا يرجح نزول هذه الآيات بهذه المناسبة لكن ابن إسحاق فى السيرة يؤكد هذا المعنى فيقول :

(وحدثنى أبى إسحاق بن يسار عن عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت ، قال : لما حاربت بنو قينقاع رسول الله ﷺ تشبث بأمرهم عبد الله بن أبى بن سلول ، وقام دونهم ، ومشى عبادة بن الصامت إلى رسول الله ﷺ ، وكان أحد بنى عوف له من حلفهم مثل الذى لهم من عبد الله بن أبى فخلعهم إلى رسول الله ﷺ ، وتبرأ إلى الله عز وجل ، وإلى رسوله ﷺ من حلفهم ، وقال : يارسول الله ، أتولى الله ورسوله والمؤمنين ، وأبرأ من حلف هؤلاء الكفار وولايتهم ، قال . ففيه وفى عبد الله بن أبى نزلت هذه القصة من المائدة ﴿يَأْيِهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ،

(٢) تفسير الطبرى / ٤ م / ٦ / ١٧٧ - ١٧٩ .

(١) تفسير الطبرى / ٦ / ١٧٨ .

ومن يتولهم منكم فإنه منهم ، إن الله لا يهدي القوم الظالمين . فترى الذين فى قلوبهم مرض (أى لعبد الله بن أبى . وقوله : إنى أخشى الدوائر) يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة . فعسى الله أن يأتى بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا فى أنفسهم نادمين . ويقول الذين آمنوا أهولاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم ﴿ ثم القصة إلى قوله تعالى : ﴿ إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا ، الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهو راكمون ﴾ وذكر لتولى عبادة بن الصامت الله ورسوله والذين آمنوا ، وتبرئه من بنى قينقاع وحلفهم وولايتهم : ﴿ ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون ﴾ (١) .

وروى الإمام أحمد عن أسامة بن زيد قال :

دخلت مع رسول الله ﷺ على عبد الله بن أبى فى مرضه نعوذه ، فقال له النبى ﷺ : « قد كنت أنهاك عن حب يهود ، فقال عبد الله : فقد أبغضهم أسعد بن زرارة فمات » (٢) .

أما القرطبى وابن جرير . فقد أوردوا أن هذه الآيات . ﴿ يأيتها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه ... ﴾ أنها نزلت فى المرتدين ، وقتل أبى بكر لهم ، أو فى الأنصار ، أو فى على بن أبى طالب رضى الله عنه ، أو فى أهل اليمن .

يقول الإمام القرطبى :

(الأولى : قوله تعالى ﴿ فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه ﴾ فى موضع النعت قال الحسن وقتادة وغيرهما : نزلت فى أبى بكر الصديق وأصحابه ، وقال السدى : نزلت فى الأنصار ، وقيل : هى إشارة إلى قوم لم يكونوا موجودين فى ذلك الوقت ، وأن أبى بكر قاتل أهل الردة بقوم لم يكونوا وقت نزول الآية ، وهم أحياء من كندة وبجيلة ومن أشجع ، وقيل : إنها نزلت فى الأشعرين ؛ ففى الخبر أنها لما نزلت قدم بعد ذلك بيسير سفائن الأشعرين ، وقبائل اليمن عن طريق البحر ، فكان لهم بلاء فى الإسلام فى زمن رسول الله ﷺ ، وكانت عامة فتوح العراق فى زمن عمر رضى الله عنه على يدى قبائل اليمن ، هذا أصح ما قيل فى نزولها ، والله أعلم .

وروى الحاكم أبو عبد الله فى « المستدرک » بإسناده أن النبى ﷺ أشار إلى أبى موسى

(١) السيرة النبوية لابن هشام / ٢ / ٤٩ - ٥٠ . (٢) الإمام أحمد / ٥ / ٢٠١ .

الأشعرى لما نزلت هذه الآية : فقال : « هم قوم هذا » (١) .

ونتابع مع الإمام القرطبي في شرح بعض فقرات الآيات :

(الثانية قوله تعالى ﴿ ومن يتولهم منكم ﴾ أى يعضدهم على المسلمين ﴿ فإنه منهم ﴾ بين تعالى أن حكمه كحكمهم ، وهو يمنع إثبات الميراث للمسلم من المرتد ، وكان الذى تولاهم ابن أبى . ثم هذا الحكم باق إلى يوم القيامة فى قطع الموالة ، قد قال تعالى : ﴿ ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار ﴾ (٢) وقال تعالى فى آل عمران ﴿ لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ﴾ (٣) . وقال تعالى : ﴿ لا تتخذوا بطانة من دونكم ﴾ وقد مضى القول فيه ، وقيل : إن معنى ﴿ بعضهم أولياء بعض ﴾ أى فى النصرة . ﴿ ومن يتولهم منكم فإنه منهم ﴾ شرط وجوابه ، أى لأنه قد خالف الله تعالى ورسوله كما خالفوا ، ووجبت معاداته كما وجبت معاداتهم ، ووجبت له النار كما وجبت لهم ، فصار منهم أى من أصحابهم (٤) .

وبصدد قوله عز وجل ﴿ أذلة على المؤمنين ﴾ لآخر الآية يقول رحمه الله .

(الثالثة — قوله تعالى : ﴿ أذلة على المؤمنين ﴾ . « أذلة » نعت لقوم ، وكذلك « أعزة » أى يرأفون بالمؤمنين ويرحمونهم ويلينون لهم ، من قولهم : دابة ذلول أى تنقاد سهلة ، وليس من الذل فى شىء . ، ويغلظون على الكفار ويعادونهم ، قال ابن عباس : هم للمؤمنين كالوالد للولد ، والسيد للعبد ، وهم فى الغلظة على الكفار كالسبع على فريسته ، قال تعالى : ﴿ أشداء على الكفار رحماء بينهم ... ﴾ .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ يجاهدون فى سبيل الله ﴾ فى موضع الصفة أيضاً ﴿ ولا يخافون لومة لائم ﴾ بخلاف المنافقين يخافون الدوائر ، فدل بهذا على تثبيت إمامة أبى بكر وعمر وعثمان وعلى رضى الله عنهم لأنهم جاهدوا فى الله عز وجل فى حياة رسول الله ﷺ ، وقاتلوا المرتدين بعده ، ومعلوم أنه من كان فيه هذه الصفات فهو ولى لله تعالى . وقيل : الآية عامة فى كل من يجاهد الكفار إلى قيام الساعة . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ إنما وليكم الله ورسوله ﴾ قال جابر بن عبد الله : قال عبد الله بن سلام للنبي ﷺ : إن قومنا من بنى قريظة والنضير قد هجرونا وأقسموا ألا يجالسونا ،

(٢) هود/ ١١٣ .

(١) تفسير القرطبي / ٣م / ج ٦ / ٢٢٠ .

(٤) تفسير القرطبي / ٣م / ج ٦ / ٢٢٠ ، ٢٢١ .

(٣) آل عمران / ٢٨ .

ولانستطيع مجالسة أصحابك لبعء المنازل ، فنزلت هذه الآية ، فقال : رضينا بالله وبرسوله
وبالمؤمنين أولياء . ﴿ والذين ﴾ عام فى جميع المؤمنين قال النحاس . وهذا قول بين
لأن « الذين » لجماعة (١).

ويحدثنا الشهيد سيد قطب رحمه الله فى ظلال القرآن عن هذا الموضوع بقوله :

﴿ يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء ، بعضهم أولياء بعض ، ومن
يتولهم منهم فإنه منكم ﴾ . إن الله لا يهذى القوم الظالمين .

(﴿ بعضهم أولياء بعض ﴾) إنها حقيقة لاعلاقة لها بالزمن ، لأنها حقيقة نابعة من
طبيعة الأشياء ، إنهم لن يكونوا أولياء للجماعة المسلمة فى أى أرض ولا فى أى تاريخ ،
وقد مضت القرون تلو القرون ترسم مصداق هذه القول الصادقة ، لقد ولى بعضهم
بعضاً فى حرب محمد ﷺ - والجماعة المسلمة فى المدينة ... وولى بعضهم بعضاً فى كل
فجاج الأرض على مدار التاريخ .. ولم تختل هذه القاعدة مرة واحدة ، ولم يقع فى هذه
الأرض إلا ماقرره القرآن الكريم فى صيغة الوصف الدائم ، لا الحادث المفرد ، واختيار
الجملة الإسمية على هذا النحو .. ﴿ بعضهم أولياء بعض ﴾ ليست مجرد تعبير ! إنما هى
اختيار مقصود للدلالة على الوصف الدائم الأصيل .

ثم رتب على هذه الحقيقة الأساسية نتائجها ... فإنه إذا كان اليهود والنصارى
بعضهم أولياء بعض ، فإنه لا يتولاهم إلا من هو منهم . والفرد الذى يتولاهم من الصف
المسلم يخلع نفسه من الصف المسلم ، ويخلع عن نفسه صفة هذا الصف « الإسلام »
وينضم إلى الصف الآخر . لأن هذه هى النتيجة الطبيعية الواقعية .

﴿ ومن يتوله منكم فإنه منهم ﴾ :

وكان ظالماً لنفسه ولدين الله وللجماعة المسلمة ، وبسبب من ظلمه هذا يدخله الله
فى زمرة اليهود والنصارى الذين أعطاهم ولاءه ، ولا يهديه إلى الحق ، ولا يرده إلى الصف
المسلم .

﴿ إن الله لا يهذى القوم الظالمين ﴾ .

لقد كان هذا تحذيراً عنيماً للجماعة المسلمة فى المدينة ، ولكنه تحذير ليس مبالغاً فيه ،

(١) تفسير القرطى / ٣م / ٦٠٠ - / ٢٢٠ ، ٢٢١ .

فهو عنيف ، نعم ولكنه يمثل الحقيقة الواقعة ، فما يمكن أن يمنح المسلم ولائه لليهود والنصارى ، وبعضهم أولياء بعض ثم يبقى له إسلامه وإيمانه ، وتبقى له عضويته في الصف المسلم الذى يتولى الله ورسوله والذين آمنوا ... فهذا مفرق الطريق . (١)

لقد استعرضنا الجانب العلمى فى هذه الغزوة من خلال الآيات المذكورة ، ونقف ملياً عند الفقه التربوى فيها ، نلاحظ من خلال ذلك المنهج الذى اختطه القرآن لذلك ، كما نلاحظ : « مع أخرى منه ، فى الموقف النبوى العظيم فيها .

— لقد ارتفعت الوتيرة الإيمانية إلى المستوى الأعلى فى غزوة بدر ، وحيث أن النصر الإلهى . الذى وقع فيها حدا ببعض المسلمين فى لحظة من لحظات النشوة فى هذا النصر أن يقول : إن لقينا إلا عجائز صلعاً ، ولم يدعها عليه الصلاة والسلام تمر إلا وقال له : « يابن أخى أولئك الملاء . » ليعيد عليه الصلاة والسلام إلى هذا الصحابى الجليل أبعاد المعركة ، وأنها كانت مع عتاة طغاة قريش وجبابرتها ، وليست مع العجائز المهازيل ، كذلك نجد هذا التوجيه النبوى العظيم حين يسارع بعض الفتية الأنصار ليحدث النبى عليه الصلاة والسلام عن أسر عمه العباس الفخم الضخم العظيم ، وهو الصغير الحجم بالنسبة له . فقال له : « أعانك عليه ملك كريم » .

لكن هذه اللقطات البسيطة لم تكن كافية فى الحس الإسلامى لتعيد هذا النصر إلى رب العالمين ، فقد ارتفع الاعتزاز بالنصر إلى ذروته فى هذا الصف وحيث أن الإسلام لا يهتم إلا بتربية هذه النفوس فجاءت سورة الأنفال كلها إلى خير أجيال الأرض ، وإلى خيرة هذه الأمة ليقول لهم إن بدرا هبة ربانية ، ومنحة إلهية لهذا الجيل الذى صدق الله فصدقه ، وأنزل له الملائكة فقاتلت معه . وأنزل معه الماء . وأنزل معه الريح ، وأنزل معه الحصى .

﴿ فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم ، وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ، وليبلى المؤمنين منه بلاء حسنا إن الله سميع عليم ﴾ (٢)

(٢) الأنفال / ١٧ .

(١) فى ظلال القرآن / ٢٣ / ٦ / ٩١١ .

٢ - وجاءت غزوة بنى قينقاع على أعقاب بدر ، والحقد اليهودى يغلى فى
مراجلهم ، والتحدى السافر يقطر منهم .

« لقد نُقيتم قوماً لا علم لهم بالحرب ، ولئن لقيتمونا لتعلمن أنا نحن الناس » .

وفقه عليه الصلاة والسلام من التوجيه الربانى له أن قينقاع قد تقدم على خيانة سافرة
وخاف من هذه الخيانة ، فنبذ إليهم على سواء ، كما وجهه ربه عز وجل .

وكسرت شكوت يهود بعد أن استسلمت لله ورسوله ، وكان لابد من هذا الدرس
حتى يتعظ به قبائل يهود الأخرى - النضير وقريظة - وليستمر النصر الإسلامى فى بدر ،
ويوظف لصالح الصف الإسلامى ، وتتحطم العنجهية اليهودية على صخرة البطولة
الإسلامية .

٣ - وعلى نسق بدر . جاءت الآيتان اللتان وردتا فى قينقاع لتؤكد على البناء
النفسى الداخلى . فتبث الرعب أولاً فى صف اليهود والمشركين جميعاً فى الأرض
العربية وتقول لهم :

﴿ قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد . قد كانت لكم آية
فى فتنتين التقتا . فئة تقاتل فى سبيل الله وأخرى كافرة . يرونهم مثليهم رأى العين ، والله
يؤيد بنصره من يشاء . إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار ﴾ ^(١) لقد كانت الآيتان بمثابة
رسالة شديدة اللهجة موجهة إلى يهود . ومواليهم . ، فى أن يلزموا حدودهم ، ويكففتوا
على أعقابهم ، ويخنسوا فى جحورهم ، لكن هذه الرسالة لم تجد معهم شيئاً . ، وغرهم
فى دينهم ما كانوا يفترون ، فكان ذلك الحصار والاستسلام .

وكانت الآيتان للصف المسلم كذلك تؤكد على المعانى السابقة التى نزلت بها
الأنفال ، وتثبت فى أذهانهم أن الله يؤيد بنصره من يشاء ، إن فى ذلك لعبرة لأولى
الأبصار .

٤ - ولم يكن مجال بعد انتهاء بدر أن يعود الرسول عليه الصلاة والسلام على أحد
من صحبه باللائمة ، من الذين تخلفوا عن بدر ، لأنه دعاهم اختياراً إلى ملاقاته القافلة ،
ولم يعزم عليهم على معركة . فلم يكن هناك مجال للتمييز داخل الصف الإسلامى ، ومع
انتهاء بدر حيث رأينا عبد الله بن أبى قد غادر معسكر الشرك وانضم إلى معسكر الإيمان ،
انضم بكل ثقله المعنوى ومركزه الضخم ليوحتل موقعه من جديد فى صف قومه الخزرج ،

(١) آل عمران ١٢ ، ١٣ .

وليبرز على رأسهم من جديد بعد أن انضم إلى المعسكر الإسلامى ، وأصبح فى مصاف سعد بن عباد ، وعبادة بن الصامت وأمثالهم من قيادات الخزرج ، وهكذا أصبح نصر بدر يفتخر به كل المسلمين ، سواء من حضرها أم من لم يحضرها ، فليس هناك من مسيء أو ملوم أو متهم بالتخاذل والتخلف .

٥ - وجاءت غزوة بنى قينقاع ، لتهز المجتمع الإسلامى من داخله من خلال موقف ابن سلول . الذى وضع يده فى جيب درع رسول الله ﷺ ليقول له : (هؤلاء حلفائى من دون يهود أربعمئة دارع ، وخمسماية حاسر ، تحصدهم فى غداة واحدة . إنى امرؤ أخشى الدوائر ..)

ولم يدع جيب رسول الله ﷺ حتى وهبهم له .

ومضى عبد الله بن أبى ينتفش بعدها ، فهو عريق فى المجد ، يفرض رأيه المعنوى ، ويحمى حلفاؤه من قينقاع . ولتطمئن النضير كذلك ، فهم حلفاء والخزرج ، وسوف تبرز هذه القوة السلولية على الساحة ، فابن أبى الزعيم ليس وحده فى الساحة ، وليس زعيماً للخزرج فحسب ، بل هو سيد الساحة بما عنده من حلفاء أنقذهم من الموت ، وجلوا ، وماعنده من حلفاء لايزالون متربصين فى حصونهم فى بنى النضير .

وتعلق به الكثير - وتأثروا بزعامته من ضعف الإيمان ، أو من الذين انضموا معه إلى المعسكر الإسلامى بعد نصر بدر المؤزر ؛ وهكذا كثر الأتباع ؛ واستجمع الأزلام والأنصار .

أما عبادة بن الصامت فلم يبرز له هذا الوزن ، فقد كان له من الحلف مع بنى قينقاع مثل ماكان لابن أبى ولم يفعل شيئاً لحلفائه بل تبرأ منهم ، وتولى الله ورسوله ، وغدا إنساناً عادياً ليس حوله الأزلام والأنصار ، وليس بالذى يفرض رأياً فى الساحة الإسلامية مثل ابن أبى ، لكن له فى قلوب إخوانه من الخزرج والأوس من الحب والإكبار والتقدير ما لا يوصف فهو بقلبه مثل قلوبهم ، وبمشاعره مثل مشاعرهم ، وبجبه وكرهه مثل جبههم وكرههم ، وهذا يرفعه فى موازينهم فى الوقت الذى يهبط ابن أبى ويسقطه ، وقد أخرج رسول الله ﷺ حتى رأوا الغضب فى وجهه .

لو انتهت هذه القضية بهذا الموقف . لتعادت الكفتان : كفة المؤمنين والمنافقين ، ولكان يمكن أن ترجح كفة ابن أبى التى يوزن فيها الأعداد والأرقام ، والذين لايزالون يفكرون فى الإسلام من خلال الزعامة والنيادة ، وتحشيد الأتباع ، ولم الأزلام .

٦ - لكن هيهات أن يستويا في ميزان الله ، وهيهات أن يصمت الصوت المؤمن المدوَّى ويتراجع حرجاً أمام صوت النفاق . فجاءت الآيات القرآنية لتكون كالصواعق المحرقة على رأس ابن أبى ، وهى تفضحه وتعريه ، وتقول له : ﴿ ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الكافرين ﴾ .

وشفت الآيات صدور قوم مؤمنين ، وأحرقت قلوب قوم منافقين ، فقد انهده هذا الركن الركين ، ودفع دفعاً ليكون من الكافرين فى هذا الولاء للكافرين .

وجاء التعبير القرآنى العظيم ليصف ابن أبى وحزبه وأتباعه بقوله : ﴿ فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فىهم ﴾ ^(١) ، فهؤلاء إذن مرضى ، ضعاف ، مهاذيل ، والمرضى ليس فى أجسادهم ، وليس فى أطرافهم ، بل فى لبهم وقلوبهم . فهم مدخولو الإيمان وهم غارقون فى النفاق . وهم مع الكفار حين يحسب الكفار والمسلمون وهم من الصف الكافر حين يتميز المؤمن من الكافر .

فإذا بالأمجاد التى بناها ابن أبى فى هذه الحماية لحلفائه تذلل وتنهار ، ويصغر ابن أبى فى صف المؤمنين الخالص ، وينظر إليه الذين يجارونه فى زعامته على أنه مريض يعالج ، وعليل يداوى ، ومنافق يمكن أن يسكت عليه علّه يخلص قلبه ويتسلل الإيمان إلى قلبه .

٧ - أما ابن الصامت رضى الله عنه . فلم يترك موقفه كذلك بدون شيء . ولم يبق مؤمناً عادياً ، أتباعه قلة ، وأنصاره أخف بكثير من أنصار ابن أبى ، لقد أثنى الله تبارك وتعالى فى محكم كتابه ، ومن فوق سمواته على عبادة بن الصامت النموذج الرائع الخالد ، وقدمه طرازاً حياً للرجال ، ومثلاً حياً يحتذى من المؤمنين على وجه الأرض ، وإلى أن تقوم الساعة . ولئن جن جنون ابن أبى بهذا العز المحلى الممدود الفانى ، فقد فضح على رؤوس الخلائق والأشهاد ، حين عزى على أنه من الصف الكافر فى ولائه ، وبقي ابن الصامت رضى الله عنه القمة التى وصفت بقوله عز وجل :

﴿ يأيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم . ذلك فضل الله يؤتیه من يشاء والله واسع عليم . إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون . ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون ﴾ .

ومثل عبادة بن الصامت رضى الله عنه ومن والاه من جنده حزب الله الذى يتولى الله ورسوله والجماعة المؤمنة ، ومثل عبد الله بن أبى وأتباعه وأزلامه وأنصاره الذين ارتدوا عن دينهم بهذا الولاء وهذا الحلف .

٨ - ولكنه لم يعامل معاملة المرتدين بعد ، فلا يزال الطريق مفتوحاً أمامه ليخاطب من بين الذين آمنوا أن يعود عن هذا الولاء ، وأن يعود عن موالاته اليهود فقد جاءت الآيات التاليتان بعد ذلك تفيد التحذير والتخويف من هذا الولاء :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوءاً وَلَعِباً مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكَافِرَ أَوْلِيَاءُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُتُمَ مُّؤْمِنِينَ . وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوءاً وَلَعِباً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ ^(١) .

هذا وإن لم يثبت أن هاتين الآيتين قد نزلتا فى هذه المناسبة - فنقدّر أنهما نزلتا فى الفترة بين بدر وأحد لتعالج البناء ، وتصحح المسار ، وتنهي الالتباس الذى يمكن أن يقع فى هذه المسألة .

٩ - وهكذا تغيرت الموازين كلها بعد هذه الآيات ، وبرز معسكر المنافقين بسمات وعلامات واضحة من خلال المواقف العملية ، ولم يعد الصف الإسلامى واحداً بعدها كما كان قبلها ولفترة وجيزة حين انضم ابن أبى إليه ، لقد شاءت إرادة الله عز وجل أن تبدأ المعالم للتمييز بين الفريقين ، ولكنها لم تأخذ مداها الكامل ؛ لأن هذه الآيات نزلت بعد جلاء بنى قينقاع ، ولم تكن أى مخالفة بعدها تذكر ، ومن المنهجية الإسلامية فى التربية ألا يكون الحساب على الخطأ قبل نزول الحكم ؛ إنما يكون بعدها . لقد نزلت الآية تفرق بين حزب الله والمؤمنين وحزب الشيطان والمنافقين إنما وضعت هذه الآيات نقاط علامة . ونقاط ارتكاز . إذا استمر هذا الحزب على مواقفه .

١٠ - واستفاد الصف الإسلامى أيما استفادة بعد هذه الآيات ، وتحرّر ضعاف الإيمان من هذه التشبهة وتوضح لهم المسار . وارتفع المد الإسلامى . بهذه النفوس لتبتعد رويداً رويداً عن المواقع التى تحوم حول الحمى ، فتوشك أن تقع فيه ، وكان هذا إيذاناً بأجواء أحد التى قدمت التمييز النهائى بين الفريقين .

غزوة أحد

التهيؤ للمعركة :

يقول تعالى : ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ . وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشِلَا ، وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ . (١)

أخرج أبو يعلى وابن المنذر وابن أبي حاتم عن المسور بن مخرمة قال : قلت لعبد الرحمن بن عوف يا خال أخبرني عن قصتكم يوم أحد ؟ قال :

(أقرأ بعد العشرين ومائة من آل عمران تجد قصتنا ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ الْقِتَالِ .. ﴾ إلى قوله : ﴿ إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشِلَا .. ﴾ قال : هم الذين طلبوا الأمان من المشركين إلى قوله ﴿ .. وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ .. ﴾ قال هو تمنى المؤمنون لقاء العدو إلى قوله ﴿ .. أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ .. ﴾ قال : هو صياح الشيطان يوم أحد : قتل محمد . : إلى قوله ﴿ .. أَمِنَةً نَعَاساً .. ﴾ قال : ألقى عليهم النوم .) (٢)

فقد حدثت هذه الرواية ابتداء الحديث عن قصة أحد في سورة آل عمران ، ونجد رواية ثانية تحدد نهاية الحديث عن أحد في السورة المذكورة وهي :

أخرج ابن إسحاق والبيهقي في الدلائل عن ابن شهاب وعاصم بن عمر بن قتادة ، ومحمد بن يحيى بن حبان والحسين بن عبد الرحمن بن سعد بن معاذ قالوا :

(كان يوم أحد يوم بلاء وتمحيص ، اختبر الله به المؤمنين ، ومحق به الكافرين ممن كان يظهر الإسلام بلسانه ، وهو مستخف بالكفر ، ويوم أكرم الله فيه من أراد كرامته بالشهادة من أهل ولايته ، فكان مما نزل من القرآن في يوم أحد ستون آية من آل عمران ، فيها صفة ما كان من يومه ذلك ، ومعاقبة من عاتب منهم ، يقول الله تعالى لنبيه : ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ .) (٣)

(١) آل عمران / ١٢١ ، ١٢٢ . (٢) الدر المنثور / ٣٠٢/٢ . (٣) المصدر نفسه ٣٠٢/٢ .

ونلاحظ أن ختام الستين آية هي قول الله عز وجل : ﴿ ولا يحسن الذين يدخلون بها آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم . بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة والله ميراث السموات والأرض والله بما تعملون خبير ﴾ . (١)

والمرجح أن نهاية الحديث عن أحد إنما هي الآية السابقة :

﴿ ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب ، وما كان الله ليطلعكم على الغيب ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء فآمنوا بالله ورسله . وإن تؤمنوا وتتقوا فلکم أجر عظيم ﴾ (٢) فقد نص المفسرون على ذلك .

(فغن مجاهد فى قول الله : ﴿ ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب .. ﴾ قال : ميز بينهم يوم أحد المنافق من المؤمن) . (٣)

وأورد السيوطى هذا القول عن مجاهد كذلك فيما رواه عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم) . (٤)

بينما نلاحظ أن الآية ﴿ ولا يحسن الذين يدخلون .. ﴾ هي أولاً فى موضوع متصل بالآيات التى تلتها ، وهو موضوع البخل . كما أن المفسرين يذكرون أنها فى أهل الكتاب ، لا خلاف فى ذلك ، وإن كانت عامة فى المعنى لهم ولغيرهم .

الآيات فى السياق :

ويربط ابن جرير الطبرى هذه الآيات ابتداءً بسياقها . دون علاقة بأسباب النزول فى الآية التى سبقتها .

يقول تعالى : ﴿ .. إن تمسكم حسنة تسؤهم . وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً إن الله بما يعملون محيط . وإذ غدوت من أهلك .. ﴾ . (٥)

أما هذا الارتباط الوثيق - فكما يقول ابن جرير :

(القول فى تأويل قوله : ﴿ وإذ غدوت من أهلك تبئ المؤمنين مقاعد للقتال والله سميع عليم ﴾ يعنى جل ثناؤه بقوله : ﴿ وإذ غدوت من أهلك تبئ المؤمنين .. ﴾ وإن

(٣) تفسير الطبرى / ٤ / ٢ / ١٢٤ .

(٢) آل عمران / ١٧٩ .

(١) آل عمران / ٨٠ / ١٨٠ .

(٥) آل عمران / ١٢٠ مصدر الآية / ١٢١ .

(٤) الدر المنثور / ٢ / ٣٩٣ .

تصبروا وتتقوا لا يضركم أيها المؤمنون كيد هؤلاء الكفار من اليهود شيئاً ، ولكن الله ينصركم عليهم إن صبرتم على طاعتي واتباع أمر رسولى ، كما نصرتكم بيدر وأنتم أذلة . وإن أنتم خالفتم أيها المؤمنون أمرى ولم تصبروا على ما كلفتم من فرائضى ، ولم تتقوا مانهيتكم عنه ، وخالفتم أمرى وأمر رسولى - فإنه نازل بكم مائز بكم بأحد ، واذكروا ذلك اليوم إذ غدا نبيكم ييؤى المؤمنين ...) . (١)

والملاحظ أن قصة أحد ابتدأت بعد الحديث عن أهل الكتاب ، وانتهت بالحديث عن أهل الكتاب ، مع أن غزوة أحد كانت مع المشركين . وأهل الكتاب المقصودون قبلها وبعدها هم اليهود كما هو المعروف من أسباب النزول ، وقد ربط الله تعالى بين اليهود والمشركين فى شديد حقدهم وعدائهم للمسلمين بقوله تعالى :

﴿ لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون .. ﴾ . (٢)

لكن غزوة بنى قينقاع ردت كيد اليهود إلى نحورهم وصدورهم إذ كانت تجربة قاسية عليهم . وأصبح كيدهم فى الخفاء والسر كما وصفهم القرآن الكريم بالآيات السابقة فى الحديث عن أحد :

﴿ يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبلاً ، ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم ، وما تخفى صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم ، وتؤمنون بالكتاب كله وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ . قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور . إن تمسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها ، وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً إن الله بما يعملون محيط ﴾ . (٣)

ولا شك أن نزول هذا التحذير - كان ذا علاقة وثيقة بوضع المؤمنين قبيل أحد ، وبعد بنى قينقاع وأن المنافقين المنبئين فى الصف المؤمن - لا تزال قلوبهم مرتبطة باليهود حباً ونصيحة ، فجاء التحذير القرآنى من موالاتهم ، واتخاذهم بطانة من دون المؤمنين ، وهم حلفاء عبد الله بن أبى الذى لم يتراجع عن موقفه بعد بنى قينقاع ، وبقي قلبه مشرباً بحب يهود .

(١) تفسير الطبرى / ٤٥/٣/٢ .

(٢) المائدة / ٨٢ .

(٣) آل عمران / ١١٨ - ١٢٠ .

الصف المؤمن :

لقد اختلف الصف المؤمن عما كان عليه قبيل بدر ، إذ كان التميز واضحاً قبيل بدر ، وكان عبد الله بن أبي ومن معه من المنافقين يعلنون كفرهم ، ومع انتصارات بدر حنوا ظهرهم للعاصفة ورأوا أن الأمر قد توجه ، وأعلنوا إسلامهم ظاهراً ، وبقيت علاقاتهم باليهود باطنا .

(أخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : كان رجال من المسلمين يواصلون رجالاً من يهود لما كان بينهم من الجوار والخلف في الجاهلية ، فأنزل الله فيهم ينهاهم عن مباذنتهم تخوف الفتنة عليهم منهم : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ ۖ ﴾ . (١)

وفي رأى آخر أن البطانة من دون المؤمنين هم المنافقون الذين يظهرون الإسلام ويطنون الكفر . (كما أخرج ابن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في الآية قال : نزلت في المنافقين من أهل المدينة . نهى المؤمنين أن يتولاهم) . (٢)

(وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ ۖ ﴾ قال : هم المنافقون) (٣) .

ولهذا رأى وزنه . إذ أن سياق الآيات يؤكد الحديث عن الذين يعلنون إسلامهم ظاهراً ويطنون الحقد والكيد . وهذا الوصف ينطبق على المنافقين ﴿ وَإِذَا لَقَوْكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ . قُلْ مَوْتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۖ ﴾ (٤) . وليس هناك من تعارض بين الرأيين فظهر المنافقين في المدينة هم اليهود من أهل الكتاب ، وسيان كان التحذير للمؤمنين الخالص من أهل الكتاب المعلنين ، أو من المنافقين المندسين في الصف ، فالنتيجة واحدة ، والتميز غير واضح ، والمندسون كثر ، والصبر والتقوى هو سلاح النصر ، وفي هذه الأجواء كانت معركة أحد .

التعبئة للمعركة :

﴿ وَإِذَا غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تَبَوَّى الْمُؤْمِنُونَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ ، وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ .

(٢) المصدر نفسه / ٣٠٠ / ٢ .

(١) الدر المنثور / ٢٩٩ / ٢ . آل عمران / ١١٨ .

(٤) آل عمران / ١١٩ .

(٣) المصدر نفسه / ٣٠٠ / ٢ .

(عن مجاهد في قول الله عز وجل : ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ قال : مشى النبي صلى الله عليه وسلم يومئذ على رجله ييؤ المؤمنين) . (١)
وعن قتادة قوله : (ذلك يوم أحد غدا نبى الله ﷺ من أهله إلى أحد ييؤ المؤمنين مقاعد للقتال) . (٢)

وكذلك روى عن ابن عباس رضى الله عنهما والسدى .

بينما روى عن الحسن قال (.. يعنى محمداً صلى الله عليه وسلم غدا ييؤ المؤمنين مقاعد للقتال يوم الأحزاب) .

ويرجح ابن جرير الرأى الأول بقوله :

(وأولى هذين القولين بالصواب قول من قال : عنى بذلك يوم أحد لأن الله عز وجل يقول فى الآية التى بعدها : ﴿ إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا .. ﴾ ولا خلاف بين أهل التأويل أنه عنى بالطائفتين بنو سلمة وبنو حارثة ، ولا خلاف بين أهل السيرة المعرفة بمغازى رسول الله ﷺ أن الذى ذكر الله من أمرهما يوم أحد دون يوم الأحزاب .

فإن قال لنا قائل : وكيف يكون ذلك يوم أحد ورسول الله ﷺ إنما راح (٣) إلى أحد من أهله للقتال يوم الجمعة بعد ما صلى الجمعة في أهله بالمدينة بالناس . ؟ قيل :

إن النبي ﷺ وإن كان خروجه للقوم كان رواحاً فلم يكن تبوئته للمؤمنين مقاعدهم للقتال عند خروجه ، بل كان ذلك قبل خروجه لقتال عدوه ، ذلك أن المشركين نزلوا منزلهم من أحد فيما بلغنا يوم الأربعاء ، فأقاموا به ذلك اليوم ويوم الخميس ويوم الجمعة ؛ حتى راح رسول الله ﷺ يوم الجمعة بعدما صلى بأصحابه الجمعة ، فأصبح بالشعب من أحد يوم السبت للنصف من شوال ... فإن قال : وكيف كانت تبوئته للمؤمنين مقاعد للقتال غدواً قبل خروجه ، وقد علمت أن التبوئة : اتخاذ الموضع ؟ قيل : كانت تبوئته إياهم ذلك قبل مناهضته عدوه عند مشورته على أصحابه بالرأى الذى رآه لهم يوم أو يومين وذلك أن رسول الله ﷺ لما سمع بنزول المشركين من قريش وأتباعها أحداً قال - فيما

(١) (٢، ١) تفسير الطبرى م ٢ / ٤ / ٤٦ .

(٣) العدو فى اللغة صباحاً . والرواح بعد الظهر . والتعبير القرآنى يذكر العدو . أى قبل الصبح فيرجع الطبرى أن المقصود بالغدو فى الآية هى المشورة التى تمت قبل ظهر الجمعة لتحديد مكان القتال وموقعه . أو أنه وصل صباح السبت للنصف من شوال . والأرجح هو الرأى الأول .

حدثنا محمد بن الحسين .. عن السدى - لأصحابه :

« أشيروا على ما أصنع ؟ ! » فقالوا : يا رسول الله أخرج إلى هذه الأكلب ، فقالت الأنصار : يا رسول الله ماغلبننا عدو لنا في ديارنا فكيف وأنت فينا ؟ فدعا رسول الله ﷺ عبد الله بن أبي بن سلول ، ولما يدعه قط قبلها فاستشاره فقال : يا رسول الله اخرج بنا إلى هذه الأكلب . وكان رسول الله ﷺ يعجبه أن يدخلوا عليه المدينة ، فيقاتلوا في الأزقة ، فأتاه النعمان بن مالك الأنصاري فقال : يا رسول الله لا تحرمني الجنة فوالذي بعثك بالحق لأدخلن الجنة ، فقال له : بم ؟ قال : بأني أشهد أن لا إله إلا الله وأنتك رسول الله ، وأني لا أفر من الزحف ، قال : صدقت ، فقتل يومئذ .

ثم إن رسول الله ﷺ دعا بدرعه فلبسها فلما رأوه وقد لبس السلاح ندموا وقالوا : بئسما صنعنا ، نشير على رسول الله ﷺ والوحي يأتيه . فقاموا واعتذروا إليه وقال اصنع ما رأيت . فقال رسول الله ﷺ : « لا ينبغي لنبي أن يلبس لأمته ^(١) فيضعها حتى يقاتل » ^(٢) .

وفى رواية أخرى يسوقها ابن جرير يقول لنا فيها :

(حدثنا ابن حميد قال : ثنا سلمة عن محمد بن إسحاق قال : ثنى ابن الزهري ومنحمد ابن يحيى بن حبان وعاصم بن عمر بن قتادة والحسين بن عبد الرحمن بن عمرو بن سعد ابن معاذ وغيرهم من علمائنا قالوا : لما سمع رسول الله ﷺ والمسلمون بالمشركين قد نزلوا منزلهم من أحد قال رسول الله ﷺ : « إني قد رأيت بقرأ تذبج فأولتها خيراً ، ورأيت في ذباب سيفي ثلماً ، ورأيت أني أدخلت يدي في درع حصينة فأولتها المدينة ، فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم حيث نزلوا ، فإن أقاموا أقاموا بشر مقام وإن دخلوا علينا قاتلناهم فيها » وكان رأى عبد الله بن أبي بن سلول مع رأى رسول الله ﷺ يرى لا يخرج إليهم ، وكان رسول الله ﷺ يكره الخروج من المدينة ، فقال رجال من المسلمين ممن أكرم الله بالشهادة يوم أحد وغيرهم ممن كان فاته بدر وحضوره : يا رسول الله اخرج بنا إلى أعدائنا لا يرون أنا جئنا عنهم وضعفنا ، فقال عبد الله بن أبي بن سلول : يا رسول الله أقم بالمدينة لا تخرج إليهم ، فوالله ماخرجننا منها إلى عدولنا قط إلا أصاب منا ، ولا دخلها علينا قط إلا أصابنا منه ، فدعهم يا رسول الله فإن أقاموا أقاموا بشر محبس ، وإن دخلوا قاتلهم الرجال في وجوههم ، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم ،

(٢) تفسير الضرى / ٢ / ٤ / ٤٥ .

(١) لأمته : عدة الحرب .

وإن رجعوا رجعوا خائبين كما جاؤوا ، فلم يزل الناس برسول الله ﷺ الذي كان من أمرهم حب لقاء القوم حتى دخل رسول الله ﷺ فليس لأمته ، فكانت تبوئة رسول الله ﷺ المؤمنين مقاعد للقتال ما ذكرنا من مشورته على أصحابه بالرأى الذي ذكرنا على ما وصفه الذين حكينا قولهم . يقال منه : بوأت القوم منزلاً وبوأتهم لهم ، فأنا أبوئهم المنزل تبوئة ، وأبوئ لهم منزلاً تبوئة .. وقد حكى عن العرب سماعاً أبأت القوم منزلاً فأنا أبيئهم إباءة ويقال منه أبأت الإبل إذا رددتها إلى المباءة ، والمباءة المراح الذي تبيت فيه ، والمقاعد جمع مقعد وهو المجلس . فتأويل الكلام : واذكر إذ غدوت يا محمد من أهلك تتخذ للمؤمنين معسكراً أو موضعاً لقتال عدوهم وقوله ﴿ واللّه سميع عليم ﴾ يعنى بذلك تعالى ذكره : واللّه سميع لما يقول المؤمنون لله فيما شاورتهم فيه من موضع لقائك ولقائهم عدوك وعدوهم ، من قول من قال اخرج بنا إليهم حتى نلقاهم خارج المدينة ، وقول من قال : لا تخرج إليهم وأقم بالمدينة حتى يدخلوها علينا على ماقد بينا من قبل ، ومما تشير به عليهم أنت يا محمد ، عليه بأصلح تلك الآراء لك ولهم ، و بما تخفيه صدور المشيرين عليك بالخروج إلى عدوك وصدور المشيرين عليك بالمقام فى المدينة وغير ذلك من أمرك وأمورهم . كما حدثنا ابن حميد عن سلمة عن ابن إسحاق فى قوله : ﴿ واللّه سميع عليم ﴾ أى سميع لما يقولون عليه بما يخفون (١) .

ويضيف السيوطى فى الدر المنثور فيما أخرجه ابن إسحاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن الرواة السابقين الذين أوردتهم ابن جرير : قالوا :

(لما أصيبت قريش ، أو من ناله منهم يوم بدر من كفار قريش ، ورجع فلهم إلى مكة ، ورجع أبو سفيان بعيره - مشى عبد الله بن أبى ربيعة ، وعكرمة بن أبى جهل وصفوان بن أمية فى رجال من قريش ممن أصيب آباؤهم وإخوانهم ببدر ، فكلموا أبا سفيان بن حرب ومن كانت له فى تلك العير من قريش تجارة ، فقالوا : يامعشر قريش ، إن محمداً قد وتركم ، وقتل خياركم ، فأعينونا بهذا المال على حربيه ، لعلنا ندرك منه ثأراً بمن أصاب ، ففعلوا ، فأجمعت قريش لحرب رسول الله ﷺ ، وخرجت بحدتها وحديدها ، وخرجوا معهم بالظعن التماس الحفيظة ولئلا يفروا ، وخرج أبو سفيان وهو قائد الناس فأقبلوا حتى نزلوا بعينين جبل بيطن السبخة من قناة على شفير الوادى مما يلي المدينة ..) (٢)

(١) تفسير الطبرى ٤/٢/٤٦ .

(٢) الدر المنثور ٣/٣٠٣ .

ونعود إلى كتب السير لتكتمل سورة التعبئة للمعركة :

قال البلاذرى : (فأجمعت قريش لحرب رسول الله ﷺ ، وبعثوا عمرو بن العاص ، وعبد الله بن الزبير ، وهبيرة بن أبي وهب ، ومسافع بن عبد مناف ، وأبا عزة الجمحي (الذى من عليه رسول الله ﷺ يوم بدر) إلى العرب يستنفرونها لحرب رسول الله ﷺ ، فألبوا العرب وجمعوها ، ورأس فيهم أبو سفيان بن حرب لذهاب أكابرهم^(١) ، فأخذ يؤلب على رسول الله ﷺ ويجمع الجموع ، فجمع قريبا من ثلاثة آلاف من قريش والحلفاء والأحابيش فيهم سبعمائة دارع ومائتا فارس ، وكتب العباس رضى الله عنه إلى رسول الله ﷺ يعلمه بذلك مع رجل من بنى غفار ، فقدم عليه وهو بقاء فقرأه عليه أبى بن كعب ، واستكتبهم أبا ، ونزل رسول الله ﷺ على سعد بن الربيع فأخبره بكتاب العباس ، فقال : والله إنى لأرجو أن يكون خيرا ، فاستكتبه إياه ، فلما خرج رسول الله ﷺ من عند سعد أتته امرأته فقالت : ما قال لك رسول الله ﷺ ؟ قال : ما أنت وذاك ، لا أم لك ، قالت : قد كنت أسمع عليكم ، وأخبرت سعداً بما سمعت ، فاسترجع وقال : أراك كنت تسمعين علينا ، وانطلق بها إلى رسول الله ﷺ فأدركه فأخبره خبرها ، وقال : يا رسول الله إنى خفت أن يفشو الخبر فترى أنى المفشى له ، وقد استكتبتنى إياه ، فقال رسول الله ﷺ : « خل عنها » . - وشاع خبر قريش ومسيرهم فى الناس ، وأرجفت اليهود والمنافقون ، وقدم عمرو بن سالم الخزاعى فى نفر قد فارقوا قريشاً من ذى طوى ، فأخبروا النبى ﷺ الخبر وانصرفوا ، وبعث رسول الله ﷺ أنساً ومؤنساً ابنى فضالة الظفرين - ليلة الخميس الخمس ليالى مضت من شوال - عينين فاعترضا لقريش بالعقيق ، وعادا إلى رسول الله ﷺ فأخبراه بخبرهم ، وأنهم قد خلوا إبلهم وخيلهم فى الزرع الذى بالعريض ، حتى تركوه ليس به خضر ، وترك المشركون ظاهر المدينة بعينين جبل بطن السبخة من قناة على شفير الوادى ، مقابل المدينة - يوم الأربعاء ، فرعت إبلهم آثار الحرث والزرع يوم الخميس ويوم الجمعة ، لم يتركوا خضراء .. ، وبات وجوه الأوس والخزرج ليلة الجمعة عليها السلاح فى المسجد بباب رسول الله ﷺ ، خوفا من بيات المشركين . وحرس المدينة حتى أصبحوا) (٢) .

(وروى ابن إسحاق والشيخان والنسائى وابن ماجه والبيهقى عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « رأيت وفى لفظ أريت - أنى أهاجر من

(٢) سبل الهدى والرشاد / ٤ / ٢٧٢ ، ٢٧٣ .

(١) لذهاب أكابرهم : لمقتلهم فى بدر .

مكة إلى أرض بها نخل فذهب وهلى إلى أنها اليمامة أو هَجَرَ ، ، فإذا هى المدينة يثرب ، ورأيت فى رؤياى هذه أنى هزرت سيفاً - وفى لفظ سيفى ذا الغفار ، فانقطع صدره ، وفى لفظ ، رأيت فى ذباب سيفى ثلماً ، فإذا هو ما أصيب به المؤمنون يوم أحد ، - قال عروة : وكان الذى رأى بسيفه ما أصاب وجهه ، وقال ابن هشام : وأما الثلم فى السيف فهو رجل من أهل بيتى يقتل ، ثم هزرتة أخرى ، فعاد أحسن ما كان . فإذا هو ماجاء الله به من الفتح واجتماع كلمة المؤمنين ، ورأيت فيها والله خيراً ، ، رأيت بقرأً تذبح والله خير ، فإذا هم النفر المؤمنون يوم أحد ، وإذا الخير ماجاء الله به من الخير بعد ، وثواب الصدق الذى آتانا الله به بعد بدر . (١)

(وروى الإمام أحمد والنسائى والبيهقى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : تنفل رسول الله ﷺ سيفه ذا الغفار يوم بدر ، وهو الذى رأى فيه الرؤيا يوم أحد ، قال : وكان مما قاله رسول الله ﷺ قبل أن يلبس الأداة : « إنى رأيت أنى فى درع حصينة فأولتها المدينة ، وإنى مردف كبشاً ، فأولته كبش الكتبية ، ورأيت أن سيفى ذا الغفار فلٌّ (٢) فأولته فلاً فيكم ، ورأيت بقرأً تذبح فبقر ، والله خير ، فبقر والله خير » (٣)

(وروى الإمام أحمد والطبرانى والحاكم والبيهقى عن أنس رضى الله تعالى عنه : أن رسول الله ﷺ قال : « رأيت فيما يرى النائم كأنى مردف كبشاً ، كأن ظبة سيفى انكسرت ، فأولت إرداف الكبش أننا نقتل كبش القوم ، وأولت كسر ظبة سيفى قتل رجل من عترتى (٤) » .) فقتل حمزة ، وقتل طلحة بن أبى طلحة ، وكان صاحب اللواء (للمشركين) .

(... ثم صلى رسول الله ﷺ العصر بالناس وقد حشدوا ، وحضر أهل العوالى ، ورفعوا النساء فى الآطام ، ودخل رسول الله ﷺ بيته ، ومعه أبو بكر وعمر رضى الله تعالى عنهما فعمماه وألبسناه ، وقد صُف الناس ما بين حجرته إلى منبره ، ينتظرون خروج رسول الله ﷺ ، فجاء سعد بن معاذ وأسيد بن حضير فقالا للناس : استكروهم رسول الله ﷺ وقتلتم له ما قلتم ، والوحى ينزل عليه من السماء ، فردوا الأمر إليه ، فما أمرهم به فافعلوه ، وما رأيتم له فيه هوى ورأيا فأطيعوه ، فبينما هم على ذلك إذ خرج رسول الله ﷺ وقد لبس لأمته ، ولبس الدرع وأظهرها ، وحزم وسطه بمنطقة (٥) من حمائل سيف من آدم ، واعتم ، وتقلد السيف ، وندم الناس على إكراهه . فقالوا : يارسول الله ،

(١) (٤، ٣، ١) سبل الهدى والرشاد ٢٧٤/٤ ٢٧٥ .

(٢) فلٌّ : ثلم .

(٥) منطقة : ماينطق به على الخاصرة .

استكرهناك ولم يكن لنا ذلك ، فإن شئت فاقعد ، فقال رسول الله ﷺ : « قد دعوتكم إلى هذا الحديث فأبيتم ، ولا ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها ؛ حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه - وفي رواية : حتى يقاتل - انظروا ما أمركم به فاتبعوه ، امضوا على اسم الله تعالى ، فلکم النصر ما صبرتم » ووجد مالك بن عمر والبخاري قدماء ، ووضعوه عند موضع الجنائز ، فصلّى عليه ، ثم دعا بثلاثة رماح فعقد ثلاثة ألوية ، فدفع لواء الأوس إلى أسيد بن حضير ، ولواء الخزرج إلى حباب بن المنذر ، ويقال : إلى سعد بن عباد ، ودفع لواء المهاجرين إلى علي بن أبي طالب ، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم على الصلاة بمن بقى في المدينة (١) .

وبعد هذه العدة وهذه التعبئة ينتقل بنا النص القرآني إلى الحديث عن الفئتين اللتين همتا أن تفشلا ، فهو حديث عن المؤمنين . -

وكان تسلسل الأحداث في السيرة يقتضى الحديث عن تخاذل عبد الله بن أبي بلث الجيش ، لأن موقف هاتين الفئتين كان على إثر ذلك ، غير أن الهدف في العرض القرآني ليس الحدث نفسه إنما الإنسان هو الأصل ، والبناء النفسى هو الذى تتم معالجته ، ومن أجل ذلك نجد العرض القرآني للأحداث شئ ، والعرض البشرى شئ آخر ، فليس الهدف هو القصة ، ومتمعة التسلسل . إنما الهدف هو إحكام البناء للنفس البشرية ، بحيث تتربط الأحداث كلها لتخدم هذا الهدف ، فالحديث هنا عن المؤمنين ، وعن عرض جوانب القوة فيهم وجوانب الضعف ، وليس الحديث عن المنافقين فلهم أولاء جولة أخرى سيأتى الحديث عنها فيما بعد .

حديث الطائفتين :

﴿ إذ همّت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ (٢) وكأما القضية حدثت في ذات اللحظة التى تمت التعبئة فيها للمؤمنين ، وبوئوا مقاعدهم للقتال ، فجرى هذا الوهن ، وتداركه الله تعالى في رحمته .

(فعن قتادة قال : قوله : ﴿ إذ همّت طائفتان منكم أن تفشلا ﴾ الآية . وذلك يوم أحد والطائفتان بنو سلمة وبنو حارثة ، حيان من الأنصار هموا بأمر فعصمهم الله من ذلك ، قال قتادة : وقد ذكرلنا أنه لما أنزلت هذه الآية قالوا : ما يسرنا أننا لم نهم بالذى هممنا به : وقد أخبرنا الله أنه ولينا) . (٣)

(٢) آل عمران / ١٢٢ -

(١) سبل الهدى والرشاد / ٤ / ٢٧٧-٢٧٥ .

(٣) جامع البيان لابن جرير الطبرى / ٤ / ٤٨ .

وعن ابن إسحاق قال : (إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا والطائفتان بنو سلمة من
جشم بن الخزرج وبنو حارثة بن النبيت من الأوس وهما الجناحان) . (١)

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : (الفشل : الجبن ، وكان ههما الذى هما به
من الفشل الانصراف عن رسول الله ﷺ والمؤمنين - حين انصرف عنهم عبد الله بن أبى
ابن سلول بمن معه جبنا منهم من غير شك منهم فى الإسلام ولانفاق ، فعصمهم الله مما
هموا به من ذلك ، ومضوا مع رسول الله ﷺ لوجهه الذى مضى له ، وتركوا عبد الله
ابن أبى والمنافقين معه ، فأثنى الله عز وجل عليهما بثبوتهما على الحق ، وأخبر أنه وليهما
وانصرهما على أعدائهما من الكفار) . (٢)

يقول ابن جرير : (﴿ وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ أى من كان به ضعف من
المؤمنين أو وهن فليتوكل على ، وليستعن بى أعنه على أمره ، وأدفع عنه حتى أبلغ به
وأقويه على نيته) . (٣)

ويقول القرطبى :

(وقيل : كان ذلك حديث نفس منهم خطر ببالهم ، فأطلع الله نبيه عليه السلام عليه
فازدادوا بصيرة ، ولم يكن ذلك الخور مكتسبا لهم فعصمهم الله ، وذم بعضهم بعضاً ،
ونهضوا مع النبى ﷺ ، فمضى رسول الله حتى أطل على المشركين) . (٤)

(وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد والبخارى ومسلم وابن جرير وابن المنذر
وابن أبى حاتم والبيهقى فى الدلائل عن جابر بن عبد الله قال : فينا نزلت فى بنى حارثة ،
وبنى سلمة ﴿ إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا ﴾ وما يسرنى أنها لم تنزل لقول الله
﴿ والله وليهما ﴾) . (٥)

والحساب مع المؤمنين لا يترك حتى خطرات النفس ، وحديث الصدر ، فلا بد أن
تعرض النفوس كلها عارية كما فعل المؤمنين فى بدر ، ﴿ وتودون أن غير ذات الشوكة
تكون لكم ﴾ ، لكن الله ولى المؤمنين المتقين .

﴿ ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة ﴾ ، فاتقوا الله لعلكم تشكرون . إذ تقول
للمؤمنين ألن يكفئكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين . بلى إن تصبروا

(١ ، ٢ ، ٣) جامع البيان لابن جرير الطبرى ٤/ ٤٨ .

(٥) الدر المنثور ٢/ ٣٠٥ .

(٤) تفسير القرطبى ٤/ ١٨٦ .

وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين . وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به ، وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم .
ليقطع طرفا من الذين كفروا أو يكبتهم فينقلبوا خائبين ﴿١﴾ .

(وقبل أن يمضى (القرآن) فى الاستعراض والتعقيب على أحداث المعركة التى انتهت بالهزيمة - يذكرهم بالمعركة التى انتهت بالنصر - معركة بدر - لتكون هذه أمام تلك ، مجالاً للموازنة وتأمل الأسباب والنتائج ، ومعرفة مواطن الضعف ، ومواطن القوة ، وأسباب النصر ، وأسباب الهزيمة ، ثم بعد ذلك ليكون اليقين من أن النصر والهزيمة كليهما قدر من أقدار الله ؛ لحكمة تتحقق من وراء النصر ، كما تتحقق من وراء الهزيمة سواء ، وأن مرد الأمر فى النهاية إلى الله على كلا الحالين وفى جميع الأحوال) . (٢)

والصلة الوثيقة بين بدر وأحد وماقبلها وما بعدها فى هذا السياق هى قول الله عز وجل : ﴿ وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا ﴾ . (٣)

فقد صبر المؤمنون واتقوا يوم بدر ، فكان إمداد الملائكة ، وكان النصر المؤزر ﴿ بلى إن تصبروا وتتقوا .. ﴾ . (٤)

ولم يكن النصر بالملائكة ، ولم يكن النصر بالصبر والتقوى ، كل هذه بشائر .

﴿ وما النصر إلا من عند الله ﴾ . (٥)

لكن للنصر عوامله وأسبابه ، وللهزيمة عواملها وأسبابها ، وهى الهدف الأبعد من العرض القرآنى . بناء الإنسان الصالح القوام على البشرية ، المؤهل للخلافة فى الأرض .

يقول ابن جرير :

(والقول فى تأويل قوله : ﴿ ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون ﴾ (٦) يعنى بذلك جل ثناؤه ﴿ وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا ﴾ وينصركم ربكم ﴿ ولقد نصركم الله ببدر .. ﴾ على أعدائكم وأنتم يومئذ أذلة ، يعنى : قليلون فى غير منعة من الناس حتى أظهركم الله على عدوكم مع كثرة عددهم وقلة عددكم ، وأنتم اليوم أكثر عددا منكم حينئذ ، فإن تصبروا لأمر الله ينصركم كما نصركم

(٣) آل عمران / ١٢٠ .

(١) آل عمران ١٢٣ - ١٢٧ . (٢) فى ظلال القرآن ٤٦٩/٢ .

(٦) آل عمران ١٢٣ .

(٤) آل عمران ١٢٥ . (٥) آل عمران / ١٢٦ .

ذلك اليوم ﴿فاتقوا الله...﴾ يقول تعالى ذكره : فاتقوا ربكم بطاعته واجتناب محارمه ﴿لعلكم تشكرون﴾ يقول : لتشكروه على ما منّ عليكم من النصر على أعدائكم ، وإظهار دينكم ، ولما هداكم له من الحق الذى ضل عنه مخالفوكم ... (١) .

وحين نقف أمام الصورتين المتقابلتين :

الأولى : ﴿ولقد نصركم الله بيدرو أنتم أذلة﴾ .

الثانية : ﴿وإذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال﴾ .

وما تحمل كل صورة من الإيحاءات النفسية .

فالصورة الأولى : تحمل عامل الخوف من المواجهة والاستعداد للموت ، والاستعداد للصبر غير أن النصر لم يكن فى الحسبان عند بدر .

(اللهم إنهم عراة فاكسهم ، اللهم إنهم جياع فأشبعهم ، اللهم إن تهلك هذه العصابة ، فإن شئت لا تعبد فى الأرض . اللهم نصرك الذى وعدتنى) .

﴿كما أخرجك ربك من بيتك بالحق ، وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون يجادلونك فى الحق بعدما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون . وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم . وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم...﴾ (٢) .

هذه الصورة من الضعف والاستغاثة بالله ، والاستنجاد به ، والتبرؤ من كل حول وقوة ، تقابلها الصورة الثانية : بما فيها من ثقة بالنصر ، واعتماد على العدد ، واستخفاف بالعدو ، الذى دفع بالشباب المسلم أن يخرج خارج المدينة على غير رغبة قائده عليه الصلاة والسلام : وقال : إياس بن أوس بن عنبك ، نحن بنو عبد الأشهل ، إنا لنرجو أن نكون البقر المذبح ، وقال غيره : هى إحدى الحسينيين الظفر أو الشهادة ، والله لا تطمع العرب فى أن تدخل علينا منازلنا ، وقال حمزة : والذى أنزل عليك الكتاب لا أطعم اليوم طعاماً حتى أجالدهم بسيفى خارج المدينة . (وكان يوم الجمعة صائماً ويوم السبت صائماً . وقال النعمان بن مالك : يا رسول الله لا تحرمنا الجنة فوالذى نفسى بيده لأدخلنها ، فقال رسول الله ﷺ له ؟ قال : لأننى أحب الله ورسوله . ولا أفر يوم الزحف ، فقال رسول الله ﷺ : « صدقت ») (٣) .

(٢) الأنفال : ٥ و صدر : ٦ .

(١) تفسير الطبرى / ٤ / ٤٨ - ٤٩ .

(٣) سبل الهدى والرشاد / ٤ / ٢٧٦ .

وأمام هاتين الصورتين يظهر الفرق جلياً في النفوس على أعتاب بدر ، والنفوس على أعتاب أحد ، ويظهر جو أحد كذلك من خلال خطبة رسول الله ﷺ يوم أحد ، وما كان يشفق به على المسلمين .

(ثم قام رسول الله ﷺ فخطب الناس فقال : « يا أيها الناس أوصيكم بما أوصاني به الله في كتابه من العمل بطاعته ، والتناهي عن محارمه ، ثم إنكم اليوم بمنزل أجر وذخر لمن ذكر الذي عليه ، ثم وطن نفسه له على الصبر واليقين والجد والنشاط ، فإن جهاد العدو شديد ، شديد كربه ، قليل من يصبر عليه ، إلا من عزم الله له رشده ، فإن الله مع من أطاعه ، وإن الشيطان مع من عصاه ، فافتحوا أعمالكم بالصبر على الجهاد ، والتمسوا بذلك ما وعدكم الله ، وعليكم بالذي أمركم به ، فإني حريص على رشدكم ، فإن الاختلاف والتنازع والتشبيط من أمر العجز والضعف مما لا يحب الله ، ولا يعطى عليه النصر ولا الظفر ... »)^(١) .

﴿ إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين . بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين ﴾^(٢) .

وعلى خلاف في الرأي أن ذلك كان يوم بدر أو كان يوم أحد .

(أخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن الشعبي أن المسلمين بلغهم يوم بدر أن كرز بن جابر المخاربي يمد المشركين ، فشق ذلك عليهم ، فأنزله الله : ﴿ ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف ﴾ إلى قوله : ﴿ مسومين ﴾ . قال فبلغت كرزاً الهزيمة فلم يمد المشركين ولم يمد المسلمون الخمسة .)^(٣) .

هذا الرأي الأول ، أما الرأي الثاني :

فعن ابن زيد قال : (قالوا لرسول الله ﷺ وهم ينتظرون المشركين : يا رسول الله أليس يمدنا الله كما أمدنا يوم بدر ؟ فقال رسول الله ﷺ : « ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين ، فإنما أمدكم يوم بدر بألف » ، قال : فجاءت الزيادة من الله على أن يصبروا ويتقوا)^(٤) .

(٢) آل عمران : ١٢٤ ، ١٢٥ .

(١) المغازي للواقدي / ١ / ٢٢١ ، ٢٢٢ .

(٤) الدر المنثور / ٤ / ٣٠٨ ، ٣٠٩ .

(٣) الدر المنثور / ٤ / ٣٠٨ .

ويزيد القرطبي الأمر وضوحاً بقوله :

(.. فتظاهرت السنة والقرآن على ما قاله الجمهور ، والحمد لله (أى أن الملائكة حضرت يوم بدر وقاتلت) وعن خارجة بن إبراهيم عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ لجبريل : « من القاتل يوم بدر من الملائكة أقدم حيروم ؟ » فقال جبريل : « يا محمد ما كل أهل السماء أعرف » .

وعن علي رضي الله عنه أنه خطب الناس فقال : (بينا أنا أمتح من قلب بدر جاءت ريح شديدة لم أر مثلاً قط ، ثم ذهبت ، ثم جاءت ريح شديدة لم أر مثلاً قط إلا التي كانت قبلها ، قال : وأظنه ذكر ، ثم جاءت ريح شديدة . فكانت الرياح الأولى جبريل نزل في ألف من الملائكة مع رسول الله ﷺ ، وكانت الرياح الثانية ميكائيل نزل في ألف من الملائكة عن يمين رسول الله ﷺ ، وكان أبو بكر عن يمينه . وكانت الرياح الثالثة إسماعيل نزل في ألف من الملائكة عن يسرة رسول الله ﷺ وأنا في اليسرة ..) (١) .

وقال ابن عباس ومجاهد : لم تقاتل الملائكة إلا يوم بدر . وفيما سوى ذلك يشهدون ولا يقاتلون إنما يكونون عدداً أو مدداً .

قال قتادة : كان هذا يوم بدر ، أمدهم الله بألف ، ثم صاروا ثلاثة آلاف ، ثم صاروا خمسة آلاف ، فذلك قوله تعالى : ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾ وقوله : ﴿ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزِلِينَ ﴾ وقوله : ﴿ بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ فصبر المؤمنون يوم بدر واتقوا فأمدهم الله بخمسة آلاف من الملائكة على ما وعدهم ، فهذا كله يوم بدر . وقال الحسن : فهؤلاء والخمسة آلاف ردة للمؤمنين يوم القيامة .

(وقيل : إنما كان هذا يوم أحد ، وعدهم الله المدد إن صبروا . فما صبروا فلم يمدهم بملك واحد ولو أمدوا لما هزموا) (٢) .

(وأخرج بن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن الضحاك في قوله : ﴿ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا ... ﴾ الآية قال : كان هذا موعداً من الله يوم أحد عرضه على نبيه ﷺ : أن المؤمنين إن اتقوا وصبروا أيدهم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين ، ففر المسلمون يوم

(١) تفسير الطبري / ٤ / ١٩٣ ، ١٩٤ .

(٢) المصدر السابق / ٤ / ١٩٥ .

أحد وولوا مدبرين فلم يمدّهم الله (١) .

(وأخرج ابن إسحاق والطبراني عن ابن عباس قال : كانت سيما الملائكة يوم بدر عمائم بيضاً قد أرسلوها في ظهورهم ، ويوم حنين عمائم حمراً ، ولم تضرب الملائكة في يوم سوى يوم بدر ، وكانوا يكونون عدداً ومدداً لا يضرّون) (٢) .

(قال عكرمة والضحاك فإن قيل . فقد ثبت عن سعد بن أبي وقاص أنه قال : رأيت عن يمين رسول الله ﷺ وعن يساره يوم أحد رجلين عليهم ثياب بيض يقاتلون عنه أشد القتال ، ما رأيتهما قبل ولا بعد) (٣) .

قيل له : لعل هذا مختص بالنبي ﷺ ، خص بملكين يقاتلان عنه ولا يكون هذا إمداداً للصحابة والله أعلم) (٤) .

ونخلص إلى أن فقدان الشرط الذى هو الصبر والتقوى - هو الذى حال دون تنفيذ موعود الله للمؤمنين . ولا شك أن الحديث عن القاعدة الصلبة من المؤمنين ، وليس الحديث عن المنافقين . فأولئك لهم حديث خاص .

﴿ وما جعله الله إلا بشرى لكم ، ولتطمئن قلوبكم به ، وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم . ليقطع طرفاً من الذين كفروا أو يكتبهم فينقلبوا خائبين ﴾ (٥) .

(إن النصر من عند الله لتحقيق قدر الله ، وليس للرسول - ﷺ - ولا للمجاهدين معه فى النصر من غاية ذاتية ، ولا نصيب شخصى ، كما أنه ليس له ولا لهم دخل فى تحقيقه ، وإن هم إلا ستار القدرة ، تحقق بهم ما تشاء . فلا هم أسباب هذا النصر وصانعه ، ولا هم أصحاب هذا النصر ومستغلوه ! إنما هو قدر الله يتحرك بحركة رجاله ، وبالتأييد من عنده ؛ لتحقيق حكمة الله من ورائه وقصده :

﴿ ليقطع طرفاً من الذين كفروا ﴾ فينقص من عددهم بالقتل ، أو ينقص من أرضهم بالفتح ، أو ينقص من سلطانهم بالقهر ، أو ينقص من أموالهم بالغنيمة أو ينقص من فاعليتهم فى الأرض بالهزيمة ! ﴿ أو يكتبهم فينقلبوا خائبين ﴾ .

أى يصرفهم مهزومين أذلاء ، فيعودوا خائبين مقهورين) (٦) .

(٢) المصدر نفسه / ٤ / ٣٠٩ .

(١) الدر المنثور / ٤ / ٣٠٨ .

(٤) تفسير القرطبي / ٤ / ١٩٥ .

(٣) البخارى كتاب ٤ / باب غزوة أحد ١٧ / ج ٥ / ١٢٤ .

(٦) فى ظلال القرآن / ٤ / ٤٧١ .

(٥) آل عمران / ١٢٦ ، ١٢٧ .

وإذا كانت الملائكة بألوفها المؤلفة لا تحقق نصراً ، والمؤمنون بالملئات لا تحقق نصراً ،
فهل يحقق هذا النصر ، رسول الله ﷺ ؟

وعلى بساطة السؤال . لكن أهميته تلح علينا ، ونحن نعاني ما نعاني من فقر فى
القيادات الفذة . وكثيراً ما نقول : إن وجود القائد الفذ التاريخي هو الذى ينقذ الجماعة
المسلمة ، والأمة المسلمة ، ويكون بطل انتصاراتها ، ومحقق إنجازاتها .

وإن كانت هذه القضية مسلمة عند أمم الأرض ، فهى ليست كذلك عند الأمة
المسلمة ، ولا تعدو أن تكون سبباً من الأسباب يحقق الله تعالى به وبدونه النصر .

لقد شرط القرآن الكريم لتنزيل نصره على المؤمنين ، وإمدادهم بملائكته أن يصبروا
ويتقوا ، ولم يشرط عليهم وجود رسول الله ﷺ سيد القادة بشخصه بينهم .

وجاء التعقيب القرآني هنا ليجرد هذه العقيدة خالصة نقية من الاعتماد على غير الله ،
والثقة بغير الله ، ويحرر تلك القلوب من الارتباط بغير الله ، ولو كان رسول الله صلوات
الله وسلامه عليه .

﴿ ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم ، أو يعذبهم فإنهم ظالمون ﴾ (١) .

أخرج ابن أبى شيبه وأحمد بن حميد والبخارى ومسلم والترمذى والنسائى وابن
جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والنحاس فى ناسخه ، والبيهقى فى الدلائل عن أنس أن
النبي ﷺ كسرت رباعيته يوم أحد ، وشج فى وجهه حتى سال الدم على وجهه فقال :

« كيف يفلح قوم فعلوا هذا بنبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم ؟ » فأنزل الله :

﴿ ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون ﴾ (٢) .

هذه هى الرواية الأولى الصحيحة ولنحيا تلك اللحظات من السيرة النبوية :

أ - روى البيهقى عن المقداد بن عمرو رضى الله عنه ، فذكر حديثاً فى يوم أحد ،
وقال :

(.. فأوجعوا والله فينا قتلاً ذريعاً ، ونالوا من رسول الله ﷺ ما نالوا . ألا والذى

(١) آل عمران / ١٢٨ .

(٢) الدر المنثور / ٤ / ٣١٢ ، ٣١٠ ، ونص رواية البخاري عن أنس : (شج النبي ﷺ يوم أحد فقال كيف يفلح
قوم شجوا نبيهم فنزلت ليس) كتاب ٦٤ / باب ١٧ غزوة أحد / ج ٥ / ١٢٧ .

بعثه بالحق إن زال رسول الله ﷺ شبراً واحداً ، وإنه لفي وجه العدو وفيئ إليه طائفة من أصحابه مرة ، وتفترق مرة عنه ، فرمى رأيته قائماً يرمى عن قوسه ويرمى بالحجر حتى تجاوزوا (١) .

(وكان أربعة من قريش قد تعاهدوا على قتل رسول الله ﷺ ، وعرفهم المشركون بذلك ، عبد الله بن شهاب ، وعتبة بن أبي وقاص ، وابن قميئة ، وأبي بن خلف ، ورمى عتبة بن أبي وقاص يومئذ رسول الله ﷺ بأربعة أحجار وكسر ربايعته - أشطى باطنها اليمنى السفلى - وشج في وجنتيه حتى غاب حلق المغفر في وجنته ، وأصيبت ركبته فجحشتا ، وكانت حفر حفرها أبو عامر الفاسق كالخنادق للمسلمين ، وكان رسول الله ﷺ واقفاً على بعضها ولا يشعر به ، والثبت عندنا أن الذي رمى وجنتي رسول الله ﷺ ابن قميئة ، والذي رمى شفته وأصاب ربايعته عتبة بن أبي وقاص مع تجليل السيف . وكان عليه ﷺ درعان ، فوقع رسول الله ﷺ في الحفرة التي أمامه فجحشت ركبته ، ولم يصنع سيف ابن قميئة شيئاً إلا وهن الضربة بثقل السيف ، فقد وقع لها رسول الله ﷺ) (٢) .

ويروى لنا غلام أنصاري هذا المنظر فيقول : (حضرت يوم أحد وأنا غلام ، فرأيت ابن قميئة علا رسول الله ﷺ بالسيف ، فرأيت رسول الله ﷺ وقع على ركبته في حفرة أمامه حتى توارى ، فجعلت أصيح - وأنا غلام - حتى رأيت الناس ثابوا إليه ، قال : فأنظر إلى طلحة بن عبيد الله آخذاً . بحضنه حتى قام رسول الله ﷺ) (٣) .

ويروى لنا الصديق رضي الله عنه منظر آخر فيقول :

(... فانتهيت إلى رسول الله ﷺ ، وقد كسرت ربايعته ، وشج وجهه ، وقد دخل في وجنتيه حلقتان من حلق المغفر (٤) . فقال رسول الله ﷺ عليهما صاحبكما ، يريد طلحة وقد نزع الدم فتركناه ، وذهبت لأنزع ذلك من وجه رسول الله ﷺ فقال أبو عبيدة أقسمت عليك بحقي لما تركتني ، فتركته ، وكره أن يتناولها بيده فيؤذي رسول الله ﷺ . فأزم (٥) عليها بفيه ، فاستخرج إحدى الحلقتين ، ووقعت ثنيته (٦) مع تلك الحلقة ، وذهبت لأصنع ما صنع ، فقال : أقسمت عليك بحقي لما تركتني ، ففعل كما فعل في

(٢) المغازي للواقدي ١ / ١ / ٢٤٣ ، ٢٤٤ .

(١) سبل الهدى والرشاد ٤ / ٢٩٠ .

(٣) المغازي للواقدي عن الضحاك بن عثمان (صدوق مبهم) عن ضمرة ابن سعيد (ثقة) عن أبي بشير المازني وهو الغلام الأنصاري .

(٤) المغفر : حلق درع ينسج على قدر الرأس يلبس تحت القلنسوة .

(٦) ثنية : الضرس الذي في مقدم الفم .

(٥) أزم عليها بفيه : عض عليها شديداً .

المرة الأولى ، فوقعت ثنيته الأخرى مع الحلقة فكان أبو عبيدة من أحسن الناس هتماً (١) .. (٢) .

(وسال الدم فى شجته التى فى جبهته حتى أخضل الدم لحيته ﷺ ، كان سالم مولى أبى حذيفة يغسل الدم عن وجهه ورسول الله ﷺ يقول : « كيف يفلح قوم فعلوا هذا بنبيهم ، وهو يدعوهم إلى الله ؟ » فأنزل الله عز وجل : ﴿ ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم ... ﴾ (٣) .

وذاك غلام آخر ينقل لنا صورة نابضة بالحياة من هناك هو أبو سعيد الخدرى فيقول :

(وكان أبو سعيد الخدرى يحدث أن رسول الله ﷺ أصيب وجهه يوم أحد . فدخلت الحلقتان من المغفر فى وجنته ، فلما نزعنا جعل الدم يسرب كما يسرب الشن (٤) ، فجعل مالك بن سنان يملج (٥) الدم بفيه ثم ازدرده (٦) . فقال رسول الله ﷺ : من أحب أن ينظر إلى من خالط دمه دمي فلينظر إلى مالك بن سنان فليل مالك : تشرب الدم ؟ قال : نعم . أشرب دم رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ : « من مس دمي دمه لم تصبه النار » ، قال أبو سعيد : فكنا ممن ردّ من الشيخين (٧) ، لم نجز مع المقاتلة فلما كان من النهار ، وبلغنا مصاب رسول الله ﷺ وتفرق الناس عنه جثت مع غلمان من بنى خدرة نعترض لرسول الله ﷺ وننظر إلى سلامته فترجع بذلك إلى أهلنا . فلقينا الناس منصرفين ببطن قناة (٨) . فلم يكن لنا همة إلا النبى ﷺ ننظر إليه . فلما نظر إلى قال : سعد بن مالك ؟ قلت : نعم بأبى وأمى . فدنوت منه فقبلت ركبته ، وهو على فرسه ، ثم قال : أجرك الله فى أيلك ، ثم نظرت فى وجنتيه موضع الدرهم فى كل وجنة ، وإذا شجة فى جبهته عند أصول الشعر ، وإذا شفته السفلى تدمى ، وإذا رباعيته اليمنى شظية .. فجعلت أعدو بين يديه حتى نزل ببابه ، فما نزل إلا حملاً . وأرى ركبتيه مجحوشتين (٩) يتكئ على السعدين (١٠) حتى دخل بيته (١١) .

(١) هتماً : ساقط الثنيتين .

(٢) سبل الهدى والرشاد ٤ / ٢٩٥ - ٢٩٦ عن الطيالسي وابن حبان .

(٣) المغازى للواقدي ١/ ٢٤٩ . (٤) الشن : القرية القديمة .

(٥) يملج : يمسح . (٦) ازدرد : ابتلع . (٧) الشيخين : اسم مكان .

(٨) قناة : اسم مكان . (٩) مجحوشتين : مجروحتين .

(١٠) سعد بن معاذ وسعد بن عباد . (١١) المغازى للواقدي : ١ / ٢٤٧ ، ٢٤٨ .

(أما الرواية الثانية الصحيحة كذلك عن سبب نزول الآية فهي ما أخرج أحمد والبخارى والترمذى والنسائى وابن جرير والبيهقى فى الدلائل عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ يوم أحد : « اللهم العن أبا سفيان . اللهم العن الحارث بن هشام ، اللهم العن سهيل بن عمرو ، اللهم العن صفوان بن أمية » فنزلت هذه الآية ﴿ ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون ﴾ فتب عليهم كلهم (١).

ولا تعارض بين الروایتين ، فلعل هذا اللعن قد وقع عقب ما أصابه عليه الصلاة والسلام فى أحد وهو يعلم أن الذين يوقدون نار هذه الحرب ضد الله ورسوله ، هم هؤلاء الأربعة ، فأبو سفيان الذى آلت إليه زعامة قريش بعد بدر ، بعد مقتل الملاء ، والحارث بن هشام خليفة أخيه أبى جهل بن هشام ، وسهيل بن عمرو زعيم بنى عامر ، وصفوان بن أمية الذى خلف بنى جمح فى زعامتهم بعد مقتل أبيه أمية فى بدر ، وهؤلاء هم الذين مشوا ، وأوقدوا هذه الحرب .

إن مكان هذه القطعة من المعركة فى قلب المعركة ، ولكنها جاءت هنا ولما ابتدئ المعركة بعد ولما ابتدئ الحديث عنها بعد ، ولا يزال الحديث عند التعبئة الأولى للقتال ، لكن معركة العقيدة والبناء يقع أنسب مكان لها فى هذا الموقع ، فى مكان الاعتماد على الله وحده دون خلقه .

﴿ وعلى الله فليتوكل المؤمنون .. ﴾ .

﴿ وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن قلوبكم به ﴾ .

﴿ وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم ﴾ .

﴿ ليس لك من الأمر شيء ﴾ .

﴿ أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون ﴾ .

﴿ ولله مافى السموات ومافى الأرض يغفر لمن يشاء ، ويعذب من يشاء والله غفور رحيم ﴾ (٢) قلله وحده مافى السموات ومافى الأرض ، وله وحده الحكم على هؤلاء الناس فلاحاً أو شقاء ، توبة أو عذاباً ، ولله وحده الأمر ، ومن الله وحده النصر ، وعليه وحده التكلان ، ومنه البشرى ، وبذكرة تطمئن القلوب ، والجميع ستار لقدره ، ومن قدره عز وجل أن يتوب على الأربعة الكبار ، ويفلحوا بعد أن خضبوا وجه نبيهم

(٢) آل عمران / ١٢٩ .

(١) الدر المنثور ٤ / ٣١٢ .

بالدم .

فلقد قطع طرف منهم فماتوا كفاراً فى بدر ، وانقلبوا خائبين من كان منهم أحياء ، ثم كان قدر الله أن يمتد الزمن بهؤلاء الكبار الأربعة ، ويطرأ عنهم المؤمنين فى الأرض ، بدلاً من لعنة الأجيال تترى عليهم ، فذلك قدر الله ، الذى لا يعرفه أحد سواه ، ولا يحيطون بشئ من علمه إلا بما شاء .

معركة الأخلاق :

ومن الجولة الأولى فى معركة العقيدة إلى الجولة الثانية فى معركة الأخلاق .

قال تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافاً مُضَاعَافَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ، وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ، وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ، وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ، الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ . وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ . وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ، وَاللَّهُ يُحِبُّ الْحَسَنِينَ . وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ ، وَلَمْ يَصْرُوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ أُولَئِكَ جِزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ . (١)

يحسن ألا ننسى أن هذه التوجيهات القرآنية تنزل على المجتمع الإسلامى الأول على تفاوت طبقاته ففيهم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار ، وفيهم الجيل الجديد الذى غزا الإسلام قلبه بعد بدر ورأى نصر الله تعالى ينتزل على المؤمنين ، ووضح له الفرقان بين الحق والباطل من خلالها ، أى أن عمره فى الإسلام عامٌ واحدٌ فقط ، ومن بين هؤلاء الذين لا يزالون فى الصف المسلم من المنافقين ، ولا يزال النداء يتوجه إليهم ليثوبوا إلى رشدهم ، ويؤمنوا حقيقة لا نفاقاً ، ويتقوا النار التى أعدت للكافرين ، ويسارعوا إلى مغفرة من ربهم ، وتوبة نصوح تغسل حوبتهم ، وتعيد نظافتهم مما تلوثوا به من النفاق .

وكان كل فرد فى الصف المسلم يتلقى هذه الآيات حسب مستوى الإيمان عنده ليزداد الذين آمنوا إيماناً ولا يرتاب الذين فى قلوبهم مرض .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافاً مُضَاعَافَةً ، وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ،

(١) آل عمران / ١٣٠ - ١٣٦ .

واتقوا النار التي أعدت للكافرين وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون ﴿١﴾ .

ولا يزال البناء بالصبر والتقوى ، هذا البناء الذي ظهر على الساحة الخلل فيه ، فأفقد المؤمنين النصر ، لا بد أن يعودوا إلى صياغة البناء من جديد .

(أخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد قال : كانوا يتبايعون إلى الأجل ، فإذا حل الأجل زادوا عليهم وزادوا في الأجل فنزلت ﴿١﴾ يأيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة ﴿٢﴾) (١)

(يقول ابن جرير : يعنى بذلك جل ثناؤه (يأيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا في إسلامكم بعد إذ هداكم الله ، كما كنتم تأكلونه في جاهليتكم . وكان أكلهم في جاهليتهم أن الرجل منهم كان يكون له على الرجل مال إلى أجل ، فإذا حل الأجل طلبه من صاحبه ، فيقول له الذي عليه المال أخر عني دينك ، وأزيدك على مالك ، فيفعلان ذلك ، فذلك هو الربا أضعافاً مضاعفة . فنهاهم الله عز وجل في إسلامهم عنه) (٢) .

ويعجب المرء عن علاقة الربا في معركة أحد ، لكن هذا العجب سرعان ما يزول حين نعلم أن الربا ابتداء جشع في النفس ونهم إلى المال ، وحين نذكر أن هذا الداء من النهم إلى المال ، والطمع في الدنيا هو الذي قاد محنة أحد إلى المسلمين ، حين لم يتمالكوا أنفسهم أمام الغنيمة من المشركين ، وعصوا أمر رسول الله ﷺ الصريح في عدم مغادرتهم مواقعهم ، يتضح تماماً دور هذا التوجيه في أعقاب المعركة .

والدواء الأصيل للمؤمن في الخلاص من أكل الربا ، هو تقوى الله ، وخوف عذابه في النار التي أعدت للكافرين . ولكنها قد تلتهم المؤمنين العصاة ، الذين يحاربهم الله ورسوله مالم يذروا الربا .

ومن جانب آخر إذا كان الإصرار على الربا عقوبة ﴿١﴾ فأذنوا بحرب من الله ورسوله ﴿٢﴾ . والذي يحاربه الله عز وجل ليس مؤهلاً للاستخلاف من جهة ، أو النصر من جهة ثانية ، فلا بد أن يخلص الصف المؤمن من هذا الداء الويل ، ويرتفع إلى مستوى الطاعة التامة لله والرسول لتحقيق الفلاح والنجاح في الدنيا والآخرة .

لكن هل يكفى الامتناع عن الربا ، وأكله أضعافاً مضاعفة للنجاة والفلاح والنجاح؟!

لا بد من الخطوة اللاحقة لتحقيق التقوى .

(٢) تفسير الطبري ٥٩/٤ .

(١) الدر المنثور ٣١٣/٤ .

﴿ وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ﴾ والمسارعة إلى التوبة من الربا وذيوله لتحقيق المغفرة ، واتقاء النار التي أعدت للكافرين ، لابد من الخطوات الايجابية السريعة للوصول إلى الجنة التي أعدت للمتقين .

فليس الأمر كفاً عن الحرام فقط . لكنه كذلك مبادرة إلى الخيرات .

فمن هم هؤلاء المتقون ؟

﴿ الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين ﴾ .

(فليس الأمر انتهاءً عن أكل الربا أضعافاً مضاعفة لإثمار المال بالطرق الحرام ، بل هو إنفاق كذلك في السراء والضراء ، في العسر واليسر ، لإثمار المال بالطريق الحلال . إنها خطوات ضخمة في البناء ، من تنمية المال بالحرام أضعافاً مضاعفة ، إلى إنفاقه في الحلال أضعافاً مضاعفة ، في الفاقة والغنى ، والعسر واليسر والسراء والضراء ، ولا شك أن هذا يحتاج إلى خطوات متسارعة للوصول إلى هذا الأفق الوضئ . من ذلك المستنقع الوبيء ، وتبقى القضية كلها ابتداء معركة نفوس ترقى وترقى حتى تصل إلى هذا المستوى ، فوراء الربا أضعافاً مضاعفة نفوس منحطة منهمة شرهة ، تقتات على حاجة الآخرين ، ووراء الإنفاق في السراء والضراء نفوس عالية كريمة رفيعة تتخلى عن قوتها لتكفي حاجة الآخرين ، وشتان بين الثرى والثريا .

هذه النفوس تحتاج إلى بذل غير بذل المال ، تحتاج لتكون من المتقين أن تكون من : ﴿ الكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين ﴾ تحتاج ابتداءً أن توقف جماح غيظها وغضبها ، كما توقف جماح نهمها وشهوتها ، ثم تنتقل بعدها إلى العفو والإحسان إلى الإنفاق من العفو كما تنفق من المال ، إلى الصدقة بالإعراض على من شتم ، كما تتصدق بالضراء على من احتاج ، تحتاج إلى أن تكون من المحسنين . إلى من أساء إليها بالعفو والإكرام ، وإلى من احتاج النفقة أو قوت بالبذل والإكرام ، وتبقى أخيراً ضمن إطار المتقين . هذا الصبر وهذه التقوى ، الذي فات قبل أحد ، كيف يعاد ؟ وكيف يبنى من جديد ؟

كظم الغيظ وحده لا يكفي (فالغيظ انفعال بشري ، تصاحبه أو تلاحقه فورة في الدم ، فهي إحدى دفعات التكوين البشري وإحدى ضروراته ، وما يغلبه الإنسان إلا بتلك

الشفافية اللطيفة المنبعثة من إشراقة التقوى ، وإلا بتلك القوة الروحية المنبثقة من التطلع إلى أفق أعلى وأوسع من آفاق الذات ، والضرورات ، وكظم الغيظ هو المرحلة الأولى ، وهى وحدها لا تكفى ، فقد يكظم الإنسان غيظه ليحقد ويضطغن ، فيتحول الغيظ الفائر إلى إحنة غائرة ، ويتحول الغضب الظاهر إلى حقد دفين .. وإن الغيظ والغضب لأنظف وأظهر من الحقد والضغن .. لذلك يستمر النص ليقرر النهاية الطليقة لذلك الغيظ الكظيم فى نفوس المتقين - إنها العفو والسماحة والانطلاق .

إن الغيظ وقر على النفس حين تكظمه ، وشواظ يلفح القلب ، ودخان يغشى الضمير .. فأما حين تصفح النفس ، ويعفو القلب ، فهو الانطلاق من ذلك الوقر ، والرفرفة فى آفاق النور ، والبرد فى القلب ، والسلام فى الضمير .. والله يحب المحسنين) . (١)

(وحين تتجسد الآية فى واقع عملى تتضح أبعادها ، فقد روى عن ميمون بن مهران أن جاريته جاءت ذات يوم بصحفة فيها مرقة حارة ، وعنده أضياف فعثرت فصبت المرقة عليه ، فأراد ميمون أن يضربها ، فقالت الجارية : يا مولاي استعمل قول الله تعالى ﴿ والكاظمين الغيظ ﴾ قال لها قد فعلت ، فقالت : اعمل بما بعده ﴿ والعافين عن الناس ﴾ فقال : قد عفوت عنك ، فقالت الجارية ﴿ والله يحب المحسنين ﴾ قال ميمون : قد أحسنت إليك فأنت حرة لوجه الله تعالى) . (٢)

وروى عن الأحنف بن قيس مثله .

﴿ والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ، ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون ﴾ .

ثلاثة خطوط فى النفس البشرية - تنطلق هذه الآيات لتعالجها : شهوة المال ، وشهوة الغضب ، وشهوة الجنس . ولا بد من ضبط هذه الشهوات ابتداءً بحيث لا تجمع خارج الإطار ، فى الربا الماحق ، والغضب الساقط ، والفاحشة المهلكة . ثم تعود لترتفع بعدها ، إلى الإنفاق فى السراء والضراء ، وإلى العفو عن المسيء والإحسان إليه ، وإلى الاستغفار وهجر الإصرار .

وكم هو ارتباط الصبر والتقوى - بكبح جماح هذه الشهوات الثلاث ، التى يعتمل سعارها فى القلب فيؤدى لظاها إلى السعير ، بينما تقف عظمة مواجهتها حرقاً لحب المال

(٢) تفسير القرطبي ٤ / ٣٠٧

(١) فى ظلال القرآن / ١ / ج ٤ / ٤٦٩ .

بالإنفاق ، وحنقا للغيب بالإحسان للمسىء وإطفاء لهيب الشهوة الحرام بالتوبة النصوح .

وإن المتقين فى أعلى مراتب المؤمنين .. ولكن سماحة هذا الدين ورحمته بالبشر تسلك فى عداد المتقين : ﴿ الذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا الذنوبهم ﴾ .. والفاحشة أبشع الذنوب وأكبرها ، ولكن سماحة هذا الدين لا تطرد من يهون إليها من رحمة الله ، ولا تجعلهم فى ذيل القافلة .. قافلة المؤمنين .. إنما ترتفع بهم إلى أعلى مرتبة .. مرتبة « المتقين » .. على شرط واحد . شرط يكشف عن طبيعة هذا الدين ووجهته .. أن يذكروا الله فيستغفروا الذنوبهم ، وألا يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون أنه الخطيئة ، وألا يتبجحوا بالمعصية فى غير تخرج ولا حياء .. وبعبارة أخرى أن يكونوا فى إطار العبودية لله والاستسلام له فى النهاية ، فيظلوا فى كنف الله وفى محيط عفوه ورحمته وفضله .

(إن هذا الدين ليدرك ضعف المخلوق البشرى الذى تهبط به ثقله الجسد أحيانا إلى درك الفاحشة وتهيج به فورة اللحم والدم فينزو نزوة الحيوان فى حمى الشهوة ، وتدفعه نزواته وشهواته وأطماعه ورغباته إلى المخالفة عن أمر الله فى حمى الاندفاع . يدرك ضعفه هذا فلا يقسو عليه ، ولا يبادر إلى طرده من رحمة الله حين يظلم نفسه ، حين يرتكب الفاحشة .. المعصية الكبيرة ، وحسبه أن شعلة الإيمان ماتزال فى روحه لم تنطفئ .. وأن نداوة الإيمان ماتزال فى قلبه لم تحف ، وأن صلته بالله ماتزال حية لم تذبل ، وأنه يعرف أنه عبد يخطئ وأن له رباً يغفر ، وإذن فما يزال هذا المخلوق الضعيف الخاطيء المذنب بخير ، إنه سائر فى الدرب لم ينقطع به الطريق ، ممسك بالعروة لم ينقطع به الحبل ، فليعثر ماشاء له ضعفه أن يعثر ، فهو واصل فى النهاية مادامت الشعلة معه ، والحبل فى يده . ما دام يذكر الله ولا ينساه ، ويستغفره ، ويقر بالعبودية له ، ولا يتبجح بمعصيته) . (١)

﴿ أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنت تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين ﴾ . (٢)

فلا بد أن تكون النتيجة جاهزة والثمرة دائية للذين يستغفرون ولا يصرون على ما فعلوا ، فالجزاء المغفرة واللجنة التى تجرى من تحتها الأنهار .

(١) فى ظلال القرآن ٤٧٦/٢ .

(٢) آل عمران / ١٣٦ .

(أخرج عبد بن حميد والبخاري ومسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « إن رجلاً أذنب ذنباً فقال : رب إني أذنبت ذنباً فاغفره ، فقال الله : عبدى عمل ذنباً ، فعلم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به ، قد غفرت لعبدى ، ثم عمل ذنباً آخر فقال : رب إني عملت ذنباً فاغفره فقال تبارك وتعالى : علم عبدى أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به ، قد غفرت لعبدى ، ثم عملاً ذنباً آخر فقال : رب إني عملت ذنباً فاغفره ، فقال الله : علم عبدى أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به ، أشهدكم أنى قد غفرت لعبدى فليعمل ما شاء » (١) .

(وأخرج أبو يعلى عن أبي بكر عن النبي ﷺ قال : « عليكم بلا إله إلا الله والاستغفار ، فأكثروا منهما فإن إبليس قال : أهلك الناس بالذنوب ، وأهلكونى بلا إله إلا الله والاستغفار ، فلما رأيت ذلك أهلكتهم بالأهواء ، وهم يحسبون أنهم مهتدون » (٢) .

الجولة الثالثة : فى قلب المعركة

قال تعالى :

﴿ قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الأرض . فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ، هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين ، ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين ، إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله ، وتلك الأيام نداولها بين الناس ، وليعلم الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين . وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين . أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ﴾ (٣) .

يقول ابن جرير رحمه الله :

(يعنى بقوله تعالى ذكره ﴿ قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ قد خلت من قبلكم سنن مضت وسلفت فيمن كان قبلكم يامعشر أصحاب محمد وأهل الإيمان من نحو قوم عاد وثمود وقوم هود وقوم لوط وغيرهم من سلاف الأمم قبلكم سنن يعنى مثلات سير بها فيهم ، وفيمن كذبوا به من أنبيائهم الذين أرسلوا إليهم ، يامهالى أهل التكذيب فيهم ؛ واستدراجى إياهم حتى بلغ الكتاب فيهم أجله الذى أجلته لإدالة أنبيائهم وأهل الإيمان بهم عليهم ، ثم أحللت بهم

(٣) آل عمران / ١٣٧-١٤٢ .

(٢٠١) الدر المنثور / ٣٢٧ ، ٣٢٨ .

عقوبتي ، وأنزلت بساحتهم نقمتي ، فتركهم لمن بعدهم أمثالاً وعبراً ﴿ فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ يقول : فسيروا أيها الظانون أن إِدالتي من أدلت من أهل الشرك على محمد يوم أحد لغير استدراج مني لمن أشرك بي وكفر برسلي ، وخالف أمرى في ديار الأمم الذين كانوا قبلكم ممن كان على مثل الذى عليه هؤلاء المكذبون برسولى والجاحدون وحدانيتي ، فتعلموا عند ذلك أن إِدالتي من أدلت من المشركين على نبيى محمد وأصحابه بأحد إنما هى استدراج وإمهال ليبلغ الكتاب أجله الذى أجلت لهم ، ثم إما أن يؤول حالهم إلى مثل مآل عليه حال الأمم الذين سلفوا قبلهم من تعجيل العقوبة عليهم ، أو ينيبوا إلى طاعتي واتباع رسولى ، وبنحو الذى قلنا فى ذلك قال أهل التأويل (١).

لقد كانت معجزة بدر والنصر الساحق العظيم الذى تحقق فيها - قد رسم فى نفوس المؤمنين أن خط المحنة قد انتهى ، وأن خط النصر سيمضى صعداً لا تراجع فيه ولا انحناء ، ولذلك اختلفت الصورة من ﴿ كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون ﴾ إلى ﴿ ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون ﴾ (٢) إنها صورتان نفسيتان متقابلتان متعارضتان . تحمل كل واحدة فيهما مدلولاً عميقاً على أغوار هذه النفس ومسارب اتجاهاتها .

ولذلك كان لابد بعد المحنة ، وبعد الاضطراب النفسى الذى وقع ، وبعد الخلل الذى حصل ، لابد بعد هذا كله من وقفة مستأنية هادئة ، تزيل هذا الاضطراب ، وتوضح هذا الخلل ، وتدعو المؤمنين الخالص إلى أن يفقهوا بعناية ودقة سنن الله تعالى مع الأمم ، وقوانين النصر والهزيمة ، لابد من التعمق فى هذه المفاهيم ، وبعد التجربة العملية الحية ، أمكن للمؤمنين أن يفقهوا هذه السنن ، فليس الحديث الآن حديثاً نظرياً ، وفلسفة تجريدية ، إنه حديث مفعم بالدم ، مشخن بالجراح .

ومهمة هذا الكتاب الكريم الذى يتلقونه غصاً طرياً من رسول الله ﷺ - أن يقدم البيان لهذه السنن ، والهدى للمؤمنين بعد ضلال الجاهلية المظلم ، والموعظة الحية للمتقين بعدما أصابهم ما أصابهم فى أحد .

(إن القرآن ليربط ماضى البشرية بحاضرها ، وحاضرها بماضيها ، فيشير من خلال ذلك كله إلى مستقبلها وهؤلاء العرب الذين وجّه إليهم القول أول مرة لم تكن حياتهم

(٢) آل عمران / ١٤٣ .

(١) تفسير الطبرى .

ولم تكن معارفهم ، ولم تكن تجاربهم قبل الإسلام لتسمح لهم بمثل هذه النظرة الشاملة ، لولا هذا الإسلام - و كتابه القرآن - الذى أنشأهم الله به نشأة أخرى . وخلق به منهم أمة تقود الدنيا .

إن النظام القبلى الذى كانوا يعيشون فى ظله ، ما كان ليقود تفكيرهم إلى الربط بين سكان الجزيرة ومجريات حياتهم ، فضلاً عن الربط بين سكان هذه الأرض وأحداثها ، فضلاً عن الربط بين الأحداث العالمية والسنن الكونية التى تجرى وفقها الحياة جميعاً .. وهى نقله بعيدة لم تنبع من البيئة ، ولم تنشأ من مقتضيات الحياة فى ذلك الزمان ! إنما حملتها إليهم هذه العقيدة ، بل حملتهم إليها ! وارتقت بهم إلى مستواها ، فى ربع قرن من الزمان ، على حين أن غيرهم من معاصريهم لم يرتفعوا إلى هذا الأفق من التفكير العالى إلا بعد قرون وقرون ، ولم يهتدوا إلى ثبات السنن والنواميس الكونية ، إلا بعد أجيال وأجيال . فلما اهتدوا إلى ثبات السنن والنواميس نسوا أن معها كذلك طلاقة المشيئة الإلهية ، وأنه إلى الله تصير الأمور .. فأما هذه الأمة المختارة . فقد استيقنت هذا كله ، واتسع له تصورهما ، ووقع فى حسنها التوازن بين ثبات السنن وطلاقة المشيئة ، فاستقامت حياتها على التعامل مع سنن الله الثابتة والاطمئنان - بعد هذا - إلى طلاقة المشيئة (١) .

أما أولى هذه السنن :

﴿ ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين ﴾ . (٢)

ولنقف قليلاً عند المعنى المباشر للآية ، كما وردت فى المأثور من التفسير :

(أخرج ابن جرير عن الزهرى قال : كثر فى أصحاب محمد ﷺ القتل والجراح حتى خلص إلى كل امرئ منهم البأس فأنزل الله عز وجل القرآن ، فأسى فيه المؤمنين بأحسن ما أسى به قوماً من المسلمين كانوا قبلهم من الأمم الماضية ، فقال : ﴿ ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين ﴾ إلى قوله ﴿ .. لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم ﴾ . (٣) وما أروع تلك التعزية الربانية التى تقول للمؤمنين ابتداءً من تحت مطارق الموت ﴿ أنتم الأعلون ﴾ وتنتهى التعزية بأن ما وقع من القتل والجراح لا بد أن يقع حتى لو كان القتلى فى مضاجعهم النائمين فيها وعلى فرشهم وبين أهليهم ...

(٢) آل عمران / ١٣٩ .

(١) فى ظلال القرآن / ٤ / ٤٧٩ .

(٣) تفسير الطبرى / ٢ / ٦٧ / ٤ / ١٥٤ .

(وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن جريج قال : انهزم أصحاب رسول الله ﷺ في الشعب يوم أحد ، فسألوا : ما فعل النبي ﷺ ؟ وما فعل فلان ؟ فنعى بعضهم لبعض ، وتحدثوا أن النبي ﷺ قتل ، فكانوا في هم وحزن ، فبينما هم كذلك علا خالد بن الوليد بخيل المشركين فوقهم على الجبل ، وكان على أحد معجبتى المشركين ، وهم أسفل من الشعب ، فلما رأوا النبي ﷺ فرحوا ، فقال النبي ﷺ « اللهم لا قوة لنا إلا بك ، وليس أحد يعبدك بهذا البلد غير هؤلاء النفر ، فلا تهلكهم ، وثاب نفر من المسلمين رماة ، فصعدوا فرموا خيل المشركين حتى هزمهم الله ، وعلا المسلمون الجبل ، فذلك قوله ﴿ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ . (١)

وتربط هذه الرواية الآية بالحدث الواقعي الذي تم في أحد . وميزتها أنها تؤكد للمؤمنين من واقعهم العملي - أنهم حقيقة الأعلون ، حين واجهوا ذلك الطوفان البشري وهم أسفل البشر ، وخلصوا من وهنهم وحزنهم حين رأوا بارقة حياتهم الجديدة ، محمداً ﷺ حياً بين ظهرانيهم ، واستطاعوا أن يحتلوا الجبل من جديد ، ويكونوا الأعلون حقيقة في المعركة .

أما رواية ابن إسحاق فتقول :

(فبينما رسول الله ﷺ بالشعب معه أولئك النفر من أصحابه ، إذ علت عالية من قريش الجبل ، قال ابن هشام : كان على تلك الخيل خالد بن الوليد . قال ابن إسحاق : فقال رسول الله ﷺ : « اللهم إنه لا ينبغي لهم أن يعلنوا » فقاتل عمر بن الخطاب ورهط من المهاجرين حتى أهبطوهم من الجبل) . (٢)

والتعبير النبوي العظيم الخالد ، يؤكد هذا العلو : « اللهم إنه لا ينبغي لهم أن يعلنوا » يؤكد المعنى القرآني الذي نزل فيما بعد ﴿ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ .

ولا يكفي القرار النظري في الأمر ، فلا بد أن يتحول في التو إلى واقع عملي ، فمن نهض لتغيير هذا الواقع ؟ الواقع الذي جعل محمداً ﷺ وصحبه في الشعب والمشركين في قلة الجبل .

نهض ليغير هذا الواقع ، اللبنة الأولى من القاعدة الصلبة ، التي تحضر عندما يغيب الجميع عن الساحة ، ويعجز كل من في الساحة عن العمل ، عندئذ تتقدم .

(١) الدر المنثور / ٤ / ٣٣٠ .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام / ٢ / ٨٦ .

فقاتل عمر بن الخطاب ورهط معه من المهاجرين حتى أهبطوهم من الجبل ، هذا العلو المادى ، وماذا عن العلو المعنوي ؟ عن العلو الذى رفع نفس أبى سفيان فى لحظة من اللحظات - قبل أن يسلم رضى الله عنه - لأن يزهو بهبله ووثنه ويعتبر نفسه الأعلى :

(ثم إن أبى سفيان بن حرب ، حين أراد الانصراف ، أشرف على الجبل ثم صرخ بأعلى صوته فقلل : انعمت فعال ، وإن الحرب سجال ، يوم بيوم أعل هبل . وإن الموقف ليذكر بأولئك الذين يرفعون دائما راية النصر بأصبعيهم . وكأنما قد تحقق النصر)

فقال رسول الله ﷺ : قم يا عمر فأجبه فقل : « الله أعلى وأجل ، لا سواء ، قتلانا فى الجنة ، وقتلاككم فى النار » . (١)

وما قال هذا الكلام إلا بعد أن انتفخت أوداجه بمقتل قيادات المسلمين .

(لما تحاجز الفريقان أراد أبو سفيان الانصراف فأقبل على فرس حتى أشرف على المسلمين فى عرض الجبل فنادى بأعلى صوته : أفى القوم محمد ؟ ثلاثاً . فقال رسول الله ﷺ « لا تجيبوه » فقال أفى القوم ابن أبى قحافة : فقال : « لا تجيبوه » . فقال : أفى القوم ابن الخطاب ؟ فقال : « لا تجيبوه » .

(ولم يسأل عند هذه الثلاث إلا لعلمه وعلم قومه أن قيام الإسلام بهم) . فقال أبو سفيان بعد أن رجع إلى أصحابه إن هؤلاء قد قتلوا . فلو كانوا أحياء لأجابوا ، فلم يملك عمر نفسه !) (٢)

وفى حديث ابن عباس عن الإمام أحمد والطبرانى والحاكم : أن عمر بن الخطاب قال : ألا أجيبه ؟ قال : بلى (قال فى الفتح : كأنه نهى عن إجابته فى الأول وأذن فيها فى الثالثة) . فقال عمر : كذبت ياعدو الله قد أبقي الله لك ما يخزيك . إن الذين عددت لأحياء كلهم) (٣) .

فقال أبو سفيان : أعل هبل : فقال : عمر : الله أعلى وأجل ! قال أبو سفيان : إنها قد أنعمت فعال عنها : ثم قال : أين ابن أبى كبشة ؟ أين ابن أبى قحافة ؟ أين ابن الخطاب ؟ فقال عمر : هذا رسول الله ، وهذا أبو بكر ، وهذا عمر . فقال أبو سفيان : يوم بيوم بدر

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٨٦/٢ .

(٢) المغازى للواقدي ٢٩٦/ ١ ، ٢٩٧ . وهى فى البخارى كتاب ٦٤ / باب ١٣ / جده ١٢١ .

(٣) سبل الهدى والرشاد ٣٢٤/٤

ألا إن الأيام دول ، وإن الحرب سجال . فقال عمر : لا سواء قتلانا في الجنة وقتلاككم في النار ! قال أبو سفيان : إنكم تقولون ذلك ! لقد خبنا إذن وخسرنا ! قال أبو سفيان : لنا العزى ولا عزى لكم ! فقال عمر : الله مولانا ولا مولى لكم : قال أبو سفيان إنها قد أنعمت يابن الخطاب فعال عنها ، ثم قال : قم إلى يابن الخطاب أكلمك . فقام عمر . فقال أبو سفيان : أنشدك بدينك ، هل قتلنا محمداً ؟ قال عمر : اللهم لا ، وإنه ليسمع كلامك الآن ، قال : أنت عندى أصدق من ابن قميئة . (١)

(وذكر الأموى فى مغازيه : أن المشركين صعدوا على الجبل فقال رسول الله ﷺ لسعد : « ارددهم » قال : كيف أردهم وحدى ؟ فقال ذلك ثلاثاً . فأخذ سعد سهماً من كنانته فرمى به رجلاً فقتله ، قال : ثم أخذت سهمى أعرفه فرميت به آخر فقتلته ، ثم أخذته أعرفه فرميت به آخر فقتلته . فهبطوا من مكانهم .) (٢)

ونخلص من الأسباب المباشرة لنزول الآية إلى الآفاق الوضيعة التى تجول فيها هذه الآية . يقول القرطبي بصدد هذه الآية :

(﴿ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ ﴾) يعنى الغالبين على الأعداء بعد أحد ، فلم تخرجوا بعد ذلك عسكرياً إلا لظفروا فى كل عسكر كان فى عهد رسول الله ﷺ ، وفى كل عسكر كان بعد رسول الله ﷺ ، وكان فيه واحد من الصحابة كان الظفر لهم ، وهذه البلدان كلها إنما افتتحت على عهد أصحاب رسول الله ﷺ ، ثم بعد انقراضهم ما افتتحت بلدة على الوجه كما كانوا يفتتحون فى ذلك الوقت ، وفى هذه الآية بيان فضل هذه الأمة ؛ لأنه خاطبهم بما خاطب به أنبياءه ، لأنه قال لموسى ﴿ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى ﴾ وقال لهذه الأمة : ﴿ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ ﴾ وهذه اللفظة مشتقة من اسمه الأعلى . فهو سبحانه العلى ، وقال للمؤمنين : ﴿ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ ﴾ . (٣)

(﴿ وَلَا تَهْنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾) .

لا تهنوا من الوهن والضعف ، ولا تحزنوا - لما أصابكم ولما فاتكم ، وأنتم الأعلون عقيدتكم أعلى فأنتم تسجدون لله وحده ، وهم يسجدون لشيء من خلقه أو لبعض من خلقه ! ومنهجمكم أعلى ، فأنتم تسيرون على منهج من صنع الله ، وهم يسيرون على

(٢) سبل الهدى والرشاد / ٤ / ٣١١ .

(١) المغازى للواقدي / ١ / ٢٩٧ .

(٣) تفسير القرطبي / ٤ / ٢١٧ .

منهج من صنع خلق الله ! ودوركم أعلى فأنتم الأوصياء على هذه البشرية ، كلها الهداة لهذه البشرية كلها ، وهم شاردون عن المنهج ، ضالون عن الطريق ، ومكانكم فى الأرض أعلى ، فلکم وراثۃ الأرض التى وعدکم الله بها ، وهم إلى الفناء والنسيان صائرون . فإن كنتم مؤمنين حقاً فأنتم الأعلون . وإن كنتم مؤمنين حقاً فلا تهنوا ولا تحزنوا ، فإنما هى سنة الله أن تصيبوا وتصابوا على أن تكون لكم العقبى بعد الابتلاء والتمحيص) . (١)

وأن يأتى هذا الكلام من عند الله تعالى . للمؤمنين فى أحد . فى أول حديث عن سننه تعالى فى الأمم . لا فى مجال المرحلة العابرة ، واللحظة الماضية ، إنما فى مجال التحديد النوعى للمؤمنين ، وتطالبهم أن يدعوا الحزن والوهن ، فهم الأعلون طالما أنهم مؤمنون .

وهو من جهة ثانية استنهاض للهمم التى فترت ، والنفوس التى حزنت ، لتتجاوز حزنها وتعالى على مصيبتها ، وتمضى قدماً فى تحقيق ذلك الهدف .

فأى علاج فى هذا الوجود يفوق هذا العلاج ، ويشحذ تلك الهمم ، وينغص ذلك الألم ، الذى ألم بالمؤمنين ؟

﴿ إن يمسسكم قرح فقد مسَّ القوم قرح مثله ، وتلك الأيام نداولها بين الناس ، وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء ، والله لا يحب الظالمين . وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين . أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ﴾ . (٢)

لقد كان هذا القرح مرتبطاً بأسرى بدر .

(فعن على بن أبى طالب أن رسول الله ﷺ قال : إن جبرائيل هبط عليه فقال له : خيرهم يعنى أصحابك فى أسارى بدر القتل أم الفداء على أن يقتل منهم قابل مثلهم ، قالوا : الفداء ويقتل منا) . (٣)

فقد كان عدد قتلى أحد بعدد أسرى بدر ، أما الجرحى فكان عددهم أوفر وأكثر ولا بد أن نعيش فى داخل السيرة ، لنشهد شيئاً من هذا القرح . وهذا التمهيص والشهداء المجتبيين .

(٢) آل عمران / ١٤٠ - ١٤٢ .

(١) فى ظلال القرآن / ٤ / ٤٨٠ .

(٣) رواه الترمذى وقال : هذا حديث حسن غريب من حديث الثورى . وفى الباب عن ابن مسعود وأنس وأبى بردة وجبير بن مطعم .

١ - (قال ابن إسحاق : وكان أول من أقبل من المسلمين بعد التولية قيس بن محرز .. فصادفوا المشركين فدخلوا حومتهم فما أفلت منهم رجل حتى قتل ، ولقد ضاربهم قيس حتى قتل نفراً ، فما قتلوه إلا بالرمح ، نظموه ووجدوا به أربع عشرة طعنة قد جافته ، وعشر طعنات في بدنه) . (١)

٢ - (وكان عباس بن عباد بن نضلة ، وخارجة بن زيد ، وأوس بن أرقم يرفعون أصواتهم فيقول عباس : يامعشر المسلمين : الله وبنيتكم ، هذا الذي أصابكم بمعصية نبيكم ، فوعدكم النصر ما صبرتم ، ثم نزع مغفره ، وخلع درعه ، وقال لخارجة بن زيد : هل لك فيها ؟ قال : لا . أنا أريد الذي تريد ، فخالطوا القوم جميعاً وعباس يقول : ماعذرنا عند ربنا إن أصيب رسول الله ﷺ ، ومنا عين تطرف ، فيقول خارجة : لا عذر لنا عند ربنا ولا حجة ، فقتل سفيان بن عبد شمس عباساً وأخذت خارجة بن زيد الرماح فجرح بضعة عشر جرحاً ، وأجهز عليه صفوان بن أمية ، وقتل أوس بن أرقم رضى الله عنه ، ومراً مالك بن الدخشم على خارجة بن زيد ، وهو قاعد في حشوته وبه ثلاثة عشر جرحاً كلها قد خلصت إلى مقتل ، فقال : أما علمت أن محمداً قد قتل ؟ فقال خارجة : إن كان رسول الله قد قتل ، فإن الله حي لا يموت ، فقد بلغ رسول الله ﷺ فقاتل عن دينك) . (٢)

٣ - (وروى الطبراني بسند رجاله ثقات عن كعب بن مالك رضى الله عنه قال : لما كان يوم أحد وصرنا إلى الشعب . كنت أول من عرف رسول الله ﷺ ، فقلت : هذا رسول الله ﷺ ، فأشار إلي بيده أن اسكت ، ثم ألبسني لأمته ولبس لأمتي ، فلقد ضربت حتى جرحت عشرين جراحة ، أو قال : بضعة وعشرين جراحة ، كل من يضربني يحسبني رسول الله ﷺ ..) . (٣)

٤ - (روى الطيالسي وابن أبي شيبة وابن سعد والشيخان والترمذي والبخاري وغيرهم عن أنس بن مالك رضى الله عنه ، وابن إسحاق عن القاسم بن عبد الرحمن أن أنس بن النضر عم أنس بن مالك ، غاب عن بدر فشق عليه ، وقال : أول مشهد شهده رسول الله ﷺ غبت عنه ، لئن أشهدني الله تعالى قتال المشركين ليرين الله تعالى ما أصنع ، فلما كان يوم أحد ، وانكشف المسلمون فقال : اللهم إنى أعتذر إليك مما صنع هؤلاء -

(٢) سبل الهدى والرشاد / ٤ / ٣٠٥ ، ٣٠٦

(١) سبل الهدى والرشاد / ٤ / ٣٠٥ .

(٣) مجمع الزوائد للهيتمي / ٦ / ١١٢ .

يعنى أصحابه - وأبرأ إليك مما فعل هؤلاء - يعنى المشركين - فانتهى إلى رجال من المهاجرين والأنصار قد ألقوا ما بأيديهم ، فقال مايجلسكم ؟ قالوا : قتل رسول الله ﷺ ، فقال : ما تصنعون بالحياة بعده ؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله ﷺ ، ثم استقبل القوم ، فلقى سعد بن معاذ دون أحد . فقال : سعد : أنا معك . قال سعد : فاستقبل أنس القوم فلم أستطع أن أصنع ما صنع . فقال : يأسعد بن معاذ واهل لريح الجنة ، ورب النضر إنى لأجد ريحها دون أحد ، ثم تقدم فقاتل حتى قتل ، فوجدوا فى جسده بضعا وثمانين ضربة من بين ضربة بسيف وطعنة برمح ، ورمية بسهم ، قال أنس : ووجدناه قد مثل به المشركون ، فما عرفه أحد منا إلا أخته بشامة - أو بينانه ، فكنا نرى أو نظن هذه الآية نزلت فيه وفى أشباهه ﴿ رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه .. ﴾ . (١)

٥ - (وروى محمد بن سعد الأسلمي عن شيوخه وابن وهب عن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه أن عبد الله بن جحش قال له يوم أحد : ألا تأتى ندعو الله تعالى فى ناحية ، فدعا سعد فقال : يارب إذا لقيت العدو غداً فلقينى رجل شديد بأسه ، شديد حرده أقاتله ، فيك ويقاتلنى ثم ارزقنى الظفر عليه حتى أقتله ، وأخذ سلبه ، فأمن عبد الله بن جحش . ثم قال : اللهم ارزقنى رجلاً شديداً بأسه ، شديداً حرده أقاتله فيك ، يقاتلنى فيقتلنى ، ثم يأخذنى فيجدع أنفى وأذنى ، فإذا لقيتك . قلت : ياعبدى فيم جدع أنفك وأذنك ؟ فأقول : فيك وفى رسولك ، فيقول الله تعالى : صدقت . قال سعد : كانت والله دعوة عبد الله بن جحش خيراً من دعوتى ولقد رأيته آخر النهار وإن أذنيه وأنفه معلقات فى خيط .) (٢)

٦ - (روى محمد بن سعد عن محمد بن شريحيل العبدري قال : حمل مصعب بن عمير اللواء يوم أحد فقطعت يده اليمنى ، فأخذ اللواء بيده اليسرى ، وهو يقول : ﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ﴾ الآية ، ثم قطعت يده اليسرى ، فحنى على اللواء وضمه بعضديه إلى صدره وهو يقول : ﴿ وما محمد إلا رسول .. ﴾ الآية ، ثم قتل فسقط اللواء ، قال محمد بن شريحيل وما نزلت هذه الآية ﴿ .. وما محمد إلا رسول ﴾ يومئذ حتى نزلت بعد .) (٣)

٧ - (وقال ابن إسحاق ومحمد بن عمر : (لما انصرف المشركون أقبل المسلمون

(٢) سبل الهدى والرشاد ٤ / ٣٢٢ .

(١) البخارى كتاب ٦٤ باب ١٧ / ج ٥ / ١٢٣ .

(٣) المغازى للواقدي ١ / ٢٣٩ .

على موتاهم يطلبونهم وروى الحاكم والبيهقي عن زيد بن ثابت رضى الله عنه وابن إسحاق عن شيوخه : أن رسول الله ﷺ قال : « من ينظر لى ما فعل سعد بن الربيع أفى الأحياء أم فى الأموات ؟ فإنى رأيت اثنى عشر رمى شرعى إليه » فقام رجل من الأنصار - فنظر فى القتلى فناداه ثلاثاً فلم يجبه ، فقال : إن رسول الله ﷺ أمرنى أن أنظر إلى خبرك ، وفى حديث زيد : فبعثنى رسول الله ﷺ يوم أحد لأنظر سعد بن الربيع ، وقال : إن رأيت فأقره منى السلام ، وقل له : كيف تجدك ؟ قال : فأصبتة وهو فى آخر رمق ، وبه سبعون ضربة ما بين طعنة برمح وضربة بسيف ، ورمية بسهم فقلت إن رسول الله ﷺ أمرنى أن أنظر أفى الأحياء أنت أم فى الأموات ؟ فقال : أنا فى الأموات ، فأبلغ رسول الله ﷺ عنى السلام ، وقل له : إن سعد بن الربيع يقول : جزاك الله تعالى عنا خير ما جزى نبياً عن أمته ، وقل له : إنى أجد ريح الجنة ، وأبلغ قومك عنى السلام وقل لهم : إن سعد بن الربيع يقول لكم : إنه لا عذر لكم عند الله إن يخلص إلى رسول الله ﷺ ومنكم عين تطرف ، ثم لم يرح أن مات ، فجاء رسول الله ﷺ فأخبره خبره (١) .

٨ - قال ابن إسحاق : وخرج رسول الله ﷺ فيما بلغنى يلتمس حمزة بن عبد المطلب . قال محمد بن عمر وغيره وجعل يقول : ما فعل عمى ؟ ويكرر ذلك ، فخرج الحارث بن الصمة يلتمسه فأبطأ ، فخرج على فوجد حمزة ببطن الوادى مقتولاً ، فأخبر النبى ﷺ فخرج يمشى حتى وقف عليه ، فوجده قد بقر بطنه عن كبده ، ومثل به فجذع أنفه وأذناه فنظر إلى شىء لم ينظر إلى شىء قط كان أوجع لقلبه منه . ونظره وقد مثل به (٢) .

٩ - (وروى أبو داود عن هشام بن عامر الأنصاري قال : جاءت الأنصار يوم أحد فقالوا : يا رسول الله لقد أصابنا قرح وجهه ، فكيف تأمرنا ؟ قال : احضروا وأعمقوا ووسعوا ، واجعلوا الرجلين والثلاثة فى القبر الواحد ، قيل : يا رسول الله فأيهم يقدم ؟ قال : أكثرهم قرأناً (٣) .

١٠ - (وروى الترمذي وحسنه وعبد الله بن الإمام أحمد فى زوائد المسند والنسائي وابن المنذر وابن خزيمة فى فرائده وابن حبان والضياء فى صحيحيهما عن أبي بن كعب رضى الله عنه قال : لما كان يوم أحد أصيب من الأنصار أربعة وستون رجلاً من المهاجرين

(١) ابن إسحاق والواقدي والحاكم والبيهقي وفى المغازي / ١ / ٢٩٢ - ٢٩٣ .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام / ٢ / ٩٥ . (٣) كتاب الجنائز / ٦٧ باب تعميق القبر .

سنة . منهم حمزة ، فمَثَّلُوا به ، فقالت الأنصار : لئن أصبنا منهم يوماً مثل هذا لنرين عليهم ، فلما كان فتح مكة أنزل الله تعالى : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عَاقَبْتُمْ بِهِ ، وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴾ (١) .

فقال رسول الله ﷺ : نصبر ولا نعاقب ، كفوا عن القوم إلا أربعة .. (٢) .

وعن قتادة قال : (ما نعلم حياً من أحياء العرب أكثر شهيداً أعز يوم القيامة من الأنصار) .

﴿ إِنْ بِمَسْئِكُمْ قَرَحَ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرَحٌ مِثْلُهُ . وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نَدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ . وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ . وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ . وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴾ (٣) .

لقد شهدنا قرح المؤمنين ، وتداول الأيام بين المؤمنين والكافرين ، والحكمة كما يذكرها جل شأنه ليس هو ان المؤمنين على الله ، بل تمحيصهم ليعرف الصادق من المنافق ، وهدف آخر .

﴿ وَيَتَّخِذُ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ ﴾ . فهو يصطفيهم لأنه يحبهم ، وقد صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، والله لا يحب الظالمين .

إن الله تعالى اطلع على المؤمنين ؛ فأحب أن يتخذ ويختار ويصطفى منهم هؤلاء السبعين ، وهذه نماذج جديدة من السبعين كانت في الدفعات الأولى من الشهداء ، يظهر فيها اصطفاء الله تعالى لهم :

١ - (لما خرج رسول الله ﷺ إلى أحد رُفِعَ حُسَيْلٌ وثابت بن وقش في الآطام مع النساء والصبيان ، فقال أحدهما لصاحبه - وهما شيخان كبيران - لا أبالك ما ننتظر ، فوالله ما بقي لواحد منا من عمره إلا ظِمٌّ حمار ، إنما نحن هامة اليوم أو غداً ، أفلا نأخذ أسيفنا ، ثم نلحق برسول الله ﷺ لعل الله تعالى يرزقنا الشهادة ، فأخذنا أسيفهما ، ثم خرجا حتى دخلا في الناس من جهة المشركين ، ولم يعلم المسلمون بهما ، فأما ثابت فقتله المشركون ، وأما حُسَيْلٌ فاختلفت عليه أسياف المسلمين فقتلوه ، ولم يعرفوه ، فقال حذيفة : أبني ، فقالوا : ما عرفناه ، وصدقوا . فقال حذيفة : يغفر الله لكم ، وهو أرحم

(٢) سنن الترمذی / ١١ / ٢٨٩ ، ٢٩٠ .

(١) النحل / ١٢٦ .

(٣) آل عمران / ١٤٠ ، ١٤١ .

الراحمين ، فأراد رسول الله ﷺ أن يديه ، فتصدق حذيفة بديته على المسلمين ، فزاده ذلك عند رسول الله ﷺ خيراً (١) .

٢ - (مقتل مخيريق : هو من بني النضير .. وكان عالماً من أحبار يهود ، وكان يعرف رسول الله ﷺ بصفته ، وما يجد في علمه ، وغلب عليه إلف دينه ، فلما كان يوم السبت قال والله يا معشر يهود ، إنكم لتعلمون أن نصر محمد عليكم لحق . قالوا : اليوم يوم السبت قال : لا سبت لكم ، ثم عهد إلى من وراءه من قومه : إن قتلت هذا اليوم فأموالي إلى محمد يصنع فيها ما أراد ، ثم أخذ سلاحه ، فخرج ، فلما اقتتل الناس قاتل حتى قتل ، فكان رسول الله ﷺ يقول : « مخيريق خير يهود » . (٢) .

٣ - (مقتل الأصيرم : روى ابن إسحاق عن محمود بن لبيد وأبو داود والحاكم عن أبي هريرة رضي الله عنهما أن الأصيرم كان يأبى الإسلام على قومه ، فجاء ذات يوم ورسول الله ﷺ وأصحابه بأحد ، فقال : أين سعد بن معاذ ؟ ف قيل : بأحد ، فقال : أين بنو أخيه ؟ قيل بأحد ، فسأل عن قومه ف قيل بأحد ، فبدأ له في الإسلام فأسلم ، وأخذ بسيفه ورمحه وأخذ لأمته ، وركب فرسه فعدا حتى دخل في عرض الناس ، فلما رآه المسلمون قالوا : إليك عنا يا عمرو ، قال إني قد آمنت ، فقاتل حتى أثبتته الجراحة ، فبينما رجال من بني عبد الأشهل يلتمسون قتلاهم في المعركة إذا هم به ، فقالوا : والله إن هذا للأصيرم ، ما جاء به ؟ لقد تركناه ، وإنه لمنكر لهذا الحديث ، فسألوه : ما جاء به ؟ فقالوا : ما جاء بك ؟ أحذب على قومك أم رغبة في الإسلام ؟ . فقال : بل رغبة في الإسلام ، آمنت بالله تعالى ورسوله ، وأسلمت ثم أخذت سيفي فغدت مع رسول الله ﷺ ، ثم قاتلت حتى أصابني ما أصابني ، وإن مت فأموالي إلى محمد يضعها حيث شاء . ولفظ أبي هريرة : فجاء سعد بن معاذ فقال لأخيه : سله حمية لقومه أو غضباً لله ورسوله ؟ فقال : بل غضباً لله ورسوله ؟ فقال : غضباً لله ورسوله ، ثم لم يلبث أن مات في أيديهم ، فذكروه لرسول الله ﷺ فقال : إنه من أهل الجنة (٣) .

وأى جلاء ووضوح لاتخاذ الشهداء واصطفائهم من ربهم ، واختيارهم حباً لهم أوضح وأجلى من هذه الصور الأربع : للشيخين الكبيرين في الحصن يندفعان منه للشهادة وللفتيتين مخيريق اليهودي والأصيرم المشرك ، يسلمان ويتجهان لحظة إسلامهما للجهاد ،

(٢) المصدر نفسه / ٢ / ٨٩ .

(١) السيرة النبوية لابن هشام / ٢ / ٨٧ .

(٣) السيرة النبوية لابن هشام / ٢ / ٩٠ .

فيتلقاهما ربهما بالشهادة .

والله لا يحب الظالمين ، إذ لا تتضح الصورة إلا بعرض قزمان كذلك ، مع هؤلاء الأربعة ، ويتجلى الفرق بين الشهداء المصطفين ، والظالمين الممقوتين .

(وكان يعرف بالشجاعة وكان رسول الله ﷺ يقول إذا ذكر له : « إنه من أهل النار » ، فتأخر يوم أحد فغيرته نساء بني ظفر ، فأتى رسول الله ﷺ وهو يسوى الصفوف حتى انتهى إلى الصف الأول ، فكان أول من رمى من المسلمين بسهم ، فجعل يرسل نبلاً كأنها الرماح ، ويكُتُ كتيت الجمل ، ثم فعل بالسيف الأفاعيل حتى قتل سبعة أو تسعة وأصابته جراحة ، فوقع فناداه قتادة بن النعمان : يا أبا الفيداق هنيئاً لك الشهادة ، وجعل رجال من المسلمين يقولون له : والله لقد أبلت اليوم يا قزمان فأبشر ، قال : بماذا أبشر ؟ فوالله ما قاتلت إلا على أحساب قومي ولولا ذلك ما قاتلت ، ثم تحامل على سيفه فقتل نفسه ، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال : « إنه من أهل النار ، إن الله تعالى يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر » . (١) .

لقد انتهوا إلى القتل ، فكان أولاء إلى الجنة شهداء ، وكان هذا إلى النار ، وآن لدعاة القومية والوطنية أن يرفعوا ويراجعوا حساباتهم مع الله ، وأن الذى يقتل لغير الله - حمية لقومه - أو عصبية لوطنه ، أو رياء لشخصه ، فهو من أهل النار . ولو قاتل تحت راية النبي عليه الصلاة والسلام .

ولنتابع العرض مع نماذج الشهداء ، الذين رقت أرواحهم ، وصفت نفوسهم . فرأوا الشهادة رأي عين قبل أن يذوقوها .

٤ - (ذكر محمد بن عمر أن خيثمة قال يوم أحد : يا رسول الله لقد أخطأتني وقعة بدر ، وكنت والله حريصاً عليها ، حتى ساهمت ابني في الخروج ، فخرج سهمه فرزق الشهادة ، وقد رأيته البارحة في النوم في أحسن صورة يسرح في ثمار الجنة وأنهارها ، ويقول : الحق بنا ترافقنا في الجنة ، فقد وجدت ما وعدني ربي حقاً ، وقد والله يا رسول الله أصبحت مشتاقاً إلى مرافقته في الجنة ، فادع الله تعالى أن يرزقني الشهادة ، ومرافقته في الجنة ، فدعا له رسول الله ﷺ فقتل في أحد) (٢) .

٥ - (روى ابن إسحاق عن محمود بن لبيد وابن سعد عن عروة وأبو نعيم عن يحيى

(٢) سبل الهدى والرشاد / ٤ / ٣٢٣ .

(١) سبل الهدى والرشاد / ٤ / ٣١٧ .

ابن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه عن جده قالوا : لما انكشف المشركون ضرب حنظلة فرس أبي سفيان بن حرب فوقع على الأرض ، فصاح وحنظلة يريد ذبحه ، فأدركه الأسود بن شداد فحمل على حنظلة بالرمح فأنفذه ، ومشى إليه حنظلة في الرمح وقد أثبتته ، ثم ضربه الثانية فقتله ، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال : « إني رأيت الملائكة تُغسله بين السماء والأرض بماء المزن في صحاف الفضة » .

قال أبو أسيد الساعدي : فذهبنا إليه فإذا رأسه يقطر ماءً ، فقال رسول الله ﷺ : فاسألوا أهله ما شأنه ؟ فسألوا صاحبتة عنه ، فقالت : خرج وهو جنب حين سمع الهاتفة ، فقال رسول الله ﷺ فلذلك غسلته الملائكة (١) .

٦ - (مقتل عمرو بن الجموح : كان عمرو أعرج شديد العرج ، وكان له بنون أربعة مثل الأسد ، يشهدون مع رسول الله ﷺ المشاهد ، وهم خلاد ومعوذ ومعاذ وأبو أيمن ، فلما كان يوم أحد أرادوا حبسه ، قالوا : إن الله قد عذرك ، فأتى رسول الله ﷺ فقال : إن بني يريدون أن يحبسوني عن هذا الوجه ، والخروج معك فيه ، فوالله إني لأرجو أن أطأ بعرجتي هذه الجنة ، فقال له رسول الله ﷺ : أما أنت فقد عذرك الله تعالى فلا جهاد عليك ، وقال لبنيه : ما عليكم ألا تمنعوه لعل الله أن يرزقه الشهادة ، فخرج يقول وهو مستقبل القبلة : اللهم لا تردني إلى أهلي خائباً ، فقتل شهيداً (٢) .

وروى الإمام أحمد عن قتادة بن الحارث قال : أتى عمرو بن الجموح إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله أرأيت إن قاتلت في سبيل الله حتى أقتل أمشي برجلي هذه صحيحة في الجنة ؟ وكانت رجله عرجاء - فقال رسول الله ﷺ : نعم ، فقتلوه يوم أحد هو وابن أخيه ومولى لهم ، فمر عليه رسول الله ﷺ وقال كأنني أنظر إليك تمشي برجلك هذه صحيحة في الجنة ، فأمر بهم رسول الله ﷺ فجعلوا في قبر واحد (٣) .

٧ - (مقتل عبد الله بن عمرو بن حرام :

وروى محمد بن عمر عن شيوخه قالوا : قال عبد الله بن عمرو بن حرام : رأيت في النوم قبل أحد مبشر بن عبد المنذر يقول لي : أنت قادم علينا في أيام ، فقلت : وأين أنت ؟ قال : في الجنة ، أسرح بها كيف أشاء ، قلت : ألم تقتل يوم بدر ؟ قال : بلى ، ثم أحييت ، فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال : هذه الشهادة يا أبا جابر (٤) .

(١) سبل الهدى والرشاد / ٤ / ٣١٤ .

(٢) سبل الهدى والرشاد / ٤ / ٣١٥ .

(٤) المغازي للواقدي / ١ / ٢٦٦ .

٨ - (وأقبل وهب بن قابوس المزني ، ومعه ابن أخيه الحارث بن عقبة المزني بغنم لهما من جبل مزينة فوجدا المدينة خلوا ، فسألا : أين الناس ؟ فقالوا : بأحد ، خرج رسول الله ﷺ يقاتل المشركين من قريش ، فقالا : لا نبتغي أثرا بعد عين ، فخرجا حتى أتيا النبي ﷺ بأحد فيجدان القوم يقتتلون ، والدولة لرسول الله ﷺ وأصحابه فأغاروا مع المسلمين في النهب ، وجاءت الخيل من ورائهم ، خالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل فاختلفوا ، فقاتلا أشد القتال ، فانفرت فرقة من المشركين ، فقال رسول الله ﷺ : « من لهذه الفرقة ؟ » فقال : وهب بن قابوس : أنا يا رسول الله ، فقام فرماهم بالنبل حتى انصرفوا ، ثم رجع . فانفرت فرقة أخرى ، فقال رسول الله ﷺ : « من لهذه الكتيبة ؟ » فقال المزني : أنا يا رسول الله ، فقام فذبحها بالسيف حتى ولوا ، ثم رجع المزني ، ثم طلعت كتيبة أخرى فقال : « من يقوم لهؤلاء ؟ » فقال المزني : أنا يا رسول الله . فقال : « قم وأبشر بالجنة » . فقام المزني مسرورا يقول : والله لا أقبل ولا أستقبل ، فقام فجعل يدخل فيهم فيضرب بالسيف ورسول الله ﷺ ينظر إليه والمسلمون حتى خرج من أقصاهم ، ورسول الله ﷺ يقول : « اللهم ارحمه » ، ثم يرجع فيهم فما زال كذلك وهم محدقون به ، حتى اشتملت عليه أسيافهم ورماحهم فضاءه ، فوجد به يومئذ عشرون طعنة برمح كلها قد خلصت إلى مقتل ، ومثل به أقبح المثل يومئذ ، ثم قام ابن أخيه فقاتل كنهو قتاله حتى قتل ، فكان عمر ابن الخطاب يقول : إن أحب ميتة أموت عليها لما مات عليه المزني (١) .

٩ - (عن يزيد بن رومان قال : قال خوات بن جبير : لما كثر المشركون انتهوا إلى الجبل ، وقد عرى من القوم ، وبقي عبد الله بن جبير في عشرة نفر ، فهم على رأس عينين ، فلما طلع خالد بن الوليد وعكرمة في الخيل ، قال لأصحابه : انبسطوا نشزا لثلا يجوز القوم ، فصفوا وجه العدو ، واستقبلوا الشمس فقاتلوا ساعة حتى قتل أميرهم عبد الله بن جبير ، وقد جرح عامتهم ، فلما وقع جردوه ومثلوا به أقبح المثل ، وكانت الرماح قد شرعت في بطنه حتى خرقت ما بين سرته إلى خاصرته إلى عاتته ، فكانت حشوته قد خرجت منها (٢) ..) .

١٠ - (وعن الحارث بن الفضيل الخطمي ، قال : أقبل ثابت بن الدحداحة يومئذ والمسلمون أوزاع قد سقط في أيديهم ، فجعل يصيح : يا معشر الأنصار ، إلى ! إلى ! أنا ثابت بن الدحداحة ، إن كان محمد قد قتل فإن الله حي لا يموت ! فقاتلوا عن دينكم ،

(١) المغازي للواقدي ١ / ٧٥ .

(٢) المصدر نفسه / ٢٨٤ .

فإن الله مظهركم وناصركم . فنهض إليه نفر من الأنصار ، فجعل يحمل بمن معه من المسلمين ، وقد وقفت لهم كتيبة خشناء ، فيها رؤساؤهم خالد بن الوليد ، وعمر بن العاص ، وعكرمة بن أبي جهل ، وضرار بن الخطاب . فجعلوا يناوشونهم وحمل عليه خالد بن الوليد بالرمح فطعنه فأنفذه فوق ميثا ، وقتل من كان معه من الأنصار ، فيقال : إن هؤلاء لآخر من قتل من المسلمين ، ووصل رسول الله ﷺ إلى الشعب مع أصحابه ، فلم يكن هناك قتال (١) .

(وروى الحاكم بسند صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : جاء على بسيفه يوم أحد وقد انحنى فقال لفاطمة : هاك السيف حميداً ، فإنه قد شفاني اليوم ، فقال رسول الله ﷺ : لئن أجدت الضرب بسيفك ، لقد أجاد سهل بن حنيف ، وأبو دجانة ، وعاصم ابن ثابت ، والحارث بن الصمة (٢) .

(﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ﴾) .
لقد شهدنا نماذج كافية عن الذين جاهدوا في سبيل الله ، والذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، وشهدنا الصابرين على المكارِه والشدائد في البأساء والضراء وحين البأس .

وسنعرض لنماذج من المؤمنات الصابرات لتكتمل الصورة ؛ فالصابرون من الرجال غالباً يبرز صبرهم في الشدائد والمحن ، وقاتل العدو ، لكن جزع المرأة وهلعها وفقدانها صبرها على مصيبة الأهل والولد - هو الغالب . وذلك لتتجلى صورة هذه المحنة التي أراد الله بها تمحيص الصف المؤمن ، وتوضح هذه الصورة بجلاء إذا رافقنا رسول الله ﷺ في عودته إلى المدينة :

١ - لما فرغ رسول الله ﷺ من دفن أصحابه رضي الله عنهم ، ركب فرسه وخرج المسلمون حوله راجعين إلى المدينة فلقيته حمنة بنت جحش ، فقال لها رسول الله ﷺ : « يا حمنة احتسبي » ، قالت : من يا رسول الله ؟ قال : « خالك حمزة بن عبد المطلب » ، قالت : إنا لله وإنا إليه راجعون ، غفر الله له ، هنيئاً له الشهادة . ثم قال لها : « احتسبي » قالت : من يا رسول الله ؟ قال : « أخوك عبد الله بن جحش » ، قالت : إنا لله وإنا إليه راجعون ، غفر الله له . هنيئاً له الشهادة ، ثم قال لها : « احتسبي » . قالت : من يا رسول الله ؟ قال : « زوجك مصعب بن عمير » ، فقالت : واحزنه ، وفي لفظ : واعقره ،

(١) المصدر نفسه / ٢٨١ .

(٢) المستدرک / ٣ / ٢٤ .

وصاحت وولولت . فقال رسول الله ﷺ : « إن زوج المرأة منها ليمكن ؛ لما رأى من تثبتها على أخيها وخالها ، وصياحها على زوجها ، ثم قال لها : « لم قلت هذا ؟ قالت : يا رسول الله ذكرت يتم بنيه فراعني ، فدعا لها رسول الله ﷺ ولولدها أن يحسن الله تعالى عليهم من الخلف » (١) .

(وهذا نموذج من نساء المهاجرات الأول رضى الله عنها .

ولنشهد . ونحن نتابع المسيرة . نماذج من نساء الأنصار . اللائي أحبين رسول الله ﷺ أكثر من سمعن وبصرهن وأهلن وولدهن .

٢ - وأقبل رسول الله ﷺ حتى طلع على بنى عبد الأشهل وهم يكون على قتلاهم فذرفت عيننا رسول الله ﷺ ثم قال : « لكن حمزة لا بواكى له » (٢) .

(ومضى سعد بن معاذ إلى نسائه ونساء قومه ، فساقهن حتى لم تبق امرأة إلا جاء بها إلى بيت رسول الله ﷺ يكيّن حمزة بين المغرب والعشاء ، والناس في المسجد يوقدون النيران ويتكمدون بها من الجراح) (٣) .

(وأذن بلال العشاء حين غاب انشفق الأحمر ، فلم يخرج رسول الله ﷺ حتى ذهب ثلث الليل ثم ناداه الصلاة يا رسول الله ، فهب رسول الله ﷺ من نومه وخرج . فإذا هو أخف في مشيته منه حين دخل وسمع البكاء ، فقال : ما هذا ؟ فقيل : نساء الأنصار يكيّن على حمزة فقال : « رضى الله عنكن وعن أولادكن » ، وأمر أن ترد النساء إلى منازلهن) (٤) .

وذكر ابن هشام أنه ﷺ خرج عليهن ، وهن على باب المسجد يكيّن على حمزة ، فقال : ارجعن رحمكن الله ، لقد واسيتن . رحم الله الأنصار . فإن المواساة فيهم ما علمت فزعة ، فرجعن بليل مع رجالهن) (٥) .

٣ - وهذه سيدة نساء الأنصار ، أم من اهتز له العرش ، وقد أصبحت ثكلى بوليدها الحبيب عمرو بن معاذ ، وقد خرجت تستقبل رسول الله ﷺ .

(١) المغازى للواقدي / ١ / ٢٩١ ، ٢٩٢ .

(٢) سبل الهدى والرشاد / ٤ / ٣٣٧ وقال : رواه أبو يعلى برجال الصحيح وأحمد وابن ماجه بسند صحيح ج ١ /

١٥٩ .

(٤) المصدر نفسه عن المغازى / ١ / ٣١٧ .

(٣) سبل الهدى والرشاد / ٤ / ٣٣٧ .

(٥) السيرة النبوية لابن هشام / ٢ / ٩٩ .

(وجاءت أم سعد بن معاذ وهي كبشة بنت رافع تعدو نحو رسول الله ﷺ وقد وقف على فرسه ، وسعد بن معاذ أخذ بعنان فرسه ، فقال سعد : يا رسول الله : أمي ! فقال : مرحباً بها ! فدننت حتى تأملت رسول الله ﷺ وقالت : أما إذ رأيتك سالماً فقد أشوت المصيبة فعزاها رسول الله ﷺ بعمر بن معاذ ابنها ثم قال : « يا أم سعد أبشري وبشري أهلكهم ، أن قتلهم ترافقوا في الجنة جميعاً ، وقد شفّعوا في أهلهم » ، قالت : رضينا يا رسول الله ، ومن ييكى عليهم بعد هذا ؟ !

ثم قالت : يا رسول الله ادع لمن خلفوا . فقال :

« اللهم اذهب حزن قلوبهم ، واجبر مصيبتهم ، واحسن الخلف على من خلفوا » . ثم قال : « خل أبا عمرو - يعني سعد بن معاذ - الدابة ، فخلي سعد الفرس ، فتبعه الناس فقال : يا أبا عمرو إن الجراح في أهل دارك فاشية ، وليس منهم مجروح إلا يأتي يوم القيامة جرحه كأغزر ما كان ، اللون لون دم ، والريح ريح مسك ، فمن كان مجروحاً فليقر في داره . وليداو جرحه ، ولا يبلغ معي بيتي ، عزيمة مني » فنادى فيهم سعد : عزيمة من رسول الله ﷺ ألا يتبع رسول الله ﷺ جريح من بني عبد الأشهل ، فتخلف كل مجروح ، فباتوا يوقدون النيران ، ويداوون الجرحى . ومضى سعد مع رسول الله ﷺ حتى جاء بيته .. فما نزل نبي الله ﷺ عن فرسه إلا حملاً . متكئاً على سعد بن عبادة وسعد بن معاذ حتى دخل بيته (٢) .

« والله لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار » .

هكذا يقول عليه الصلاة والسلام . وبني عبد الأشهل غرة جبين الأنصار . كما يقول عليه الصلاة والسلام : (خير دور الأنصار بنو النجار ، ثم بنو عبد الأشهل ، ثم بنو الحارث ابن خزرج ، ثم بنو ساعدة ، وفي كل دور الأنصار خير) (٣) .

فهم الطبقة الثانية في الخيرية بعد بني النجار . وهي الذين قال لهم سعد يوماً :

كلام رجالكم ونسائكم على حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله فلم يبق من بني عبد الأشهل من رجل ولا امرأة ولا صبي إلا أسلم ، هؤلاء الذين أسلموا هذا الإسلام الجماعي . كانوا النماذج الحية الخالدة في الإسلام . فعندما جد الجد ودعا منادى الجهاد .

(١) سبل الهدى والرشاد / ٤ / ٣٣٦ عن المغازي للواقدي / ١ / ٣١٥ ، ٣١٦

(٢) البخاري / ٦٤٥ / ٥ / ٣٨ .

كانوا أسداً حول رسول الله ﷺ ، وكانوا أكثر القوم شهداء وجرحى ، فحققت لهم هذه الشهادة . وشهدنا نماذجهم : جالا ونساءً ، وسيدهم سعد بن معاذ . الذى اهتز له عرش الرحمن .

٤ - (ولنشهد مودجاً من الخيرية الأولى ، من بنى النجار ، مر رسول الله ﷺ بامرأة من بنى دينار ^(١) قد أصيب أبوها وزوجها وأخوها مع رسول الله ﷺ بأحد ، فلما نَعُوا إليها قالت : ما فعل رسول الله ﷺ ؟ قالوا خيراً يا أم فلان ، هو بحمد الله كما تحبين ، قالت : أرونيه حتى أنظر إليه ، فأشير بها إليه .

فلما رأته قالت : كل مصيبة بعدك جلل) ^(٢) .

(وروى الطبرانى عن أنس بن مالك رضى الله عنه : لما كان يوم أحد حاص أهل المدينة حيصة وقالوا : قُتل محمد . حتى كثر الصراخ فى ناحية المدينة ، فخرجت امرأة من الأنصار محزومة ، فاستقبلت بأبيها وابنها وزوجها وأخيها ، لا أدري أيهم استقبلت به أولاً ، فلما مرت على آخرهم قالوا : أبوك ، زوجك ، أخوك ، ابنك . فتقول : ما فعل رسول الله ؟ يقولون : أمامك . حتى دفعت إلى رسول الله ﷺ . فأخذت بناحية ثوبه ثم قالت : بأبى أنت وأمى يا رسول الله ، لا أبالى إذا سلمت من عطب) ^(٣) .

(وروي ابن أبى حاتم عن عكرمة مرسلاً قال لما أبطأ الخبر على النساء خرجن يستخبرن فإذا رجلان مقتولان على دابة أو بعير ، فقالت امرأة من الأنصار : من هذان ؟ قالوا : فلان وفلان أخوها وزوجها ، أو زوجها وابنها ، فقالت : ما فعل رسول الله ﷺ ؟ قالوا : حى . قالت : فلا أبالى ، يتخذ الله من عباده شهداء .

وأنزل الله تعالى على ما قالت : ﴿ ويتخذ منكم شهداء ﴾ ^(٤) .

٥ - (... واستشهد ابنه خلاد بن عمرو ، وعبد الله بن عمرو بن حرام والد جابر . فحملتهم هند بنت عمرو بن حرام زوجة عمرو بن الجموح على بعير لها تريد بهم المدينة ، فلقيتها أم المؤمنين عائشة - رضى الله عنها - ، وقد خرجت فى نسوة تستروح

(١) بنو دينار فرع من بنى النجار .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام / ٢ / ٩٩ .

(٣) مجمع الزوائد للهيثمى / ٦ / ١١٥ ، وقال الهيثمى : رواه الطبرانى فى الأوسط عن شيخه محمد بن شعيب ولم أعرفه وبقية رجاله ثقات .

(٤) الدر المنثور / ٢ / ٣٣٣ .

الخبر ، ولم يضرب الحجاب يومئذ فقالت لها : هل عندك خبر ؟ ما وراءك ؟ . قالت : أما رسول الله ﷺ فصالح ، وكل مصيبة بعد جلال ، واتخذ الله من المؤمنين شهداء ، قالت : عائشة من هؤلاء ؟ قالت : أخى وابنى خلاد وزوجى عمرو بن الجموح . قالت : وأين تذهبين بهم ؟ قالت : إلى المدينة أقبرهم فيها . ثم قالت : حلّ حلّ تزجر بعيرها فبرك ، فقالت لها عائشة : لما عليه ؟ . قالت : ما ذاك به لربما حمل ما يحمل بعيران ، ولكن أراه لغير ذلك وزجرته فقام وبرك ، فوجهته راجعة إلى أحد ، فأسرع ، فرجعت إلى النبي ﷺ فأخبرته بذلك ، فقال : « إن الجمل مأمور ، هل قال عمرو : شيئاً ؟ » قالت : إن عمراً لما توجه إلى أحد قال : اللهم لا تردني إلى أهلى وارزقنى الشهادة ، فقال رسول الله ﷺ : « فلذلك الجمل لا يرمى ، إن منكم - معشر الأنصار - من لو أقسم على الله لأبره ، منهم عمرو بن الجموح . ولقد رأيته يطأ بعرجته الجنة ، يا هند ما زالت الملائكة مظلة على أخيك من لدن قتل إلى الساعة ، ينتظرون أين يدفن » ، ثم مكث رسول الله ﷺ حتى قبرهم ، ثم قال : « يا هند قد تراقفوا فى الجنة » ، قالت يا رسول الله ادع الله عسى أن يجعلنى معهم ^(١) .

فقدان القائد :

قالت تعالى : ﴿ ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه . فقد رأيتموه وأنتم تنظرون . وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل . أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزى الله الشاكرين . وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً . ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ، ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها وسنجزي الشاكرين ﴾ ^(٢) .

وبعد أن أعلم الله تعالى سنه فى المؤمنين على سنن من قبلهم فى الأمم . وأن التمحيص لابد وأن يقع فى الصف المؤمن . عرض القرآن الكريم الصفحة النفسية ابتداءً والتي كان عليها المؤمنون قبيل أحد ، ذلك الجو المشحون بالشهادة ، العبق بالدم .

﴿ ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه . فقد رأيتموه وأنتم تنظرون ﴾ .

(أخرج ابن أبى حاتم من طريق العوفى عن ابن عباس . أن رجالاً من أصحاب النبى ﷺ كانوا يقولون : ليتنا نقتل كما قتل أصحاب بدر ونستشهد ، أوليت لنا يوماً كيوم بدر

(١) المغازى للواقدي ١ / ٢٦٦ . (٢) آل عمران ١٤٣ - ١٤٥ .

نقاتل فيه المشركين ، ونُبلى فيه خيراً ، ولنلتمس الشهادة والجنة والحياة والرزق ، فأشهدهم الله أحداً فلم يلبثوا إلا من شاء الله منهم فقال الله : ﴿ ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه ﴾ (١) .

(وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد في الآية قال : غاب رجال عن بدر ، فكانوا يتمنون مثل بدر فيصيبوا من الأجر والخير ما أصاب أهل بدر ، فلما كان يوم أحد ولّى من ولّى ، فعاتبهم الله على ذلك) (٢) .

(وأخرج ابن جرير عن الحسن قال : بلغني أن رجالاً من أصحاب النبي ﷺ كانوا يقولون لئن لقينا مع النبي ﷺ لنفعلن ولنفعلن ، فابتلوا بذلك ، فلا والله ما كلهم صدق الله ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ ولقد كنتم تمنون الموت ﴾ (٣) .

هذه الصورة نلقاها في القرآن الكريم ، ونلقاها في التفسير ، لكننا نبحت عنها في ثنايا السيرة فلا نجدها وكل ما نجده عند ابن إسحاق في السيرة قوله :

(ولقد كنتم تمنون الشهادة على الذي أنتم عليه من الحق قبل أن تلقوا عدوكم ، يعني الذين استنهضوا رسول الله ﷺ إلى خروجه بهم إلى عدوهم ؛ لما فاتهم من حضور اليوم الذي كان قبله بدر ، ورغبة في الشهادة التي فاتتهم بها ، فقال : ﴿ ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه ... ﴾ أى الموت بالسيوف في أيدي الرجال قد دخل بينكم وبينهم ، وأنتم تنظرون إليهم ، ثم صدهم عنكم) (٤) .

ولا نلاحظ من خلال تفسير ابن إسحاق رحمه الله تعالى للآية معنى هذا العتاب النفسى ، والذي هو هدف رئيسى في التربية القرآنية .

وحين نعرض للآيتين بهدف المقارنة للتربية المطلوبة يتضح جانب مهم من المعنى المطلوب بناؤه في نفس الجيل النبوى :

الآية الأولى في بدر : ﴿ كما أخرجك ربك من بيتك بالحق ، وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون يجادلونك في الحق بعد ما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون ﴾ (٥) .

والآية الثانية في أحد : ﴿ ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه . فقد رأيتموه

(٣) تفسير الطبرى / ٢ / ٤ / ٧٢ .

(٢، ١) الدر المنثور / ٢ / ٣٣٥ .

(٥) الأنفال / ٥ ، ٦ .

(٤) السيرة النبوية لابن هشام / ٢ / ٣ / ١١١ .

وانتم تنظرون ﴿ فقد كان الخوف من المواجهة مع العدو هو الشعور المسيطر قبيل بدر .
﴿ وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ... ﴾ وهذا الخطاب عام لأهل بدر ، وإن
كان هذا الشعور قد ارتفع أكثر وأكثر عند فريق منهم ، فبلغ ذروته ، كما يشهد التعبير
القرآنى ﴿ كأنما يساقون إلى الموت ... ﴾ .

بينما كانت الثقة بالنصر ، والتأييد الربانى ، والرغبة بالشهادة ، هى الشعور المسيطر
قبيل أحد ﴿ ولقد كنتم تمنون الموت ﴾ .

والفرق واسع جداً بين ﴿ ولقد كنتم تمنون الموت ﴾ وبين ﴿ كأنما يساقون إلى
الموت ... ﴾ والأنعام هى التى تساق للذبح .

وكلا الشعورين ، حين يعرضهما القرآن جليين يهدف إلى عرض الضعف البشرى
عند الخوف من المواجهة والضعف البشرى عند الاستخفاف بالعدو ، والإرادة الربانية
تقول لهذا الجيل : إن الصورتين متكاملتان ، على ما فيهما من تناقض ، وهو تعالى الذى
يملك النصر ويعطيه هبة منه سبحانه على إرادتكم غير ذات الشوكة ، ورعب فريق منكم
كأنه يساق إلى الموت .

وهو جل شأنه الذى يقرر الابتلاء والحنة ، رغم الاستخفاف بالعدو ، وتمنى الموت ،
والاعتماد على النفس فى إمكانية تحقيق النصر .

إنه درس عميق لهذه النفوس حين تخاف ، وحين ترجو أن ترتبط بالله وحده واهب
النصر ، والقادر على الحنة والابتلاء .

ونقف مع صاحب الظلال رحمه الله فى آفاق هذه الآية :

(﴿ ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه . فقد رأيتموه وأنتم تنظرون ﴾ .

وهكذا يفهم السياق وجهاً لوجه مرة أخرى أمام الموت الذى واجهوه فى المعركة ،
وقد كانوا من قبل يتمنون لقاءه ، ليوازنوا فى حسهم بين وزن الكلمة يقولها اللسان ،
ووزن الحقيقة يواجهها فى العيان ، فيعلمهم بهذا أن يحسبوا حساباً لكل كلمة تطلقها
ألسنتهم ، ويزنوا حقيقة رصيدها الواقعى فى نفوسهم ، على ضوء ما واجهوه من حقيقتها
حين واجهتهم ! وبذلك يقدر وزن الكلمة ، وقيمة الأمانة ، وقيمة الوعد فى ضوء
الواقع الثقيل ! ثم يعلمهم أن ليست الكلمات الطائفة والأمانى المرفرفة هى التى تبلغهم

الجنة ، إنما هو تحقيق الحلمة ، وتجسيم الأمنية ، والجهد الحقيقي ، والصبر على المعاناة ؛ حتى يعلم الله ذلك منهم كله واقعاً كائناً فى دنيا الناس !

ولقد كان الله سبحانه قادراً على أن يمنح النصر لنبيه ولدعوته ولدينه ولمنهجه منذ اللحظة الأولى ، وبلا كيد من المؤمنين ولا عناء ، وكان قادراً على أن ينزل الملائكة تقاتل معهم أو بدونهم . وتدمر على المشركين كما دمرت على عاد وثمود وقوم لوط

ولكن المسألة ليست هى النصر ، إنما هى تربية الجماعة المسلمة ، التى تُعد لتسلم قيادة البشرية - البشرية بكل ضعفها - ونقصها ، وبكل شهواتها ونزواتها ، وبكل جاهليتها وانحرافها وقيادتها قيادة راشدة تقتضى استعداداً عالياً من القادة ، وأول ما تقتضيه صلابة فى الخلق ، وثبات على الحق ، وصبر على المعاناة ، ومعرفة بمواطن الضعف ، ومواطن القوة فى النفس البشرية ، وخبرة بمواطن الزلل ، ودواعي الانحراف ، ووسائل العلاج .. ثم صبر على الرخاء كالصبر على الشدة .. وصبر على الشدة بعد الرخاء ، وطعمها يومئذ لا ذع مرير !

وهذه التربية هى التى يأخذ الله بها الجماعة المسلمة حين يأذن بتسليمها مقاليد القيادة ، ليعدها بهذه التربية للدور العظيم الهائل الشاق ، الذى ينوطه بها فى هذه الأرض ، وقد شاء سبحانه أن يجعل هذا الدور من نصيب الإنسان الذى استخلفه فى هذا الملك العريض .

وقدر الله فى إعداد الجماعة المسلمة للقيادة يمضى فى طريقه ، بشتى الأسباب والوسائل ، وبشتى المناسبات والوقائع ، يمضى أحياناً عن طريق النصر الحاسم للجماعة المسلمة ، فتستبشر وترتفع ثقتها بنفسها - فى ظل العون الإلهى ، وتجرب لذة النصر ، وتصبر على نشوته ، وتجرب مقدرتها على مغالبة البطر والزهو والخيلاء ، وعلى التزام التواضع والشكر لله ... ويمضى أحياناً عن طريق الهزيمة والكرب والشدة فتلجأ إلى الله ، وتعرف حقيقة قوتها الذاتية ، وضعفها حين تنحرف أدنى انحراف عن منهج الله ، وتجرب مرارة الهزيمة ، وتستعلى مع ذلك على الباطل ، بما عندها من الحق المجرد ، وتعرف مواضع نقصها وضعفها ، ومداخل شهواتها ومزالق أقدامها ، فتحاول أن تصلح من هذا كله فى الجولة القادمة .. وتخرج من النصر ومن الهزيمة بالزاد والرصيد ، ويمضى قدر الله وفق سننه لا يتخلف ولا يحميد .

وقد كان هذا كله طرفاً من رصيد معركة أحد ؛ الذى يحشده السياق القرآنى للجماعة المسلمة ، على نحو ما نرى فى هذه الآيات ، وهو رصيد مدخر لكل جماعة مسلمة ولكل جيل من أجيال المسلمين (١) .

﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين ﴾ .
يقول الإمام ابن جرير :

... ثم قال لأصحاب محمد معاتبهم على ما كان منهم من الهلع والجزع حين قيل لهم بأحد أن محمداً قد قتل ، ومقبحاً إليهم انصراف من انصرف منهم عن عدوهم وانهزامة عنهم . أفإن مات محمد أيها القوم لانقضاء أجله أو قتله عدوكم انقلبتم على أعقابكم ؟ يعنى ارتددتم على دينكم الذى بعث الله محمداً بالدعاء إليه ، ورجعتم عنه كفاراً بالله بعد الإيمان به .. ومن ينقلب على عقبيه يعنى ذلك من يرتدد منكم عن دينه ويرجع كافراً بعد إيمانه فلن يضر الله شيئاً يقول : فلن يوهن ذلك عزة الله وسلطانه ، ولا يدخل بذلك نقص فى ملكه بل نفسه يضر .

فهل كان مقتل رسول الله ﷺ من الضخامة بحيث يدفع بعض المسلمين إلى الارتداد عن دينه ؟

لقد برزت هذه الظاهرة فى إطار ضيق فى أحد ، ولكنها كانت فى إطار واسع بعد وفاة رسول الله ﷺ يوم كانت الردة الكبرى من العرب .

إن غياب شخص القائد عن الساحة له من الآثار الضخمة بحيث يؤدي إلى الارتداد والكفر عن ضعاف الإيمان . خاصة إذا كان القائد هو رسول رب العالمين .

وحين يشير القرآن إلى هذا الأمر الخطير - نجد أن كتب السيرة لا تعطيه حظه المطلوب ، إنما تركز على الذين ثبتوا مع رسول الله ﷺ ، بحيث لا يكاد حيز هذه القضية يذكر : بجوارهم .

بينما نرى صورة واضحة عن ذلك فى كتب التفسير .

(فعن قتادة قوله : ﴿ وما محمد إلا رسول .. ﴾ قال : ذاكم يوم أحد حين أصابهم القرع والقتل ثم تنازعوا نبي الله ﷺ بقية ذلك ، فقال أناس : لو كان نبياً ما قتل ، وقال

(١) فى ظلال القرآن / ١ / ٤٨٢ ..

أناس من عليّة أصحاب نبي الله ﷺ : قاتلوا على ماقاتل عليه محمد نبيكم حتى يفتح الله لكم أو تلحقوا به . (١)

وعن السدى قال : (... وفشا في الناس أن رسول الله ﷺ قد قتل ، فقال بعض أصحاب الصخرة : ليت لنا رسولاً إلى عبد الله بن أبي فنأخذ لنا أمانة من أبي سفيان ، يا قوم إن محمداً قد قتل فارجعوا إلى قومكم قبل أن يأتوكم فيقتلوكم ..) . (٢)

وعن الضحاك قال : (.. نادى مناد يوم أحد حين هزم أصحاب محمد ﷺ : ألا إن محمداً قد قتل فارجعوا إلى دينكم الأول ، فأنزل الله عز وجل ﴿ وما محمد إلا رسول ... ﴾ . (٣)

وفي رواية عنه (.. ناس من أهل الارتياح والمرض والنفاق قالوا يوم فر الناس عن نبي الله ﷺ وشج فوق حاجبيه ، وكسرت رباعيته : قتل محمد فالحقوا بدينكم الأول) . (٤)

وعن ابن عباس رضى الله عنهما (أن رسول الله ﷺ اعتزل هو وعصابة معه يومئذ على أكمة والناس يفرون ورجل قائم على الطريق يسألهم : ما فعل رسول الله ﷺ ؟ فيقولون ماندرى ما فعل ، فقال : والذي نفسى بيده لئن كان النبي ﷺ قتل لنعطينهم بأيدينا إنهم لعشائرننا وإخواننا) . (٥)

(وصرخ الشيطان عند جبل عنين . وقد تصور في صورة جعال بن سراقة رضى الله عنه : إن محمداً قد قتل . (ثلاث صرخات) . ولم يشك فيه أنه حق ، وكان جعال إلى جنب أبي بردة يقاتل أشد القتال ، فقال جماعة من المسلمين لما سمعوا ذلك : إن كان رسول الله ﷺ قد قتل أفلا تقاتلون على دينكم ، وعلى ما كان عليه نبيكم ، حتى تلقوا الله شهداء ؟ ، وقالت جماعة : ليت لنا رسولاً إلى عبد الله بن أبي ليأخذ لنا أماناً من أبي سفيان ، يا قوم إن محمداً قد قتل فارجعوا إلى قومكم قبل أن يأتوكم فيقتلوكم ..) . (٦)

ونلاحظ أن الذين ارتدوا على أعقابهم هم الذين قالوا :

لو كان نبياً ماقتل . فارجعوا إلى دينكم الأول .

أما الذين ضعفوا . وانهارت عزائمهم ، فلا يدخلون ضمن هذا الفريق ..

والملاحظة الثانية : أن هؤلاء ليسوا من المنافقين ، الذين كانوا يظهرون الإيمان ويطنون

(١) تفسير الطبري / ٤ / ٧٤ .

(٦) سبل الهدى والرشاد / ٤ / ٢٦٠ ، ٢٦١ .

الكفر ، إنما هم من المؤمنين الذين ارتدوا عن دينهم ، وانقلبوا على أعقابهم حين علموا بمقتل الرسول ﷺ .

والحديث فى هذا القسم من الآيات لا يزال يتناول فريق المؤمنين . الثابتين منهم كالطود لا يتزعزع إيمانهم ولا يضعفون ولا يستكينون والذين اهتزت نفوسهم وضعفوا ، ووصل الأمر لدى بعضهم أن يطلبوا الأمان من أبى سفيان عن طريق عبد الله بن أبى ، أو يلقوا بأنفسهم أسرى بيد أعدائهم ، أو فروا من المعركة . والفريق الثالث هم الذين نكصوا على أعقابهم ، وارتدوا على أذبارهم .

ولا يفوتنا أن نشير إلى رأى آخر فى تفسير هذه الآية . وهو أن المقصود فى الانقلاب على العقب هو الانهزام والفرار من المعركة .

يقول القرطبى :

(.. روى أنها نزلت بسبب انهزام المسلمين يوم أحد حين صاح الشيطان : قد قتل محمد . قال . عطية فقال بعض الناس : قد أصيب محمد فأعطوهم بأيديكم فإنما هم إخوانكم ، وقال بعضهم : إن كان محمد قد أصيب ألا تمضون على ما مضى عليه نبيكم ، حتى تلحقوا به فأنزل الله تعالى : ﴿ وما محمد إلا رسول .. ﴾ .. فهذه الآية من تمة العتاب مع المنهزمين ، أى لم يكن الانهزام وإن قتل محمد . والنبوة لا تدرأ بالموت ، والأديان لا تزول بموت الأنبياء . والله أعلم) (١)

﴿ وسيجزى الله الشاكرين . وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً . ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ، ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها وسنجزى الشاكرين ﴾ . (٢)

(وتطالعنا رواية على بن أبى طالب رضى الله عنه ، وهو يعرض علينا الأفق الأبعد لهذه الآيات ، كما أوردها ابن جرير عنه فى قوله تعالى : ﴿ .. وسيجزى الله الشاكرين ﴾ الثابتين على دينهم أباً بكر وأصحابه ، فكان على رضى الله عنه يقول : كان أبو بكر أمين الشاكرين ، وأمين أحباء الله ، وكان أشكرهم وأحبهم إلى الله .) (٣)

وذلك لأن الردة حين وقعت . كان الثابتون على دينهم قد اختاروا أباً بكر رضى الله

(٢) آل عمران ١٤٤/١٤٤٥ .

(١) تفسير القرطبى ٢٢٢/٤ .

(٣) تفسير الطبرى ٧٢/٤ .

عنه أميراً لهم وخليفة عليهم بعد وفاة رسول الله ﷺ ، فكان أبو بكر أمين الشاكرين وأmir الشاكرين ، وعصم الله به وبالمؤمنين هذه الأمة وحفظها من الضياع .

وقد رأينا الانقلاب على العقب يوم إشاعة القتل ، ونعلم الانقلاب على العقب والردة يوم موت النبي ﷺ . كما وصفتها عائشة رضی الله عنها :

(لما قبض رسول الله ﷺ ارتدت العرب قاطبة واشرب النفاق ، والله لقد نزل بى ما لو نزل بالجبال الراسيات لهاضها ، وصار أصحاب محمد ﷺ كأنهم معزى مطيرة فى حش فى ليلة مطيرة فى أرض مسبعة ، فوالله ما اختلفوا فى نقطة إلا طار أبى بخلها وعنانها وفصلها .) (١)

وبصدد الموازنة بين دور القيادة ودور العقيدة من خلال هذه الآيات يطالعنا صاحب الظلال بقوله : (وكأئما أراد الله - سبحانه - بهذه الحادثة . وبهذه الآية أن يفطم المسلمين عن تعلقهم الشديد بشخص النبي ﷺ وهو حى بينهم ، وأن يصلهم مباشرة بالنبع ، النبع الذى لم يفجره محمد ﷺ ولكن جاء فقط ليومئ إليه ، ويدعو البشر إلى فيضه المتدفق ، كما أوماً إليه من قبله الرسل ، ودعوا القافلة إلى الارتواء منه !

وكأئما أراد الله - سبحانه - أن يأخذ بأيديهم فيصلها مباشرة بالعروة الوثقى ، العروة التى لم يعقدها محمد ﷺ ، إنما جاء ليعقد بها أيدي البشر ، ثم يدعهم عليها ويمضى وهم بها مستمسكون !

وكأئما أراد الله - سبحانه - أن يجعل ارتباط المسلمين بالإسلام مباشرة ، وأن يجعل عهدهم مع الله مباشرة ، وأن يجعل مسؤوليتهم فى هذا العهد أمام الله بلا وسيط ، حتى يستشعروا تبعثهم المباشرة ، التى لا يخليهم منها أن يموت الرسول ﷺ أو يقتل . فهم إنما بايعوا الله ، وهم أمام الله مسؤولون .

وكأئما كان الله - سبحانه - يعد هذه الجماعة المسلمة لتلقى هذه الصدمة الكبرى - حين تقع - وهو - سبحانه - يعلم أن وقعها عليهم يكاد يتجاوز طاقتهم . فشاء أن يدر بهم عليها هذا التدريب ، وأن يصلهم به هو ، وبدعوته الباقية قبل أن يستبد بهم الدهش والذهول) (٢) .

﴿ وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً ﴾ .

(١) البداية والنهاية / ٣٠٩ . (٢) فى ظلال القرآن / ١ / ٤ / ٤٨٦ .

فإن كانت قضية مقتل رسول الله ﷺ إشاعة في أحد ، فهذا لايعنى أن هذا لن يقع فيما بعد في الموعد المحدد ، والوقت المقرر ، والكتاب المؤجل ، كما هو مصير كل نفس . لابد أن تموت أو تقتل .

﴿ ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ، ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها ، وسنجزى الشاكرين ﴾ .

وفي أجواء أحد بين الثابتين على إيمانهم ، الذين ابتغوا رضوان الله والدار الآخرة ، وبين الناكسين على أعقابهم ، والمتزلزلين في نفوسهم الذين طمعوا في الحياة الدنيا ، ورعبوا من الموت ، فآثروا الفانية على الباقية – كان لابد من الإشارة إلى الفريقين ، وأن الراغبين في الدنيا والطامعين فيها ينالون شيئاً من دنياهم ، لكن ليس لهم في الآخرة من نصيب ، أما الراغبون في لقاء الله والمتشوقون للجنة . والذين اختاروا الآخرة على الأولى – سينالون ثمرة جهادهم ، وسيجزئهم الله في دنياهم وآخرتهم . وهل يمكن أن يستوى الناكص على عقبه والمتردد عن دينه والفار من الزحف مع الذي اندفع يشوط في زمام القوم ويتشطح في دمه ، ولايكاد يعرف من غزارة جراحاته ؟

﴿ وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير ، فما وهوا لما أصابهم في سبيل الله ، وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين ، وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين . فاتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين ﴾ (١) .

(يقول الإمام القرطبي : معنى الآية تشجيع المؤمنين ، والأمر بالاعتداء بمن تقدم من خيار أتباع الأنبياء ، أى كثير من الأنبياء قتل معه ربيون كثير ، أو كثير من الأنبياء قتلوا فما ارتد أمهم ؛ قولان : الأول للحسن وسعيد بن جبير . قال الحسن : ما قتل نبي في حرب قط ، وقال سعيد بن جبير : ما سمعنا أن نبياً قتل في القتال ، والثاني عن قتادة وعكرمة) (٢) .

واختار ابن جرير المعنى الأول فقال :

(.. ثم أخبرهم عما كان فعل كثير من اتباع الأنبياء قبلهم ، وقال : هلا فعلتم كما كان أهل الفضل والعلم من أتباع الأنبياء قبلكم يفعلونه إذا قتل نبيهم من المضى على منهاج نبيهم ، والقتال على دينه أعداء دين الله ، على نحو ما كانوا يقاتلون مع نبيهم ، ولم تهنوا

(١) آل عمران / ١٤٦ - ١٤٨ . (٢) تفسير القرطبي ٢٢٩/٤ .

ولم تضعفوا كما لم يضعف الذين كانوا قبلكم من أهل العلم والبصائر من أتباع الأنبياء إذا قتل نبيهم . ولكنهم صبروا لأعدائهم حتى حكم الله بينهم وبينهم (١) .

وهذا الرأى على القراءة الثانية المشهورة وكأين من نبي قُتل معه ربيون كثير . بتقدير . قُتل : ومعهم ربيون كثير لم يضعفوا ولم يستكينوا . أو تقدير قُتل وقتل معه ربيون كثير . فما وهن الباقون وما ضعفوا وما استكانوا . وهذا المعنى امتداد للآيات السابقة التى تتحدث عن إشاعة قتل النبى ﷺ وأثر هذه الإشاعة على نفوس المؤمنين .

لكن القراءة المشهورة . وهى على الرأى الأول أنه ما قتل نبي في حرب قط . أن النبى قاتلَ ومعهُ الربيون الكثير ، فما ضعفوا وما استكانوا ، إنما مضوا على الدرب الطويل يجاهدون ويموتون على ما مات عليه نبيهم وما قاتل عليه . (والربيون : هم الجموع الكثيرة . كما ورد عن الحسن وابن عباس كذلك . وورد عن ابن مسعود : الربيون : الألوف كما ورد عن الضحاك مثله : الربة الواحدة : ألف . والربيون ألوف) (٢) .

ونستطيع بعد هذه الجولة التى فقهنا فيها المعنى العام للآيات ، والتى تحت المؤمنين على أن يصبروا على درب النبوة والجهاد ، كما صبر أتباع الأنبياء وجنودهم من قبل ، مهما اشتدت المحنة ، ونيلت القيادة - فلا بد أن نشير إلى أن هذا الجيل قد قدم نماذج خالدة مثل النماذج التى قدمها أتباع الأنبياء من قبل . وإن كنا لا نملك صورة محددة عن جهاد وصبر أتباع الأنبياء من مصدر نثق به ونطمئن إليه - إلا ما ورد يسيراً فى القرآن والسنة - لكن جهاد جنود محمد ﷺ فى أحد يبقى هو الصورة الماثلة أمام أعيننا لهذا الجهاد .

وإن كنا قد عرضنا فى الفقرة السابقة صورة الذين انقلبوا على عقبيه وضعفوا واستكانوا ، فسنعرض فى الصورة المقابلة صورة الربيين الكثير الذين قاتلوا مع نبيهم وما ضعفوا وما وهنوا وما استكانوا لما أصابهم فى سبيل الله .

وبهذا العرض نستطيع أن نصل بين القرآن والسيرة من جهة كما نستطيع أن نصل بين الآيات السابقة واللاحقة بحيث يصبح المعنى العام :

(١) تفسير الطبرى ٤/ ٧٦ . (٢) الدر المنثور ٤/ ٣٤٠ .

أيها المؤمنون إذا كان فريق منكم قد انقلب على عقبه أمام إشاعة مقتل النبي ﷺ فإن فريقاً آخر من العلماء والحواريين والصحاب كانوا على مستوى إيمانهم ، وما تزعزعوا أمام الإشاعة لمقتل نبيهم ، أو أمام نبيهم المثخن بالجراح .

وهذه هي النماذج الخالدة :

١ - (بعد إشاعة القتل روى ابن إسحاق عن القاسم بن عبد الرحمن أن أنس بن النضر عم أنس بن مالك رضى الله عنه - وبه سمي أنساً - غاب عن بدر فشق عليه وقال : أول مشهد شهده رسول الله ﷺ غبت عنه ، لئن أشهدني الله تعالى قتال المشركين ليرين الله تعالى ما أصنع فلما كان يوم أحد وانكشف المسلمون فقال : اللهم إني أعذر إليك مما صنع هؤلاء - يعنى أصحابه - وأبرأ إليك مما فعل هؤلاء - يعنى المشركين - فانتهى إلى رجال من المهاجرين والأنصار قد ألقوا ما بأيديهم ، فقال : ما يجلسكم ؟ قالوا : قتل رسول الله ﷺ ، فقال : ما تصنعون بالحياة بعده ؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله ﷺ ، ثم استقبل القوم فلقية سعد بن معاذ دون أحد ، فقال سعد : أنا معك . قال سعد : فاستقبل أنس القوم فلم أستطع أن أصنع ما صنع . فقال : يا سعد بن معاذ - وفي لفظ يا أبا عمرو - واهاً لريح الجنة ، ورب النضر إني لأجد ريحها من دون أحد ، ثم تقدم فقاتل حتى قتل ، فوجدوا فى جسده بضعاً وثمانين ضربة من بين ضربة بسيف ، وطعنة برمح ، ورمية بسهم . قال أنس : ووجدناه قد مثل به المشركون فما عرفه أحد منا إلا أخته بشامة أو بينانه ، فكنا نرى أو نظن أن هذه الآية نزلت فيه وفى أشباهه ﴿ رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ﴾ (١) .

لقد مثل أنس بن النضر رضى الله عنه أعلى صور الفداء والتضحية والشبات ، وقد بلغه مقتل رسول الله ﷺ ، فما وهن وما استكان وما ضعف ، وتكفيه شهادة ربه سبحانه به وبأمثاله أنهم رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ﴿ فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر ﴾ .

ولا بد لنا أن نشير إلى ما ورد فى بعض الروايات لهذه الحادثة والتي تقول : « انتهى أنس بن النضر عم أنس بن مالك إلى عمر بن الخطاب ، وطلحة بن عبيد الله فى رجال من المهاجرين والأنصار وقد ألقوا ما بأيديهم ، فقال : ما يجلسكم ؟ قالوا :

(١) سبل الهدى والرشاد وقال : رواه الطيالسى وابن أبى شيبه وابن سعد والشيخان والترمذى والبعوى الكبير / ٤ / ٢١٧ .

قتل رسول الله ﷺ ، قال : فماذا تصنعون بالحياة بعده ، فموتوا على ما مات عليه رسول الله .. » (١) .

حيث قد تلقى هذه الحادثة ظلالاً حول موقف طلحة وعمر رضى الله عنهما .

وفى بعض الروايات (وفيهم أبو بكر وعمر) .

وفى بعضها : أنهم يتساءلون (ما نفعل وقد قتل رسول الله ﷺ) .

وكل هذه الروايات قد يتبادر إلى الذهن فيها أن الإحباط قد نال من هذه القمم المذكورة بعد إشاعة مقتل النبي ﷺ ، وهذا الخاطر مرفوض ابتداء ، لأن هذه القمم تحس بأن عليها مسؤولية قيادة المعركة بعد رسول الله ﷺ ، وقيادة الأمة ، فلا بد أن تدرس الموقف المناسب وصادف مرور أنس بن النضر رضى الله عنه فى هذه اللحظات وأعطى رأيه ، فى أن يقتل القوم على ما قتل عليه رسول الله ﷺ ، ومضى لينفذ قناعته . وهذا موقف جندى ملتزم مخلص فى أعلى درجات الجندية والتضحية والالتزام ، لكن ليس بالضرورة هو موقف القائد المسؤول عن المعركة والأمة بعد إشاعة القتل ، ويجب أن لا يقودنا الحماس الطاغى فى إعجابنا ببطولات أنس رضى الله عنه إلى نسيان هذا التصور أو تجاهله تجاه هذه القيادات المذكورة .

ومرفوض انتهاء - أى وصف هذا الفريق بالإحباط أو اليأس - لأنه ثبت فيما بعد أنهم كانوا الرواد الأوائل فى الوصول إلى رسول الله ﷺ ، والتدافع إلى الموت حوله وإيمته وتسلسل الأحداث فيما بعد يجلى هذه الصورة .

٢ - عند الهجوم المباغت على القائد ، ماذا فعلت أم عمار ؟

ونحن مضطرون لعرض هذا التسلسل . لنشهد من خلاله هذه النماذج الخالدة .

(.. وكان مالك بن زهير أخو أبى أسامة الجشمى هو وحيان بن العرة قد أكثرا فى المسلمين القتل بالنبل ، فرمى سعدُ مالكاُ بسهم أصاب عينه حتى خرج من قفاه وقتله ، وقاتلت أم عمارة نسيبة .. فلما انهزم المسلمون انحازت إلى رسول الله ﷺ ، وباشرت القتال وجعلت تذب عنه بالسيف ، وترمى عن القوس . ولما قصد ابن قمئة رسول الله ﷺ اعترضت له ومصعب بن عمير ، وضربت ابن قمئة ضربات . ولكن عدو الله كان عليه

(١) السيرة لابن هشام / ٣١/٢ .

درعان وضربها هو بالسيف فجرحها جرحاً عظيماً صار له فيما بعد غور ، فقال رسول الله ﷺ : « لمقام نسيبة بنت كعب اليوم خير من مقام فلان وفلان ، ما التفت يميناً أو شمالاً إلا وأنا أراها تقاتل دوني » وقال لابنها عبد الله بن زيد بن عاصم « بارك الله تعالى عليكم أهل بيت ، مقام أمكم خير من مقام فلان وفلان ، ومقام زوج أمك غزية بن عمرو خير من مقام فلان وفلان ، رحمكم الله أهل بيت » قالت أم عمار : ادع الله تعالى أن نرافقك في الجنة . قال : « اللهم اجعلهم رفقائي في الجنة » قالت : ما أبالي ما أصابني من أمر الدنيا .

قال البلاذري : شهدت نسيبة يوم أحد وزوجها وابناها ، وخرجت معها بشن لها ، تسقى الجرحى فقاتلت ، وجرحت اثني عشر رجلاً بسيف ورمي ، وكانت أول النهار تسقى المسلمين والدولة لهم ثم قاتلت حين كر المشركون ، وقاتلت يوم اليمامة فقطعت يدها وهي تريد مسيلمة الكذاب لتقتله قالت : وما كانت ناهية لي حتى رأيت الحبيث مقتولاً ، وإذا ابني عبد الله بن زيد يمسح سيفه بشيابه ، فقلت : أقتلته ؟ قال : نعم فسجدت لله شكراً » (١) .

وبقيت نسيبة وبلاؤها يوم أحد - ماثلة في ذهن السابقين الأولين :

فقد روى ابن سعد عن موسى بن ضمرة بن سعيد عن أبيه فقال : (أتى عمر بن الخطاب بمروط وفيها مرط مرجل واسع ، فقال بعضهم : لو أرسلت به إلى زوجة عبد الله ابن عمر صفية بنت أبي عبيد ، قال : ابعثوا به إلى من هو أحق به منها ، إلى أم عمار نسيبة بنت كعب . فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما التفت يميناً ولا شمالاً يوم أحد إلا رأيتها تقاتل دوني .

٣ - دور مصعب بن عمير :

أ - (روى ابن سعد عن محمد بن شريحيل العبدري قال :

حمل مصعب بن عمير اللواء يوم أحد فقطعت يده اليمنى ، فأخذ اللواء بيده اليسرى وهو يقول : ﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ﴾ الآية ، ثم قطعت يده اليسرى فحنا على اللواء وضمه بعضديه إلى صدره وهو يقول : ﴿ وما محمد إلا رسول ﴾ الآية ، ثم قتل فسقط اللواء . قال محمد بن شريحيل : وما نزلت هذه الآية : ﴿ وما محمد إلا رسول ﴾ يومئذ حتى نزلت بعد) (٢) .

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد .

(١) سبل الهدى والرشاد / ٤ / ٢٩٨ ، ٢٩٩ .

ب - (وروى ابن سعد عن عبد الله بن الفضل بن عباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب قال : أعطى رسول الله ﷺ يوم أحد مصعب بن عمير اللواء فقتل مصعب ، فأخذه ملك فى صورة مصعب فجعل رسول الله ﷺ يقول : تقدم يا مصعب ، فالتفت إليه الملك . فقال : لست بمصعب فعرف رسول الله ﷺ أنه ملك أيد به) (١) .

ج - وقال ابن أبى شيبه فى المصنف : (عن محمد بن ثابت أن رسول الله ﷺ قال يوم أحد : اقدم يا مصعب . فقال له عبد الرحمن بن عوف : يا رسول الله ألم يقتل مصعب ؟ قال : بلى . ولكن ملك قام مكانه وتسمى باسمه) (٢) .

٤ - رسول الله ﷺ وحده :

(روى أبو داود الطيالسى . والشيخان عن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه قال : ورأيت عن يمين رسول الله ﷺ وعن شماله يوم أحد رجلين عليهما ثياب بيض يقاتلان عنه كأشد القتال ، ومارأيتهما قبل ولا بعد يعنى جبريل وميكائيل) (٣) .

ورواه البيهقى ثم روى مجاهد قال : لم تقاتل الملائكة إلا يوم بدر قال البيهقى : مراده لم يقاتلوا يوم أحد عن القوم حين عصوا رسول الله ﷺ ولم يصبروا على ما أمرهم به .

٥ - دور العشرة المبشرين بالجنة :

(وثبت معه ﷺ خمسة عشر رجلاً . ثمانية من المهاجرين : أبو بكر ، وعمر ، وعلى ، وطلحة ، والزبير ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبى وقاص ، وأبو عبيدة بن الجراح ، وسبعة من الأنصار :) (٤) .

أ - أبو عبيدة وأبو بكر :

(روى أبو داود الطيالسى وابن حبان عن عائشة قالت : كان أبو بكر إذا ذكر يوم أحد قال : ذلك اليوم كله لطلحة ، ثم أنشأ يحدث قال : كنت ممن فاء إلى رسول الله ﷺ يوم أحد ، فرأيت رجلاً يقاتل مع رسول الله ﷺ دونه . قال : وأراه قال يحميه - قال : قلت : كن طلحة حيث فاتنى ما فاتنى فقلت : يكون رجلاً من قومى أحب إلى ؟ وبينى

(٢) سبل الهدى والرشاد ٣٠٤/٤ .

(٤) سبل الهدى والرشاد ٢٩٢/٤ .

(١) المصدر نفسه .

(٣) سبل الهدى والرشاد ٣٠٣/٤ .

وبين رسول الله ﷺ رجل لا أعرفه . وأنا أقرب إلى رسول الله ﷺ . وهو يخطف المشى خطفا لا أخطفه فإذا هو أبو عبيدة بن الجراح . فانتهيت إلى رسول الله ﷺ . وقد كسرت رباعيته ، وشج وجهه ، وقد دخل فى وجنته حلقتان من حلق المغفر . فقال رسول الله ﷺ : عليكما صاحبكما - يريد طلحة ، وقد نزع الدم فتركناه ، وذهبت لأنزع ذلك من وجه رسول الله ﷺ فقال أبو عبيدة : أقسمت عليك بحقى لما تركتني ، فتركته . وكره أن يتناولها بيده فيؤذى رسول الله ﷺ ، فأزّم عليها بفيه ، فاستخرج إحدى الحلقتين ، ووقعت ثنيته مع الحلقة . وذهبت لأصنع ما صنع ، فقال : أقسمت عليك بحقى لما تركتني ففعل كما فعل فى المرة الأولى . فوقعت ثنيته الأخرى مع الحلقة فكان أبو عبيدة من أحسن الناس هتماً ، فأصلحنا من شأن رسول الله ﷺ ، ثم أتينا طلحة فى بعض تلك الحفر ، فإذا به بضع وسبعون أو أقل أو أكثر من طعنة وضربة ورمية ، وإذا قد قطعت إصبعه فأصلحنا من شأنه (١) .

ب - طلحة بن عبيد الله :

(وذكر محمد بن عمر أن طلحة أصيب يومئذ فى رأسه ، فنزف الدم حتى غشى عليه ، فنضح أبو بكر الماء فى وجهه حتى أفاق ، فقال : ما فعل رسول الله ﷺ ؟ فقال : خيراً هو أرسلنى إليك قال : الحمد لله كل مصيبة بعدك جليل) (٢) .

وروى الدراقطنى فى الأفراد . والطبرانى عن طلحة والنسائى والطبرانى والبيهقى عن جابر قال : أن طلحة أصابه سهم فى أنامله ، فقال : حس فقال رسول الله ﷺ : لو قلت بسم الله لطارت بك الملائكة ، والناس ينظرون حتى تلج فى جو السماء . ولرايت بناءك الذى بنى الله لك فى الجنة وأنت فى الدنيا) (٣) .

ج - سعد بن أبى وقاص :

روى الحاكم عن عائشة بنت سعد عن أبيها قالت : لما جال الناس يوم أحد تلك الجولة تنحيت فقلت : أزود عن نفسى ، فإما أنجو ، وإما أستشهد ، فإذا رجل محمر وجهه قد كاد المشركون أن يركبوه فملأ يده من الحصى فرماه به ، وإذا بينى وبينه المقداد ، فأردت أن أسأله عن الرجل فقال لى : يا سعد هذا رسول الله ﷺ يدعوك ؟ فقمتم ولكأنه لم يصبنى شئ من الأذى فأتيتته فأجلستنى أمامه فجعلت أرمى وأقول : اللهم سهمك فارم

(١) المصدر نفسه / ٢٩٥ ، ٢٩٦ . (٢) المغازى للواقدي / ٢٥٥ / ١ .

(٣) سبل الهدى والرشاد / ٤ / ٣٠٠ .

به عدوك ، ورسول الله ﷺ يقول اللهم استجب لسعد : اللهم سدد لسعد رميته ، إليها سعد فذاك أبى وأمى يا سعد . فما من سهم أرمى به إلا قال رسول الله : « اللهم سدد رميته ، وأجب دعوته ، حتى إذا فرغت من كنانتي نثر رسول الله ﷺ ما فى كنانته ، فنبلنى سهماً نضياً ، قال : (وهو الذى قد ريش ، وكان أسدً من غيره) .

قال الزهرى : (السهام التى رمى بها سعد يومئذ كانت ألف سهم) .

(وروى ابن عائد عن يحيى بن حمزة مرسلأ ، عن سعد بن أبى وقاص قال : رميت بسهم فرد على رسول الله ﷺ وسهمى أعرفه ، حتى واليت بين ثمانية أو تسعة ، كل ذلك يرده على رسول الله ﷺ ، فجعلت هذا السهم فى كنانتي لا يفارقنى) (١) .

(وروى البخارى عن على رضى الله عنه قال : ما سمعت رسول الله ﷺ جمع أبويه لأحد إلا لسعد بن أبى وقاص سمعته يقول يوم أحد : يا سعد إرم فذاك أبى وأمى يا سعد) (٢) .

د - عبد الرحمن بن عوف :

(وقاتل عبد الرحمن بن عوف قتالاً شديداً عن رسول الله ﷺ ، وأصيب فوه فهتهم ، وجرح عشرين جراحة أو أكثر ، وجرح فى رجله ، وكان يعرج منها) .

(وروى الطبرانى وابن مندة وابن عساكر عن طريق محمود بن لبيد - قال الحارث بن الصمة : سألتى رسول الله ﷺ وهو فى الشعب عن عبد الرحمن بن عوف ، فقلت : رأيته فى جنب الجبل ، فقال : إن الملائكة تقاتل معه ، قال الحارث : فرجعت إلى عبد الرحمن فوجدت بين يديه سبعة صرعى ، فقلت : ظفرت يمينك ، أكل هؤلاء قتلت ؟ قال : أما هذا وهذا فأنا قتلتهم ، وأما هؤلاء فقتلهم من لم أره ، فقلت : صدق الله ورسوله) (٣) .

هـ - على بن أبى طالب :

(وروى أبو يعلى بسند حسن ، عن على رضى الله عنه قال : لم انجلي الناس عن رسول الله ﷺ يوم أحد - نظرت فى القتلى ، فلم أرى رسول الله ﷺ ، فقلت : والله ما كان ليفر ، وما أراه فى القتلى . ولكن أرى الله تعالى غضب علينا بما صنعنا ، فرفع نبيه

(١) المصدر نفسه ٣٠٢/٤ . (٢) البخارى ٢م / ٢ / ج ٢ / ٢١٩ .

(٣) سبل الهدى والرشاد ٤ / ٣٠٣ ، ٣٠٤ .

ﷺ ، فما كان لي خير من أن أقاتل حتى أقتل ، فكسرت جفن سيفي ، ثم حملت على القوم فأفرجوا لي ، فإذا أنا برسول الله ﷺ بينهم ، أي يقاتلهم ﷺ (١) .

(وقاتل علي بن أبي طالب عن رسول الله ﷺ من ناحية ، وأبو دجانة من ناحية ، وسعد بن أبي وقاص من ناحية ، وانفرد علي بن أبي طالب بفرقة فيها عكرمة بن أبي جهل ، فدخل وسطهم بالسيف يضرب به ، وقد اشتملوا عليه حتى أفضى إلى آخرهم ، ثم كرهم ثانياً حتى رجع من حيث جاء) (٢) .

و - الزبير بن العوام :

(وبايعه يومئذ على الموت ثمانية : ثلاثة من المهاجرين ، وهم : علي ، والزبير ، وطلحة ، وخمسة من الأنصار : أبو دجانة ، والحارث بن الصمة ، والحباب بن المنذر ، وعاصم بن ثابت ، وسهل بن حنيف فلم يقتل منهم أحد) (٣) .

ز - عمر بن الخطاب :

قال ابن إسحاق : (فبينما رسول الله ﷺ بالشعب معه أولئك نفر من أصحابه إذ علت عالية من قریش الجبل ، فقال رسول الله ﷺ : اللهم إنه لا ينبغي لهم أن يعلونا ، فقاتل عمر بن الخطاب ، ورهط معه من المهاجرين حتى أهبطوهم من الجبل) (٤) .

٦ - دور العشرة السابقين من الأنصار :

أ - وقد مر بنا دور أم عمارة رضی الله عنها وزوجها وابنها ، وشهادة رسول الله ﷺ لهذا البيت ، ودعوته لهم أن يكونوا رفاقه في الجنة ، كما مر معنا دور أنس بن النضر رضی الله عنه .

ب - (روى الشيخان ومحمد بن عمر الأسلمي عن أنس رضی الله عنه قال : لما كان يوم أحد انهزم الناس عن رسول الله ﷺ ، وأبو طلحة بين يدي رسول الله ﷺ يجوب (٥) عنه بجحفته (٦) .. وكان أبو طلحة رامياً شديداً الرمي — فنثر كنانته بين يدي رسول الله ﷺ فلم يزل يرمي بها ، وكسر يومئذ قوسين أو ثلاثة ، وكان الرجل يمر بالجبعة من التبل فيقول ﷺ : « انثرها لأبي طلحة » ويشرف رسول الله ﷺ ينظر إلى القوم فيقول

(١) المصدر نفسه / ٢٩٣/٤ . (٢) المصدر نفسه / ٣٠١/٤ .

(٣) المصدر نفسه / ٢٩٣/٤ . (٤) السيرة النبوية لابن هشام / ٣٥/٢ .

(٥) يحوب : يُترس . (٦) جحفته : الكنانة التي يجعلها ما السهام

أبو طلحة يأنبى الله بأبى أنت وأمى ، لا تشرف يصبك سهم من سهام القوم نحري دون
نحرك (١) .

ج - وفي حديث أبى سعيد الخدرى عن محمد بن عمر : أن الخلفيتين لما نزعتا جعل
الدم يسرب كما يسرب الشن ، فجعل مالك بن سنان يأخذ الدم بفيه ، ويمججه منه ، ويزرد
منه . فقال له : أتسرب الدم قال : نعم يا رسول الله ، فقال رسول الله ﷺ : « من مس دمه
دمى لم تمسه النار » (٢) .

(وترى دون رسول الله ﷺ أبو دجانة بنفسه ، يقع النبل فى ظهره ، وهو ينحنى
عليه ، حتى كثر النبل ، وهو لا يتحرك) (٣) .

ويجب أن لا ننسى أن أبا دجانة هو صاحب عصاة الموت ، وأن أبا دجانة هو الذى
استحق سيف رسول الله ﷺ من دون الصحابة جميعاً ، حيث قاتل حتى ينحنى ،
وانحنى . وعندما وجد أن أجدى وسيلة لحماية رسول الله ﷺ هى أن يقع النبل على
ظهره ، وهو ينهمر انهمار المطر ، كان ذلك وترك سيفه ، وسل ظهره عوضاً عن سيفه يقى
به حبيبه محمداً صلوات الله وسلامه عليه .

د - وكان الحباب بن المنذر يجوش المشركين كما تجاش الغنم ، ثم استملوا عليه حتى
قيل قد قتل ، ثم برز والسيف فى يده ، واشرقوا عنه .

هـ - ومرو مالك بن الدخشم على خارجة بن زيد (بن أبى زهير) وهو قاعد فى
حشوته وبه ثلاثة عشر جرحاً كلها قد خلصت إلى مقتل ، فقال : أما علمت أن محمداً قد
قتل ؟ فقال خارجة إن كان رسول الله ﷺ قد قتل فإن الله حى لا يموت ، فقد بلغ رسول
الله ﷺ فقاتل عن دينك ؟

و - (وروى الطبرانى بسند رجاله ثقات عن كعب بن مالك رضى الله عنه قال : لما
كان يوم أحد وصرنا إلى الشعب كنت أول من عرف رسول الله ﷺ فقلت هذا رسول
الله ﷺ فأشار إلى بيده أن اسكت ، ثم ألبسنى لأمتي ، ولبس لأمتي (٤) ، فلقد ضربت
حتى جرحت عشرين جراحة - أو قال : بضعة وعشرين جراحة ، كل من يضربنى
يحسبنى رسول الله ﷺ ، فلما عرف المسلمون رسول الله ﷺ أقبلوا عليه كأنهم لم

(٢) المغازى ١/ ٢٤٧ .

(١) سبل الهدى والرشاد ٤/ ٣٠١ ، ٣٠٢ .

(٤) اللأمة : الدرع .

(٣) سبل الهدى والرشاد ٤/ ٣٠١ .

يصيهم شيء حين رأوه . وفرحوا بذلك فرحاً شديداً) .

ز - (قال محمد بن عمر : أقبل عثمان بن عبد الله بن المغيرة المخزومي على فرس أبلق ، وعليه لأمة كاملة ، يريد رسول الله ، وهو متوجه إلى الشعب ، وهو يصبح لآنجوت إن نجوت ، فوقف رسول الله ﷺ ، فعثر بعثمان فرسه في بعض تلك الحفر ، فوقع ، وخرج الفرس عاثراً ، فأخذه المسلمون . ومشى الحارث بن الصمة إليه ، فاصطدما ساعة بسفيهما ، ثم ضربه الحارث على رجله ، وكانت الدرع مشمرة ، فبرك وذفف عليه ، وأخذ الحارث يومئذ درعه ومغفره ، ولم يسمع بأحد يومئذ سلب غيره ، فقال رسول الله ﷺ : « الحمد لله الذي أحانه » وكان عبد الله بن جحش رضى الله عنه أسره ببطن نخلة ، فافتدى من رسول الله ﷺ ، وعاد إلى مكة حتى قدم فقتله الله بأحد .

وأقبل عبيد بن حاجر العامري يعدو كأنه سبعُ فُضرب الحارث بن الصمة ، فجرحه على عاتقه ، فاحتمله أصحابه ، ووثب أبو دجانة إلى عبيد فناوشه ساعة ، ثم ذبحه بالسيف ذبحاً ولحق برسول الله ﷺ) (١) .

ح - (فحمله - أي اللواء - مسافع بن طلحة بن أبي طلحة ، فرماه عاصم بن ثابت ابن أبي الأفلح فقتله ، فحمله الحارث بن طلحة - أخوه فرماه عاصم بن ثابت فقتله ، كلاهما يشعره سهماً فيأتي أمه سلافة فيضع رأسه في حجرها ، فتقول : يا بني من أصابك ؟ فيقول سمعت رجلاً رمانى يقول : خذها وأنا ابن الأفلح ، فنذرت إن أمكنها الله من رأس عاصم أن تشرب به الخمر ، وجعلت لمن جاء به مائة من الإبل ..) (٢) .

ط - (وروى الحاكم بسند صحيح عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : جاء على سيفه يوم أحد وقد انحنى ، فقال لفاطمة هاك السيف حميداً ؛ فإنه قد شفاني اليوم ، فقال رسول الله ﷺ لمن أجدت الضرب بسيفك لقد أجاد سهل بن حنيف ، وأبو دجانة ، وعاصم بن ثابت ، والحارث بن الصمة) (٣) .

٧ - الشهداء الأحد عشر :

روى النسائي والبيهقي بسند جيد عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال :
(انهزم الناس عن رسول الله ﷺ يوم أحد ، وبقي معه أحد عشر رجلاً من الأنصار ،

(٢) سبل الهدى والرشاد ٤/ ٢٨٨ ، ٢٨٩ .

(١) المعازى للواقدي ١٦/ ٢٥٢ .

(٣) سبل الهدى والرشاد ٤/ ٣٣٦ .

وطلحة بن عبيد الله ، وهو يصعد في الجبل فلحقهم المشركون ، فقال : ألا أحد لهؤلاء ؟ فقال طلحة : أنا يا رسول الله ، فقال رسول الله ﷺ : « كما أنت ياطلحة » فقال رجل من الأنصار : فأنا يا رسول الله . فقاتل عنه ، وصعد رسول الله ﷺ ومن بقي معه ، ثم قتل الأنصارى ، فلحقوه . فقال : ألا رجل لهؤلاء ؟ فقال طلحة مثل قوله ، فقال رسول الله ﷺ مثل قوله ، فقال رجل من الأنصار ، فأنا يا رسول الله ، فقاتل وأصحابه يصعدون في الجبل ، ثم قتل الأنصارى ، فلحقوه . فلم يزل يقول مثل قوله الأول ويقول طلحة : أنا يا رسول الله فيحبسه ، ويستأذنه رجل من الأنصار للقتال ؛ فيأذن له ، فيقاتل مثل من كان قبله ، حتى لم يبق معه إلا طلحة فغشوهما . فقال رسول الله ﷺ : من لهؤلاء يا طلحة ؟ فقال : أنا ، فقاتل مثل قتال جميع من كان قبله ، وأصيبت أنامله فقال : حس . فقال : لو قلت بسم الله لرفعتك الملائكة والناس ينظرون إليك حتى تلج بك في جو السماء ^(١) .

قال ابن إسحاق : (قال رسول الله ﷺ حين غشيه القوم : من رجل يشرى لنا نفسه ، فقام زياد بن السكن في نفر خمسة من الأنصار ، وبعض الناس يقول : إنما هو عمارة بن يزيد بن السكن ، فقاتلوا دون رسول الله ﷺ رجلاً رجلاً يقتلون دونه ، حتى كان آخرهم زياد أو عمارة ، فقاتل حتى أثبتته الجراحة . ثم فاءت فئة من المسلمين فأجهضوهم عنه ، فقال رسول الله ﷺ : ادنوه مني ، فأدنوه منه . فوسده قدمه ، فمات وخذه على قدم رسول الله ﷺ) ^(٢) .

ولعل تسلسل الأحداث كان على المراحل التالية :

١ - ابتدأ هجوم المشركين على رسول الله ﷺ من ابن قمئة . حيث كانت أم عمارة رضى الله عنها وزوجها ومصعب بن عمير ، يزودون عن رسول الله ﷺ .

٢ - عندما قتل مصعب بن عمير ، وصاح ابن قمئة أنه قتل رسول الله ﷺ وصاح الشيطان كذلك : اختلطت الأمور ، وغشى القوم رسول الله ﷺ يودون قتله .

٣ - وقف زياد بن السكن والأنصار الخمسة معه . يزودون عن النبي صلوات الله عليه حتى قتلوا عن آخرهم . وفاءت فئة من المسلمين أوقفت الهجوم الضارى .

٤ - عاد المشركون ، فتابعوا هجومهم الشرس ، وكانت خطة النبي ﷺ في هذه

(١) دلائل النبوة للبيهقى ٢٣٦/٣ ، ٢٣٧ ، والنسائي في باب الجهاد باختلاف يسير في باب ما يقول من يطعمه

العدو ٢٩/٦ ، ٣٠ .

(٢) السيرة لابن هشام ٢٩/٢ .

الظروف العصيبة أن يصعد إلى الجبل ، فيأخذ موقعاً استراتيجياً جديداً ، يملك به ناصية الموقف . ويصل للجيش المحاصر .

٥ - وعندما اتخذ قراره هذا كان قد أفرد مع أحد عشر أنصارياً ، ومهاجر واحد هو طلحة بن عبيد الله رضى الله عنه ، واستطاعت هذه الكتيبة الفدائية أن تضمن الصعود إلى الجبل بعد أن قتلت عن آخرها ، وسقط طلحة بن عبيد الله رضى الله عنه مغشياً عليه .

٦ - وحين أفرد رسول الله ﷺ وحده - بعث الله تعالى ملكى الحماية له جبريل وميكائيل يذودان عنه ويقاتلان أشد القتال ، كما روى سعد رضى الله عنه .

٧ - ثم فاء سعد وأبو عبيدة : ، وأبو بكر رضى الله عنهم ، ومالك بن سنان . حيث عاجلوا جراح رسول الله ﷺ ، ثم جراح طلحة .

٨ - وراح بقية قيادات الصحابة يفيئون إلى رسول الله ﷺ . حيث شق بهم جموع المشركين ، ومضى إلى الشعب حيث صعداً ثم تجمع الجيش الإسلامى من جديد .

٩ - وعندما حاول المشركون احتلال الجبل . قال عليه الصلاة والسلام : « اللهم لا ينبغي لهم أن يعلنوا » فأزاحهم عمر بن الخطاب رضى الله عنه مع سرية من المهاجرين ، وكان سعد رضى الله عنه يرميهم ، ويحس أن عليه أن يردهم وحده ، حتى تركوا الجبل ، واستلمه المسلمون مرة ثانية .

١٠ - وفى الشعب تجمع الجيش الإسلامى ، وفقدت قريش الموقع الذى احتلته ، وعجزت عن أن تقوم بهجوم آخر ، بعد الخطة النبوية العظيمة التى تم بها السيطرة على الجبل ، وإزاحة المشركين عنه .

وفى الوقوف أمام الآيات الكريمات يتجلى لنا بعد هذه الجولة معنى قوله سبحانه :

﴿ وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير . فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله وماضعفوا وما استكانوا . والله يحب الصابرين . وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا فى أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين . فاتاهم الله ثواب الدنيا ، وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين ﴾ . (١)

(١) آل عمران / ١٤٦ ، ١٤٧ .

(أخرج ابن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة . ﴿فَاتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسُنَ ثَوَابُ الْآخِرَةِ﴾ "الصلاح والظهور والتمكن والنصر على عدوهم في الدنيا «وحسن ثواب الآخرة» هي الجنة) .^(١)

وشاءت إرادة الله تعالى أن يشهد هذا الجيل الإسلامي النصر والتمكين في الدنيا ، وشهد رسول الله ﷺ لهم بحسن ثواب الآخرة بالجنة .

﴿يَأْيُهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ . بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾^(٢) .

يقول الإمام القرطبي :

(لما أمر الله تعالى بالافتداء بمن تقدم من أنصار الأنبياء حذر طاعة الكافرين ، يعنى : مشركى العرب : أبا سفيان وأصحابه ، وقيل : اليهود والنصارى .

وقال على رضى الله عنه : يعنى المنافقين فى قولهم للمؤمنين عند الهزيمة : ارجعوا إلى دين آبائكم ﴿يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾ أى إلى الكفر ﴿فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ أى فترجعوا مفتونين ، ثم قال : ﴿بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾ أى متولى نصركم وحفظكم إن أطعتموه)^(٣) .

(وهذا التفسير متناسق مع تفسير الارتداد على العقب بالكفر .

والتفسير الآخر : الذى يرى الارتداد على العقب هو الهزيمة والتخلى عن الجهاد ، فله ما يؤيده مما أورده ابن أبى حاتم عن على بن أبى طالب ، أنه سئل من هذه الآية ﴿يَأْيُهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا...﴾ التعرب^(٤) . فقال : بل هى الزرع)^(٥) .

(وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عمرو قال :

ألا أخبركم بالمرتد على عقبه ، الذى يأخذ العطاء ، ويغزو فى سبيل الله ، ثم يدع ذلك ويأخذ الأرض بالجزية والرزق ، فذلك الذى يرتد على عقبه)^(٦) .

﴿سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب بما أشر كوا بالله ما لم ينزل به سلطانا . وما أوهم النار وبئس مثوى الظالمين﴾^(٧) .

(١) الدر المنثور / ٤ / ٣٤١ . (٢) آل عمران / ١٤٩ ، ١٥٠ . (٣) تفسير القرطبي / ٤ / ٢٣٢ .

(٤) التعرب أى العودة إلى البداوة . والانقطاع عن الجهاد . ففسرها بالانشغال بالزرع عنه .

(٥) الدر المنثور / ٤ / ٣٤٢ . (٦) الدر المنثور / ٤ / ٣٤٢ . (٧) آل عمران / ١٥١ .

وعلى طريقة المنهج القرآنى فى التربية ، ودون ارتباط بتسلسل أحداث الغزوة ، حيث نجد الانتقال من إشاعة مقتل رسول الله ﷺ إلى إشاعة الرعب فى صفوف العدو بعد الغزوة .

وحيث يراعى فى الأمر التسلسل النفسى لا التسلسل الزمنى ، فالذين أصابهم الرعب وارتدوا على أعقابهم بعد خبر مقتل نبيهم ، لابد أن يعرفوا أن هذا الجيش اللجب الضخم قد أصابه الرعب بعد عودته من المدينة ؛ لأن الله تعالى حافظ جنده وحزبه الذين ماوهوا لما أصابهم فى سبيل الله ، وماضعفوا ومااستكانوا .

فالنماذج الخالدة التى صدقت الوعد مع ربها ونبيها . على قلتها ماتطرق لها الوهن . ولا أصابها الضعف ، والجموع الضخمة وعلى رأسها أبى سفيان قد أصابه الرعب فقد (أخرج ابن جرير عن السدى قال : لما ارتحل أبو سفيان والمشركون يوم أحد متوجهين إلى مكة - انطلق أبو سفيان حتى بلغ بعض الطريق ، ثم إنهم ندموا فقالوا :

بئسما صنعتم أنكم قتلتموهم حتى لم يبق إلا الشريد ، تركتموهم ؟ ارجعوا فاستأصلوا ، فقذف الله فى قلوبهم الرعب ، فانهزموا ، فلقوا أعرابياً . فجعلوا له جعلاً ، وقالوا له : إن لقيت محمداً ، فأخبره بما قد جمعنا لهم . فأخبر الله عز وجل رسوله ﷺ ، فطلبهم حتى بلغ حمراء الأسد ، فأنزل الله عز وجل فى ذلك ، فذكر أبا سفيان حين أراد أن يرجع إلى النبی ﷺ ، وماقذف فى قلبه من الرعب ، فقال ﴿ سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب .. ﴾ (١) .

والذى يؤكد مدى الرعب الذى حل بأبى سفيان ، وما سخر الله تعالى لنبيه فى ذلك - ماأورده ابن إسحاق عن وفد خزاعة ، وقد لقي النبی ﷺ فى حمراء الأسد .

قال ابن إسحاق : وقد مر به - كما حدثنى عبد الله بن أبى بكر - معبد بن أبى معبد الخزاعى ، وكانت خزاعة مسلمهم ومشرکهم عيبة نصح لرسول الله ﷺ بتهامة ، صَفَّفَهُمْ (٢) معه .

لا يخفون عنه شيئاً كان بها ، ومعبد يومئذ مشرك ، فقال :

(١) تفسير الطبرى / ٤ / ٨١ .

(٢) صففهم معه : إنفاقهم وهواهم له .

يامحمد أما والله لقد عز علينا ماأصابك فى أصحابك ، ولوددنا أن الله عافاك فيهم ، ثم خرج ورسول الله ﷺ بحمراء الأسد ؛ حتى لقي أبا سفيان بن حرب ومن معه بالروحاء ، وقد أجمعوا الرجعة إلى رسول الله ﷺ وأصحابه ، وقالوا : أصبنا أصحابه وأشرفهم وقادتهم ، ثم نرجع قبل أن نستأصلهم . لنكرن على بقيتهم فلنفرغن منهم .

فلما رأى أبو سفيان معبداً قال : ماوراءك يامعبد ؟

قال : محمد قد خرج فى أصحابه ، يطلبكم فى جمع لم أر مثله قط ، يتحرقون عليكم تحرقاً ، قد اجتمع معه من كان تخلف عنه فى يومكم ، وندموا على ماضيهم ، فيهم من الحنق عليكم شئ لم أر مثله قط ؛ قال : ويحك ماتقول ! قال : والله ماأرى أن ترتحل حتى ترى نواصى الخيل ، قال : فوالله لقد أجمعنا الكرة عليهم ؛ لنستأصل بقيتهم ، قال : فإننى أنهاك عن ذلك ، والله لقد حملنى مارأيت على أن قلت فيهم أبياتا من الشعر ، قال : وما قلت ؟ . قال : قلت :

كادت تهد من الأصوات راحلتى إذ سالت الأرض بالجرذ الأبايل (١)
تردى بأسد كرام لا تنابله عند اللقاء ولا ميل معازيل (٢)
فظلت عدواً (٣) أظن الأرض مائلة لما سموا برئيس غير مخذول
فقلت : ويل ابن حرب من لقائكم إذا تغطمطت البطحاء بالجيل (٤)
إنى نذير لأهل البسل ضاحية لكل ذى أربة منهم ومعقول (٥)
من جيش أحمد لا وحش قنابله (٦) وليس يوصف ماأنذرت بالقييل (٧)
فثنى ذلك أبا سفيان ومن معه .

(١) الجرذ الأبايل : الخيل العتاق . والأبايل الجماعات .

(٢) التنايلة : الكسالى ، والميل : الذى لارمع معه ، والمعازيل : الذين لاسلاح معهم .

(٣) العدو : المشى السريع .

(٤) تغطمطت : اهتزت وارتجت ، والجيل : الصنف من الناس .

(٥) أهل البسل : قریش .

(٦) الوحشى : الأراذل والأخساء . ش والقنابل : القطعة من الخيل .

(٧) السيرة لابن هشام / ٢ / ٥٥ .

جانب من تسلسل المعركة فى القرآن

يقول جل ثناؤه :

﴿ ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر ، وعصيتهم من بعد ما أراكم ماتحبون منكم من يريد الدنيا ، ومنكم من يريد الآخرة ، ثم صرفكم عنهم ليبتليكم . ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين ﴾ ^(١) .

﴿ ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه ﴾ .

ولنستمع إلى صدق هذا الوعد من الشهود العيان :

١ - فعن البراء بن عازب قال :

(لما كان يوم أحد ولقينا المشركين أجلس رسول الله ﷺ ناساً من الرماة وأمر عليهم عبد الله بن جبير ، وقال لهم : « لاتبرحوا مكانكم ، وإذا رأيتموهم قد ظهروا علينا فلا تعينونا عليهم » فلما التقى القوم ، وهزمهم المسلمون ؛ حتى نظرن إلى النساء يشتددن فى الجبل قد رفعن عن سوقهن ، بادية خلاخيلهن ، فجعلوا يقولون : الغنيمة الغنيمة ، فقال لهم عبد الله أمهلوا . أما عهد إليكم رسول الله ﷺ أن لا تبرحوا ؟ . فانطلقوا ، فلما أتوهم صرف الله وجوههم ، وقتل من المسلمين سبعون رجلاً) ^(٢) .

٢ - وعن الزبير رضى الله عنه قال :

(والله لقد رأيته أنظر إلى خدم ^(٣) هند بنت عتبة وصواحبها مشمرات هوارب ، مادون أخذهن قليل ولا كثير ، إذ مالت الرماة إلى العسكر حين كشفنا القوم عنه ، وخلوا ظهورنا للخيل ، فأتينا من خلفنا ، وصرخ صارخ : ألا إن محمداً قد قتل ! انكفأنا وانكفأ علينا القوم بعد أن أصبنا أصحاب اللواء حتى مايدنو منه أحد من القوم) ^(٤) .

٣ - وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال :

(ما نصر الله نبيه فى موطن كما نصر يوم أحد ، فأنكروا ، فقال ابن عباس : بينى وبين

(١) آل عمران / ١٥٢ .

(٢) دلائل النبوة للبيهقى / ٣ / ٢٦٧ . وقد روى أحمد والبخارى ومسلم والسنائي وابن جرير مثله .

(٣) خدم : خلاخل .

(٤) السيرة لابن هشام / ٢ / ٢٥ .

من أنكر ذلك كتاب الله ، إن الله تعالى يقول فى يوم أحد ﴿ ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه ﴾ والحس : القتل ، ﴿ حتى إذا فشلتم ﴾ إلى قوله ﴿ ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين ﴾ وإنما عنى هذا الرماة ، وذلك أن النبى ﷺ أقامهم فى موضع ثم قال : « احموا ظهورنا ، فإن رأيتونا نقتل فلا تنصرونا ، وإن رأيتونا قد غنمنا فلا تشركونا » فلما غنم النبى ﷺ ، وأباحوا عسكر المشركين ، انكفأت الرماة جميعاً فدخلوا فى العسكر ينتهبون ، والتفت صفوف المسلمين فهم هكذا ، وشبك بين يديه - والتبسوا ، فلما أخل الرماة تلك الخلّة التى كانوا فيها ، دخل الخيل من ذلك الموضع على الصحابة ، فضرب بعضهم بعضاً والتبسوا ، وقتل من المسلمين ناس كثير ، ولقد كان لرسول الله ﷺ وأصحابه أول النهار حتى قتل من أصحاب لواء المشركين سبعة أو تسعة ، وجال المسلمون جولة نحو الجبل ، ولم يبلغوا حيث يقول الناس : الغاب . إنما كانوا تحت المهراس وصاح الشيطان : قتل محمد . فلم يشك فيه أنه حق .

فمازلنا كذلك مانسك أنه قتل ، حتى طلع بين السعدين نعرفه بتكفؤه إذا مشى ، ففرحنا حتى كأنه لم يصيبنا ما أصابنا ، فرقى نحونا وهو يقول : « اشتد غضب الله على قوم أدموا وجه نبيهم » (١) .

﴿ .. حتى إذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر ، وعصيتم من بعد ما أراكم ماتحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ﴾ (٢) .

(لما رأى أصحاب عبد الله بن جبير وهم الرماة ما حصل للمشركين قالوا : أى قوم ، الغنيمة الغنيمة ، لم تقيمون غير هنا فى غير شئ ، قد هزم الله تعالى العدو ، وهؤلاء إخوانكم قد ظهوروا ، وهم ينتهبون عسكرهم ، فادخلوا عسكر المشركين فاغنموا مع إخوانكم ، فقال عبد الله بن جبير ومن وافقه : ألم تعلموا أن رسول الله ﷺ قال لكم : « احموا ظهورنا ، ولا تبرحوا من مكانكم ، وإذا رأيتونا نقتل فلا تنصرونا ، وإذا غنمنا فلا تشركونا ، احموا ظهورنا ! » .

فقال الآخرون : لم يرد رسول الله ﷺ هذا ، وانطلقوا . فلم يبق مع أميرهم عبد الله ابن جبير إلا دون العشرة ، وذهب الباقيون إلى عسكر المشركين ينتهبون ، فلما أتوهم

(١) الدر المنثور ، قال فيه : وأخرج أحمد وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى والحاكم وصححه والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس أنه قال

(٢) آل عمران / ١٥٢ .

صرفت وجوههم فانقلبوا منهزمين ، ونظر خالد بن الوليد إلى الجبل ، وقلة أهله ، فكَرَّ بالخيـل ، وتبعه عكرمة بن أبي جهـل – وأسلمـا بعد ذلك – فحملوا على من بقى من الرماة حتى قتلوهـم ، وثبت أميرهم عبد الله بن جبير ، فقاتل حتى قتل ، فجردوه ومثلوا به أقيح مثـلة ، وكانت الرماح قد شرعت فى بطنه ، حتى خرقت مابين سـرته إلى خاصـرته إلى عاتقه ، وخرجت حشوته ، وأحاطوا بالمسلمين . فبينما المسلمون قد شغلوا بالنهب والغنائم إذ دخلت الخيول تناوى فـرسانها بشعارهم : يا للعزى ، يالهيـل ، ووضعوا السيوف فى المسلمين وهم آمنون وكل فى يديه أو حضنه شئ قد انتهبه ، ولما رأى المشركون خيلهم ظاهرة رجـعوا فشدوا على المسلمين ، فهزموهم ، فقتلوا فيهم قتلاً ذريعاً ، وتفرق المسلمون فى كل وجه ، وتركوا ما انتهبوا ، وخلوا من أسروا ، وانتقضت صفوف المسلمين ، واستدارت رحاهم ، وكانت الريح أول النهار صيباً فصارت دبوراً ، وكر الناس منهزمين يحطم بعضهم بعضاً ، فصاروا أثلاثاً . ثلثاً جريحاً ، وثلثاً منهزماً ، وثلثاً مقتولاً . وصرخ الشيطان لعنه الله : أى عباد الله إخوانكم ، فرجعت أولاهم ، فاجتدلت هى وأخراهم وهم يظنون أنهم من العدو ، وكان غرض إبليس من ذلك أن يقتل المسلمون بعضهم بعضاً ، وكان أول النهار للمسلمين على الكفار ، كما قال تعالى : ﴿ ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم يأذنه حتى إذا فشتم وتنازعتم فى الأمر ، وعصيت من بعد ما أراكم ماتحبون . منكم من يريد الدنيا ، ومنكم من يريد الآخرة ، ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ، ولقد عفا عنكم ، والله ذو فضل على المؤمنين ﴾ (١) . فما كانت دولة أسرع من دولة المشركين ، وصرخ الشيطان عند جبل عـين ، وقد تصور فى صورة جعال بن سراقـة رضى الله عنه « إن محمداً قد قتل » ثلاث صرخات ، ولم يشك فى أنه حق ، وكان جعال إلى جنب أبى بردة يقاتل أشد القتال ، فقال جماعة من المسلمين لما سمعوا ذلك : إن كان رسول الله قد قتل أفلا تقاتلون على دينكم ؟ وعلى ما كان عليه نبيكم حتى تلقوا الله تعالى شهداء ؟ ! وقالت جماعة : لست لنا رسولاً إلى عبد الله بن أبى ليأخذ لنا أماناً من أبى سفيان ، يا قوم إن محمداً قد قتل ، فارجعوا إلى قومكم ، قبل أن يأتوكم فيقتلوكم ، واختلط المسلمون ، فصاروا يقتلون على غير شعار ، ويضرب بعضهم بعضاً ، من العجلة والدهش ومايدرى (٢) .

لقد كان تسلسل الحوادث . يقتضى أن تكون الآيات ﴿ واما محمد إلا رسول .. ﴾

بعد هذه الآيات ﴿ ولقد صدقكم الله وعده ﴾ .

لكن المنهج القرآني للتربية يقتضى غير ذلك ، فالآيات تنزل على المسلمين بعد أحد ، وقد انتهت المعركة ، وسقط من سقط شهيدا ، وأثخن بالجراح من أثخن ، والنفوس تعمل بالألم ، وتفعم بالتساؤلات ، وجمهور أهل أحد وغيرهم يتساءلون عن هذا الواقع ، فتأتى الآيات تترى ، والنفوس فى هذا الجو العالى من التوتر ، تحتاج إلى تثبيت ، ومواساة .

فجاء البيان القرآنى الشافى ، ليؤكد أن ماتم ليس فلتة عابرة ، ولا صدفه هائمة ، إنما هى سنن ثابتة خالدة ربانية ، مع جنوده وأعدائه لا تتخلف .

وأول هذه السنن : أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ، رغم هول المحنة ، وفداحة المصيبة .

﴿ ولا تهنوا ولا تخزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين ﴾ ^(١) .

وثانى هذه السنن : أن الأمر بين الأنبياء وأعدائهم دول ، وليس نصراً دائماً لا يتخلف ، كما تراءى للقوم بعد بدر .

﴿ إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله . وتلك الأيام نداولها بين الناس ... ﴾ ^(٢) .

وثالث هذه السنن : أن القرح الذى يصيب المؤمنين . هو لتمحيص الصف المؤمن ، ولا صطفاء شهداء منه .

﴿ .. وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء . والله لا يحب الظالمين ﴾ .

ورابع هذه السنن : هدف المحنة فى الصف المؤمن هو التمحيص فقط . بينما هدف القرح فى الصف الكافر هو الحق والإبادة .

﴿ ولیمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين ﴾ ^(٣) .

وخامس هذه السنن : أن المعاناة العملية للابتلاء أمر ثابت ، يختلف عن التحليق الشعارى ، والاندفاع العاطفى ، ولن تتضح هذه السنة إلا من خلال القرح والمحنة .

(١) آل عمران / ١٣٩ . (٢) آل عمران / ١٤٠ .

(٣) آل عمران / ١٤١ .

﴿ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه . فقد رأيتموه وأنتم تنظرون﴾ (١)

وسادس هذه السنن : أن ارتباط المؤمن بدينه وعقيدته هو الأصل . أما ارتباطه بجماعته وقيادته هو تبع لذلك الأصل ، فلا عذر للمؤمن في نكوصه وارتداده إن فقد قيادته .

وسابع هذه السنن : أن الارتداد على العقب . فراراً أو كفراً . لن ينال من دين الله شيئاً . ولن يضر هذا الأمر إلا صاحبه .

وثامن هذه السنن : أن أصحاب الأنبياء على مدار التاريخ — كانوا يصابون بهذا القرح وهذا الابتلاء — فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى جاءهم نصر الله ، وهذه الأكثرية الصابرة هي التي يؤتيها الله تعالى نصره ، يؤتيها ثواب الدنيا ، وحسن ثواب الآخرة .

وتنتقل الآيات بعد عرض هذه السنن الربانية في الأمم السالفة لتعرض هذه العصبة المؤمنة عليها ، ويبدأ العرض المباشر لتطبيق الواقع القائم في أحد ، على السنن الربانية الثابتة علماً بأن هذه السنن قد توضح جزء كبير منها من الواقع العملي الحى للمسلمين ، ومن المحنة التي عانوها .

لقد اختل شرط كبير من شروط تحقيق النصر ، وهو مدار الحديث في الآية السابقة ، وتم اختلال هذا الشرط أثناء المعركة ، وقبل أن يختل تحقق موعود الله وتم النصر .

﴿ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه...﴾ .

وكما مر معنا من واقع المعركة .

(لقد رأيته أنظر إلى خدام هند بنت عتبة وصويحباتها مشمرات هوارب مادون أخذهن قليل ولا كثير .)

(قد هزم الله العدو ، وهؤلاء إخوانكم قد انتصروا) .

لكن أعجب ما في هذه السنة . في هذا الجيل الرائد . أنه لم يمر لحظات على المخالفة حتى فقد النصر ، ففي السنن لدى الأمم ، يمهّل الله تعالى الأمة قليلاً قليلاً حين تخالف ، أما هنا فقد كانت المحنة مباشرة بعد المخالفة .

(١) آل عمران / ١٤٣ .

ولم تكن العقوبة والقرح والمحنة ؛ لأن الرماة تركوا الجبل ، فى تصرف شخصى بحث . فقد كان يمكن فى عالم الأسباب أن يستمر النصر ، ولانتبه خيالة المشركين إلى فقدان أربعين من الرماة مواقعهم فى الجبل ، وتستمر هزيمة المشركين ويسلم الله تعالى من هذا البلاء ، كما سلم الله تعالى فى أكثر من موطن .

ولتقف عند هاتين المقارنتين .

يقول الله تعالى فى بدر :

﴿ .. ولو أراكمهم كثيراً لفشلتم ولتزازعتم فى الأمر ، ولكن الله سلم ... ﴾^(١) .

والمفروض فى عالم الأسباب أن يراهم رسول الله ﷺ كثيراً . فقد أراهم الله تعالى نبيه قليلاً - على غير واقعهم ، ليقضى الله أمراً كان مفعولاً .

﴿ وإذ يريكموهم إذ التقيتم فى أعينكم قليلاً ... ﴾^(٢) .

فليست القضية معجزة خاصة بالنبي ﷺ ، بل هى معجزة له فى جيشه كله ، وكرامة لأصحابه وجيشه كله ، أن تنقلب الحقيقة كلها فيراهم المسلمون قليلاً ، وأن تظهر الحقيقة كما هى للمشركين ﴿ ويقللكم فى أعينهم ﴾^(٣) .

وقد وقعت فى أحد كرامات ومعجزات لاتحصى . يرد عنها الحديث فى حينها .

لماذا سلم الله فى بدر . ولم يكن الفشل والتنازع ؟

ولماذا لم يسلم الله تعالى فى أحد . وكان الفشل والتنازع ؟

والفشل والتنازع عموماً سنة من سنن الهزيمة .

﴿ ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ، واصبروا إن الله مع الصابرين ﴾^(٤) .

والجواب واضح .

فكثرة عدد المشركين ، وقلة عدد المسلمين فى بدر - لم يكونا ناشئين عن معصية ، فما تخلف أحد عن بدر معصية لله ورسوله ، بينما انسحب ثلث الجيش فى أحد معصية لله ورسوله ، وما تخاذل أهل بدر رغم رؤيتهم قوة عدوهم ، وما وهنوا وما استكانوا ، وقتلوا مع رسولهم .

(١) الأنفال / ٤٣ . (٢) الأنفال / ٤٤ .

(٣) الأنفال / ٤٤ . (٤) الأنفال / ٤٦ .

بينما كانت مغادرة الجبل في أحد معصية ظاهرة لله ورسوله ، إذ قال لهم رسول الله ﷺ : « لا تبرحوا مكانكم . ولو رأيتم الطير تخطفنا فلا تعينونا . وإن رأيتمونا قد غنمنا فلا تشركونا ، احموا ظهورنا » .

ولاعذر بالنسيان ، فقد ذكرهم أميرهم بأمر رسول الله ﷺ ألا يغادروا مواقعهم .

وحتى لا يقع في حس المسلم أن فقدان النصر في أحد - كان مداره السبب المباشر من أسباب الأرض ، وهو مغادرة الجبل ، والتي كانت في القدرة الربانية يمكن أن تسد ثغرتها ، لم يذكر القرآن الكريم الحادثة ذاتها ، فليست هي الهدف ، إنما ذكر الدافع لها مباشرة .

﴿ حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتهم - من بعد ما أراكم ماتحبون . منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ﴾ (١) .

ومع أن الفشل والتنازع والمعصية لم تقع في الجيش كله ، إنما وقع في مجموعة صغيرة منه ، والذين يريدون الدنيا - كما برزوا في الغزوة - لم يكونوا كثرة بالنسبة للجيش ، وإن كانوا كثرة بالنسبة للرماة - إذ بلغوا أربعة أخماسهم .

فالخلل في البناء التربوي والنفسى ، والمعصية ، وحب الدنيا ، والتنازع جعل العقوبة الربانية جاهزة ، ومع ذلك ففي هذه العقوبة لطف وعفو ، وحكمة .

﴿ ثم صرفكم عنهم ليبتليكم . ولقد عفا عنكم . والله ذو فضل على المؤمنين ﴾ (٢) .

فقد حال بين الرماة العصاة وبين الغنائم ، وانهزموا عندما مضوا إلى المعسكر ينتهبون ، حتى تبرز معصيتهم واضحة ، فلا يضيعوا في خضم الذين يجمعون الغنائم دون معصية ، برزت قضيتهم جلية للعيان ، ولعلها - والله أعلم - لم تبرز كما برزت وجلاها القرآن الكريم في الآية .

ولم تكن القضية على الأقل واضحة في البداية - حين وقعت المحنة ، فقد تتالت المحن يعقب بعضها بعضا ، والغم تلو الغم ، بحيث لم تتجل الصورة تماماً - إلا بالعرض القرآنى بعد ذلك .

﴿ ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين ﴾ .

(١) آل عمران / ١٥٢ . (٢) آل عمران / ١٥٢ .

فقد كان يمكن أن تكون نتيجة هذه المعصية - استئصال المؤمنين وانتهاءهم وإبادتهم ، وكان هذا في متناول المشركين ، بل رأوا أنهم فعلوا ذلك - حين وقف أبو سفيان بعد المعركة ، يسأل : أفيكم ابن أبي كبشة ؟ أفيكم ابن أبي قحافة ؟ أفيكم ابن الخطاب ؟

وهم يرون أنهم قضوا على هذه القيادات ، وانتهى أمر المسلمين بذلك ، وهنا تتجلى الحكمة أوضح . ففى أن سبقت الآية ﴿ سلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب ﴾ الآية المذكورة .

فعندما توجه المشركون للاستئصال ، دفع عنهم ذلك الأعرابى الذى لقوه فحذرهم من المسلمين ، فعادوا إلى مكة ، والرعب يملأ كيانههم .

أليس هذا من العفو والفضل على المؤمنين ؟ !

هناك فرق كبير بين القرح والمحنة . وبين الحق والإبادة !

﴿ ليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين ﴾ .

ولعل أية إلقاء الرعب فى قلوب الكافرين - هى الدليل الأكبر والأوضح على عفو الله ولطفه بالمؤمنين ، لكنه عفو مرتبط بالابتلاء ﴿ ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ﴾ .

وتنتقل الآيات إلى حيث تم التوافق النفسى والتربوي مع التوافق الحركي للأحداث . ويتجلى ذلك فى الآية التالية :

﴿ إذ تصعدون ولا تلوون على أحد ، والرسول يدعوكم فى أخراكم ، فأتاكم غمًا بغم ، لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ، ولا ما أصابكم والله خير بما تعملون ﴾ (١) .

إنه القرآن الكريم يتابع عرض الواقع الذى أدى للهزيمة ، ونجد أنه قد أفرد للمعصية الثانية آية مبينة ، ما كنا لنذكر أبعادها لولا القرآن الكريم .

﴿ إذ تصعدون ولا تلوون على أحد . والرسول يدعوكم فى أخراكم .. ﴾ .

فإذا كان الفريق الأول قد عصى وأراد الدنيا ، فإن الفريق الثانى لم يستجب لرسول الله ﷺ ، وهو يدعوه للثبات ، وليست هذه المعصية بأقل من تلك .

ونبحث فى جل مصادر السيرة فلا نجد هذه الصورة أبدا . ﴿ والرسول يدعوكم

(١) آل عمران / ١٥٣ .

في أخراكم ﴿ ١ 〉 . وإنما نجد لها لدى المفسرين حين يعرضونها بالشرح والتعليق .

وهذه المعصية من الأهمية بحيث يجليها القرآن الكريم ، ويوضح عقوبة الغم المضاعف بسببها أى لا يمكن أن يقف المرء أمامها عرضاً ، ويمر عليها عابراً ، فهي جدية بالوقوف والتأني - جدارة المعصية الأولى لأخذ العبرة منها .

﴿ إذ تصعدون ولا تلون على أحد ﴾ .

(وقراءة العامة تُصعدون بضم التاء وكسر العين ، وقرأ أبو رجاء العطاردي وأبو عبد الرحمن السلمى والحسن وقتادة بفتح التاء والعين ، يعنى تصعدون الجبل - وقال أبو حاتم : أصعدت : إذا مضيت خيال وجهك ، وصعدت إذا ارتقيت في جبل أو غيره ، فالإصعاد : السير في مستو من الأرض ، وبطون الأودية والشعاب ، والصعود : والارتفاع على الجبال والسطوح والسهول والدرج) (١) .

(أخرج ابن جرير من طريق ابن جريج عن ابن عباس : ﴿ إذ تصعدون .. ﴾ قال : صعدوا في أحد فرارا وهو يدعوهم في أخراهم : « إلى عباد الله ارجعوا إلى عباد الله ارجعوا » (٢) .

(وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن أنه سئل عن قوله ﴿ إذ تصعدون .. ﴾ الآية . قال : فروا منهزمين في شعب شديد لا يسلون على أحد ، والرسول يدعوهم في أخراهم « إلى عباد الله إلى عباد الله . ولا يلوى عليه أحد » (٣) .

(وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة في قوله : ﴿ إذ تصعدون .. ﴾ الآية . قال : ذاكم يوم أحد صعدوا في الوادي فراراً ونبي الله ﷺ يدعوهم في أخراهم « إلى عباد الله . إلى عباد الله » (٤) .

وحسب تسلسل الأحداث لا بد أن تكون هذه الدعوة مباشرة ، بعد كرخيل المشركين على المسلمين ، وكما تصف أحداث السيرة أن المسلمين قد أصبحوا بين كفي كمامة ، حيث عاد المشركون من أمامهم يقاتلونهم ، والخيول والفرسان يطعنون بهم من خلفهم ، وكان رسول الله ﷺ في أخراهم لأنهم كانوا متقدمين ينتهبون الغنائم ، ويلحقون بالفارين من المشركين ، وأمام هول الصدمة ووقع المفاجأة حيث وجدوا أنفسهم

(١) تفسير القرطبي / ٤ / ٢٣٩ . (٢) تفسير القرطبي / ٤٠ / ٨٨ .

(٣ ، ٤) الدر المنثور / ٣ / ٣٥٠ .

يقتلون من أمامهم ومن خلفهم ، وأحياناً يجتلدون مع بعضهم - فروا مذعورين ، وفي بداية هذا الفرار - ولا يزال الجيش الإسلامي على وضعه - كانت دعوة رسول الله ﷺ لهم كي يثبتوا ، ويدعوهم إلى التجمع حوله ، ويلج في ذلك ، وهم لا يلبون على أحد .

لأن المرحلة التالية ، وحين أفرد رسول الله ﷺ مع اثني عشر من أصحابه ثم غدا وحده ، وفصل بينه وبين جيشه ، لم تعد الخطة النبوية أن يعلن عن وجود النبي ﷺ ، لأنه الهدف الرئيسي في المعركة ، فلو نادى المسلمين - لانقض المشركون إلى موقع النداء ، ووجدنا سمة هذه المرحلة كما وصفها كعب بن مالك رضى الله عنه ، حين رأى رسول الله ﷺ ، فصاح هذا رسول الله ! فأشار له رسول الله ﷺ أن اصمت . وللمبالغة في السرية ، أخذ لأمة كعب وأعطاه لأتمته ليفوت الهدف على العدو في مقتله ، ونال كعباً رضي الله عنه بضع عشرة ضربة في رأسه ، على أساس أنه رسول الله صلوات الله عليه .

فقد كانت الدعوة ابتداء ، وحين كانت أم عمارية تذود عن رسول الله ﷺ ، أما بعد تفرق الجيش ، وتبعثره في الشعاب والأودية - فقد انتهت الدعوة .

ولا بد أن نشير إلى ثبات رسول الله ﷺ وقد فر عنه أصحابه . روى البيهقي عن المقداد بن عمرو قال :

(.. فأوجعوا والله فينا قتلاً ذريعاً . ونالوا من رسول الله ﷺ ما نالوا . ألا والذي بعثه بالحق إن زال رسول الله ﷺ شبراً واحداً ، وإنه لفي وجه العدو وفيه إليه طائفة من أصحابه مرة ، وتفترق مرة عنه ، فرمى رأيته قائماً يرمى عن قوسه ، ويرمي بالحجر حتى تجاوزوا ، وثبت رسول الله ﷺ في عصابة ثبتت معه) (١) .

وقال محمد بن عمر : ثبت رسول الله ﷺ مكانه ما يزول قدماً واحداً ، بل وقف في وجه العدو وما يزال يرمى عن قوسه حتى تقطع وتره ، وبقيت في يده منه قطعة تكون شبراً في سبة القوس ، فأخذ القوس عكاشة بن محصن ليوتره له ، فقال : يا رسول الله لا يبلغ الوتر ، فقال : مدة فيبلغ ، قال عكاشة : فوالذي بعثه بالحق لمددته حتى بلغ وطويت منه ليتين أو ثلاثاً على سبة القوس ، ثم أخذ رسول الله ﷺ قوسه ، فما زال يرمى به ، وأبو طلحة يستره مترساً عنه ، حتى تحطمت القوس ، وصارت شظايا ، وفنى نبله ، فأخذ القوس قتادة بن النعمان ، فلم تزل عنده . ورمى رسول الله ﷺ بالحجارة ، وكان أقرب الناس إلى العدو ...) (٢) .

(٢) المغازي للواقدي / ١ / ٢٤٢ .

(١) سبل الهدى والرشاد / ٤ / ٢٩١ .

(وروى الطبراني عن ابن عباس : أن ابن مسعود ثبت يومئذ مع رسول الله ﷺ ، وجعل رسول الله لما انكشف الناس عنه إلى الجبل لا يلوون عليه يدعوه في آخرهم يقول : « إلى يا فلان أنا رسول الله » فما يعرج عليه أحد ، هذا والنبل يأتيه من كل ناحية ، والله تعالى يصرف ذلك عنه) (١) .

(وروى عبد الرزاق بسند مرسل قوى عن الزهري قال : ضرب وجه رسول الله ﷺ يوم أحد سبعين ضربة بالسيف ، وقاه الله شرها كلها .

قال الحافظ : ويحتمل أنه أراد بالسبعين حقيقتها ، أو المبالغة في الكثرة . انتهى) (٢) .

فدعوة رسول الله ﷺ لهم أثناء فرارهم تشي بثباته ﷺ دون أن يتزحزح شبراً واحداً عن موقعه ، إلا عندما رسم الخطة لإعادة تجميع جيشه من جديد ، ومضى نحو الجبل ليواجه بكتائب العدو تريد قتله ، واستتصاه . لكن ثباته وشجاعته حطم هذا الكيد ، وأوصله إلى جيشه المبعثر . ﴿ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ ۖ ﴾ .

وتبلغ المأساة ذروتها - بعد هاتين المعصيتين - بالجيش النبوي ، كما يصف القرآن هذه القلوب قبل أن يصف الأحداث ، ولنشهد هذه الغيوم هناك .

وعندنا خمس روايات تحدثنا عن هذه الغيوم :

١ - (أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم من طريق العوفي عن ابن عباس ﴿ إِذْ تَصْعَدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ . فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ ۖ ﴾ فرجعوا وقالوا : والله لنائينهم ثم لنقتلهم قد خرجوا منا فقال رسول الله ﷺ : « مهلاً فإنما أصابكم الذي أصابكم من أجل أنكم عصيتموني » فينما هم على ذلك إذ آتاهم القوم وقد أنسوا ، وقد اخترطوا سيوفهم ﴿ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ ۖ ﴾ . فكان غم الهزيمة - وغمهم حين أتوهم ﴿ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَفَاتِكُمْ ﴾ من الغنime ﴿ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ ﴾ من القتل والجراحة) (٣) .

٢ - (وأخرج ابن مردويه عن عبد الرحمن بن عوف ﴿ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ ۖ ﴾ قال : الغم الأول بسبب الهزيمة والثاني حين قيل : قتل محمد ، وكان ذلك عندهم أعظم من الهزيمة) (٤) .

(٢) سبل الهدى والرشاد / ٤ / ٢٩٣ .

(١) سبل الهدى والرشاد / ٤ / ٢٩٢ .

(٤) الدر المنثور / ٢ / ٣٥١ .

(٣) تفسير الطبري / ٤ / ٩١ . والدر المنثور / ٢ / ٣٥١ .

٣ - (وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله : ﴿ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍ ﴾ قال : فرة بعد الفرة الأولى حين سمعوا الصوت أن محمدا ﷺ قد قتل ، فرجع الكفار فضربوهم مدبرين حتى قتلوا منهم سبعين رجلاً ، ثم انحازوا إلى النبي ﷺ ، فجعلوا يصعدون في الجبل والرسول يدعوهم في أصرهم (١) .

٤ - (وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة ﴿ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍ ﴾ قال : الغم الأول الجراح والقتل ، والغم الآخر حين سمعوا أن النبي ﷺ قد قتل ، فأنساهم الغم الآخر ما أصابهم من الجراح والقتل ، وما كانوا يرجون من الغنيمة .
وذلك قوله ﴿ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ ﴾ .

وأخرج ابن جرير عن الربيع مثله (٢) .

٥ - (وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي قال : انطلق النبي ﷺ يومئذ يدعو الناس حتى انتهى إلى أصحاب الصخرة ، فلما رأوه وضع رجل سهماً في قوسه فأراد أن يرميه فقال : أنا رسول الله ، ففرحوا بذلك حين وجدوا رسول الله ﷺ حياً ، وفرح رسول الله ﷺ حين رأى أن في أصحابه من يمتنع ، فلما اجتمعوا وفيهم رسول الله ﷺ حين ذهب عنهم الحزن ، فأقبلوا يذكرون الفتح وما فاتهم منه ، ويذكرون أصحابهم الذين قتلوا ، فأقبل أبو سفيان حتى أشرف عليهم ، فلما نظروا إليه نسوا ذلك الذي كانوا عليه ، وهمهم أبو سفيان فقال رسول الله ﷺ : « ليس لهم أن يعلونا ، اللهم إن تقتل هذه العصابة لا تعبد » ثم ندب أصحابه فرموهم بالحجارة حتى أنزلوهم ، فذلك قوله : ﴿ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍ ﴾ الغم الأول ما فاتهم من الغنيمة ، والغم الثاني إشراف العدو عليهم ﴿ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ ﴾ من الغنيمة ، ولا ما أصابكم من القتل حين تذكرون فشغلهم أبو سفيان (٣) .

(وأخرج ابن جرير عن مجاهد قال : أصاب الناس حزن وغم على ما أصابهم في أصحابهم الذين قتلوا ، فلما تولجوا في الشعب وقف أبو سفيان وأصحابه بباب الشعب ، فظن المؤمنون أنهم سيميلون عليهم فيقتلونهم أيضاً ، فأصابهم حزن من ذلك أنساهم حزنهم في أصحابهم فذلك قوله سبحانه ﴿ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍ ﴾ (٤) .

(١) تفسير الطبري / ٨٨/٤ ، ٨٩ ، والدر المنثور / ٣٥١/٢ (٢) تفسير الطبري / ٨٩/٤ والدر المنثور / ٣٥١/٢ .

(٣) تفسير الطبري / ٨٩/٤ والدر المنثور / ٣٥١/٢ . (٤) تفسير الطبري / ٩٠/٤ والدر المنثور / ٣٥٠/٢ .

- ونخلص من هذه الرويات الستة إلى أن الغم المجمع عليه في الروايات كلها . هو ما أصابهم من فقدان إخوانهم ، وما فاتهم من الفتح والغنيمة وأما الثاني فهو :
- إما : قدوم أبو سفيان إليهم في صعوده للجبل أو وقوفه في فم الشعب .
- وإما : ما سمعوه من أن محمداً ﷺ قد قتل بعد فواتهم الفتح الأول .
- وإما : عودة الكفار إليهم بعد إشاعة مقتل النبي ﷺ ، واستشهاد سبعين منهم .
- ﴿ والله خير بما تعملون ﴾ .

وحين يتحدث القرآن عن هذه المرحلة ، إنما يعنى أصحاب النبي ﷺ جميعا ، فالغم الأول والثاني نزل بهم كلهم ، والخطأ الذي تم في العمل من الرماة ، والمعصية التي تمت نتيجة حب الدنيا من بعض المسلمين أعقبها سلوك مماثل - هو فرار وتبعثر وفقدان للوعى ، والمعصية الثانية بعدم تلبية النبي ﷺ من البعض .

﴿ إذ تصعدون ولا تلوون على أحد . والرسول يدعوكم في أخراكم ﴾ .

لقد كانت آثار المعصيتين التي تمت من فريق من المسلمين أولاً ، وفريق ثان ثانياً ، والمرتبطة بحب الدنيا ، والخوف من القتل - كانت الآثار شاملة للجيش كله . ﴿ فأثابكم غماً بغم ﴾ .

ونالت هذه الآثار شخص رسول الله ﷺ ، فكسرت رباعيته ، وشج وجهه ، ودخلت حلقتا المغفر في وجنته ، والجراحات التي خلصت للجيش كله ، والذين استشهدوا ولم يكونوا هم المخالفون ، ولكن المخالفة والمعصية عمل ، والعقوبة على هذا العمل ﴿ والله خير بما تعملون ﴾ .

(يقول ابن إسحاق في تفسير قوله تعالى : ﴿ فأثابكم غماً بغم لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم ﴾ (أى : كرباً بعد كرب لقتل من قتل من إخوانكم ، وعلو عدوكم عليكم ، وما وقع في أنفسكم من قول من قال : قتل نبيكم ، فكان ذلك مما تتابع عليكم غماً بغم ، لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم من قتل إخوانكم حتى فرجت ذلك الكرب عنكم ﴾ والله خير بما تعملون ﴾ وكان الذي فرج الله به عنهم ما كانوا فيه من الكرب والغم الذي أصابهم - أن الله عز وجل رد عنهم كذبة الشيطان بقتل نبيهم ﷺ ، فلما رأوا رسول الله ﷺ حياً بين أظهرهم - هان عليهم ما فاتهم من القوم

بعد الظهور عليهم ، والمصيبة التي أصابتهم في إخوانهم حين صرف الله القتل عن
بيهم ﷺ (١) .

وكان ابن إسحاق رحمه الله جمع بين هذه الروايات ، واعتبر القضية غمًا بعد غم
ليست محصورة في غمين فقط ، ولكن الذى أزال الغوم كلها ، رؤية رسول الله ﷺ
حيًا بين أظهرهم .

والمعنى الذى نحى إليه ابن إسحاق نجد له شواهد كثيرة من السيرة ، في النساء
الصحابيات وفي الصحابة ، حيث كان المعنى العام : كل مصيبة دونك يا رسول الله
جل (٢) .

يقول جل ثناؤه :

﴿ ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمانة نعاساً يغشى طائفة منكم ، وطائفة قد أهمتهم
أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية يقولون هل لنا من الأمر شئ . قل إن الأمر
كله لله يخفون فى أنفسهم ما لا يبدون لك ، يقولون لو كان لنا من الأمر شئ ،
ماقتلناها هنا ، قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم .
وليبتلى الله مافى صدوركم وليمحص مافى قلوبكم والله عليم بذات الصدور ﴾ (٣) .

ويتضح التميز في هذه الآية فى أجلى صوره بين المؤمنين والمنافقين . بين الفريق الذين
رضى الله عنهم لثباتهم بجوار حبيبه المصطفى ، وفدوه بالدم والروح ، وبين الذين عفا
عنهم فقرأوا وخوفاً - وبين الذين كشفوا خبيثة نفوسهم الخبيثة ، وفقدوا إيمانهم ، أو
كشفوا زيفهم وكفرهم من أهل الشك والريب والنفاق .

وكان المعركة معركة نفوس وقلوب وضمائر ، قبل أن تكون معركة سيوف ورماح
وبواتر . فلو انتهت المعركة من الجولة الأولى ، واستوى الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه
مع الذين نقضوا العهد والميثاق ، واستوى الذين يقدونه بأرواحهم ومهجهم ، مع الذين
يشكون فيه وفى رسالته - لما تميز الخبيث من الطيب - ومن أجل ذلك ، وفى خضم
المعارك تميز الصفوف ، ويعرف المؤمن من المنافق .

لقد كان صرف المؤمنين عن المشركين - مع مافيه من محنة - قدراً ربانيا . وفضل

(١) السيرة النبوية لابن هشام / ٢/ ٦٨ . وقد أوردها ابن جرير بسنده عن ابن إسحاق فى ٩٠/٤ .

(٢) جلال : تستعمل بمعنى العظيم ، وتستعمل بمعنى الصغير ، والمعنى الثانى هو المقصود .

الله تعالى على المؤمنين فى تمييز الصف واصطفاء الشهداء - أعظم من فضله عليهم بالنصر فى صف مخلخل غير خالص ، ومن أجل ذلك كانت المعركة مع العدو وهى الميدان الوحيد لكشف خبايا النفوس وحنايا الضمائر ، ومن أجل هذا برز الفريقان على الساحة ، وعلى كل فريق سمته وعلامته التى تكشف أعماق قلبه ، ودخيلة نفسه .

وإذا كان النعاس فى بدر قد شمل المؤمنين جميعاً ، لأنها كانت محط التمييز بين المؤمنين والكافرين ، فقد كان النعاس فى أحد ، يغشى فقط طائفة خلصت من حظوظ نفسها ، ولم يشغلها شئ إلا ربها ودينها ونبيها ، فتولاها ربها بحنوه ورعايته .

﴿ ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمانة نعاساً يغشى طائفة منكم ﴾ (١)

(أخرج ابن أبى شيبه وعبد بن حميد والبخارى والترمذى والنسائى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، وابن حبان ، والطبرانى ، وأبو الشيخ وابن مردويه ، وأبو نعيم والبيهقى كلاهما فى الدلائل عن أنس أن أبا طلحة . قال :

غشيننا ونحن فى مصافنا يوم أحد ، حدث أنه كان ممن غشيه النعاس يومئذ . فقال : فجعل سيفى يسقط من يدي وآخذه ، ويسقط وآخذه ، فذلك قوله ﴿ ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمانة نعاساً يغشى طائفة منكم ﴾ (٢) .

(وأخرج ابن سعد وابن أبى شيبه وعبد بن حميد والترمذى وصححه والحاكم وصححه وابن مردويه وابن جرير والطبرانى وأبو نعيم والبيهقى معاً فى الدلائل عن الزبير ابن العوام قال : رفعت رأسى يوم أحد فجعلت أنظر وامنهم أحد إلا وهو ممد تحت حجفته من النعاس وتلا هذه الآية : ﴿ ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمانة نعاساً يغشى طائفة منكم ﴾ (٣) . (وروى الطبرانى فى الأوسط عن عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه قال : ألقى علينا النوم يوم أحد) . (٤)

وروى ابن جرير عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : (آمنهم الله تعالى يومئذ بنعاس غشاهم ، وإنما ينعس من يأمن) (٥) .

وروى محمد بن عمر الأسلمى عن أبى اليسر - واسمه كعب بن عمرو الأنصارى - رضى الله عنه قال : لقد رأيتنى يومئذ فى أربعة عشر رجلاً من قومى إلى جنب رسول الله

(١) آل عمران / ١٥٤ . (٢) الدرر المنثور / ٣٥٣ / ٤ .

(٣) الدرر المنثور / ٢٥٣ / ٤ . (٤) تفسير الطبرى / ٩٢ / ٤ . (٥) تفسير الطبرى / ٩٢ / ٤ .

ﷺ ، وقد أصابنا النعاس أمنة منه ، مامنهم أحد إلا يغط غطيظاً حتى أن الجحف لتتناطح ، ولقد رأيت سيف بشر بن البراء بن معرور سقط من يده وما يشعر ، حتى أخذه بعد ماتلم ، وأن المشركين لتحتنا (١) .

قال محمد بن إسحاق : (أنزل الله تعالى النعاس أمنة منه لأهل اليقين . فهم نيام لا يخافون) (٢) .

يقول صاحب الظلال :

(ولقد أعقب هول الهزيمة وذعرها وهرجها ومرجها - سكون عجيب ، سكون في نفوس المؤمنين الذين ثابوا إلى ربهم ، وثابوا إلى نبيهم ، لقد شملهم نعاس لطيف يستسلمون إليه مطمئنين !

والتعبير عن هذه الظاهرة العجيبة يشف ويرق وينعم ، حتى ليصور بجرسه وظله ذلك الجو المطمئن الوديع ﴿ ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاساً ﴾ .

وهي ظاهرة عجيبة تشي برحمة الله التي تحف بعباده المؤمنين ، فالنعاس حين يلم بالمجهدين المرهقين المفرعين ، ولو لحظة واحدة - يفعل في كيانهم فعل السحر ، ويردهم خلقاً جديداً ويسكب في قلوبهم الطمأنينة ، كما يسكب في كيانهم الراحة بطريقة مجهولة الكنة والكيف) (٣) .

﴿ .. وطائفة قد أهتمهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية . يقولون : هل لنا من الأمر من شيء قل إن الأمر كله لله يخفون في أنفسهم مالا يبدون لك ، يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ماقتلناها هنا . قل لو كنتم في يوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم وليبتلي الله مافي صدوركم ، وليمحص مافي قلوبكم والله عليم بذات الصدور . ﴾ (٤) .

وعودة إلى قلب المعركة نستمع إلى الزبير رضى الله عنه ، وهو يغط في نومه مع الطائفة الأولى يقول :

(لقد رأيتني مع رسول الله ﷺ حين اشتد الخوف علينا ، أرسل الله علينا النوم ، فما منا من رجل إلا ذقنه في صدره ، فوالله إنني لأسمع قول معتب بن قشير ما أسمعه

(٢) السيرة النبوية لابن هشام / ٦٩/٣ .

(٤) آل عمران / ١٥٤ .

(١) المغازي للواقدي / ٢٩٦/١ .

(٣) في ظلال القرآن / ٤٩٥/١ .

إلا كالحلم : « لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ها هنا » فحفظتها منه ، وفي ذلك أنزل الله ﴿ ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاساً ﴾ إلى قوله ﴿ ما قتلنا ها هنا ﴾ لقول معتب بن قشير (١) .

لقد كانا بجوار بعضهما : الزبير بن العوام يغط في نومه غطيظاً ، وذقنه في صدره وقد سكبت الطمأنينة في قلبه ، وتناهى إلى سمعه كأنما هو في حلم صوت معتب بن قشير الذى قتله هم وغم نفسه : لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ها هنا ، حتى ليحفظها الزبير منه وأى تميز أعظم من هذا التميز .

يأخذ الله تعالى أرواح المؤمنين ، فيسكب فيها الطمأنينة والرضى واليقين ، وتقذف نفوس المنافقين ما أخفوه طويلاً طويلاً ، حتى تظهر فى لحن أقوالهم : لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ها هنا . وفى لحظة رعب وندم وحقد وغضب على المصير البائس الذى لا قوه .

يقول الإمام ابن جرير الطبرى : (يعنى بذلك جل ثناؤه . وطائفة منكم أيها المؤمنون قد أهتمهم أنفسهم يقول : هم المنافقون لاهم لهم إلا أنفسهم ، فهم من حذر القتل على أنفسهم وخوف المنية عليها فى شغل قد طار من أعينهم الكرى ، يظنون بالله الظنون الكاذبة ، ظن الجاهلية من أهل الشرك بالله شكاً فى أمر الله ، وتكذيباً لنبيه ﷺ ، ومحسبة منهم أن الله خاذل نبيه ، ومُغل عليه أهل الكفر به) (٢) .

ويقول القرطبي فى قوله تعالى : ﴿ وليتلى الله ما فى صدوركم وليمحص ما فى قلوبكم ﴾ . (فرض الله عليكم القتال والحرب ولم ينصركم يوم أحد ليختبر صبركم ، وليمحص عنكم سيئاتكم إن تبتم وأخلصتم ، وقيل معنى ليتلى : ليعاملكم معاملة المختبر ، وقيل ليقع منكم مشاهدة ما علمه غيباً ... والله عليم بذات الصدور . أى ما فيها من خير وشر . وقيل : ذات الصدور هى الصدور لأن ذات الشيء نفسه) (٣) .

القضية تبقى تدور فى مجال العقيدة . فالمؤمنون يؤمنون بقدر الله وحكمته فى كل أمر ، ويصدقون قول الله تعالى ورسوله ، أما المنافقون فيشكون فى قدر الله ، ويقولون : ﴿ لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ها هنا ﴾ . ويحسبون أن مقتلهم أو مقتل إخوانهم مرهون بوجودهم فى ساحة المعركة ، وجاء القرآن ليكشف زيف هذه العقيدة فى

(٢) تفسير الطبرى ٩٣ / ٤ .

(١) المغازى ١ / ٢٩٦ .

عقولهم وقلوبهم ويقول لهم : ﴿ لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم ﴾ أى (لو كنتم فى بيوتكم لم تشهدوا مع المؤمنين مشهدهم ، ولم تحضروا حرب أعدائهم من المشركين ، فيظهر للمؤمنين ما كنتم تخفونه من نفاقكم وتكنمونه من شرركم فى دينكم ، لبرز الذين كتب عليهم القتل أى لظهر للموضع الذى كتب عليه فيه مصرعه ، من قد كتب عليه القتل منهم ، ويخرج من بيته إليه حتى يصرع فى الموضع الذى كتب عليه أن يصرع فيه) (١) .

فالأجل المحدد ليس مرتبطاً بالمعركة ، والذى كتب عليه القتل سيناله القتل فى المكان الذى شاء القدر أن يلقي فيه حتفه . ومن جهة ثانية هى تشكيك بقيادة النبى ﷺ . وأن مقتل إخوانهم هو بسبب طاعتهم لمحمد فى الخروج إلى المشركين . وتمتد أصابع عبد الله ابن أبى الذى خذل النبى ﷺ إلى داخل المعركة فتكشفه وتكشف أتباعه الذين بقوا فى الصف المسلم ، ولو انتهى الأمر بالنصر - لما كشفت خبيثة هؤلاء الذين يخفون فى أنفسهم ما لا يبدون للنبى ﷺ .

لقد كانت الكلمة الأولى : ﴿ هل لنا من الأمر من شيء . ﴾

(فعن ابن جريج أن المنافقين قالوا لعبد الله بن أبى - وكان سيد المنافقين - : قتل اليوم بنو الخزرج ، فقال : وهل لنا من الأمر شيء أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل) (٢) .

وعن الحسن أنه سئل عن هذه الآية ، فقال : لما قتل من قتل من أصحاب محمد أتوا عبد الله بن أبى فقالوا له : ماترى ؟ فقال : إنا والله لانؤامر ﴿ لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا ﴾ . (٣)

ولا شك أن كلمة عبد الله بن أبى وفكرته أصبحت عقيدة كل منافق حضر المعركة أم لم يحضرها ، وأصبح فى وضعه النفسى يدين بالقيادة على زعمه لعبد الله بن أبى الذى رفض أن يحضر المعركة ابتداء ، وقال : ما أدرى علام نقتل أنفسنا أيها الناس ، وراح يشمت بقومه المؤمنين الذين كانوا أكثر الناس جراحاً وقتلاً ، ويؤكد أنه لو كان صاحب رأى ، ومسؤول القيادة لما وقع ما وقع ، ولو كان له من الأمر شيء ما قتل قومه من الخزرج ، وصاروا من طرف آخر يشككون فى القيادة النبوية التى قادتهم للمعركة ، وأدت بهم إلى هذه التهلكة كما يزعمون .

(٣) الدر المنثور / ٢ / ٣٥٤ .

(٢) الدر المنثور / ٢ / ٣٥٤ .

(١) تفسير الطبرى / ٤ / ٩٥ .

وتحقق الهدف فى الابتلاء والتمحيص :

وما أحوجنا إلى أن نؤكد ثانية وثالثة ، أن المعركة معركة عقيدة ، ومعركة إيمان ونفاق . فلو بقى الأمر فى ظاهره - لكان قزمان سيد الشهداء مثل حمزة ، فقد قتل وحده ثمانية أو تسعة من المشركين ، إذا كان الأمر يحسب بالتضحيات والبطولات ، أما إذا كان يحسب بالإيمان والنفاق ، فلا فرق فى ميزان الله بين البطل قزمان الذى قاتل ؛ حتى قتل ثمانية من المشركين ، وبين عبد الله بن أبى الذى انخدل بثلاث الجيش من المنافقين . وإذا كان الأمر يحسب بالبطولات والتضحيات - فقزمان فى الميزان أعلى من عثمان بن عفان الذى عفا الله تعالى عنه ، وعن إخوانه الذين فروا من المعركة - وهذا ما نشهده فى الآية التالية - وعثمان وإخوانه فى ميزان الأرض أكرم عند الله .. ولو فروا . من طباق الأرض رجالاً من قزمان - ولو ثبت - وتأتى الآية التالية فى هذا السياق ، فى قلب المعركة ، لتكشف الضمائر والخبايا ، وتفرق بين خطأ السلوك ، والشك فى العقيدة .

﴿ إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ، ولقد عفا عنهم إن الله غفور حلیم ﴾ (١) .

فعندما ذكر القرآن الطائفتين من قبل : قال عن الأولى ﴿ ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمانة نعاساً يغشى طائفة منكم ﴾ فقد ذكر كلمة منكم . وذكر الأمن قبل النعاس ، بصفته الإرادة الربانية من النعاس ليسر بل به قلوب عباده المجاهدين فى سبيله . لكنه عندما ذكر الطائفة الثانية لم يقل ﴿ وطائفة منكم قد أهمتهم أنفسهم ﴾ فهم ليسوا من المؤمنين . إنما قال : ﴿ وطائفة قد أهمتهم أنفسهم ﴾ .

فقد كانوا ابتداء قبل كشف الخبايا وعلى ظاهر الأمر طائفة من المؤمنين ، أما بعد كشف الخفايا ، وظن الجاهلية ، والتشكيك بقدر الله ، والطعن الخفى فى القيادة النبوية ، والحنين إلى قيادة ابن أبى التى كان يمكن أن تحميهم من القتل ، بعد ذلك لم يعودوا طائفة من المؤمنين ؛ لما يحملون من عقيدة فاسدة وما يخفون من شك ونفاق وريب .

أما الذين فروا من المؤمنين - وليس جميع الذين فروا كما تذكر الروايات - فهم منهم وقال الله تعالى عنهم : ﴿ إن الذين تولوا منكم ﴾ . وقد يقع الخطأ فى السلوك . والضعف البشرى حيناً للمؤمن . لكن عقيدته تبقى أرسخ من الجبال الرواسى . وشاءت إرادة الله

تعالى أن يكون واحد من هؤلاء ثالث شخصية فى الإسلام . وثالث الخلفاء الراشدين ، عثمان بن عفان رضى الله عنه ، ليبقى فى الأمر سعة فى التفريق بين الخطأ مهما كان جسيماً ، وبين الزلزلة والشك فى العقيدة ، ولننظر ماذا تقول لنا الروايات فى هؤلاء الذين فروا من المؤمنين :

١ - (أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن عبد الرحمن بن عوف ﴿ إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان ﴾ الآية قال : هم ثلاثة : واحد من المهاجرين ، واثان من الأنصار)^(١).

٢ - (وأخرج ابن مندة فى معرفة الصحابة عن ابن عباس فى قوله : ﴿ إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان ﴾ الآية نزلت فى عثمان بن عفان ، ورافع بن المعلى ، وحارثة بن زيد)^(٢).

٣ - (وأخرج ابن جرير عن عكرمة فى قوله : ﴿ إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان ﴾ قال : نزلت فى رافع بن المعلى ، وغيره من الأنصار . وأبى حذيفة بن عتبة ، ورجل آخر)^(٣).

٤ - (وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن عكرمة ﴿ إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان ﴾ قال : عثمان . والوليد بن عقبة . وخارجة بن زيد ، ورافعة بن معلى)^(٤).

٥ - (وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة قال : كان الذين ولوا الدبر يومئذ : عثمان ابن عفان ، وسعد بن عثمان ، وعقبة بن عثمان - أخوان من الأنصار من بنى زريق)^(٥).

٦ - (وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن إسحاق ﴿ إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان ﴾ فلان ، وسعد بن عثمان ، وعقبة بن عثمان الأنصاريان ثم الزرقيان ، وقد كان الناس انهزموا عن رسول الله ﷺ ؛ حتى انتهى بعضهم إلى المنقى دون الأغوص ، وفر عقبة بن عثمان ، وسعد بن عثمان ، حتى بلغوا الجلبج جبل بناحية المدينة مما يلى الأغوص ، فأقاموا به ثلاثاً ، ثم رجعوا إلى رسول الله ﷺ . قال : لقد ذهبتم بها عريضاً)^(٦).

ومجموع هذه الروايات الست . لا يخرج فى العدد فى أقصاه إذا ذكرنا مجموع من

(١) الدرر الثور / ٢ / ٣٥٥ . (٢) المصدر نفسه / ٢ / ٣٥٥ . (٣) تفسير الطبرى / ٤ / ٩٦ .
(٤) الدرر المثور / ٢ / ٣٥٥ . (٥) المصدر نفسه / ٢ / ٣٥٥ . (٦) المصدر نفسه / ٢ / ٣٥٥ .

وردت أسماؤهم في هذه الروايات - عن سبعة أشخاص . ثلاثة من المهاجرين وأربعة من الأنصار فمن المهاجرين : عثمان بن عفان ، والوليد بن عتبة ، وأبو حذيفة بن عتبة . ومن الأنصار : خارجة بن زيد ، ورافع بن المعلى ، وسعد بن عثمان ، وعقبة بن عثمان . وليس هؤلاء وحدهم الذين فروا ، فلا شك أنه فر أكثر هؤلاء . لكن الذين فروا من المؤمنين حيث استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا . ونالوا عفو الله . لا يخرجون عن هؤلاء السبعة .

ولابد أن نفرق بين هؤلاء السبعة ، وبين فريق المؤمنين ، وأغلب الجيش الذين أخذهم هول الفجأة ، فأصعدوا في الجبل وفروا ، فهؤلاء ليسوا هم المقصودين في هذه الآية ، وإن كان بعض الروايات ينحو نحو هذا المنحى .

(أخرج ابن جرير عن كليب قال : خطب عمر يوم الجمعة ، فقرأ آل عمران . وكان يعجبه إذا خطب أن يقرأها ، فلما انتهى إلى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ ﴾ قال : لما كان يوم أحد هزمنا ، ففررت حتى صعدت الجبل ، فلقد رأيتني أنزو كأنني أروى . والناس يقولون : قتل محمد ، فقلت : لا أجد أحداً يقول قتل محمد إلا قتلته ، حتى اجتمعنا إلى الجبل فنزلت : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ ﴾ الآية كلها)^(١) .

وهذا من فقهه رضى الله عنه ألا يفرد هذه الآية بأفراد قلائل من الجيش . إنما هي تشمل كل من أخذه هول المفاجأة ففر من الساحة . طالما أنهم قد شملهم عفو الله .

(وقد روى عن سعيد بن جبير مثل ذلك وهو قوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ ﴾ يعنى انصرفوا عن القتال منهزمين ﴿ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ ﴾ يوم أحد حين التقى الجمعان : جمع المسلمين ، وجمع المشركين ، فانهزم المسلمون عن النبي ﷺ وبقي في ثمانية عشرة رجلاً ﴿ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا ﴾ يعنى حين تركوا المركز وعصوا الرسول ﷺ حين قال للرماة يوم أحد : « لا تبرحوا مكانكم » فترك بعضهم المركز ﴿ وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ ﴾ حين لم يعاقبهم فيستأصلهم جميعاً ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ فلم يجعل لمن انهزم يوم أحد بعد قتال بدر النار كما جعل يوم بدر . فهذه رخصة بعد التشديد) .

وإن كان الأرجح أن تكون هذه الآية قد نزلت بأشخاص بأعيانهم ، ولم تنزل بجمهرة المؤمنين ، وذلك للأسباب التالية :

١ - إن جمهرة المؤمنين قد ذكر وضعهم تفصيلاً في الآيات السابقة : ﴿ إِذْ

(٢) انصدر بمسه ٣٥٦ / ٢ .

(١) الدر المنثور / ٢ / ٣٥٥ .

تصعدون ولا تلوون على أحد . والرسول يدعوكم في أخراكم فأثابكم غمّاً بغم ﴿ وحيث أن أكثرية المؤمنين قد نزل بهم هذا الفرار المفاجيء ، فقد كان الوصف القرآني أنه يمثل المسلمين جميعاً دون تمييز ، والأقلية التي ثبتت مع رسول الله ﷺ لم تذكر ، لأنها لا تمثل قوام الجيش الإسلامي .

٢ - والتعبير في هذه الآية يشي بأن الأمر يتعلق بفريق محدود ونفر معين ، حيث تقول الآية ﴿ إن الذين تولوا منكم ﴾ وليس المؤمنين جميعاً .

٣ - والذي اشتهر فيما بعد - أن عثمان رضى الله عنه هو الذى فر مع نفر من المؤمنين ، كما ورد فى الصحيح عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما : (فعن عثمان بن مرهب قال : جاء رجل حج البيت ، فرأى قوماً جلوساً ، فقال : من هؤلاء القعود ؟ قالوا : هؤلاء قريش ، قال : من الشيخ . ؟ قالوا : عبد الله بن عمر . فأتاه فقال إني سائلك عن شيء أتحدثني ؟ قال : أنشدك بحرمة هذا البيت أتعلم أن عثمان بن عفان فر يوم أحد ؟ قال : نعم . قال : فتعلمه تغيب عن بدر فلم يشهدها ؟ قال : نعم . قال : فتعلم أنه تغيب عن بيعة الرضوان فلم يشهدها ؟ قال : نعم . فكبر الرجل . قال ابن عمر : تعال لأخبرك ولأبين لك ماسألتني عنه :

أما فراره يوم أحد فأشهد أن الله عفا عنه ، وأما تغيبه عن بدر فإنه كان تحته بنت رسول الله ﷺ ، وكانت مريضة ، فقال له النبي ﷺ « إن لك أجر رجل ممن شهد بدرًا وسهمه » وأما تغيبه عن بيعة الرضوان ، فإنه لو كان أحد أعز بطن مكة من عثمان بن عفان لبعثه مكانه ، فبعث عثمان . وكانت بيعة الرضوان بعدها ذهب عثمان إلى مكة ، فقال النبي ﷺ بيده اليمنى « هذه يد عثمان » فضرب بها على يده ، فقال : هذه لعثمان ، اذهب بها الآن معك (١) .

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا فى الأرض أو كانوا غزى لو كانوا عندنا ما ماتوا وماقتلوا ليجعل الله ذلك حسرة فى قلوبهم . والله يحى ويميت . والله بما تعملون بصير . ولئن قتلتم فى سبيل الله لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون . ولئن متم أو قتلتم لإلى الله تحشرون ﴾ (٢) .

(١) البخارى / م ٢ / ج ٢ / ٢٢١ (غزوة أحد) .

(٢) آل عمران / ١٥٦ - ١٥٨ .

لأول مرة تعرض الأخوة بين الكفار والمنافقين ، وذلك بعد إعلان الموقف المخزى منهم ، وانفصالهم عن رسول الله عليه الصلاة والسلام قبيل المعركة . وتأتى هذه الآيات لتضع حداً فاصلاً بين فريقين رغم تشابه الموقف بين الفريقين :

فريق فر يوم التقى الجمعان ، واستزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا .

وفريق سماهم القرآن (الذين كفروا) وقد تخلوا عن المعركة ، وشمتموا بأقاربهم من المؤمنين الذين قتلوا مع رسول الله ﷺ في المعركة ، أو شمتموا بإخوانهم من المنافقين الذين لم ينسحبوا معهم عندما تخاذلوا عن رسول الله صلوات الله عليه ، كلا الفريقين قد غادر ساحة المعركة ابتداءً وانتهاءً ، لكن الفريق الأول سماهم القرآن ﴿ الذين كفروا ﴾ ، والفريق الثانى قال الله تعالى عنهم : ﴿ إن الذين تولوا منكم ﴾ ، والفرق بين المؤمنين والذين كفروا . هو الفرق تماماً بين الإيمان والكفر ، ولنستمع إلى أقوال المفسرين بهذا الصدد :

(يقول ابن جرير رحمه الله : القول فى تأويل قوله ﴿ يأيتها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم ... ﴾ يعنى بذلك جل ثناؤه : يأيتها الذين صدقوا الله ورسوله ، وأقروا بما جاء به محمد من عند الله ، لا تكونوا كمن كفر بالله ورسوله ، فجدد نبوة محمد ﷺ ، وقال لإخوانه من أهل الكفر إذا ضربوا فى الأرض فخرجوا من بلادهم سفراً فى تجارة ، أو كانوا غزى ، يقول : أو كان خروجهم من بلادهم غزاة ، فهلكوا فماتوا فى سفرهم ، أو قتلوا فى غزوهم لو كانوا عندنا ماماتوا وماقتلوا : .. وقد قيل : إن الذين نهى الله المؤمنين بهذه الآية أن يتشبهوا بهم ، وفيما نهاهم عنه من سوء اليقين بالله - هم عبد الله بن أبى بن سلول ، وأصحابه . ذكر من قال ذلك .)^(١) .

(وقال آخرون فى ذلك . هم جميع المنافقين . وروى عن ابن إسحاق قوله : أى لا تكونوا كالمنافقين الذين ينهون إخوانهم عن الجهاد فى سبيل الله ، والضرب فى الأرض فى طاعة الله ورسوله ، ويقولون إذا ماتوا وقتلوا لو أطاعونا ماماتوا وماقتلوا)^(٢) .

ولأول مرة تبلغ الشدة فى الحديث عن المنافقين هذا المبلغ بحيث يفرزون من الصف ، المؤمن ويخاطبون بالذين كفروا .

وموطن الكفر هنا ليس متوقفاً على الكفر بالله عز وجل ، فالكفر بقدر الله خيرهُ وشَرهُ ضرب من الكفر . لأن الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسوله وبالقدر خيرهُ

(١ ، ٢) تفسير الطبرى ٩٩ / ٤ .

وشره من الله تعالى . والقوم هنا ينكرون القدر ويقولون عن إخوانهم : ﴿ لو كانوا عندنا ماماتوا وماقتلوا ﴾ ^(١) والذي يناله القوم من هذه العقيدة ، ويناله كل كافر بقدر الله ، الحسرة التي تأكل القلب ، والكمد والغيط الذي ينهش النفس ﴿ ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم ، والله يحيى ويميت ، والله بما تعملون بصير ﴾ .

أما قدر الله سبحانه ، والرد على تخريصات هؤلاء المنافقين فهو : ﴿ ولئن قتلتم في سبيل الله أو متم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون : ولئن متم أو قتلتم لإلى الله تحشرون ﴾ ^(٢) فإذا كان القتل في سبيل الله خسارة ، لأنه فقدان للدنيا وملذاتها - كما يؤمن المنافقون - فهو الربح الأكبر ، والفوز الأعظم ﴿ خير مما يجمعون ﴾ من كل ما يحوزه الكفار والمنافقون من مال وزينة ومتاع وعقار ، فالؤمن سعيد بقضاء الله وقدره ؛ لأن القتل في سبيل الله خير من كل ما يحوزه أهل الأرض ، والمؤمن من جهة ثانية آت للقاء ربه ؛ يحشر إلى ربه مع المؤمنين ﴿ يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً . ونسوق المجرمين إلى جهنم ورداً . ﴾ ^(٣) وكم الفرق بين المتقين والمجرمين ؟ بين الوفد والورد ؟

حديث إلى رسول الله ﷺ وصحبه :

﴿ فيما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك . فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر . فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين . إن ينصركم الله فلا غالب لكم ، وإن يخذلكم فمَنِ ذا الذي ينصركم من بعده . وعلى الله فليتوكل المؤمنون . وما كان لنبي أن يغل ، ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة . ثم توفي كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون . أفمن اتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله ومأواه جهنم وبئس المصير . هم درجات عند الله والله بصير بما يعملون . لقد منَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلوا عليهم آياته ، ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين . أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها . قلتم أنى هذا . قل هو من عند أنفسكم إن الله على كل شيء قدير ﴾ ^(٤) .

بعد كل محنة تتجه الأنظار دوماً للقيادة ، وذلك لتحميلها مسؤولية المحنة كاملة ، وتثور الهواجس أن خطأ القيادة وعجزها هو الذي أدى لهذه النكسات المتلاحقة ، وتحمل

(٢) آل عمران / ١٥٧ ، ١٥٨ .

(١) آل عمران / ١٥٦ .

(٤) آل عمران / ١٥٩ - ١٦٥ .

(٣) مريم / ٨٥ ، ٨٦ .

القيادة كذلك بصورة معاكسة ثمرة النصر ، وتسمى صانعته . هكذا يفكر البشر القاصرون ، وها نحن أولاء هنا أمام تربية رب العالمين ، فماذا يقول الله تعالى لنا عن هذه القيادة النبوية الخالدة ؟ ﴿ فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانقضوا من حولك ﴾ .

أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿ فبما رحمة من الله ﴾ يقول فبرحمة من الله ﴿ لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانقضوا من حولك ﴾ أى والله طهره من القضاظة والغلظة ، وجعله قريباً رحيماً رؤوفاً بالمؤمنين ، وذكر لنا أن نعت محمد ﷺ فى التوراة ليس بفظ ولا غليظ ولا صخوب فى الأسواق ، ولا يجرى بالسيئة مثلها ، ولكن يعفو ويصفح .

نحن أمام ثناء الله تعالى على نبيه وعبدته ورسوله وسيد خلقه ، الثناء على اللين فى خلقه ، ولو كان فظاً غليظاً لانقض الناس من حوله وانصرفوا عنه . وهذا الخلق النبوى العظيم سجله الله تعالى فى كتابه الخالد ، وهذا يعنى أنه من الأهمية بمكان ، ولا أدل على أهميته من أنه مسجل فى الكتب المنزلة من قبل ، فى التوراة التى أنزلها الله تعالى على موسى : ليس بفظ ولا غليظ ولا صخوب فى الأسواق . والخلق الثانى كذلك . خلق العفو والصفح ، إضافة إلى خلق اللين فاعف عنهم - كما ذكر القرآن الكريم .

ولا يجرى بالسيئة مثلها . ولكن يعفو ويصفح .

وفى بعض الروايات : يسبق حلمه جهل الجاهل ، ولا يزيده شدة الجهل إلا حلماً . ولندع عبد الله بن سلام سيد أحبار يهود - رضى الله عنه - يحدثنا عن الخبر اليهودى الآخر زيد بن سعية وكيف كان إسلامه :

(عن عبد الله بن سلام قال : إن الله عز وجل لما أراد هدى زيد بن سعية قال زيد : مامن علامات النبوة شئ إلا وقد عرفته فى وجهه سوى اثنتين لم أخبرهما منه ؛ يسبق حلمه جهل الجاهل ، ولا يزيده شدة الجهل عليه إلا حلماً . فكنت أنطلق إليه لأخالطه وأعرف حلمه ، فخرج يوماً ومعه على بن أبى طالب ، فجاءه رجل كالبدوى . فقال : يا رسول الله إن قرية بنى فلان أسلموا ، وحدثتهم أنهم إن أسلموا أتتهم أرزاقهم رغداً ، وقد أصابتهم سنة وشدة ، وإنى مشفق عليهم أن يخرجوا من الإسلام ، فإن رأيت أن ترسل لهم بشئ يعينهم .

قال زيد : فقلت : أنا أبتاع منكم بكذا وكذا وسقا ، فأعطيته ثمانين ديناراً فدفعها إلى الرجل وقال : اعجل عليهم بها فأغنهم ، فلما كان قبل المحلّ بيوم أو يومين أو ثلاثة خرج رسول الله ﷺ إلى جنازة في نفر من أصحابه ، فحبذت رداءه جبذة شديدة حتى سقط عن عاتقه ثم أقبلت بوجه جهم غليظ ، فقلت : ألا تقضييني يا محمد ، فوالله ما علمتكم بنى عبد المطلب لمطل . فارتعدت فرائص عمر بن الخطاب كالفلك المستدير ، ثم رمى ببصره فقال : أى عدو الله أتقول هذا لرسول ﷺ ، وتصنع به ما أرى ، وتقول ما أسمع ؟ فوالذى بعثه بالحق لولا ما أخاف فوته لسبقني رأسك ورسول الله ﷺ ينظر إلى عمر في تودة وسكون . ثم تبسم وقال : أنا وهو أخرج إلى غير هذا ، أن تأمرني بحسن الأداء ، وتأمره بحسن التباعة ، اذهب يا عمر فاقضه حقه ، وزده عشرين صاعاً من تمر .

فقلت ما هذا ؟ قال أمرني رسول الله ﷺ أن أزيدك مكان منازعتك ، فقلت : أتعرفني يا عمر ؟ قال : لا . فمن أنت ؟ قلت : أنا زيد بن سعية ، قال : الخبر ؟ قلت : الخبر . قال : فما دعاك أن تفعل برسول الله ﷺ ما فعلت ، وتقول له ما قلت ؟ قلت : يا عمر إنه لم يبق من علامات النبوة شيء إلا وقد عرفته في وجه رسول الله ﷺ حين نظرت إليه إلا اثنتين لم أخبرهما به ، يسبق حلمه جهله ، ولا يزيده شدة الجهل عليه إلا حلماً ، فقد اختبرته منه ، فأشهدك يا عمر أني رضيت بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد نبياً . وأشهدك أن شطر مالى لله ، فأنى أكثرها مالاً ، صدقة على أمة محمد ﷺ .

فقال عمر : أو على بعضهم فإنك لا تسعهم كلهم ، قلت : أو على بعضهم . قال : فرجع عمرو وزيد بن سعية إلى رسول الله ﷺ فقال زيد : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله

فآمن به وصدقه ، وبأيعه ، وشهد معه مشاهد كثيرة . (١)

(قال ابن حجر في الإصابة ، واستشهد في غزوة تبوك مقبلاً غير مدبر) . (٢)

وفي رواية أخرى : وأسلم أهل بيت اليهودى كلهم . إلا شيخاً كان له مائة سنة فبقى على الكفر .

إنه نموذج حي لئنه عليه الصلاة والسلام ، ولبعده عن الفظاظة والغلاظة التي تجعل الناس يفرون منه ويذعرون عنه .

(١) الوفا بأخبار المصطفى لابن الجوزي ٤٢٥/٢ . (٢) الإصابة في تاريخ الصحابة ٥٦٦/١ .

إن الحاكم أو الملك أو القائد قد يتمكن بحزمه أن يضبط أمور مملكته أو جيشه ، وقد يسود النظام فلا يجرؤ أحد على مخالفته ، وتنفذ أوامر القائد أو الحاكم حرفياً ، فلا يعصى له أمر ، لكن هذا لا يعنى أن قلوب شعبه معه ، أو قلوب جيشه معه ، إنه فى اللحظة التى يزول فيها سلطانه سرعان ما تنهمر عليه اللعنات ، وتكال له الشتائم ويعرى من المحاسن . وهذا هو نصيب كثير من الطغاة . فى أمس واليوم .

أما رسول رب العالمين ، الرحمة المهداة ، والبشير النذير ، فيتعامل مع قلوب الخلق ، يفتح مغاليقها ويستأثر بودها ، ويفك أقفالها ، لينضم الناس طواعية إلى هذا الدين الذى جاء به والكسب الحقيقى الأكبر والأعظم هو كسب هذه النفوس ، وامتلاك هذه القلوب : ﴿ فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظا غليظ القلب لا نفضوا من حولك ﴾ . وما أروع هذا الثناء بعد أحد . مع الجيش المثخن بالجراح ، والمعقب بالشهادة ، والمترع بالدم ، يأسو جراحه ، ويعالج مصيبته . ويسكب الطمأنينة والحب فى أعماقه فاعف عنهم ، واستغفر لهم ، وشاورهم فى الأمر .

ماذا يفعل القائد العسكرى بأركان حربه ومستشاريه الذين أشاروا عليه برأى خلاف قناعته ، وأدى هذا الرأى إلى هزيمته ؟

إنه ليس أمامهم إلا التصفية الجسدية - الإعدام أو المقصلة .. وفى أحسن الأحوال عزلهم عن مواقعهم ، وإحالتهم على التقاعد .

أما مع رسول رب العالمين ، مع صحبه الذين استكروه على الخروج والذين خالفوا أمره صراحة وعلانية حتى فقد النصر فى المعركة ، حتى شج وجهه ، وكسرت رباعيته ، ودخلت حلق المغفر فى وجنتيه .

ماذا فعل معهم فى أحلك اللحظات ؟

قال وأعمق الأسى فى قلبه ، والدم ينفجر منه :

« كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم بالدم وهو يدعوهم إلى الله ؟ » أليس العتب عليهم ، والأسى عليهم - هو الذى يدفعه لهذا الموقف ؟ ولم يرض الله تعالى لصفوة خلقه هذا العتب ، فقال له .

﴿ ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون ﴾ . (١)

وهل انتهى عند هذا الحد ، أن يكف عن العتب عليهم ، أو لومهم وتعنيفهم ؟ أبدا ، لا بد من مرحلة أرقى وأعلى تناسب خاتمة الكمالات البشرية :

﴿ فاعف عنهم ﴾ لما فرطوا في حَقِّكَ ، ولما عصوا من أوامرك ، ولما سببوا لك من جراح ﴿ واستغفر لهم ﴾ لما فرطوا في حق الله ، ولما عصوا من أوامر رسوله ، ولما تزلزلوا عند المحنة ، وهل انتهى الأمر عند هذا الحد ؟

العفو عنهم ، والاستغفار لهم ، ويبقى لسيد الخلق توجيه الأوامر ، وإعفاؤهم من المسؤولية وإقصاؤهم عن المشاركة في الرأي ، لما أثبتوا من خلل فيه لا كذلك مرة ثالثة .

﴿ وشاورهم في الأمر ﴾ رغم كل ماتم ، فهم معك ، ومع كونك صفوة الله من خلقه فالأمر إليك تستشيرهم في الكبيرة والصغيرة وتأنس برأيهم ، وتأخذ به .
ونقف رويًا مع المشاورة :

مع المشاورة في أحد ابتداءً ، والدعوة إليها انتهاءً ، ونشهد عظمة التربية الربانية لهذه الأمة .

روى الإمام أحمد والنسائي والبيهقي عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال : تنفل رسول الله ﷺ سيفه ذا الفقار يوم بدر ، وهو الذى رأى فيه الرؤيا يوم أحد وكان مما قال لهم رسول الله ﷺ يومئذ قبل أن يلبس الأداة .

« إني رأيت أنى فى درع حصينة ، فأولتها المدينة ، وأنى مردف كبش فأولته كبش الكتيبة ، ورأيت أن سيفى ذا الفقار فُلٌّ ، فأولته فلا فيكم ، ورأيت بقرًا تذبح فبقر . والله خير ، فبقر والله خير » .

وروى الإمام أحمد والنسائي والدارمي والضياء المقدسى بسند جابر بن عبد الله رضى الله تعالى عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « رأيت أنى فى درع حصينة ورأيت بقرًا تنحر ، فأولت أن الدرع الحصينة المدينة ، وأن البقر بقرٌ والله خير » .

(قال ابن عتبة وابن إسحاق وابن سعد وغيرهم :

رأى رسول الله ﷺ هذه الرؤيا ليلة الجمعة ، فلما أصبح جاء أصحابه ، فحمد الله تعالى وأثنى عليه ثم ذكر الرؤيا لهم وقال : « إن رأيتم أن تقيموا بالمدينة ونجعل النساء والذرية فى الآطام ، فإن أقاموا أقاموا بشر مقام ، وإن دخلوا علينا قاتلناهم فى الأزقة فنحن أعلم بها منهم ، ورموا من فوق الصياصى والآطام » وكانوا قد شبكوا المدينة بالنبيان من

كل ناحية ، فهي كالحصن ، وكان هذا الذى ذكره رسول الله ﷺ ، رأى الأكابر من المهاجرين والأنصار ، وكان عبد الله بن أبى يرى رأى رسول الله ﷺ فقال جماعة من المسلمين - غالبهم أحداث ، لم يشهدوا بدرأ ، وطلبوا الشهادة وأحبوا لقاء العدو ، وأكرمهم الله تعالى بالشهادة يوم أحد - : يا رسول الله ، اخرج بنا إلى أعدائنا ، لا يرون أننا جبننا عنهم ، فقال عبد الله بن أبى :

يا رسول الله أقم بالمدينة ولا تخرج ، فوالله ما خرجنا منها إلى عدو لنا قط إلا أصاب منا ، ولا دخلها علينا إلا أصبنا منه ، فدعهم يا رسول الله ، فإن أقاموا أقاموا بشر مجلس ، وإن دخلوا قاتلهم الرجال فى وجوههم ، ورماهم الصبيان بالحجارة من فوقهم ، وإن رجعوا رجعوا خائبين كما جاؤوا . فقال حمزة بن عبد المطلب ، وسعد بن عباد ، والنعمان بن مالك فى طائفة من الأنصار :

إنا نخشى يا رسول الله أن يظن عدونا أننا كرهنا الخروج إليهم جبناً عن لقاءهم ، فيكون هذا جرأة منهم علينا ، وقد كنت يوم بدر فى ثلاثمائة رجل ، فظفرك الله تعالى عليهم ، ونحن اليوم بشر كثير ، وقد كنا نتمنى هذا اليوم وندعوا الله تعالى به ، فساقه الله تعالى إلينا فى ساحتنا .

ورسول الله ﷺ لما يرى من إلحاحهم كاره ، وقد لبسوا السلاح فلما أبوا إلا ذلك صلى - ﷺ - الجمعة بالناس ، فوعظهم وأمرهم بالجد والاجتهاد ، وأخبرهم أن لهم النصر ما صبروا ، وفرح الناس بالشخص إلى عدوهم ، وكره ذلك المخرج بشر كثير ، ثم صلى - ﷺ - العصر بالناس وقد حشدوا ، وحضر أهل العوالى ورفعوا النساء إلى الآطام ، ودخل رسول الله ﷺ بيته ، ومعه أبو بكر وعمر رضى الله عنهما ، فعمساده وألبساه ، وقد صف الناس له ما بين حجرته إلى منبره ، ينتظرون خروج رسول الله ﷺ فجاء سعد بن معاذ ، وأسيد بن حضير ، فقالا للناس :

استكرهتم رسول الله ﷺ ، وقتلتم ما قلتم ، والوحي ينزل عليه من السماء ، فردوا الأمر إليه ، فما أمرهم به فافعلوه ، وما رأيتم له فيه هوى ورأياً فأطيعوه .

فبينما هم على ذلك إذ خرج رسول الله ﷺ وقد لبس لأمته ، ولبس الدرع فأظهرها وحزم وسطه بمنطقة من حمائل سيف من آدم ، واعتم وتقلد السيف ، وندم الناس على إكراهه فقالوا : يا رسول الله ، استكرهناك ، ولم يكن لنا ذلك ، فإن شئت فاقعد .

فقال رسول الله ﷺ : « قد دعوتكم إلى هذا الحديث فأبيتُم ، ولا ينبغي لنبي إذا لبس لأُمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه » وفي رواية : « حتى يقاتل انظروا ما آمركم به فاتبعوه امضوا على اسم الله تعالى فلكم النصر ما صبرتم » ووجد مالك بن عمرو البخاري قد مات ، ووضعوه عند موضع الجنائز وفصلى عليه ، ثم دعا بثلاثة رماح فعقد ثلاثة ألوية ، فدفع لواء الأوس إلى أسيد بن حضير ، ولواء الخزرج إلى حباب بن المنذر ، ويقال إلى سعد بن معاذ ، ودفع لواء المهاجرين إلى علي بن أبي طالب . واستخلف علي المدينة ابن أم مكتوم على الصلاة بمن بقي في المدينة (١) .

هذه قصة الشورى ابتداء ، ونلاحظ منها نقاطاً ثلاثة :

النقطة الأولى : تفسير الرؤيا ، ورؤيا الأنبياء حق ، والدرع الحصينة التي أولها عليه الصلاة والسلام بالمدينة .

النقطة الثانية : الإعلان الصريح عن الرأي بالبقاء بالمدينة ومميزات هذا الرأي .

« إن رأيتم أن تقيموا بالمدينة ، ونجعل النساء والذرية في الآطام ، فإن أقاموا أقاموا بشر مقام ، وإن دخلوا علينا قاتلناهم في الأزقة ، فنحن أعلم بها منهم ، ورموا من فوق الصياصي والآطام » .

النقطة الثالثة : هي أن رسول الله ﷺ لم ينف الاستكراه ، ولم ينف أنه نزل عند رأي صحبه على خلاف رأيه .

« قد دعوتكم إلى هذا الحديث فأبيتُم ، ولا ينبغي لنبي إذا لبس لأُمته أن يضعها ، حتى يحكم الله بينه وبين عدوه » .

وهذه النقاط من الوضوح بحيث لا تحتاج إلى تعليق ، ومع ذلك كله نزل قوله تعالى بعد النتائج الرهيبة في أحد :

﴿ فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر ﴾

وماذا يقول المفسرون حول هذه الآية ؟

أخرج سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في سننه عن الحسن في قوله ﴿ وشاورهم في الأمر ﴾ قال : قد علم الله أنه ما به إليهم حاجة ، ولكن أراد الله أن

(١) سبل الهدى والرشاد ٢٧٤/٤ - ٢٧٧ .

يستن به من بعده .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿ وشاورهم في الأمر ﴾ قال أمر الله نبيه أن يشاور أصحابه في الأمور ، وهو يأتيه وحى السماء لأنه أطيّب لأنفس القوم ، وإن القوم إذا شاور بعضهم بعضاً ، وأرادوا بذلك وجه الله عزم لهم على رشده .

(وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن أبي حاتم عن الضحاك قال :

ما أمر الله نبيه بالمشاورة إلا لما علم ما فيها من الفضل والبركة .

قال سفيان : وبلغني أنها نصف العقل ، وكان عمر بن الخطاب يشاور حتى المرأة وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن الحسن قال : ما شاور قوم قط إلا هدوا لأرشد أمورهم) (١) .

وأخرج ابن عدى والبيهقي في الشعب بسند جيد عن ابن عباس قال : لما نزلت : ﴿ وشاورهم في الأمر ﴾ قال رسول الله ﷺ : أما إن الله ورسوله لغنيان عنها ، ولكن جعلها الله رحمة لأمتي ، فمن استشار منهم لم يعدم رشداً ، ومن تركها لم يعدم غيًّا .

وأخرج الطبراني في الأوسط عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « ما خاب من استخار ، ولاندم من استشار » .

وأخرج الحاكم وصححه . والبيهقي في سننه عن ابن عباس ﴿ وشاورهم في الأمر ﴾

قال : أبو بكر وعمر .

وأخرج من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال : لما نزلت هذه الآية ﴿ وشاورهم في الأمر ﴾ قال : أبو بكر وعمر .

وأخرج أحمد عن عبد الرحمن بن غنم أن رسول الله ﷺ قال لأبي بكر وعمر :

« لو اجتمعتما في مشورة ما خالفتكما » .

(وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي هريرة قال : ما رأيت أحداً من الناس أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله ﷺ) (٢) .

(١) الدر المنثور ٢/ ٣٥٨ ، ٣٥٩ .

(٢) الدر المنثور ٢/ ٣٥٩ .

وينقلنا القرطبي إلى جو آخر يعرض فيه ثمان مسائل حول قوله تعالى : ﴿ فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر ﴾ نعرض منها ما يلي :

(الأولى : قال العلماء : أمر الله تعالى نبيه ﷺ بهذه الأوامر التي هي بتدرج بليغ وذلك أنه أمره بأن يعفو عنهم ماله من خاصته عليهم من تبعة ، فلما صاروا في هذه الدرجة أمره أن يستغفر فيما لله عليهم من تبعة أيضاً ، فإذا صاروا في هذه الدرجة ، صاروا أهلاً للاستشارة في الأمور ...

الثانية : قال ابن عطية : والشورى من قواعد الشريعة ، وعزائم الأحكام ، من لا يستشير أهل العلم فعزله واجب ، هذا ما لا خلاف فيه ، وقد مدح الله المؤمنين بقوله : ﴿ وأمرهم شورى بينهم ﴾ ... وقال ابن خويز منداد : واجب على الولاة مشاوره العلماء فيما لا يعلمون ، وفيما أشكل عليهم من أمور الدين ، ووجوه الجيش فيما يتعلق بالحرب ، ووجوه الناس فيما يتعلق بالمصالح ، ووجوه الكتاب والوزراء والعمال فيما يتعلق بمصالح البلاد وعمارتها ، وكان يقال : ماندم من استشار وكان يقال : من أعجب برأيه ضل .

الثالثة : قوله تعالى : ﴿ وشاورهم في الأمر ﴾ يدل على جواز الاجتهاد في الأمور ، والأخذ بالظنون مع إمكان الوحي ، فإن الله أذن لرسوله ﷺ في ذلك ، واختلف أهل التأويل في المعنى الذي أمر الله نبيه عليه السلام أن يشاور فيه أصحابه ، فقالت طائفة : ذلك في مكائد الحروب وعند لقاء العدو وتطبيياً لنفوسهم ، ورفعاً لأقذارهم ، وتألفاً على دينهم ، وإن كان الله تعالى قد أغناه عن رأيهم بوحيه ، روى هذا عن قتادة والربيع وابن إسحاق والشافعي ، قال الشافعي : هو كقوله : « والبكر تستأمر » تطبيياً لقلبها ، لأنه واجب وقال مقاتل و قتادة والربيع : كان سادات العرب إذا لم يشاوروا في الأمر شقَّ عليهم ، فأمر الله تعالى نبيه عليه السلام أن يشاورهم في الأمر ، فإن ذلك أعطف لهم عليه ، وأذهب لأضعفانهم ، وأطيب لنفوسهم ، فإذا شاورهم عرفوا إكرامه لهم ، وقال آخرون : ذلك فيما لم يأت به وحى ، روى ذلك عن الحسن البصري والضحاك ؛ وقالوا : ما أمر الله تعالى نبيه بالمشاورة لحاجة منه إلى رأيهم ، وإنما أراد أن يعلمهم ما في المشاورة من الفضل ، ولتقتدى به أمته من بعده (١) .

أى والله : « إن الله ورسوله لغنيان عنها » كما يقول عليه الصلاة والسلام ، ولكنها التكرمة العظيمة لهذه الأمة ، أن يجعل فيها من يستشير رسول الله ﷺ ، ويأخذ

(١) تفسير القرطبي ٢٤٩/٤ - ٢٥٠ .

باستشارته . أن يرتفع بشر من البشر ؛ ليكون مستشار رسول رب العالمين الجليل من الأمور ، والصغير منها . ويمكن أن يأتي الوحي فى أى منها ، وليس بالضرورة أن يكون قرآنا يتلى ، فكل ما عند رسول الله ﷺ وحى ، ﴿ وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى ﴾ .

فالله تعالى لا يريد لحزبه أن يكونوا أرقاماً تعد ، وأدوات تنفذ ، إن الله تعالى قد جعل فى صفوف هذه الأمة طاقات بشرية ، وإمكانات عبقرية ، يريد لها أن تعمل ، وتشحذ ذهنها ، وتشغل فكرها ، وتوقد عبقريتها فى البناء ، والحضارة والحرب والسلام . وكان بالإمكان أن تعطل أمام الوحي ، وألا تترك قضية إلا وينزل فيها وحى ، ولكن سوف تعطل هذه الطاقات وتوقف هذه الخيرات و يستوى الجندى والقائد والراعى والرعية ، لكن رحمة الله تعالى بهذه الأمة شاءت أن يكون تدريب هذه الأمة على يد نبيها ، على يد صفوة الله من خلقه ، بحيث تعمل هذه الطاقات ، ويقدم الفكر البشرى عصارته ، وعبقريته ، ويوجه هذا الفكر بالتوجيه الربانى .

هذا من جهة ، ومن جهة ثانية :

أن لا يأتى دعى بعد رسول الله ﷺ ، أو طاغية من الطغاة ، يزعم أن عنده من العبقرية والإمكانات والعقل ما يستغنى به عن رأى غيره ، ألا يأتى الدعى أو الدكتاتور العادل ، أو المستبد الملمهم ، فتصبح الأمة كلها أدوات مسخرة بين يديه ، فيشد هذه الطاقات ، ويلغى هذه العقول بحجة موهومة أن النبى ﷺ استغنى عن الاستشارة ، وهو على سنته ، وأن العباقر لا يستشيرون ، وأن العمالقة لا يستشيرون ، وأن المصلحين المجددين لا يستشيرون ، كما هى الحال مع رسول رب العالمين .

نحن لاناقدش الطغاة الذين يحادون الله ورسوله ، فأولئك ليسوا فى صف الحساب . ومقام النقاش فى هذا الموقع - إنما ناقش الذين يستأثرون بالحكم والسلطان باسم الإسلام ، وتحت راية الإسلام ، ويعطون لرأيهم الأولوية التى لاحتاج لاستشارة ، ويحددون الناس حولهم بالمنفذين ، ويقصون كل صاحب خبرة ، وصاحب طاقة ، لأنه يناقش تصرفاتهم ، إنها العصمة لهذه الأمة أن تزل قدم بعد ثبوتها .

فإذا كان الأمر جاء من رب العالمين إلى رسول رب العالمين أن يستشير صحبه وحزبه : ﴿ وشاورهم فى الأمر ﴾ وهو الذى لا ينطق عن الهوى ، فمن هو الدعى بعد ذلك الذى سيعطى لنفسه صلاحيات فوق صلاحيات رسول رب العالمين ، ويبقى له من الإسلام أو الانتساب للإسلام شىء .

ألا ما أعظم هذه الكرامة وهذه الرحمة التي ساقها الله تعالى لهذه الأمة ؛ أن يأمر نبيه بقوله : ﴿ وشاورهم فى الأمر ﴾ .

ولنقف مع حديث رسول الله ﷺ الذى يحدد الهدف الأعظم للاستشارة « أما إن الله ورسوله لغنيان عنها ، ولكن جعلها الله رحمة لأمتى ، فمن استشار منهم لم يعدم رشداً ، ومن تركها لم يعدم غياً » (١) .

وحين نربط هذا الحديث بهذه الآية :

﴿ لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى ﴾ (٢) .

فالله تعالى قد أتم نعمته ، وأكمل دينه ، وأبان لعباده الرشد من الغى ، وحين لا يوجد نص يحدد هذا الأمر - فالوصول إلى الرشد فى هذه الأمة المرحومة عن طريق الإمام العادل المستشير - فلن يعدم رشداً .

والذى يتنكب الشورى مهما كان دينه ، ومهما كان عقله ، ومهما كانت عبقريته ، فلن يعدم غياً .

وندع صاحب الظلال يغوص أكثر وأكثر فى هذا الخضم يستخرج لآله : (وبهذا النص الجازم : ﴿ وشاورهم فى الأمر ﴾ يقرر الإسلام هذا المبدأ فى نظام الحكم ، حتى ومحمد رسول الله ﷺ هو الذى يتولاه . وهو نص قاطع لا يدع للأمة المسلمة شكاً فى أن الشورى مبدأ أساسى ، لا يقوم نظام الإسلام على أساس سواه ، أما شكل الشورى والوسيلة التى تتحقق بها ، فهذه أمور قابلة للتحوير والتطوير وفق أوضاع الأمة وملابسات حياتها ، وكل شكل وكل وسيلة تتم بها حقيقة الشورى - لا مظهرها - فهى من الإسلام .

لقد جاء هذا النص عقب وقوع نتائج للشورى تبدو فى ظاهرها خطيرة مريرة ، فقد كان من جرائها ظاهرياً وقوع خلل فى وحدة الصف المسلم ! اختلفت الآراء ، فرأت مجموعة أن يبقى المسلمون فى المدينة محتمين بها ، حتى إذا هاجمهم العدو قاتلوه على أفواه الأركة ، وتحمست مجموعة أخرى فرأت الخروج للقاء المشركين ، وكان من جراء ذلك الاختلاف ذلك الخلل فى وحدة الصف ، إذ عاد عبد الله بن أبى بن سلول بثلاث الجيش ، والعدو على الأبواب - وهو حدث ضخيم وخلل مخيف - كذلك بدا أن الخطة التى نفذت لم تكن فى ظاهرها أسلم الخطط من الناحية العسكرية إذ أنها كانت مخالفة للسوابق فى الدفاع عن المدينة - كما قال عبد الله بن أبى - وقد اتبع المسلمون عكسها فى

(١) رواه البيهقى بسند جيد عن ابن عباس كما ذكر السيوطى وابن عدى . (٢) البقرة / ٢٥٦ .

غزوة الأحزاب التالية ، فبقوا فعلاً فى المدينة ، وأقاموا الخندق ، ولم يخرجوا للقاء العدو ، منتفعين بالدرس الذى تلقوه فى أحد .

ولم يكن رسول الله ﷺ يجهل النتائج الخطيرة التى « تنتظر الصف المسلم من جراء الخروج ، فقد كان لديه الإرهاص من رؤياه الصادقة التى رآها ، ويعرف مدى صدقها ، والتى تأولها قتيلاً من أهل بيته ، وقتلى من أصحابه ، وتأول المدينة درعاً حصينة ، وكان من حقه أن يلغى ما استقر عليه الأمر نتيجة للشورى ، ولكنه أمضاها وهو يدرك ما وراءها من الآلام والخسائر والتضحيات لأن إقرار المبدأ ، تعليم الجماعة ، وتربية الأمة أكبر من الخسائر الوقتية .

ولقد كان من حق القيادة النبوية أن تنبذ مبدأ الشورى كله بعد المعركة ، أمام ما أحدثته من انقسام فى الصفوف فى أخرج الظروف ، وأمام النتائج المريعة التى انتهت إليها المعركة ! ولكن الإسلام كان ينشئ أمة ويربها ، ويعدها لقيادة البشرية ، وكان الله يعلم أن خير وسيلة لتربية الأمم وإعدادها للقيادة الرشيدة أن تربي بالشورى ، وأن تدرب على حمل التبعة ، وأن تخطئ مهما كان الخطأ جسيماً وذا نتائج مريعة - لتعرف كيف تصحح خطأها ، وكيف تحتمل تبعات رأيها وتصرفها فهى لا تتعلم الصواب إلا إذ زاولت الخطأ ، والخسائر لاتهم إذا كانت الحصيلة هى إنشاء الأمة المدربة المدركة المقدرة للتبعة ، واختصار الأخطاء والتراث والخسائر فى حياة الأمة ليس فيها شئ من الكسب لها إذا كانت نتيجته أن تظل هذه الأمة قاصرة كالطفل تحت الوصاية ، إنها فى هذه الحالة تنقى خسائر مادية ، وتحقق مكاسب مادية ، ولكنها تخسر نفسها ، وتخسر وجودها ، وتخسر تربيتها ، وتخسر تدريبها على الحياة الواقعية ، كالطفل الذى يمنع من مزاوله المشى - مثلاً - لتوفير العثرات أو الحبطات ، أو توفير الحذاء !

كان الإسلام ينشئ أمة ويربها ، ويعدها للقيادة الراشدة ، فلم يكن بد أن يحقق لهذه الأمة رشدًا ، ويرفع عنها الوصاية فى حركات حياتها الواقعية العملية ، كى تدرب عليها فى حياة الرسول ﷺ ويأشرفه ، ولو كان وجود القيادة الراشدة يمنع الشورى ، ويمنع تدريب الأمة عليها تدريباً عملياً واقعياً فى أخطر الشؤون ، كمعركة أحد التى قد تقرر مصير الأمة المسلمة نهائياً ، وهى أمة ناشئة تحيط بها العدوان والأخطار من كل جانب ، ويحل للقيادة أن تستقل بالأمر وله كل هذه الخطورة - لو كان وجود القيادة الراشدة فى الأمة يكفى ، ويسد مسد مزاوله الشورى فى أخطر الشؤون - لكان وجود

محمد ﷺ ومعه الوحي من الله سبحانه وتعالى - كافياً لحرمان الجماعة المسلمة يومها من حق الشورى ! وبخاصة على ضوء النتائج المريرة التي صاحبتهما في ظل الملابس الخطيرة لنشأة الأمة المسلمة ، ولكن وجود محمد رسول الله ﷺ ومعه الوحي الإلهي ، ووقوع تلك الأحداث ، ووجود تلك الملابس - لم يبلغ هذا الحق ؛ لأن الله سبحانه - يعلم أنه لا بد من مزاولته في أخطر الشؤون ، ومهما تكن النتائج ، ومهما تكن الخسائر ، ومهما يكن انقسام الصف ، ومهما تكن التضحيات المريرة ، ومهما تكن الأخطاء المحيطة - لأن هذه كلها جزئيات لا تقوم أمام إنشاء الأمة الراشدة ، المدربة بالفعل على الحياة ، المدركة لتبعات الرأي والعمل ، الواعية لنتائج الرأي والعمل . ومن هنا جاء هذا الأمر الإلهي في هذا الوقت بالذات ﴿ فاعف عنهم ، واستغفر لهم ، وشاورهم في الأمر ﴾ (١) .

ليقرر المبدأ في مواجهة أخطر الأخطار التي صاحبت استعماله ، وليثبت هذا القرار في حياة الأمة المسلمة أيًا كانت الأخطار التي تقع في أثناء التطبيق ، وليسقط الحجة الواهية التي تثار لإبطال هذا المبدأ في حياة الأمة المسلمة ... كلما نشأ عن استعماله بعض العواقب التي تبدو سيئة ، ولو كان هو انقسام الصف ، كما وقع في - أحد - والعدو على الأبواب ، لأن وجود الأمة الراشدة مرمون بهذا المبدأ ، ووجود الأمة الراشدة أكبر من كل خسارة أخرى في الطريق (٢) .

وبقى لنا أن نقول شيئاً حول عظمة التطبيق للشورى ، وأن نتحدث عن الطريقة النبوية فيها .

فالخروب عادة أو قرار الحرب في الأمم - إنما يكون في أضيق نطاق ، وعلى أعلى المستويات ، يقرر أو يدرس من قيادات الجيش العليا ، وأركان حرب القائد الأعلى . ويقرر في المجالس التشريعية فيها وكذلك خطة التنفيذ ، وطريقة الهجوم ، وطبيعة التحركات - إنما تكون أوامر ترد إلى القيادات دون العليا ؛ لتأخذ طريقها إلى التنفيذ .

لكننا هنا أمام ظاهرة فريدة في تاريخ الشورى ، فخطة الهجوم ، والخروج لملاقاة العدو هي موطن الشورى من رسول الله ﷺ لجميع جنده ، من أصغر فرد في جيشه إلى أكبر مسؤول فيه ، وقد أوضح عليه الصلاة والسلام رأيه ، وأيده فيه كبار الصحابة ، لكن رأى الشباب كان يخالف رأى القائد الأعظم عليه الصلاة والسلام ، وأبدوا رأيهم بصراحة متناهية أنهم يرغبون الخروج من المدينة لملاقاة العدو ، ولم يواجه النبي عليه

(٢) في ظلال القرآن ١/٥٠١، ٥٠٢ .

(١) آل عمران / ١٥٧ .

الصلاة والسلام هذا الحماس بالكبت ، وإنما استجاب لهذه الرغبة الجياشة طالما أنها تمثل رأى الأكثرية فى جيشه .

لقد كانت الشورى فى بدر منصبة على الأنصار ، حيث أنهم وعدوه أن يحموه فى المدينة ، أما الآن فالشورى عامة للجميع ، ولم يعد بقائد أن يغير خطته انطلاقاً من حماس جنوده ، إذ قد يقع أن تتغير الخطة لدراسة فنية مغلقة فى قيادة الجيش ، وفى أركان الحرب ، أما أن تتعدل الخطة لآراء الشباب المسلم من رسول رب العالمين ولديه رؤياه بالقلعة الحصينة ، فهذا ما انفرد به تاريخ الحروب فى الأرض .

﴿ فإذا عزم فتوكل على الله ، إن الله يحب المتوكلين ﴾ .

ومن الشورى إلى العزيمة ، ونعود أدرأجنا إلى أئمة التفسير :

(السابعة قوله تعالى ﴿ فإذا عزم فتوكل على الله ﴾ قال قتادة : أمر الله تعالى نبيه عليه السلام إذا عزم على أمر أن يمشى فيه ، ويتوكل على الله ، لا على مشاورتهم ، والعزم هو الأمر المروى المنقح ، وليس ركوب رأى دون روية عزماً ...

وامثل هذا النبى ﷺ من أمر ربه فقال : « لا ينبغي لنبى يلبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله » أى ليس ينبغي له إذا عزم أن يتصرف ، لأنه نقض للتوكل الذى شرطه الله عز وجل مع العزيمة (١) .

أما ابن جرير رحمه الله تعالى فيقول :

(وأولى الأقوال بالصواب فى ذلك أن يقال : أن الله عز وجل أمر نبيه ﷺ بمشاورة أصحابه فيما حزه من أمر عدوه ، ومكايد حربه تألفاً منه بذلك من لم تكن بصيرته بالإسلام البصيرة التى يؤمن عليه معها فتنة الشيطان ، وتعريفاً منه أمته ما فى الأمور التى تحزبهم من بعده ومطلبها ؛ ليقصدوا به فى ذلك عند النوازل التى تنزل بهم ، فيتشاوروا فيما بينهم ، كما كانوا يرونه فى حياته ﷺ يفعله .

فأما النبى ﷺ فإن الله تعالى كان يعرفه مطالب وجوه ما حزه من الأمور بوحيه ، أو إلهامه إياه صواب ذلك ، وأما أمته فإنهم إذا تشاوروا مستنين فى ذلك ، على تصادق وتأخ للحق ، وإرادة جميعهم للصواب من غير ميل إلى هوى ، ولا حيدٍ عن هدى ، فالله مسددهم وموفقهم .

(١) تفسير القرطبي ٤/ ٢٥٢ .

﴿ وأما قوله : ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ فإنه يعنى : فإذا صح عزمك بتثبيتنا إياك وتسديدنا لك فيما نأبى ، وحزبك من أمر دينك ودنياك - فامض لما أمرك به ، وافق ذلك آراء أصحابك ، وما أشاروا به عليك أو خالفها ، وتوكل فيما تأتى من أمورك وتدع ، وتحاول أو تراول - على ربك فتق به فى كل ذلك وارض بقضائه فى جميعه دون سائر خلقه ومعونتهم فإن الله يحب المتوكلين ﴾ ^(١) .

(وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن قتادة فى قوله : ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ قال : أمر الله نبيه ﷺ إذا عزم على أمر أن يمضى فيه ، ويستقيم على أمر الله ، ويتوكل على الله ، وأخرج ابن مردويه عن على قال : سئل رسول الله ﷺ عن العزم فقال : « مشاورة أهل رأى ثم اتباعهم » ^(٢) .

﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنْ اللَّهُ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ .

(إن مهمة الشورى هى تقليب أوجه رأى ، واختيار اتجاه من الاتجاهات المعروضة ، فإذا انتهت إلى هذا الحد ، انتهى دور الشورى ، وجاء دور التنفيذ ، التنفيذ فى عزم وحسم ، وفى توكل على الله يصل الأمر بقدر الله ، ويدعه لمشيئته تصوغ العواقب كما تشاء .

وكما ألقى النبى ﷺ درسه النبوى الربانى ، وهو يعلم الأمة الشورى ، ويعلمها إبداء رأى ، واحتمال تبعته وتنفيذه فى أخطر الشؤون وأكبرها ، كذلك ألقى عليها درسه الثانى فى المضاء بعد الشورى ، وفى التوكل على الله ، وإسلام النفس لقدره - على علم بمجره واتجاهه - فأمضى الأمر فى الخروج ، ودخل بيته ، فلبس درعه ولأتمته - وهو يعلم إلى أين هو ماض ، وما الذى ينتظره وينتظر الصحابة معه من آلام وتضحيات .. وحتى حين أتيت فرصة أخرى بتردد المتحمسين ، وخوفهم من أن يكونوا استكروهه - ﷺ على ما لا يريد ، وتركهم الأمر له ليخرج أو يبقى حتى حين أتيت هذه الفرصة ، لم ينتهزها ليرجع ؛ لأنه أراد أن يعلمهم الدرس كله ، درس الشورى ثم العزم والمضى مع التوكل على الله ، والاستسلام لقدره ، وأن يعلمهم أن للشورى وقتها ، ولا مجال بعدها للتردد أو التراجع ، ومعاودة تقليب رأى من جديد ، فهذا مآله الشلل والسلبية والتأرجح الذى لا ينتهى ، وإنما هو رأى وشورى ، وعزم ومضاء ، وتوكل على الله .

﴿ إِنْ اللَّهُ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ .

(٢) الدر المنثور ٣٥٩/٢ ، ٣٦٠ .

(١) تفسير الطبرى ١٠١/٤ .

والخلة التي يحبها الله ، ويحب أهلها هي الخلة التي ينبغي أن يحرص عليها المؤمنون ، بل هي التي تميز المؤمنين ، والتوكل على الله ، ورد الأمر إليه في النهاية ، هو خط التوازن الأخير في التصور الإسلامي ، وفي الحياة الإسلامية ، وهو التعامل مع الحقيقة الكبيرة : حقيقة أن مرد الأمر كله لله ، وأن الله فعال لما يريد (١) .

﴿ إن ينصركم الله فلا غالب لكم ، وإن يخذلكم فمّن ذا الذي ينصركم من بعده ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ (٢) .

لاغرو أن تثور الهواجس في نفوس المؤمنين عقب هذه الآيات وأن تتحرك المشاعر : ما السبب الذي أدى إلى المحنة ؟

هل الأخذ برأى المتحمسين هو الذي أدى إلى ذلك ؟

ولعل الفريق الآخر يثور هذا الهاجس في نفسه أكثر وأكثر ، وإن كان ابن أبي قد عبر صراحة عنه مع حزبه :

(عصاني وحلفائي ما أدري علام نقتل أنفسنا أيها الناس)

﴿ لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ... ﴾ (٣) .

﴿ لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ها هنا .. ﴾ (٤) .

﴿ لو أطاعونا ما قتلوا ﴾ (٥) .

والذي يجيش في صدور الشباب المتحمس أن سبب الهزيمة معروف هو خذلان عبد الله بن أبي وأصحابه ، وانفصالهم بثلاث الجيش عن رسول الله ﷺ . وحين تتماوج النفوس بإلقاء التبعة من كل فريق على الآخر ، يأتي النص القرآني ليحزم الأمر ويعيد الأمر إلى نصابه ، فالله تعالى وحده هو الذي ينصر ، لقد تلقوا هذا الدرس في بدر حتى لا يبطروا في النصر . ولا يقولوا كما ذكر أحدهم :

(إن رأينا إلا عجائز صلعا)

فقال لهم الله تعالى : ﴿ وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم ﴾ (٦) .

(١) في ظلال القرآن / ١ م / ٤ ج ١ ، ٥٠٢ ، ٥٠٣ .

(٢) آل عمران / ١٥٦ .

(٣) آل عمران / ١٥٤ .

(٤) الأنفال / ١٠ .

(٥) آل عمران / ١٦٨ .

(٦) آل عمران / ١٦٠ .

وها هم أولاء يتلقون هذا الدرس فى أحد بعد المحنة الشديدة ، ويغيب عن أذهانهم الناصر والمعين فقال لهم الله تعالى : إن النصر بيده وحده ، والهزيمة بيده وحده .

﴿ إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده ﴾ (١) .

وذلك ليتجددوا من ذواتهم ونفوسهم ، ويتوكلوا على الله وحده فى تحقيق النصر أو إيقاع الهزيمة .

﴿ وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ .

فالتوكل والاعتماد على الله تعالى وحده ، وطلب النصرة منه وحده ، فليس الناصر العدد ولا الملائكة إنما الناصر الله تعالى وحده ، ولهذا يتوكل عليه المؤمنون ، وإذا كان معنى النصر من الله وحده قد نص عليه صراحة بعد بدر وأحد ، لكن معنى الخذلان والهزيمة نص عليه صراحة هنا فقط ، فله طعم ومذاق وخاصة بعد المحنة الصعبة التى نزلت بجند الله عز وجل .

وعبر عن النصر والهزيمة فى أحد كما عبر عنه فى بدر .

فقد جاء هذا المعنى فى بدر فى الأنفال :

﴿ وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم ﴾ .

وجاء تعقيباً على أحد فى آل عمران :

﴿ وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم ﴾ .

بينما جاء التعبير عنه فى أحد ينفى كل ناصر أو خاذل غير الله عز وجل

﴿ إن ينصركم الله فلا غالب لكم ﴾ (٢) .

﴿ وإن يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده ﴾ (٣) .

وذلك لتعميق هذا المعنى فى نفوسهم أكثر ، وليبقى الأمر فى حسهم - وهم لا يزالون يعانون من آثاره - مرتبطاً بالله وحده ، حين يخرجون عن سنن الله فى النصر فيفوتهم ، وينالهم الخذلان إذ قال لهم من قبل : ﴿ ثم صرفكم عنهم ﴾ - بعد تحقيق النصر -

(١) آل عمران / ١٦٠ . (٢) آل عمران / ١٦٠ . (٣) آل عمران / ١٦٠ .

﴿ لِيَتْلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١) .

﴿ وما كان لنبي أن يغفل ومن يغفل يأت بما غفل يوم القيامة ثم توفي كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون ﴾ (٢) .

وإذا كان الانشغال بالغنائم والانكباب عليها قد ذاقوا منه مرارة الخذلان الرباني لهم من جرائه فلا بد أن يعلموا أن الداء في النفس ، والحرص على الدنيا هو سبب الابتلاء ، ولا بد أن يتعلموا كذلك أن النبي قد برأه الله تعالى من هذا الداء ، نفساً وواقعاً ، فلا وجود أصلاً له عنده فالنفي المطلق لأصل الداء يؤكد هذا المعنى .

﴿ وما كان لنبي أن يغفل ﴾ .

يقول ابن جرير رحمه الله :

(القول في تأويل قوله : ﴿ وما كان لنبي أن يغفل ﴾) يختلف القراء في قراءة ذلك فقرأته جماعة من قراء الحجاز والعراق وما كان لنبي أن يغفل بمعنى أن يخون أصحابه فيما أفاء الله عليهم من أموال أعدائهم ، واحتج بعض قارئى هذه القراءة أن هذه الآية نزلت على رسول الله ﷺ في قطيفة فقدت من غنائم القوم يوم بدر ، فقال بعض من كان مع النبي ﷺ لعل رسول الله ﷺ أخذها ورووا على ذلك روايات (٣) .

– وقد أورد هذه الروايات عن ابن عباس وابن جبير – وقال آخرون : إنما نزلت هذه الآية في طلائع كان رسول الله ﷺ وجههم في وجهه ، ثم غنم النبي ﷺ فلم يقسم للطلائع فأنزل الله عز وجل هذه الآية على نبيه ﷺ يعلمه فيها أن فعله الذي فعله خطأ ، وأن الواجب عليه في الحكم أن يقسم للطلائع مثل ما قسم لغيرهم (٤) .

(وأورد ذلك عن الضحاك وابن عباس) .

(وقال آخرون ممن قرأ ذلك ... إنما أنزل الله ذلك تعريفاً للناس أن النبي لا يكتُم من وحى الله شيئاً) (٥) .

(وأورد ذلك عن ابن إسحاق ومجاهد والسدى) .

وقرأ ذلك آخرون وما كان لنبي أن يُغفل بضم الياء وفتح الغين وهى قراءة معظم قراء

(٢) آل عمران / ١٦١ .

(١) آل عمران / ١٥٢ .

(٤) (٥ ، ٤) تفسير الطبري ٤ / ١٠٣ ، ١٠٤ .

(٣) تفسير الطبري ٤ / ١٠٢ .

أهل المدينة والكوفة واختلف قارئو ذلك في تأويله . فقال بعضهم معناه : ما كان لنبي أن يغله أصحابه ثم أسقط الأصحاب وبقي الفعل غير مسمى فاعله ، وتأويله :

« وما كان لنبي أن يخان » .

(وأورد ذلك عن الحسن وقتادة والربيع) ^(١) .

ثم ختم كلامه بقوله :

(وأولى القراءتين في الصواب ذلك عندى قراءة من قرأ وما كان لنبي أن يغل بمعنى ما الغلول من صفات الأنبياء . ولا يكون نبياً من غل ...) ^(٢) .

﴿ ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة ، ثم توفي كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون ﴾ .

(أخرج ابن أبي شيبة وأحمد والبخارى ومسلم وابن جرير والبيهقي في الشعب عن أبي هريرة قال : قام فينا رسول الله ﷺ يوماً فذكر الغلول ، فعظمه وعظم أمره ثم قال : « ألا لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته بعير له رغاء فيقول : يا رسول الله ، أغثنى . فأقول لا أملك لك من الله شيئاً ، قد أبلغتك ، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته فرس لها حمحة فيقول : يا رسول الله ، أغثنى ، فأقول : لا أملك لك من الله شيئاً قد أبلغتك ، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته رقاع تخفق فيقول : يا رسول الله أغثنى ، فأقول : لا أملك لك من الله شيئاً قد أبلغتك ، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته صامت ^(٣) فيقول : يا رسول الله أغثنى . فأقول : لا أملك لك من الله شيئاً قد أبلغتك » ^(٤) .

(وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد ومسلم وأبو داود ، عن عدى بن عميرة الكندى قال : قال رسول الله ﷺ : « من عمل منكم لنا في عمل فكتمنا منه مخيطةً فما فوقه فهو غل » وفي لفظ - فإنه غلول يأتي به يوم القيامة » ^(٥) .

(وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عمر وقال : لو كنت مستحلاً من الغلول القليل لاستحللت منه الكثير ، ما من أحد يغل غلواً إلا كلف أن يأتي به من أسفل درك جهنم ^(٦) .

(٣) صامت : ذهب وفضة .

(١) ، (٢) تفسير القرطبي ١٠٣/٤ ، ١٠٤ .

(٦) الدر المنثور ٣٦٥/٢ .

(٤) ، (٥) الدر المنثور ٣٦٤/٢ ، ٣٦٥ .

﴿ أفمن اتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله ومأواه جهنم وبئس المصير .
هم درجات عند الله والله بصير بما تعملون ﴾ (١).

(قوله تعالى : ﴿ أفمن اتبع رضوان الله ﴾ يريد بترك الغلول ، والصبر على الجهاد ،
﴿ كمن باء بسخط من الله ﴾ يريد بكفر أو غلول أو قول عن النبي ﷺ في الحرب
﴿ ومأواه جهنم ﴾ أى مثواه النار ، أى إن لم يتب أو يعفو الله عنه ﴿ وبئس المصير ﴾ أى
المرجع ... ثم قال تعالى : ﴿ هم درجات عند الله ﴾ أى ليس من اتبع رضوان الله كمن
باء بسخط من الله ، قيل ﴿ هم درجات ﴾ متفاوتة ، أى هم مختلفو المنازل عند الله ،
فلمن اتبع رضوانه بالكرامة والثواب العظيم ، ولمن باء بسخط منه المهانة والعذاب الأليم ،
ومعنى ﴿ هم درجات ﴾ أى ذوو درجات ، أو على درجات ، أو فى درجات ، أو لهم
درجات ، وأهل النار أيضاً ذوو درجات ... فالمؤمن والكافر لا يستويان فى الدرجة ، ثم
المؤمنون يختلفون أيضاً ، فبعضهم أرفع درجة من بعض .. (٢) .

ويبقى جو المعركة ، وجو القيادة ، وجو التربية هو المسيطر فى هذه الآيات ، وبعد
تبرئة رسول الله ﷺ من الغلول ، وبعد الثناء عليه بالرحمة واللين ، وبعد دعوته للاستشارة
والاستغفار ، والعفو للمؤمنين ، يبقى المؤمنون يتلقون من السماء الحكم على مواقفهم
وتصرفاتهم ، تأييداً أو تأنيباً ، تختتم هذه الفقرة ، بقمة المن الإلهى على المؤمنين فى الأرض
عامة ، وعلى صحب محمد خاصة ، أن اختار منهم رسوله .

﴿ لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته
ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين ﴾ (٣) .

(أن يرتفع إنسان ويسمو فيصبح أهلاً لتلقى وحى الله فى هذا الوجود ، وأن يتصل
بالعالم العلوى ويسيد الملائكة جبريل ينزل عليه بكلام الله تعالى وآياته ، هى العزة
والكرامة فى هذه الأرض التى لاتعلو فوقها عزة أو كرامة .

وهذا السمو البشرى لهذا الفرد النبى - هو كرم لبيته وأمه كلها ، أن يكون منها هذا
الرسول وتسمو الأمة به ، وترتفع به ، وتعلو به ، وتسعد به .

وإذا كان رسول الله ﷺ ليس ملكاً لقومه فقط ، بل هو ملك للبشرية كافة ﴿ وما
أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ .

(١) آل عمران / ١٦٣ . (٢) تفسير القرطبي / ٤/ ٢٦٢ ، ٢٦٣ . (٣) آل عمران / ١٦٤ .

ونستدرك فنقول ليس للبشرية فقط ، بل لكل العالمين ، والثققلين الإنس والجن وغير ذلك . لكن أسعد الناس به بلا شك هم المؤمنون في الأرض على امتداد الزمان والمكان إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

ولابد أن يحفر في قلب المؤمنين هذا المعنى ، ويعرفوا عظمة هذا النبي الذي أدخلوا بواجبه في هذه المحنة ، وأقدم بعضهم على معصية أمره .

ولابد أن يرضعوا ألبان هذه العقيدة في التعرف على جوانب العظمة النبوية ، فيرعوا حقها ، ويؤدوا ضريبة وجودها بينهم ، فتأتي هذه الآية ، لتتابع تربيتهم على هذه المعاني ، وندع لصاحب الظلال أن يتحدث عن هذه العظمة بما وهبه الله تعالى من بيان :

﴿ لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم ﴾ .

إنها المنة العظمى أن يعث الله فيهم رسولا ، وأن يكون هذا الرسول من أنفسهم ، إن العناية من الله الجليل بإرسال رسول من عنده إلى بعض خلقه ، وهي المنة التي لا تبثق إلا من فيض الكرم الإلهي ، المنة الخالصة التي لا يقابلها شيء من جانب البشر ، وإلا فمن هؤلاء الناس ؟ ومن هم هؤلاء الخلق حتى يذكرهم الله هذا الذكر ، ويعني بهم هذه العناية ؟ ويبلغ من حفاوة الله بهم . أن يرسل لهم رسولا من عنده ، يحدثهم بآياته — سبحانه — وكلماته لولا أن كرم الله يفيض بلا حساب ، ويغمر خلقه بلا سبب منهم ولا مقابل .

وتتضاعف المنة بأن يكون هذا الرسول « من أنفسهم » ولم يقل منهم ، فإن للتعبير القرآني « من أنفسهم » ظلالة عميقة الإيحاء والدلالة .. إن الصلة بين المؤمنين والرسول هي صلة النفس بالنفس لا صلة الفرد بالجنس ، فليست المسألة أنه واحد منهم وكفى ، إنما هي أعمق من ذلك وأرقى ، ثم إنهم بالإيمان يرتفعون إلى هذه الصلة بالرسول ، ويصلون إلى هذا الأفق من الكرامة على الله ، فهو منة على المؤمنين ، فالمنة مضاعفة ممثلة في إرسال الرسول ، وفي وصل أنفسهم بالرسول . ونفس الرسول بأنفسهم على هذا النحو الحبيب .

ثم تتجلى هذه المنة العلوية في آثارها العملية في نفوسهم وحياتهم وتاريخهم الإنساني : ﴿ يتلو عليهم آياته . ويزكيهم ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ﴾ تتجلى هذه المنة في أكبر مجالها ، في تكريم الله لهم . بإرسال رسول من عنده ، يخاطبهم بكلام الله الجليل .

﴿ يتلو عليهم آياته ﴾ .

ولو تأمل الإنسان هذه المنة وحدها لرأته وهزته حتى ما يتمالك أن ينصب قامته أمام الله حتى وهو يقف أمامه للشكر والصلاة !

ولو تأمل أن الله الجليل - سبحانه - يتكرم عليه ، فيخاطبه بكلماته ، يخاطبه ليحدثه عن ذاته الجليلة ، وصفاته ، وليعرفه بحقيقة الألوهية وخصائصها ، ثم يخاطبه ليحدثه عن شأنه هو - هو الإنسان - العبد الصغير الضئيل - وعن حياته ، وعن خوالجه وعن حرركاته وسكناته ، يخاطبه ليدعوه إلى ما يحبه ، وليرشده إلى ما يصلح قلبه وحاله ، ويهتف به إلى جنة عرضها السماوات والأرض ، فهل هو إلا الكرم الفائض الذي يجري بهذه المنة ، وهذا التفضل ، وهذا العطاء ؟

إن الله الجليل غنى عن العالمين ، وإن الإنسان الضئيل لهو الفقير المحوج .. ولكن الجليل هو الذي يحفل هذا الضئيل ويتلمسه بعنايته ، ويتابعه بدعوته ! والغنى هو الذي يخاطب الفقير ويدعوه ويكرر دعوته !

فيا للكرم ، وبالله المنة ! وبالله التفضل والعطاء الذي لا كفاء له من الشكر والوفاء !

﴿ ويذكهم ﴾ :

يطهرهم ويرفعهم وينقيهم ، يطهر قلوبهم وتصوراتهم ومشاعرهم ، ويطهر بيوتهم وأعراضهم وصلاتهم ، ويطهر حياتهم ومجتمعهم وأنظمتهم ، يطهرهم من أرجاس الشرك والوثنية والخرافة والأسطورة ، وما تبثه في الحياة من مراسم وشعائر وعادات وتقاليد هابطة مزرية بالإنسان ، وبمعنى إنسانيته .. ويطهرهم من دنس الحياة الجاهلية ، وما تلوث به المشاعر والشعائر والتقاليد والقيم والمفاهيم .

﴿ ويعلمهم الكتاب والحكمة ﴾ :

وكان المخاطبون بهذه الآية أميين جهالاً ، أمية القلم ، وأمية العقل سواء ، وما كان لهم من المعرفة شيء ذو قيمة بالمقاييس العالمية للمعرفة ، في أي باب من الأبواب ، وما كان لهم في حياتهم من هموم كبيرة تنشئ معرفة ذات قيمة عالية في أي باب من الأبواب ، فإذا هذه الرسالة تحيلهم أساتذة الدنيا ، وحكماء العالم . وأصحاب المنهج العقيدى والفكرى والاجتماعى والتنظيمى ، الذى ينقذ البشرية كلها من جاهليتها فى ذلك الزمان ، والذى يرتقب دوره فى الجولة القادمة - بإذن الله - لإنقاذ البشرية مرة أخرى من جاهليتها

الحديثة ، التى تتمثل فيها كل خصائص الجاهلية القديمة ، من النواحي الأخلاقية والاجتماعية ، وتصور أهداف الحياة الإنسانية وغايتها كذلك ! على الرغم من فتوحات العلم المادى والإنتاج الصناعى ، والرخاء الحضارى .

﴿ وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين ﴾ .

ضلال فى التصور والاعتقاد ، وضلال فى مفهومات الحياة ، وضلال فى الغاية والاتجاه ، وضلال فى العادات والسلوك ، وضلال فى الأنظمة والأوضاع ، وضلال فى المجتمع والأخلاق .

والعرب الذين كانوا يخاطبون بهذه الآية كانوا يذكرون - ولا شك - ماضى حياتهم وأوضاعهم ، ويعرفون طبيعة النقلة التى نقلهم إليها الإسلام ، وما كانوا يبالغيها بغير الإسلام ، وهى نقلة غير معهودة فى تاريخ البشرية الطويل .

كانوا يدركون أن الإسلام - والإسلام وحده - هو الذى نقلهم من طور القبيلة ، واهتمامات القبيلة وثارات القبيلة ، لا ليكونوا أمة فحسب ، ولكن ليكونوا - على حين فجأة ومن غير تمهيد يتدخل فيه الزمن - أمة تقود البشرية ، وترسم لها مثلها ، ومناهج حياتها ، وأنظمتها كذلك ، فى صورة غير معهودة فى تاريخ البشرية الطويل .

كانوا يدركون أن الإسلام - والإسلام وحده - هو الذى منحهم وجودهم القومى ، ووجودهم السياسى ، ووجودهم الدولى .. وقبل كل شئ ، وأهم من كل شئ .. وجودهم الإنسانى ، الذى يرفع إنسانيتهم ، ويكرم آدميتهم ، ويقيم نظام حياتهم كله على أساس هذا التكريم ، الذى جاءهم هدية ومنة من لدن ربهم الكريم ، والذى أفاضوه هم على البشرية كلها بعد ذلك ، وعلموها كيف تحترم الإنسان ، وتكرمه بتكريم الله غير مسبوقين فى هذا ، لافى الجزيرة العربية ولا فى أى مكان .. وفى اللفتة السابقة إلى الشورى طرف من هذا المنهج الإلهى ، الذى كانوا يدركون فيه عظم المنة عليهم من الله .

وكانوا يدركون أن الإسلام - والإسلام وحده - هو الذى جعل لهم رسالة يقدمونها للعالم ، ونظرية للحياة البشرية ، ومذهباً مميزاً للحياة الإنسانية ، والأمة لا توجد فى الحقل الإنسانى الكبير إلا برسالة ونظرية ومذهب ، تقدمه للبشرية ، لتدفع بالبشرية إلى الأمام .

وقد كان الإسلام ، وتصوره للوجود ، ورأيه فى الحياة ، وشريعته للمجتمع ، وتنظيمه للحياة البشرية ومنهجه المثالى الواقعى الإيجابى لإقامة نظام يسعد فى ظله الإنسان .. كان الإسلام بخصائصه هذه هو - بطاقة الشخصية التى تقدم بها العرب للعالم ، عرفهم ، واحترمهم وسلمهم القيادة .

وهم اليوم وغداً لا يحملون إلا هذه البطاقة ، ليست لهم رسالة غيرها يتعرفون بها إلى العالم ، وهم إما أن يحملوها فتعرفهم البشرية وتكرمهم ، وإما أن ينبذوها فيعودوا هملاً - كما كانوا - لا يعرفهم أحد ، ولا يعترف بهم أحد !

وما الذى يقدمونه للبشرية حين لا يتقدمون إليها بهذه الرسالة ؟

يقدمون لها عبقریات فى الإنتاج الصناعى المتفوق ، تنحني له الجباه ، ويغرقون به أسواقها ، ويغطون به على ما عندها من إنتاج ؟؟ لقد سبقتهم شعوب كثيرة ، فى يدها عجلة القيادة فى هذا المضمار !

يقدمون لها فلسفة مذهبية اجتماعية ، ومناهج اقتصادية وتنظيمية من صنع أيديهم ، ومن وحي أفكارهم البشرية ؟ إن الأرض تعج بالفلسفات والمذاهب والمناهج الأرضية ، وتشقى بها جميعاً غاية الشقاء ! ماذا إذن يقدمون للبشرية لتعرفهم به ، وتعترف لهم بالسبق والتفوق والامتياز ؟

لاشئ إلا هذه الرسالة الكبيرة ، لاشئ إلا هذا المنهج الفريد ، لاشئ إلا هذه المنة التى اختارهم الله لها ، وأكرمهم بها ، وأنقذ بها البشرية كلها على أيديهم ذات يوم ، والبشرية اليوم أحوج ما تكون إليها ، وهى تتردى فى هاوية الشقاء والحيرة والقلق والإفلاس .

إنها - بطاقة الشخصية التى تقدموا بها قديماً للبشرية ، فأحنت لها هامتها ، والتى يمكن أن يقدموها لها اليوم ، فىكون فيها الخلاص والإنقاذ .

إن لكل أمة من الأمم الكبيرة رسالة ، وأكبر أمة هي التى تحمل أكبر رسالة ، وهى التى تقدم أكبر منهج وهى التى تنفرد فى الأرض بأرفع مذهب للحياة .

والعرب يملكون هذه الرسالة ، وهم فيها أصلاء ، وغيرهم من الشعوب هم شركاء - فأى شيطان ياترى يصرفهم عن هذا الرصيد الضخم ؟ أى شيطان !؟

لقد كانت المنة الإلهية على هذه الأمة بهذا الرسول ، وبهذه الرسالة عظيمة عظيمة ،

وما يمكن أن يصرفها عن هذه المنة إلا شيطان .. وهى مكلفة من ربها بمطاردة هذا الشيطان^(١)

﴿أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا . قل هو من عند أنفسكم﴾ إن الله على كل شيء قدير^(٢) .

إنه تنمة الحديث مع المؤمنين ، مع الصف المؤمن الذى تزلزل فامتحن ، وأخطأ فعوقب ، ولقد كانت المفاجأة كبيرة ، والحنة ضخمة على أعصابهم ، وهم جند الله ، وجند نبيه ، فكيف يفوتهم النصر؟ وأمام هذا القلق النفسى ، كان لابد أن يأتى الجواب التربوى المناسب من رب العزة جل جلاله .

وجاء الجواب الربانى ، معيداً للساحة أجواء نصر بدر ، ومعجزة النصر فى بدر ، ليملاً على النفس آفاقها ، ويجيب على كل تساؤلاتها .

أخرج ابن جرير عن عكرمة قال :

(قتل المسلمون من المشركين يوم بدر سبعين ، وأسروا سبعين ، وقتل المشركون يوم أحد من المسلمين سبعين ، فذلك قوله : (قد أصبتم مثليها ، قلتم أنى هذا ؟ ونحن مسلمون نقاتل غضباً لله وهؤلاء مشركون ﴾ قل هو من عند أنفسكم ﴾ عقوبة لكم بمعصيتكم النبى ﷺ حين قال ما قال) .^(٣)

وأخرج ابن أبى شيبة والترمذى وحسنه وابن جرير وابن مردويه عن على قال :

(جاء جبريل إلى النبى ﷺ فقال : يا محمد إن الله قد كره ما صنع قومك فى أخذهم الأسارى ، وقد أمرك أن تخيرهم بين أمرين ، إما أن يقدموا فتضرب أعناقهم ، وبين أن يأخذوا الفداء على أن يقتل منهم عدتهم ، فدعا رسول الله ﷺ الناس ، فذكر ذلك لهم فقالوا :

يا رسول الله ، عشائرننا وإخواننا نأخذ فداءهم ، فنقوى بهم على قتال عدونا ، ويستشهد منا بعدتهم فليس فى ذلك مانكره ، فقتل منهم يوم أحد سبعون رجلاً عدة أسارى أهل بدر .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن الحسن وابن جريج : ﴿ قل هو من عند أنفسكم ﴾ عقوبة لكم بمعصيتكم النبى ﷺ حين قال : لا تتبعوهم يوم أحد ، فاتبعوهم) .^(٤)

(١) فى ظلال القرآن / مقتطفات من ٥٠٦-١٢٠٥/١م-٤٤ . (٢) آل عمران / ١٦٥ .

(٣) الدر المنثور / ٢م/ ٤٤ / ٣٦٨ ، ٣٦٩ .

(٤) تفسير الطبرى / ١٠٩/٤ .

(وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة في قوله ﴿أَوْ لِمَا أَصَابَكُمْ مِصْيِيَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِنْهَا﴾ قال : أصيبوا يوم أحد قتل منهم سبعون يومئذ ، وأصابوا مثلها يوم بدر قتلوا من المشركين سبعين وأسروا سبعين ﴿قَلْتُمْ أَنِي هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ ذكر لنا « أن نبي الله ﷺ قال لأصحابه يوم أحد حين قدم أبو سفيان والمشركون : « في جنة حصينة - يعنى بذلك المدينة - فدعوا القوم يدخلوا علينا نقاتلهم » فقال له أناس من الأنصار : إنا نكره أن نقتل في طرق المدينة ، وقد كنا نمنع من الغزو في الجاهلية ، فبالإسلام أحق أن يتمتع منه ، فابرز بنا إلى القوم ، فانطلق فلبس لأمته ، فتلاوم القوم فقالوا : عرض نبي الله ﷺ بأمر وعرضتم بغيره ، اذهب يا حمزة فقل له : أمرنا تبع لأمرك ، فأتى حمزة فقال له ، فقال : « إنه ليس لنبي إذ لبس لأمته أن يضعها حتى يناجز ، وإنه ستكون فيكم مصيبة ، قالوا : يانبي الله خاصة أو عامة ؟ قال : سترونها » . (١)

وهكذا نرى أن المصيبة التي نزلت بالصف المؤمن يوم أحد مردها إلى ثلاثة أسباب : السبب الأول : هو حرصهم على فداء الأسرى يوم بدر ، وتخليهم عن قتلهم ، وقبولهم استشهاد أمثالهم .

السبب الثاني : إصرارهم على الخروج من المدينة ، وتخليهم عن الدرع الحصينة التي كانت لهم ، كما وصفها رسول الله ﷺ ، وكيف أعلمهم رسول الله بالبقر المذبح .

السبب الثالث : معصيتهم أوامر رسول الله ﷺ ، ومغادرة الرماة مواقعهم رغم الأوامر المؤكدة الجازمة بعدم الخروج .

ولهذا ، فالمصيبة لم تأت جزافاً أو عرضاً ، إنما جاءت عقوبة لذنوب ، وتربية على خطأ ، أو معالجة لزلل .

ويبقى الهدف التربوي ماثلاً أمام أعيننا يعالج هذه الهنات والأخطاء ، ويأخذ على النفس أقطارها ، ويعيدها إلى الجادة .

حديث عن المنافقين :

﴿وما أصابكم يوم التقى الجمعان . فياذن الله وليعلم المؤمنين . وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا . قالوا لو نعلم قتلاً لاتبعناكم هم للكفر

(١) الدر المنثور / ٢م / ٤ / ٣٦٨ - ٣٦٩ .

يومئذ أقرب منهم للإيمان يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم . والله أعلم بما يكتمون .
الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا قل فادرؤوا عن أنفسكم الموت إن
كنتم صادقين ^(١) .

لقد عاجلت الآية السابقة مسؤولية المؤمنين عن المحنة ، لكن هذا الأمر - كما تشير الآية
هذه - جزء من قدر الله عز وجل ، وسنة من سنن الله تعالى فى النصر والهزيمة ، وبناء
الأمم وحركة الدعوات ، وحين يطمئن قلب المؤمن إلى أن ما أصابه إنما كان للخلل فى بنيانه
فيعيد صياغة نفسه على ضوء هذا التقرير الربانى ، حينئذ يضاف الرصيد الجديد الآخر ،
أن المحنة لها دور آخر ، غير دور تربية المؤمنين وتصحيح أخطائهم ، هذا الدور . هو تمييز
الصف المؤمن من المنافق ، ولئن كان الصف قد تفاوتت مستوياته ، لكن لا بد من إفراز
المنافقين خارجه ، فكان هذا الأمر .

﴿ وليعلم المؤمنون ، وليعلم الذين نافقوا ﴾ .

وتحددت هوية المنافقين المتلبسين بالصف تحديداً يكاد يكون عينياً وبأشخاصهم
وذواتهم . لوضوح المواصفات لهم .

فهم أولاً : الذين رفضوا حضور المعركة ، وقدموا عذراً بسيطاً ﴿ لو نعلم قتالاً
لاتبعناكم ﴾ .

وهم ثانياً : الذين قعدوا وقالوا عن إخوانهم ﴿ لو أطاعونا ما قتلوا ﴾ .

وتؤكد النصوص من المفسرين جميعاً - أنهم عبد الله بن أبى وأصحابه ، فالزهرى
ومجاهد وعكرمة والسدى وقتادة والربيع وابن جريج وابن إسحاق جميعهم على هذا
الرأى ، فقد أخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر عن ابن شهاب وغيره قال : خرج
رسول الله ﷺ إلى أحد فى ألف رجل من أصحابه ، حتى إذا كانوا بالشرط بين أحد
والمدينة انخزل عنهم عبد الله بن أبى بثلاث الناس ، وقال :

أطاعهم وعصانى ، والله ماندرى علام نقتل أنفسنا ها هنا ، فرجع بمن اتبعه من أهل
النفاق والريب ، واتبعهم عبد الله بن عمرو بن حرام من بنى سلمة ، يقول : يا قوم أذكركم
الله أن تخذلوا نبيكم وقومكم ، وعندما حضرهم عدوهم . قالوا : لو نعلم أنكم تقاتلون
ما أسلمناكم ، ولكن لا نرى أن يكون قتال ^(٢) .

(٢) الدر المنثور ٤/ ٣٦٩ .

(١) آل عمران ١٦٦ - ١٦٨ .

لقد جاء ذكر الطائفتين من بنى سلمة وبنى حارثة فى بداية السورة ، فالحديث ابتداءً عن المؤمنين ومع المؤمنين يعالج ضعفهم ، ويشئى على ثباتهم ، أما الحديث هنا فعن المنافقين الذين أفرزوا من الصف المؤمن وخرجوا عليه وانصاعوا لقيادة غير القيادة النبوية لعبد الله ابن أبى ، وراحوا يقدمون التعليقات والمعاذير لانسحابهم ، وذكر القرآن لهم عذراً واحداً .

﴿ لَوْ نَعْلَمُ قَتَالًا لَا تَبْعَانَا ﴾

وذكرت نصوص السيرة إضافات تعكس ما فى نفوسهم ، وتكشف الخبوء من خبيث قلوبهم .

(١) أطاعهم وعصانى .

(٢) عصانى ورد حلفائى .

(٣) علام نقتل أنفسنا أيها الناس .

فالقضية عند عبد الله بن أبى لا تخرج عن عبادة ذاته ، وتنطعه للقيادة ، وإيجاد تكتل له ضمن الصف المسلم ، فجاءت هذه الآية كالصاعقة التى أحرقتة وصحبه .

﴿ هُمُ لِلْكَفَرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ ﴾ .

﴿ يَقُولُونَ بِأَفْوَهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ .

وأى تعرية لهم تفوق هذه التعرية ؟

ثم يتابع العرض القرآنى . فيكشف عما فى قلوبهم :

﴿ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا . لَوْ أَطَاعُونَا مَا قَتَلُوا ﴾ .

فهو من جانب شماتة بقتلى المؤمنين وشهادتهم ، ولو أخذ برأى ابن أبى لما قتلوا ، وهو من جانب آخر حسرة على من فقدوا من إخوانهم المنافقين مثلهم ، فجاء الرد الصارم عليهم :

﴿ قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ .

فإذا كان القتل قد نال المؤمنين وإخوانهم ، فهل هم ناجون من الموت ؟

حديث عن الشهداء والمؤمنين الربانيين :

لكن السياق الذى يتابع الرد على تخرصات المنافقين هو الصفة العنيفة لهم . فمن هم ؟ ﴿ هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان ﴾ ومن الشهداء ؟ . يجيب رب العزة على ذلك فيقول :

﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون . فرحين بما آتاهم الله من فضله ، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين ﴾ . (١)

(أخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد . وابن أبى حاتم عن أبى الضحى فى قوله : ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً ﴾ قال : نزلت فى قتلى أحد ، استشهد منهم سبعون رجلاً ، أربعة من المهاجرين حمزة بن عبد المطلب ، ومصعب بن عمير من بنى عبد الدار ، وعثمان بن شماس من بنى مخزوم ، وعبد الله بن جحش من بنى أسد وسائرهم من الأنصار) . (٢)

وأخرج أحمد وهناد وعبد بن حميد وأبو داود وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ :

(لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم فى أجواف طير خضر ، ترد أنهار الجنة ، وتأكل من ثمارها ، وتأوى إلى قناديل من ذهب معلقة فى ظل العرش ، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ، وحسن مقبلهم ، قالوا : ياليت إخواننا يعلمون ما صنع الله لنا . وفى لفظ - قالوا : إنا أحياء فى الجنة نرزق ؛ لئلا يزهدوا فى الجهاد ، ولا يتركوا عن الحرب فقال الله : أنا أبلغهم عنكم . فأنزل الله هؤلاء الآيات ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا ... ﴾ الآية وما بعدها) . (٣)

(وأخرج الترمذى وحسنه وابن ماجه وابن أبى عاصم فى السنة وابن خزيمة والطبرانى والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى فى الدلائل عن جابر بن عبد الله قال : لقينى رسول الله ﷺ ، فقال يا جابر « مالى أراك منكسراً ؟ » قلت : يارسول الله استشهد أبى ، وترك عيلاً وديناً ، فقال : « ألا أبشرك بمالقى الله به أباك ؟ » قال : بلى .

(٢) الدر المنثور / ٤ / ٣٧١ .

(١) آل عمران / ١٦٩ - ١٧١

(٣) الدر المنثور / ٤ / ٣٧١ .

قال : « ما كلم الله أحدا قط إلا من وراء حجاب ، وأحيا أباك فكلمه كفاحاً ، وقال : يا عبدى تمن على أعطك ، قال يارب تخيبنى فأقتل فيك ثانية قال الرب تعالى : قد سبق منى أنهم لا يرجعون ، قال : أى رب فأبلغ من ورائى ، فأنزل الله هذه الآية : ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله ﴾ (١) الآية .

(وأخرج عبد الرزاق فى المصنف والفريابى ، وسعيد بن منصور وهناد وعبد بن حميد ومسلم والترمذى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى والبيهقى فى الدلائل عن مسروق قال : سألنا عبد الله بن مسعود عن هذه الآية ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله ﴾ فقال أما إنا قد سألنا عن ذلك ، أرواحهم فى جوف طير خضر - ولفظ عبد الرزاق أرواح الشهداء عند الله كطير خضر - لها قناديل معلقة بالعرش ، تسرح من الجنة حيث شاءت ، ثم تأوى إلى تلك القناديل ، فاطلع إليهم ربهم إطلاعة فقال : هل تشتهون شيئاً ؟ قالوا : أى شئ نشتهى ، ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا ، ففعل ذلك بهم ثلاث مرات ، فلما رأوا أنهم لم يتركوا من أن يسألوا قالوا : يارب نريد أن ترد أرواحنا فى أجسادنا حتى نقتل فى سبيلك مرة أخرى ، فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا) . (٢)

(وأخرج عبد الرزاق عن أبى عبيدة عن عبد الله ، أنه قال فى الثالثة حين قال لهم : هل تشتهون من شئ ؟ قالوا : تقرأ نبينا السلام ، وتبلغه أنا قد رضينا ورضى عنا) . (٣)

(وعن المقدم بن معد يكرب قال : قال رسول الله ﷺ : « للشهيد عند الله ست خصال : يغفر له فى أول دفعة ، ويرى مقعده فى الجنة ، ويجار من عذاب القبر ، ويأمن الفرع الأكبر ، ويوضع على رأسه تاج الوقار ، الياقوتة منها خير من الدنيا وما فيها ، ويزوج اثنين وسبعين زوجة من الحور العين ، ويشفع فى سبعين من أقاربه » .

قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح غريب) . (٤)

﴿ ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ﴾

(وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله : ﴿ ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم ﴾ قال : لما دخلوا الجنة ، ورأوا ما فيها من الكرامة . فإذا شهدوا القتال باثروها بأنفسهم حتى يستشهدوا فيصيبون ما أصبنا من الخير ، فأخبر النبى ﷺ بأمرهم ،

(١) المصدر نفسه / ٣٧١ ، ٣٧٢ .

(٢) المصدر نفسه / ٣٧٣ ، ٣٧٤ .

(٤) الترمذى / كتاب ٢٣ فضائل الجهاد / باب ٢٥ ماجاء فى ثواب الشهيد / ج ٤ / ص ١٨٧ ، ١٨٨ .

وما هم فيه من الكرامة ، فاستبشروا بذلك . فذلك قوله ﴿ ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ﴾ يعنى من إخوانهم من أهل الدنيا أنهم سيحرصون على الجهاد ويلحقون بهم) . (١)

(وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدى فى قوله ﴿ ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ﴾ ، قال : إن الشهيد يؤتى بكتاب فيه من يقدم عليه من إخوانه وأهله يقال : يقدم عليك فلان يوم كذا وكذا ، يقدم عليك فلان يوم كذا وكذا . فيستبشر حين يقدم عليه كما يستبشر أهل الغائب بقدمه فى الدنيا) . (٢)

(وأخرج ابن أبى شيبه والطبرانى برجال الصحيح عن كعب بن مالك (أن رسول الله ﷺ قال يوم أحد : « من رأى مقتل حمزة ؟ فقال رجل : أنا قال : « فانطلق فأرناه » . فخرج حتى وقف على حمزة فرآه قد بقر بطنه ، وقد مثل به ، فكره رسول الله ﷺ أن ينظر إليه ، ووقف بين ظهرائى القتلى ، وقال : « أنا شهيد على هؤلاء القوم ، لفوهم فى دمائهم ، فإنه ليس جريح يجرح إلا جرحه يوم القيامة يدمى ، لونه لون الدم ، وريحه ريح المسك ، قدموا أكثر القوم قرآنا فاجعلوه فى اللحد ») . (٣)

(وأخرج أحمد ومسلم والنسائى والحاكم عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « يؤتى بالرجل من أهل الجنة فيقول الله له : يابن آدم كيف وجدت منزلك ؟ فيقول : أى رب خير منزل . فيقول : سل وتمن . فيقول : أسألك أن تردنى إلى الدنيا فأقتل فى سبيلك عشر مرات لما رأى من فضل الشهادة ، قال : ويؤتى بالرجل من أهل النار فيقول الله : يابن آدم كيف وجدت منزلك ؟ فيقول : أى رب شر منزل . فيقول : فتفتدى منه بطلاع الأرض ذهباً ؟ فيقول نعم . فيقول : كذبت قد سألتك دون ذلك فلم تفعل ») . (٤)

﴿ يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين ﴾

يقول جل ثناؤه : (يستبشرون) يفرحون بنعمة من الله ، يعنى بما حباهم به تعالى ذكره من عظيم كرامته عند ورودهم عليه ، و (فضل) يقول وبما أسبغ عليهم من الفضل ، وجزيل الثواب على ماسلف منهم من طاعة الله ورسوله ﷺ ، وجهاد أعدائه وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين (٥)

هؤلاء هم الشهداء الأحياء عند الله ، الذين تقعر المنافقين بقولهم : ﴿ لو أطاعونا

ماقتلوا ﴾ فماذا عن الجرحى والمقاتلين ؟

(٢) المصدر نفسه / ٣٧٥ ، ٣٧٦ .

(١) الدر المنثور / ٤ / ٣٧٥ .

(٥) تفسير الطبرى / ٤ / ١١٦ .

(٤) المصدر نفسه / ٤ / ٣٧٧ .

(٢) سبل الهدى والرشاد / ٤ / ٣٣١ .

﴿ الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم ﴾ (١).

وندع الحديث لمحمد بن عمر الأسلمي يحدثنا عن هذه الآيات من خلال الحديث عن غزوة حمراء الأسد يقول : وكانت يوم الأحد لثمان خلون من شوال ، على رأس اثنين وثلاثين شهراً .. ودخل المدينة يوم الجمعة وغاب خمساً .

قالوا : لما صلى رسول الله ﷺ الصبح يوم الأحد ومعه وجوه الأوس والخزرج ، وقد باتوا في المسجد على بابه - سعد بن عباد - وحباب بن المنذر ، وسعد بن معاذ ، وأوس بن خولي ، وقتادة بن النعمان ، وعبيد بن أوس في عدة منهم - فلما انصرف رسول الله ﷺ من الصبح أمر بلالاً أن ينادى : إن رسول الله يأمركم بطلب عدوكم ، ولا يخرج معنا إلا من شهد القتال بالأمس ،

قال : فخرج سعد بن معاذ راجعاً إلى داره يأمر قومه بالمسير قال : والجراح في الناس فاشية ، عامة بني عبد الأشهل جريح ، بل كلها . فجاء سعد بن معاذ فقال : إن رسول الله ﷺ يأمركم أن تطلبوا عدوكم قال : يقول أسيد بن حضير ، وبه سبع جراحات ، وهو يريد يداويها سمعاً وطاعة لله ورسوله ، فأخذ سلاحه ، ولم يعرج على دواء جراحه . فأمرهم بالسير فتلبسوا ولحقوا . وجاء أبو قتادة أهل خربى وهم يداوون الجراح فقال : هذا منادي رسول الله ﷺ يأمركم بطلب عدوكم ، فوثبوا إلى سلاحهم ، وما عرجوا على جراحاتهم فخرج من بني سلمة أربعون جريحاً ، بالطفيل بن النعمان ثلاثة عشر جرحاً وبخراش بن الصمة عشر جراحات ، وبكعب بن مالك بضعة عشر جرحاً ، وبقطبة بن عامر بن حديدة تسع جراحات ، حتى وافوا النبي ﷺ ببئر أبي عتبة إلى رأس الثنية - الطريق الأولى يومئذ - عليهم السلاح قد صفوا لرسول الله ﷺ . فلما نظر إليهم والجراح فيهم فاشية قال « اللهم ارحم بني سلمة » .

(قال الواقدي : وحدثنا ثني عتبة بن جبيرة عن رجال من قومه قالوا : إن عبد الله بن سهل ورافع بن سهل بن عبد الأشهل رجعا من أحد وبهما جراح كثيرة ، وعبد الله أثقلهما من الجراح ؛ فلما أصبحوا وجاءهم سعد بن معاذ يخبرهم أن رسول الله ﷺ يأمرهم بطلب عدوهم قال أحدهما لصاحبه : والله إن تركنا غزوة مع رسول الله ﷺ لغبن ، والله ما عندنا دابة نركبها ، وما ندري كيف نصنع : قال عبد الله : انطلق بنا : قال

(١) آل عمران / ١٧٢ .

رافع : لا والله ما بى مشى ، قال أخوه : انطلق بنا نتجار ونقصد ، فخرجا يزحفان فضعف رافع ، فكان عبد الله يحمله على ظهره عقبة ، ويمشي الآخر عقبة ، حتى أتوا رسول الله ﷺ عند العشاء ، وهم يوقدون النيران . فأتى بهما إلى رسول الله ﷺ - وعلى حرسه تلك الليلة عباد بن بشر - فقال : ما حبسكما ؟ فأخبراه بعلتهما فدعا لهما بخير ، وقال : إن طالت لكم مدة ، كانت لكم مراكب من خيل وبغال وإبل ، وليس ذلك بخير لكم .

وقال جابر بن عبد الله : يا رسول الله إن منادياً نادى ألا يخرج معنا إلا من حضر القتال بالأمس ، وقد كنت حريصاً على الحضور ، ولكن أبى خلفني على أخوات لى وقال : يا بنى لا ينبغي لى ولك أن ندعهن ولا رجل عندهن ، وأخاف عليهن ، وهن نسيات ضعاف ، وأنا خارج مع رسول الله ﷺ لعل الله يرزقنى الشهادة ، فتخلفت عليهن فاستأثره الله علي بالشهادة ، وكنت رجوتها . فأذن لى يا رسول الله أن أسير معك ، فأذن له رسول الله ﷺ . قال جابر : فلم يخرج معه أحدا يشهد القتال بالأمس غيرى واستأذنه رجال لم يحضروا القتال ، فأبى ذلك عليهم ، ودعا رسول الله ﷺ بلوائه ، وهو معقود ولم يحل من الأمس فدفعه إلى على عليه السلام ، ويقال : دفعه إلى أبى بكر .

وخرج رسول الله ﷺ وهو مجروح في وجهه أثر الحلقتين ، ومشجوج في جبهته في أصول الشعر ، ورباعيته قد شظيت ، وشفته قد كلمت من باطنها وهو متوهن منكبه الأيمن بضربة ابن قميفة ، وركبته مجحوشتان . فدخل رسول الله ﷺ المسجد فركع ركعتين ، والناس قد حشدوا ، ونزل أهل العوالي حيث جاءهم الصريخ . ثم ركع رسول الله ﷺ ركعتين ، فدعا بفرسه على باب المسجد ، وتلقاه طلحة رضي الله عنه ، وقد سمع المنادى ، فخرج ينظر متى يسير رسول الله ﷺ ، فإذا رسول الله ﷺ عليه الدرع والمغفر ، وما يرى منه إلا عيناه ، فقال : « يا طلحة ، سلاحك » فقلت : قريباً . قال طلحة . فأخرج أعدو ألبس درعى ، وأخذ سيفى ، وأطرح درقتى فى صدرى ؛ وإن بى لتسع جراحات ، ولأننا أهم بجراح رسول الله ﷺ منى بجراحي ، ثم أقبل رسول الله ﷺ على طلحة فقال : « ترى القوم الآن » ؟ قال : هم بالسيلة . قال رسول الله ﷺ : « ذلك الذى ظننت » أما إنهم يا طلحة لن ينالوا منا مثل أمس حتى يفتح الله مكة علينا .

وبعث رسول الله ﷺ ثلاثة نفر من أسلم طليعة فى آثار القوم : سنيطاً ونعمان بنى سفيان بن خالد بن عوف بن دارم من بني سهه ، ومعهما ثالث من أسلم من بني عوير لم

يسم لنا ، فأبطأ الثالث وهما يجمزان (١) . وقد انقطع قبال (٢) نعل أحدهما . فقال : أعطني نعلك قال : لا والله لا أفعل . فضرب أحدهما برجله في صدره . فوقع لصدره ، فأخذ نعليه ولحق القوم بحمراء الأسد ، ولهم زجل وهم يأترون بالرجوع ، وصفوان ينهاهم عن الرجوع فبصروا بالرجلين ، فعطفوا عليهما فأصابوهما فانتهى المسلمون إلى مصرعهما بحمراء الأسد فعسكروا وقبروهما في قبر واحد ، فقال ابن عباس . هذا قبرهما وهما القرينان ، ومضى رسول الله ﷺ في أصحابه حتى عسكروا بحمراء الأسد .

قال جابر : وكان عامة زادنا التمر ، وحمل سعد بن عباد ثلاثين جملاً حتى وافت الحمراء ، وساق جزراً فنحروا في كل يوم اثنين وفي يوم ثلاثاً ، وكان رسول الله ﷺ يأمرهم في النهار بجمع الحطب ، فإذا أمسوا أمرنا أن نوقد النيران ، فيوقد كل رجل ناراً فلقد كنا تلك الليالي نوقد خمسمائة نار في كل وجه حتى كان مما كتب الله تعالى لعدونا (٣) .

﴿الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً ، وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ، فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم﴾ .

(وانتهى معبد بن أبي معبد الخزاعي ، وهو يومئذ مشرك ، وكانت خزاعة مسلماً للنبي ﷺ . فقال : يا محمد ، لقد عز علينا ما أصابك في أصحابك ، ولوددنا أن الله أعلى كعبك (٤) ، وأن المصيبة كانت بغيرك .

ثم مضى معبد حتى يجد أبا سفيان وقریشاً بالروحاء ، وهم يقولون : لا محمداً أصبتم ، ولا الكواعب أردقتم ، فبئس ما صنعتهم ! فهم مجمعون على الرجوع ، ويقول قائلهم فيما بينهم : ما صنعنا شيئاً ، أصبنا أشرافهم ثم رجعنا قبل أن نستأصلهم ، قبل أن يكون لهم وفر - والمتكلم بهذا عكرمة بن أبي جهل - فلما جاء معبد إلى أبي سفيان قال : هذا معبد وعنده الخير ، ما وراءك يا معبد ؟ قال : تركت محمداً وأصحابه خلفي يتحرقون عليكم بمثل النيران ، وقد أجمع معه من تخلف عنه بالأوس من الأوس والخزرج ، وتعاهدوا ألا يرجعوا حتى يلحقوكم فيثأروا منكم ، وغضبوا لقومهم غضباً شديداً ، ولمن أصبتم من أشرافهم .

(١) يجمزان : يسرعان .

(٢) قبال النعل : الزمام الذي يكون بين الإصبع الوسطى والتي تليها .

(٣) المغازي للواقدي / ٣٣٦ - ٣٣٨ .

(٤) أعلى كعبك : أعلى شرفك .

قالوا : ويلك ! ما تقول ؟ قال : والله ما نرى أن ترحل حتى ترى نواصي الخيل ! ثم قال معبد : لقد حملني ما رأيت منهم أن قلت أحياناً :

كادت تهد من الأصوات راحلتي إذ سالت الأرض بالجرى (١) الأبايل (٢)
تعدو بأسد كرام لا تنابلة (٣) عند اللقاء ولا ميل (٤) معازيل
فقلت ويل ابن حرب من لقائكم إذا تغطمطت (٥) البطحاء بالجيل

وكان مما رد أبا سفيان وأصحابه كلام صفوان بن أمية قبل أن يطلع معبد وهو يقول : يا قوم لا تفعلوا ! فإن القوم قد حزنوا ، وأخشى أن يجمعوا عليكم من تخلف من الخرج ، فارجعوا والدولة لكم . وإنني لا آمن إن رجعت أن تكون الدولة عليكم ، قال رسول الله ﷺ : أرشدكم صفوان وما كان برشيد ، والذي نفسي بيده لقد سومت لهم الحجارة ، ولو رجعوا لكانوا كأمس الذاهب ، وانصرف القوم سراعاً خائفين من الطلب لهم .

ومر بأبي سفيان نفر من عبد القيس يريدون المدينة فقال : هل مبلغو محمداً وأصحابه ما أرسلكم به على أن أوفر لكم أبا عركم زيبياً غداً بعكاظ إن أنتم جئتموني ؟ قالوا : نعم قال : حيثما لقيتم محمداً وأصحابه فأخبروهم أنا قد أجمعنا الرجعة إليهم ، وأنا أثاركم ، فانطلق أبو سفيان ، وقدم الركب على النبي ﷺ وأصحابه بالحمراء فأخبروهم الذي أمرهم به أبو سفيان فقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل ! وفي ذلك أنزل الله عز وجل : ﴿ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ ﴾ الآية وقوله : ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ ﴾ الآية . وكان معبد قد أرسل رجلاً من خزاعة إلى رسول الله ﷺ يعلمه أن قد انصرف أبو سفيان وأصحابه خائفين وجلين ، ثم انصرف رسول الله ﷺ إلى المدينة (٦) .

وهناك روايات متفرقة تؤكد ما ذكره الواقدي في مغازيه .

(.روى النسائي وابن أبي حاتم والطبراني بسند صحيح من طريق عكرمة عن ابن عباس قال : لما رجع المشركون عن أحد قالوا : لا محمداً قتلتم ، ولا الكواعب أردفتم ، بثما صنعتهم ارجعوا ، فسمع رسول الله ﷺ بذلك ، فندب المسلمين فانتدبوا حتى بلغ

(١) الجرد : الخيل العتاق . (٢) الأبايل : الجماعات . (٣) التنابلة : القصار .

(٤) الميل : جمع أميل وهو الذي لا رمح له وقيل هو الذي لا يثبت على السرج .

(٥) تغطمطت : اهترت وارتجت . (٦) المغازي للواقدي / ٣٣٨ - ٣٤٠ .

حمراء الأسد أو بشر أبي عتبة شك سفيان . فقال المشركون . فرجع قابل . فرجع رسول الله ﷺ ، فكانت تعد غزوة فأنزل الله : ﴿ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ .. ﴾ (١) .

(وأخرج البخارى والنسائى وابن أبى حاتم والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس قال : « حسبنا الله ونعم الوكيل » قالها إبراهيم حين ألقى فى النار ، وقالها محمد حين قالوا ﴿ .. إِنْ النَّاسُ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنَعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ (١) .

(وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى شيبة ، وأحمد والبخارى ومسلم وابن ماجه وابن جرير ، وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى فى الدلائل عن عائشة فى قوله : ﴿ .. الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ .. ﴾ الآية قالت لعروة : يا بن أختى كان أبوك منهم الزبير وأبو بكر ، لما أصاب نبي الله ﷺ ما أصاب يوم أحد - انصرف عنه المشركون . خاف أن يرجعوا ، فقال : من يرجع فى أثرهم ؟ فانتدب منهم سبعون رجلاً فيهم أبو بكر والزبير فخرجوا فى آثار القوم فسمعوا بهم ، فانصرفوا بنعمة من الله وفضل . قال : لم يلقوا غداً (٣) .

غير أن هناك رأياً آخر هو أن هذه الآيات نزلت فى غزوة بدر الموعد ، أى بعد عام من أحد ، كما تواعد أبو سفيان ورسول الله ﷺ .

يقول القرطبي :

(هذا تفسير الجمهور لهذه الآية ، وشذ مجاهد وعكرمة رحمهما الله تعالى فقالا : إن هذه الآية من قوله « الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ — إِلَى قَوْلِهِ — عَظِيمٌ . إنما نزلت فى خروج النبي ﷺ إلى بدر الصغرى وذلك أنه خرج لميعاد أبي سفيان فى أحد إذ قال : موعداً بدر من العام المقبل ، فقال له النبي ﷺ : « قولوا : نعم » فخرج النبي ﷺ قبل بدر ، وكان بها سوق عظيم فأعطى رسول الله ﷺ أصحابه دراهم ، وقرب من بدر ، فجاء نعيم بن مسعود الأشجعي فأخبره أن قريشاً قد اجتمعت ، وأقبلت لحربه هي ومن انضاف إليها ، فأشفق المسلمون من ذلك لكنهم قالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل ، فصمموا حتى أتوا بدرًا فلم يجدوا أحداً ، ووجدوا السوق فاشتروا بدراهمهم أدمًا وتجارة ، وانقلبوا ولم يلقوا كيداً وربحوا فى تجارتهم ، فذلك قوله تعالى : ﴿ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلٍ ﴾ أى

(٢) المصدر نفسه / ٢ / ٣٩٠ .

(١) الدر المنثور / ٢ / ٣٨٥ .

(٣) المصدر نفسه / ٢ / ٣٨٧ .

وفضل في تلك التجارات ، والله أعلم (١) .

قوله تعالى ﴿الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل﴾ (٢) .

(اختلف في قوله تعالى : ﴿الذين قال لهم الناس﴾ .

فقال مجاهد وعكرمة ومقاتل والكلبي : هو نعيم بن مسعود الأشجعي ، واللفظ عام ومعناه خاص كقوله ﴿أم يحسدون الناس﴾ يعني محمداً ﷺ .

السدي : هو أعرابي جعل له جعل على ذلك .

وقال ابن إسحاق وجماعة : يريد بالناس ركب عبد القيس ، مروا بأبي سفيان فسد بهم إلى المسلمين ليثبطوهم .

وقيل : الناس هنا المنافقون ، قال السدي : لما تجهز النبي ﷺ للسير إلى بدر الصغرى لميعاد أبي سفيان أتاهم المنافقون وقالوا : نحن أصحابكم الذين نهيناكم عن الخروج إليهم وعصيتونا ، وقد قاتلوكم في دياركم وظفروا ، فإن أتيتموهم في ديارهم فلا يرجع منكم أحد فقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل .

وقال أبو معشر : دخل ناس من هذيل من أهل تهامة المدينة ، فسألهم أصحاب رسول الله ﷺ عن أبي سفيان ، فقالوا : قد جمعوا لكم جموعاً كثيرة فاخشوهم : أي خافوهم واحذروهم ، فإن لا طاقة لكم بهم .

فالناس على هذه الأقوال على بابه من الجمع والله أعلم (٣) .

﴿فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين﴾ .

يقول ، فلا تخافوا أيها المؤمنون المشركين ، ولا يعظمن عليكم أمرهم . ولا ترهبوا جمعهم مع طاعتكم إياي ما أطعتموني وأتبعتم أمري فأنا متكفل لكم بالظفر والنصر . واتقوا الله أن تعصوني وتخالفوا أمرى فتهلكوا إن كنتم مصدقي رسولي ، وما جاءكم به من عندي) .

(وأخرج الفريابي وابن حميد من طريق العوفي عن ابن عباس في قوله : ﴿لم

(٢) آل عمران / ١٧٣ .

(١) تفسير القرطبي / ٤ / ٢٧٩ ، ٢٨٠ .

(٣) تفسير القرطبي / ٤ / ٢٧٩ ، ٢٨٠ .

يَمْسَهُمْ سُوءٌ ﴿١﴾ قَالَ : لَمْ يُوْذِهِم أَحَدٌ ﴿٢﴾ وَاتَّبِعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ ﴿٣﴾ قَالَ : أَطَاعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ (١) .

(وَأَخْرَجَ ابْنَ جُرَيْرٍ مِنْ طَرِيقِ الْعُوفِيِّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿٤﴾ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ ﴿٥﴾ قَالَ : يَخَوْفُ الْمُؤْمِنِينَ بِأَوْلِيَائِهِ (٢) .

(وَأَخْرَجَ عَبْدُ بْنُ حَمِيدٍ وَابْنُ جُرَيْرٍ وَابْنُ الْمُنْذِرُ عَنْ مُجَاهِدٍ ﴿٦﴾ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ ﴿٧﴾ : يَخَوْفُ الْمُؤْمِنِينَ بِالْكَفَّارِ (٣) .

وَأَخْرَجَ عَبْدُ بْنُ حَمِيدٍ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ ثُمَّ عَنْ أَبِي مَالِكٍ (يَخَوْفُ أَوْلِيَاءَهُ) قَالَ : (يَعْظُمُ أَوْلِيَاءَهُ فِي أَعْيُنِكُمْ) (٤) .

خَتَامُ الْمَعْرَكَةِ :

﴿ وَلَا يَحْزَنْكَ الَّذِينَ يَسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِزْباً فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ . إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . وَلَا يَحْسِنُ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نَحْمِلُ لَهُمْ خَيْرَ لَأَنْفُسِهِمْ ، إِنَّمَا نَحْمِلُ لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا . وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ . مَا كَانَ اللَّهُ لِيُذِرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ . وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِيْ مِنْ رِّسْلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَأَمَّنُوا بِاللَّهِ وَرِسْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَتَقْوُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ (٥) .

لَقَدْ كَانَ الْحَدِيثُ عَنِ الْمُنَافِقِينَ صَارَ مَا حَازَ مَا فَسَّاهُمْ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مَرَّةً

(الَّذِينَ كَفَرُوا) بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غَزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا .. ﴾ .
وَسَمَاهُمْ مَرَّةً : أَقْرَبَ إِلَى الْكُفْرِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى :

﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ ﴾ .

وَسَمَاهُمْ ثَلَاثَةً : (يَسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ) فِي قَوْلِهِ تَعَالَى :

(٣) الدر المنثور ٢/ ٤/ ٣٩١ .

(٢) تفسير الطبري ٤/ ١٤٢ .

(١) الدر المنثور ٢/ ٣٩١ .

(٥) آل عمران ١٧٦ - ١٧٩ .

(٤) المصدر نفسه ٢/ ٣٩١ .

﴿ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر ...﴾

وسماهم رابعة : (اشترؤا الكفر بالإيمان) بقوله :

﴿إن الذين اشترؤا الكفر بالإيمان لن يضرؤا الله شيئاً ولهم عذاب أليم﴾^(١) .

وإذا تصورنا معسكر الإيمان على رأسه رسول الله ﷺ ، ومعسكر اليهود على شتى منازلهم ، فقد كان المنافقون ابتداءً محسوبين على المعسكر الإسلامي ، وإمرة الرسول ﷺ ، لكنهم يوم انسلخوا عن الجيش ، وغادروا رسول الله وحده مع صحبه المؤمنين يقاتلون في ساحة الجهاد — فقد شكلوا تجمعاً جديداً ، لكن هذا التجمع غير قادر علي الثبات والاستمرار ، فهو في باطنه مع الكافرين ، وفي ظاهره مع المسلمين ، ولذلك جاء القرآن الكريم ليحدد هويتهم في هذه الآيات الكريمة ، ويؤكد أنهم يسارعون في الكفر ، ويشترؤن الكفر بالإيمان ، وأنهم كفار كذلك .

يقول الإمام الطبري رحمه الله :

القول في تأويل قوله تعالى : ﴿ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر ...﴾ يقول جل ثناؤه : ولا يحزنك يا محمد كُفر الذين يسارعون في الكفر مرتدين على أعقابهم من أهل النفاق ، فإنهم لن يضرؤا الله شيئاً بمسارعتهم في الكفر ، كما أن مسارعتهم لو سارعوا إلى الإيمان لم تكن بنافعته كما أن مسارعتهم إلى الكفر غير ضارته^(٢) .

وقد روى هذا التأويل عن مجاهد وابن إسحاق .

(لكن سبب النزول الخاص هذا لا يحصر القضية بالمنافقين فعموم النص يدخل به كل مسارع إلى الكفر سواء أكان منافقاً أو كافراً ، ولذلك روى عن الضحاك أنهم كفار قریش ، وعن الكلبي أنهم رؤساء اليهود وبقية أهل الكتاب ، قال القشيري : الحزن على كفر الكافر طاعة ، ولكن النبي ﷺ كان يفرط في الحزن على كفر قومه فنهى عن ذلك)^(٣) .

والقرآن يهدم نفوس المنافقين الذين يحسبون أنهم قادرون على الكيد للإسلام وأهله ، في الوقت الذي يزرع الثقة العظيمة في صفوف المؤمنين فكيد المنافقين ومظاهرتهم للكافرين لن يثمر إلا الخزي في الدنيا ، والعذاب في الآخرة ، كما يؤكد

(٢) تفسير القرطبي ٢/ ٤/ ٢٨٥ .

(١) آل عمران / ١٧٧ . (١) تفسير الطبري ٤/ ١٢٣ .

للمنافقين أن تظاهرهم الإسلامى ، وتواطؤهم مع الكفار فى الخفاء - لا يمكن أن ينجيهم من عذاب الله تعالى :

واستمرارهم فى هذه المسارعة ستكون عاقبته ألا يكون يكون لهم حظ فى الآخرة ، ولن يفيدهم أن يحملوا هوية المسلمين فى الظاهر ، بل يعاملون معاملة الكافرين ، ولهم عذاب عظيم .

وعظمة البناء القرآنى تتجلى فى تنبيه المنافق أن يعيد حساباته من جديد ، وأن يراجع مواقفه من جديد ، ليتدارك أمره ، ويثوب إلى رشده ، إن كان به بقية من خير .

ومن جهة ثانية ، وحتى لا يفت فى عضد المؤمنين ، تأتى هذه الآية لتؤكد لهم أنهم لن يضرروا الله شيئاً ، أى لن يضرروا المؤمنين جند الله كذلك بعد افتضاح أمرهم .

وتأتى الآية التالية لتتحدث عن الذين تابَعوا مسيرتهم نحو الكفر ، وسمعوا هذه القوارع وأصروا على نفاقهم ، فهم قد وصلوا إلى الكفر ، واشتروا الكفر بالإيمان ، فلن يضرروا الله شيئاً ولهم عذاب أليم ، كما يذكر ابن جرير رحمه الله .

(القول فى تأويل قوله ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾)
يعنى بذلك جل ثناؤه المنافقين الذين تقدم إلى نبيه ﷺ فيهم ألا يحزن مسارعتهم إلى الكفر ، فقال لنبيه ﷺ : إن هؤلاء الذين ابتاعوا الكفر بإيمانهم ، فارتدوا عن إيمانهم بعد دخولهم فيه ، ورضوا بالكفر بالله وبرسوله عوضاً عن الإيمان - لن يضرروا الله شيئاً ، بل إنما يضررون أنفسهم وإنما حث الله جل ثناؤه بهذه الآيات من قوله : ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانِ فَيَاذَنَ اللَّهُ ﴾ إلى هذه الآية عباده المؤمنين على إخلاص اليقين ، والانقطاع إليه فى أمورهم ، والرضا به ناصراً وحده دون غيره من سائر خلقه ، ورغب بها فى جهاد أعدائه وأعداء دينه ، وشجع بها قلوبهم ، وأعلمهم أن من وليه بنصره فلن يخذل ولو اجتمع عليه جميع من خالفه وحاده ، وأن من خذله فلن ينصره ناصر ينفعه نصره ، ولو كثرت أعوانه ونصراؤه ، كما حدثنا ابن حميد قال : حدثنا سلمة عن ابن إسحاق أن الذين اشتروا الكفر بالإيمان أى المنافقين لن يضرروا الله شيئاً (١) .

﴿ وَلَا يَحْسِنُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾
إثماً ولهم عذاب مهين (٢) .

(٢) آل عمران / ١٧٨ .

(١) تفسير الطبرى / ٤ / ١٢٣ .

والآية فى حقيقة الأمر جواب عن سؤال يصطرع فى نفوس المؤمنين :

لم أصابتهن مصيبة أحد ؟ لم مكن الكفار من المؤمنين ؟ لم بقى المنافقون دون عقوبة ؟
إضافة إلى تساؤلات خافتة فى نفوس الكفار والمنافقين .

أليس نصر الكفار فى أحد دليل صحة اتجاهاهم ؟ . أليست نجات المنافقين من الموت أو القتل دليل بعد نظرهم فى عدم المشاركة فى معركة أحد ؟ ، وهذا قول ابن أبى :
(أطاعهم وعصانى . ما أدرى علام نقتل أنفسنا أيها الناس) .

أليس وعيهم ونجاتهم من الموت أو القتل دليلاً على سلامة خطهم وصحة اتجاهاهم ؟؟
تأتى الآية الكريمة لتجيب على هذه التساؤلات جميعاً وتبين أن إملاء الله تعالى لهم ليس خيراً ، بل هو شر مستطير يتبعه العذاب المهيّن ، فهم يعبون من الإثم عباً ، وتراكم عليهم الانحرافات حتى ينالهم العقاب العادل لما اقترفوا من إثم .

أخرج عبد الرزاق وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وأبو بكر المروزي وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبراني والحاكم وصححه عن ابن مسعود قال :

(ما من نفس برة ولا فاجرة إلا والموت خير لها من الحياة ، إن كان برّاً فقد قال الله : ﴿ وما عند الله خير للأبرار ﴾ وإن كان فاجراً فقد قال الله : ﴿ ولا يحسن الذين كفروا أنما نملى لهم خير لأنفسهم إنما نملى لهم ليزدادوا إثماً . ولهم عذاب مهين ﴾ . ^(١)
وقد روى مثل هذا الأثر عن محمد بن كعب وأبى برزة .

وعلى صحة هذا الأثر - فلعل فسحة الأجل ، تزيد المؤمن طاعة وتزيده ثواباً ، وتهبى التوبة للفاسق أو المنافق ليعود إلى حظيرة الإيمان ، كما قال عليه الصلاة والسلام :
« خير الناس من طال عمره ، وحسن عمله ، وشر الناس من طال عمره ، وساء عمله » ^(٢)
ويؤكد هذا المعنى ما أدبنا به رسول الله ﷺ فى الدعاء : « لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به فإن كان لا بد متمنياً فليقل : اللهم أحيى مادامت الحياة خيراً لى ، وتوفنى إذا كانت الوفاة خيراً لى » ^(٣) .

(١) الدر المنثور / ٤ / ٢ / ٣٩٢ .

(٢) رواه الإمام أحمد والترمذى والحاكم . انظر صحيح الجامع الصغير للألبانى

(٣) أحمد والبخارى / ١٠ / ١٠٧ ، ١٠٨ باب تمنى المريض الموت . ومسلم ٢٦٨٠ فى الذكر .

﴿ ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب ، وما كان الله ليطلعكم على الغيب ، ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء فآمنوا بالله ورسله وإن تؤمنوا وتتقوا فلکم أجر عظیم ﴾ (١) .

(القول فى تأويل قوله ﴿ ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب ﴾ يعنى بقوله ما كان الله ليذع المؤمنين على ما أنتم عليه من التباس المؤمن منكم بالمنافق . فلا يعرف هذا من هذا حتى يميز الخبيث من الطيب . يعنى بذلك حتى يميز الخبيث وهو المنافق المستسر للكفر من الطيب وهو المؤمن المخلص الصادق الإيمان بالحق والاختبار كما ميز بينهم يوم أحد عند لقاء العدو وعند خروجهم إليهم . واختلف أهل التأويل فى الخبيث الذى عنى الله بهذه الآية فقال بعضهم فيه مثل قولنا ...

قال مجاهد : يوم أحد ميز بعضهم عن بعض المنافق عن المؤمن .

وعن ابن إسحاق : ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب أى المنافق وقال آخرون حتى يميز المؤمن من الكافر بالهجرة والجهاد . (٢)

ويقول ابن جرير رحمه الله :

(وأولى الأقوال فى ذلك ﴿ وما كان الله ليطلعكم على الغيب ﴾ ما كان الله ليطلعكم على ضمائر قلوب عباده فتعرفوا المؤمن منهم من المنافق والكافر ، ولكنه يميز بينهم بالحق والابتلاء ، كما ميز بينهم بالبأساء يوم أحد وجهاد عدوه ، وما أشبه ذلك من صنوف المحن حتى تعرفوا مؤمنهم وكافرهم ومنافقهم . غير أنه تعالى ذكره يجتبي من رسله من يشاء فيصطفيه فيطلعه على بعض ما فى ضمائر بعضهم بوحىه ذلك إليه ورسالته . (٣)

(ويقول رحمه الله فى ختام نويل الآية : ﴿ فآمنوا بالله ورسله وإن تؤمنوا وتتقوا فلکم أجر عظیم ﴾ يعنى بذلك جل ثناؤه بقوله : وإن تؤمنوا وتصدقوا من اجبتيته من رسلى بعلمى وأطلعته على المنافقين منكم ، وتتقوا ربكم بطاعته فيما أمركم به نبيكم محمد ﷺ ، وفيما نهاكم عنه فلکم أجر عظیم . (٤)

لقد افتتحت آيات أحد بقوله تعالى :

(١) آل عمران / ١٧٩ . (٢، ٣، ٤) تفسير الطبرى / ٤ / ١٢٥ .

﴿ وإذ غدوت من أهلك تبوء المؤمنون مقاعد للقتال والله سميع عليم . إذ همّت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ (١).

وانتهت الآيات بقوله تعالى :

﴿ ما كان الله لينذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب ، وما كان الله ليطالعكم على الغيب . ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء فآمنوا بالله ورسله وإن تؤمنوا وتتقوا فلکم أجر عظيم ﴾ (٢).

(لقد كان الجيش الإسلامى واحداً يوم غدا به رسول الله ﷺ يتبوأ به مقاعد للقتال ، وانسلخ ثلثه ، عندما ألهمت طائفتان أن تلتحقا بهذا الثلث ، فعصمهما الله من ذلك ، واختتمت الآيات بحكمة هذا الابتلاء ، سواء فى تخلف المنافقين حيث تم التمييز الأول ، وبالذين قالوا : لو كان لنا من الأمر شئ ما قتلنا هاهنا ، حيث تم من خلال المعركة التمييز الثانى ، وتبلور لدى المسلمين حكمة هذه المحنة فى هذا التمييز ، وتحليل المواقف وتحديد العدو والصديق ، وإيضاح الخطأ والخلل ، حتى تتم التربية لهذا الجيش المسلم . ويعرف الخبيث من الطيب .

وفى مقارنة ثانية مع أهل بدر فى الأنفال نجد قول الله عز وجل :

﴿ إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ، ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون . والذين كفروا إلى جهنم يحشرون . ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض ، فيركمه جميعاً فيجعله فى جهنم أولئك هم الخاسرون . ﴾ (٣).

حتى يميز الخبيث من الطيب ، ﴿ ليميز الخبيث من الطيب ﴾ .

أما تمييز الخبيث من الطيب فى بدر فهذا يعنى أنه تمييز الكافرين من المؤمنين ، فقد كان المعسكران فى الأرض العربية يتنازعان ، وكل معسكر يقدم نفسه أنه يمثل هدى الله ، ولدى قريش من الادعاء فى هذا المجال ما تدعم هذا الادعاء ، من سقاية البيت ، وعمارة المسجد الحرام .

﴿ أجعلتم سقاية الحاج ، وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر

(١) آل عمران / ١٢١ . (٢) آل عمران / ١٧٩ . (٣) الأنفال / ٣٦ ، ٣٧ .

وجاهد في سبيل الله لا يسترون عند الله . والله لا يهدي القوم الظالمين ﴿١﴾ .

فكانت بدر فرقاناً بين الحق والباطل ، فرقاناً بين المؤمنين والكافرين ، وتمييزاً بين الخبيث والطيب ، وعرفت العرب أن محمداً على حق ، فاتجهت إليه .

أما أحد ، فكانت فرقاناً بين المؤمنين والمنافقين ، وتمحيصاً للصف المؤمن نفسه ، ﴿ ما كان الله ليدرك المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب ﴾ (٢) .

وكان أهل بدر كعدة أصحاب طالوت ، وكفضل أصحاب طالوت . الذين جاوزوا النهر ، فما جاوزه مع طالوت إلا مؤمن ، وكانوا أفضل المؤمنين .

لكن أهل أحد ، ومحنة أحد هي التي أخرجت الخبيث من الصف المؤمن الطيب ، وتلك سنة الله في الدعوات ، مع أعدائها ، وفي صفها الداخلي .

وندع صاحب الظلال رحمه الله يحدثنا عن هذا التمييز .

(ويقطع النص القرآني بأنه ليس من شأن الله سبحانه ، وليس من مقتضى ألوهيته ، وليس من فعل سنته أن يدع الصف المسلم مختلطاً غير مميز ، يتوارى المنافقون فيه وراء دعوى الإيمان ومظهر الإسلام ، بينما قلوبهم خاوية من بشاشة الإيمان ، ومن روح الإسلام ، فقد أخرج الله الأمة المسلمة لتؤدي دوراً كونياً كبيراً ، ولتحمل منهجاً إلهياً عظيماً ، ولتنشئ في الأرض واقعاً فريداً ، ونظاماً جديداً وهذا الدور الكبير يقتضى التجرد والصفاء والتميز والتماسك ، ويقتضى ألا يكون في الصف خلل ، ولا في بناءه دخل .. وبتعبير مختصر : يقتضى أن تكون طبيعة هذه الأمة من العظمة بحيث تسامى عظمة الدور الذي قدره الله لها في هذه الأرض ، وتسامى المكانة التي أعدها الله في الآخرة .

وكل هذا يقتضى أن يصهر الصف ليخرج منه الخبيث ، وأن يضغط لتتهاوى اللبنيات الضعيفة ، وأن تسلط عليه الأضواء لتتكشف الدخائل والضمائر .. ومن ثم كان شأن الله - سبحانه - أن يميز الخبيث من الطيب ، ولم يكن شأنه أن يذر المؤمنين على ما كانوا عليه قبل هذه الدرجة العظيمة ، .. ولم يكن من شأنه سبحانه ، ولا مقتضى حكمته ، ولا من مجرى سنته أن يطلع الناس على الغيب .

إذن : كيف يميز الله الخبيث من الطيب ؟ وكيف يحقق شأنه وسنته في تطهير الصف

(١) التوبة / ١٩ . (٢) آل عمران / ١٧٩ .

المسلم . وتجريده من الغبش ، وتمحيصه من النفاق ، وإعداده للدور الكونى العظيم . الذى أخرج الأمة المسلمة لتنهض به ؟ ﴿ ولكن الله يجتبي من رزله من يشاء ﴾ (١) .

وعن طريق الرسالة ، وعن طريق الإيمان بها أو الكفر ، وعن طريق جهاد الرسل فى تحقيق مقتضى الرسالة ، وعن طريق الابتلاء لأصحابهم فى طريق الجهاد ، عن طريق هذا كله يتم شأن الله ، وتحقق سنته ، ويميز الله الخبيث من الطيب ، ويمحص القلوب ، ويظهر النفوس ، ويكون من قدر الله ما يكون .

وهكذا يرفع الستار عن جانب من حكمة الله ، وهى تتحقق فى الحياة ، وهكذا تستقر هذه الحقيقة على أرض صلبة مكشوفة منيرة .

وأمام مشهد الحقيقة متجلية بسيطة مريحة ، يتجه إلى الذين آمنوا ليحققوا فى ذواتهم مدلول الإيمان ومقتضاه ، ويلوح لهم بفضل الله العظيم ، الذى ينتظر المؤمنين .

﴿ فَأَمِنُوا بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُؤْمِنُوا فَتَقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ (٢) .

فيكون هذا التوجيه ، وهذا الترغيب ، بعد ذلك البيان ، وذلك الاطمئنان . خير خاتمة لاستعراض الأحداث فى أحد والتعقيب على هذه الأحداث (٣) .

ولا نستطيع أن نغادر غزوة أحد كما وردت فى القرآن ، دون أن نستمع لتعقيبات صاحب الظلال عن الطريقة القرآنية فى التربية ، حيث نختار ثلاث تعقيبات من ستة ، توضح هذه الطريقة :

(١) - وتمخضت المعركة والتعقيب عليها عن حقيقة أساسية كبيرة عن طبيعة النفس البشرية ، وطبيعة الفطرة الإنسانية ، وطبيعة الجهد البشرى ، ومدى ما يمكن أن يبلغه فى تحقيق المنهج الإلهى ، إن النفس البشرية ليست كاملة - فى واقعها - ولكنها فى الوقت ذاته قابلة للنمو والارتقاء حتى تبلغ أقصى الكمال المقدر لها فى هذه الأرض .

وها نحن أولاء نرى قطاعاً من قطاعات البشرية - كما هو على الطبيعة - ممثلاً فى الجماعة التى تمثل قمة الأمة التى يقول الله عنها : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس .. ﴾ (٤) وهم أصحاب محمد - ﷺ - المثل الكامل للنفس البشرية على الإطلاق .. فماذا نرى ؟ . نرى مجموعة من البشر فيهم الضعف ، وفيهم النقص ، وفيهم

(٢) آل عمران / ١٧٩ .

(١) آل عمران / ١٧٩ .

(٤) آل عمران / ١١٠ .

(٣) فى ظلال الآء / م / ١ / ٥٢٦ .

من يبلغ أن يقول الله عنهم : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ ﴾ ^(١) ومنهم من يبلغ أن يقول الله عنهم : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُشِيتُمْ وَمَتَجَاكِبْتُمْ فِي الْأَمْرِ . وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تَحْبُونَ . مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا ، وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ . ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ .. ﴾ ^(٢) وفيهم من يقول الله عنهم : ﴿ إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشِلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا ، وَعَلَى اللَّهِ فليتوكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ ^(٣) .. وفيهم من يهزم وينكشف ، وتبلغ منهم الهزيمة ما وصفه الله سبحانه بقوله : ﴿ إِذْ تَصْعَدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ . وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَاكُمْ . فَأُثَابِكُمْ غَمًّا بَغْمٍ لَكُمْ لَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ ﴾ ^(٤) .

وكل هؤلاء مؤمنون مسلمون ، ولكنهم كانوا في أوائل الطريق ، كانوا في دور التربية والتكوين ولكنهم كانوا جادين في أخذ هذا الأمر ، مسلمين أمرهم لله ، مرتضين قيادته ، ومستسلمين لمنهجه ، ومن ثم لم يطردهم الله من كنفه ، بل رحمهم وعفا عنهم ؛ وأمر نبيه - ﷺ - أن يعفوا عنهم ويستغفر لهم ، وأمره أن يشاورهم في الأمر - بعد كل ماوقع منهم ، وبعد كل ماوقع من جراء المشورة .

نعم إنه سبحانه تركهم يذوقون عاقبة تصرفاتهم تلك ، وابتلاهم ذلك الابتلاء الشاق المرير ، .. ولكنه لم يطردهم خارج الصف ، ولم يقل لهم إنكم لا تصلحون لشيء من هذا الأمر ، بعد ما بدا منكم في التجربة من النقص والضعف . ، لقد قبل ضعفهم هذا ونقصهم ، ورباهم بالابتلاء ، ثم رباهم بالتعقيب على الابتلاء ، والتوجيه إلى مافيه من عبر وعظات . في رحمة وفي عفو وفي سماحة ، كما يربت الكبير على الصغار ، وهم يكتون في النار ، ليعرفوا ويدركوا وينضجوا ، وكشف لهم ضعفهم ، ومخبات نفوسهم ، لا ليفضحهم بها ، ويرذلهم ، ويحقرهم ، ولا ليرهقهم ويحملهم مالا يطيقون له حملا ، ولكن ليأخذ بأيديهم ، ويوحى إليهم أن يثقوا بأنفسهم ، ولا يحتقروها ، ولا يئأسوا من الوصول ما داموا موصولين بحبل الله المتين .

ثم وصلوا ، وصلوا في النهاية ، وغلبت فيهم النماذج التي كانت في أول المعركة معدودة ، وإذا هم في اليوم الثاني للهزيمة والقرح يخرجون مع رسول الله ﷺ غير هيايين ولا مترددين ولا وجلين من تخويف الناس لهم حتى استحقوا تنوية الله بهم . ﴿ الَّذِينَ قَالَ

(١) آل عمران / ١٥٥ . (٢) آل عمران / ١٥٢ .

(٣) آل عمران / ١٢٢ . (٤) آل عمران / ١٥٣ .

لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ﴿١﴾ .

(....) إنها الطبيعة التى يحافظ عليها هذا المنهج . ولا يبدلها أو يبطئها ، ولا يحملها مالا تطبيق وإن بلغ بها أقصى الكمال المقدر لها فى هذه الأرض .

وهذه الحقيقة ذات قيمة كبيرة فى إعطاء الأمل الدائم للبشرية لتحاول وتبلغ فى ظل هذا المنهج الفريد . فهذه القمة السامقة التى بلغت تلك الجماعة ، وإنما بدأت تهتد إليها من السفح الذى التقطها منه . وهذه الخطى المتعثرة فى الطريق الشاق - زاولتها جماعة بشرية متخلفة فى الجاهلية ، متخلفة فى كل شئ على النحو الذى عرضنا نماذج منه فى سياق هذا الدرس ... وكل ذلك يعطى البشرية أملاً كبيراً فى إمكان الوصول إلى ذلك المرتقى السامى ، مهما تكن قابضة فى السفح ، ولا يعزل هذه الجماعة الصاعدة فيجعلها وليدة معجزة خارقة لا تتكرر - فهى ليست وليدة خارقة عابرة ، إنما هى وليدة المنهج الإلهى الذى يتحقق بالجهد البشرى فى حدود الطاقة البشرية كما نرى قابلة للكثير .

هذا المنهج يبدأ بكل جماعة من النقطة التى هى فيها ، ومن الواقع المادى الذى هى فيه ، ثم يمضى بها صعباً كما بدأ بتلك الجماعة من الجاهلية العربية الساذجة - من السفح - ثم انتهى بها فى فترة وجيزة لم تبلغ ربع قرن من الزمان إلى ذلك الأوج السامق .

شرط واحد لا بد أن يتحقق .. أن تسلم الجماعات البشرية قيادها لهذا المنهج ، أن تؤمن به وأن تستسلم له ، وأن تتخذة قاعدة لحياتها ، وشعار حركتها ، وحادى خطاها فى الطريق الشاق الطويل .

٢ - وحقيقة رابعة .. عن طبيعة منهج التربية الإسلامى ، فهو يأخذ الجماعة المسلمة بالأحداث وماتنشئه فى النفوس من مشاعر وانفعالات واستجابات ، ثم يأخذهم بالتعقيب على الأحداث على النحو الذى يمثله التعقيب القرآنى على غزوة أحد ، وهو فى التعقيب يتلمس كل جانب من جوانب النفس البشرية تأثر بالحادثة ، ليصحح تأثره ، ويرسب فيه الحقيقة التى يريد لها أن تستقر وتستريح ، وهو لا يدع جانباً من الجوانب ، ولا خاطرة من الخواطر ، ولا تصوراً من التصورات ، ولا استجابة من الاستجابات ، حتى يوجه إليها

الأنظار ، ويسلط عليها الأنوار ، ويكشف عن المخبوء منها فى دروب النفس البشرية ومنحنياتها الكثيرة ، وتقف النفس تجاهاها مكشوفة عارية ، وبذلك يمحس الدخائل ، وينظفها ويظهرها فى وضوح النور ، ويصحح المشاعر والتصورات والقيم ، ويقر المبادئ التى يريد أن يقوم عليها التصور الإسلامى المتين . وأن تقوم عليها الحياة الإسلامية المستقرة .. مما يلهم وجوب اتخاذ الأحداث التى تقع للجماعة المسلمة فى كل مكان وسيلة للتنوير والتربية على أوسع نطاق .

وننظر فى التعقيب على غزوة أحد - فنجد الدقة والعمق والشمول ، الدقة فى تناول كل موقف وكل حركة ، وكل خالصة ، والعمق فى التدسس إلى أغوار النفس ، ومشاعر الدفينة ، والشمول لجوانب النفس وجوانب الحادث ، ونجد التحليل الدقيق العميق الشامل للأسباب والنتائج ، والعوامل المتعددة الفاعلة فى الموقف ، المسيرة للحادث ، كما نجد الحيوية فى التصوير والإيقاع والإيحاء ، بحيث تتماوج المشاعر مع التعبير والتصوير تماوجاً عميقاً عنيفاً ، ولا تملك أن تقف جامدة أمام الوصف والتعقيب ، فهو وصف حى ، يستحضر المشاهد - كما لو كانت تتحرك - ويشيع حولها النشاط المؤثر ، والإشعاع النافذ ، والإيحاء المثير .

٣ - وهناك حقيقة أخيرة نتعلمها من التعقيب القرآنى على مواقف الجماعة المسلمة التى صاحبت رسول الله ﷺ ، والتى تمثل أكرم رجال هذه الأمة على الله .. وهى حقيقة نافعة لنا فى طريقنا إلى استئناف حياة إسلامية بعون الله .

إن منهج الله ثابت وقيمه وموازينه ثابتة ، والبشر يبعدون أو يقربون من هذا المنهج ، ويخطئون ويصيبون فى قواعد التصور وقواعد السلوك ، ولكن ليس شئ من أخطائهم محسوباً على المنهج ولا مغيراً لقيمه وموازينه الثابتة :

وحين يخطئ البشر فى التصور أو السلوك - فإنه يصفهم بالخطأ وحين ينحرفون عنه فإنه يصفهم بالانحراف ، ولا يتغاضى عن خطئهم وانحرافهم - مهما تكن منازلهم وأقدارهم - ولا ينحرف هو ليجارى انحرافهم ، ونتعلم نحن من هذا أن تبرئة الأشخاص لاتساوى تشويه المنهج ! وأن من الخير للأمة المسلمة أن تبقى مبادئ منهجها سليمة ناصعة قاطعة ، وأن يوصف المخطئون والمنحرفون عنها بالوصف الذى يستحقونه - أيأ كانوا - وألا تبرر أخطائهم وانحرافاتهم أبداً . بتحريف المنهج ، وتبديل قيمه وموازينه ، فهذا التحريف والتبديل أخطر على الإسلام من وصف كبار الشخصيات المسلمة بالخطأ أو

الانحراف ، فالمنهج أكبر وأبقى من الأشخاص ، والواقع التاريخي للإسلام ليس هو كل فعل وكل وضع صنعه المسلمون في تاريخهم ، وإنما هو كل فعل وكل وضع صنعه موافقاً تمام الموافقة للمنهج ومبادئه وقيمه الثابتة ، وإلا فهو خطأ أو انحراف لا يحسب على الإسلام ، وعلى تاريخ الإسلام ، إنما يحسب على أصحابه وحدهم ، ويوصف أصحابه بالوصف الذي يستحقونه من خطأ أو انحراف أو خروج على الإسلام ، إن تاريخ « الإسلام » ليس هو تاريخ « المسلمين » ولو كانوا مسلمين بالإسم أو اللسان ! إن تاريخ « الإسلام » هو تاريخ التطبيق الحقيقي للإسلام في تصورات الناس وسلوكهم ، وفي أوضاع حياتهم ، ونظام مجتمعاتهم ، فالإسلام محور ثابت ، تدور حوله حياة الناس في إطار ثابت ، فإذا هم خرجوا عن هذا الإطار ، أو إذا هم تركوا ذلك المحور بتاتاً - فما للإسلام ومالهم يومئذ ؟ ومالتصرفاتهم وأعمالهم هذه تحسب على الإسلام أو يفسر بها الإسلام ؟ بل مالهم يوصفون بأنهم مسلمون إذا خرجوا على منهج الإسلام وأبوا تطبيقه في حياتهم ؟ وهم إنما كانوا مسلمين لأنهم يطبقون هذا المنهج في حياتهم ، لا لأن أسمائهم أسماء مسلمين ، لا لأنهم يقولون بأفواههم أنهم مسلمون ؟ (١) .

وأود أن أضيف إلى هذه التعقيبات تتمات توضح معالم هذا المنهج الرباني في التربية .

٤ - لقد كان الفصل واضحاً في آيات أحد بين (المؤمنين) و (المنافقين) .

هؤلاء (المنافقون) الذين برزوا أوضح ما يكون قبيل أحد ، ومثلوا تقريباً ثلث الجيش الإسلامي ، كما أن لهم أتباعاً برزوا خلال المعركة كما أشارت الآيات القرآنية .

وكانت معالجة ظاهرة (المنافقين) تختلف تماماً عن معالجة ظاهرة (المؤمنين المخطئين أو المقصرين) .

والحديث عن الخطأ في الصف المسلم كان يوجه إلى المؤمنين جميعاً . بل ويحاسبون عليه جميعاً ، لأنهم تلقوا نتائجه وآثاره كاملة من خلال هذه الخنة ، أما الحديث عن (المنافقين) فبرز في آيات أحد ، وكأنه يتحدث عن مجموعة مستقلة غير المجموعة المؤمنة ، وكأنها غادرت معسكر الإيمان ماضية إلى معسكر الكفر ، ﴿ يسارعون في الكفر ﴾ ﴿ اشترؤا الكفر بالإيمان ﴾ لكن دون أن تغير وجهتها علناً ، فقد حرصت

(١) في ظلال القرآن / مقتطفات من ص ٥٢٦ - ٥٣٣ / ١م / ج ٤ .

على إبقاء اللفة الإسلامية عليها دون أن تعلن ارتدادها عن الإسلام ، ومضت تتوطأ مع أعداء الإسلام وتندس في صفوفهم من حيث (الواقع العملي) لا الكلام النظري .

فقد حاول عبد الله بن أبي أن يتدارك الموقف بعد أحد ، وينضم مع حزبه الذين انسلخوا معه إلى المسلمين في غزوة حمراء الأسد التي تمت بعد أحد مباشرة ، لكن الأوامر النبوية جاءت صارمة لتقول ألا يمضى إلى (حمراء الأسد) إلا من شهد أحدا . والشخص الوحيد الذى أجاز له حضورها هو جابر بن عبد الله رضى الله عنهما بقرار نبوى خاص .

٥ - ومع أن هذه الكتلة الجديدة قد حرص القرآن على توضيح شخصيتها وتحديد هويتها ، من خلال مواقفها وتصرفاتها ، لكن لم يكن الاتجاه القرآنى يمضى فى طريق سلخها والتخلي عنها ، وبهذا لتصبح جزءاً من معسكر الكافرين .

لقد أفردها ابتداء كما ذكر القرآن - ليميز الحبيث من الطيب - لكن بدأ معها جولة جديدة منفصلة ومعالجة خاصة تتناسب مع خلفياتها الإيمانية ، حتى إذا نجحت هذه المعالجة مع أحد أفرادها . فينضم بشخصه وذاته - دون معسكره - للصف الإسلامى فى دخول جديد موثوق . كما كان يقال عنه .

كان منافقاً ثم أسلم وحسن إسلامه .

٦ - وقد أخذت معالجتها وتربيتها وقتاً أطول بكثير مما كان يعالج به الصف المسلم ، ولا نبالغ إذا قلنا أنها استمرت سنين ، واستمرت الآيات القرآنية ، والتوجيهات النبوية معها .

فى محاولة اختلاع أفرادها من أرض الكفر إلى أرض الإيمان ، من خلال أعماق النفس ونوازع الضمير ومجالات الفكر . لامن خلال اللائحة الخارجية . واللافتات التى حافظت عليها وهى الإسلام .

ولعلنا ونحن نتابع النصوص الجهادية التى نزلت بعد أحد ، واستمرت إلى غزوة الخندق وصلاح الحديبية توضح هذه المعانى والطرائف التى مضى بها القرآن فى المعالجة معها ، والموضوع من الدقة والخطورة بحيث لا بد من التعليق عليه ، حتى لا نقع فى متاهات الفصل الحاسم الجازم بين الإيمان والكفر ، ويبقى الناس عندنا (مؤمنين وكافرين) ونسرع الحكم فى عملية التكفير والحكم على الناس فيه لاختلاف الواقع والسلوك بيننا وبينهم .

لابد أن يبقى فى ذهننا ماثلاً معسكراً (المنافقين) المذبذب بين الإيمان والكفر والمحاولات الجادة الدؤوبة ؛ لسلخ تأثيره العملى داخل الصف المسلم من جهته ، وللمحاولة اقتناص أفرادهِ فرداً فرداً من جهة ثانية ، لمحاولة إعادته مؤمناً صادق الإيمان للصف المسلم .

٧ - وحين نقارن بين بدر وأحد ، ونحن نقف أمام سورة الأنفال ، ومقطع آل عمران نرى هذه الظاهرة :

ففى الأنفال : لم كان النصر ؟

وفى آل عمران : لم كانت المحنة والهزيمة ؟

وبمقدار ما أكد القرآن فى سورة الأنفال على أن النصر فى بدر كان هبة ربانية من الله عز وجل للمؤمنين الخالص - على ضعفهم وعجزهم .

بمقدار ما أكد فى آل عمران على أن المحنة فى أحد كانت بما كسبت أيدي هذا الصف ، وبما كان فيه من خلل ، وما ظهر فيه من دخل ، وما بدا فيه من نقص ووهن .

وذلك ليرسخ فى أعماق النفس المسلمة أن النصر بيد الله سبحانه يعطيه متى شاء ويمنعه متى شاء .

﴿ إن ينصركم الله فلا غالب لكم ، وإن يخذلكم فمَنِ ذا الذى ينصركم من بعده . وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ ^(١) .

٨ - ونجد من طرف آخر وفيما يتعلق بميدان النفوس ما يلى :

بمقدار ما كان القرآن حريصاً فى بدر على أن يخفف من غلواء (الثقة بالنفس والاعتداء بها) . والتى برزت من نصر بدر - ولاغربة أن تبرز - مع ضخامة هذا النصر ، وكيف ركز القرآن الكريم على كل جوانب العجز والنقص والوهن لدى جيل بدر ؟ بمقدار ما كان القرآن حريصاً فى أحد على أن يزرع (الثقة المحطمة فى النفوس) ويرفعها تحت مطارق المحنة ، ليؤكد لها أنها على ضعفها وعجزها ونقصها لاتزال هى المختارة للجهاد والمرشحة للنصر ، والمهيأة للتمكين فى الأرض .

﴿ ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين ﴾ ^(٢) .

ويؤكد أن هذه المحنة لاتعنى طرداً لهذا الصف المسلم ، إنما يعنى بناء جديداً له ،

(١) آل عمران / ١٦٠ .

(٢) آل عمران / ١٣٩ .

وتحقيقاً لكل عوامل الدخول والوهن والضعف التي تسربت إليه عقب انتصار بدر ، وهو هدف مستقل بحد ذاته ، ومن أجل هذا رافق الكثير من تحليل الخطأ ، الثناء الضخم على المواقف الإيمانية الرائعة التي تؤكد أنه يحمل في مقوماته إمكانية تجاوز المحنة ، واستلام مقود النصر من جديد .

﴿ ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاساً يَغشى طائفة منكم .. ﴾ . (١)

﴿ ومنكم من يريد الآخرة ﴾ ﴿ وكأين من نبى قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين ﴾ (٢) ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون ﴾ (٣) ﴿ الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم ﴾ (٤) ﴿ الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل .. ﴾ . (٥)

وهكذا نلاحظ التربية القرآنية العجيبة لهذه المجموعة البشرية الخالدة ، فلا يدع خطيئة ولا خللاً إلا ويطره ويحلله ، بل ويكشف نوازع النفس ومنحنيات القلوب ، ودروب الأفئدة ويخرجها إلى العراء ، لا ليحطم هذه النفوس ، ويقتل هؤلاء الرجال ، إنما ليؤكد لهم أن جند الله لا بد أن يكونوا في القمة السامقة للبشرية ثم يعود بهم ثانية ، فلا يدع إيجابية أو تضحية أو ثباتاً أو موقفاً إيمانياً إلا ويشن عليه ، ليعيد الثقة المهزوزة ، ويؤكد الصلاحية والتأهيل اللازمين للجندية في سبيل الله .

وهو منهج رباني ، لا تملك أن نصفه بأعظم من هذا الوصف . لإعادة البناء من جديد ، وكأننا في الحقيقة بعد أحد ، وبآيات آل عمران - أمام عرض تحليلي لكل ماجرى في أحد ، تعرض كل لقطة على حدة من ساحة الواقع أو ساحة النفس ، ويتم تحليلها والعبرة منها ، وتمضي لتأتي لقطة جديدة ؛ لتحقيق الهدف ذاته ، وهو البناء من خلال الواقع ، ومن خلال النفس ، لخير أمة أخرجت للناس .

(٣) آل عمران / ١٦٩ .

(٢) آل عمران / ١٤٦ .

(١) آل عمران / ١٥٤ .

(٥) آل عمران / ١٧٣ .

(٤) آل عمران / ١٧٢ .

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
بين يدي البحث	٥
التربية الجهادية	٩
كف اليد	١١
الإذن بالقتال	١٧
قصة طالوت	٣٠
فرض القتال	٣٨

غزوة بدر

٤٩

ال الجولة الأولى :

أولا : الأنفال وعرض الضعف البشري	٤٩
ثانيا : مواصفات المؤمنين	٥٢
ثالثا : خروج المسلمين إلى بدر	٥٩
رابعا : النصر الحقيقي من الله	٧٣
خامسا : النداءات للمؤمنين	٨٢
سادسا : صولة مع المشركين	٨٤

ال الجولة الثانية :

أولا : الغنائم وربطها بالإيمان	٤٩
ثانيا : يوم الفرقان وتدبير الله تعالى له	٥٢
ثالثا : مواصفات النصر	٥٩
رابعا : حقيقة الكافرين ودعواهم	٧٣
خامسا : مبادئ الحرب والسلام	٨٢
سادسا : الصف المؤمن	٨٤

الصفحة	الموضوع
١٣٩	سابعا : أحكام الأسرى
١٥٦	ثامنا : الولاء
١٧٤	غزوة بنى قينقاع
١٩٥	غزوة أحد
١٩٥	التهيؤ للمعركة :
١٩٦	الآيات فى السياق
١٩٨	الصف المؤمن
١٩٨	التعبئة للمعركة :
٢٠٤	حديث الطائفتين
٢١٥	معركة الأخلاق
٢٢٠	فى قلب المعركة :
٢٣٩	فقدان القائد
٢٤٩	نماذج خالدة
	جانب من تسلسل المعركة :
٢٨١	وتحقق الهدف فى الابتلاء والتمحيص
٢٨٦	حديث إلى رسول الله ﷺ وصحبه
٣١١	حديث عن المنافقين
٣٢٣	ختام المعركة :
٣٣٩	الفهرس

هذا الكتاب

★ لقد ربي النبي ﷺ الجيل الأول حتى غدا خير القرون من جهة، وغدا المثال الذي يحتذى به من جهة ثانية، فحقق الله به موعوده في أحسن صورة وأكملها.

★ وهذا الكتاب يتناول - في أجزائه الثلاثة - تربية النبي ﷺ لأصحابه التربية الجهادية، في محاولة للوقوف على الكيفية التي تمت بها هذه التربية، والخطوط العريضة التي قامت عليها.

★ واختار المؤلف أن يكون الأساس في البحث آيات القرآن الكريم لا تسلسل الأحداث في السيرة، باعتبار أن الله - تعالى جل شأنه - هو الذي كان ينزل الآيات بعد كل حدث أو معركة فيعرض فيها ما يحتاجه الجيل المسلم من الأحداث لتتم التربية على ضوئه.

★ كما أن منهج الكتاب إنما يقوم على تغذية الآيات بالحدث من السيرة، وحشد كل ما يساعد على فهم النص أو فقهه، مع متابعة أثر هذه الآيات في الصف المسلم، وكيف انتقل بها من مرحلة إلى مرحلة، ومن طور إلى طور، ثم بان كيف بنى النبي ﷺ هذه الأمة بهذا القرآن.

ودار الوفاء

إذ تقدم هذا الكتاب إلى قرائها الكرام، إنما تسأل الله أن ينفع ويهدي به إلى أقوم سبيل. والله من وراء القصد.

الناشر

دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - ج.م.ع - المنصورة

الإدارة: شارع الإمام محمد عبد الوهاب لكلية الآداب - ط. ب. ٢٣٠

ت. ٢٢٥٦٢٢ - فاكس ٢٢٥٦٢٣ - ٢٢٦٠٩٧٤ - ٥٠

المكتبية: أمام كلية الطب ٢٢٤٩٥١٣ - ٥٠

E-Mail: DAR ELWAF@HOTMAIL.COM

